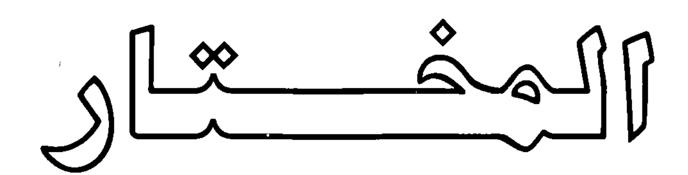


المختار

أحكام وآداب للحديث في شهر رمضان يستفيد منه الواعظ والخطيب

تأليف

مجموعة من طلبة العلم في القصيم

غفر الله لهم ولوالديهم

ترتيب

عبدالله بن صالح بن فهد القرعاوي

غفر الله له ولوالديه

(مكتب الدعوة والإرشاد ببريدة)

الطبعة الثالثة
مصححة ومضبوطة بالشكل
١٤١٤هـ

الطبعة الرابعة
مصححة ومضبوطة بالشكل
١٤١٥هـ

الصف والإخراج: **مطبعة سفير**

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما.

أما بعد:

لا يخفى على كل مسلم ما يضفيه شهر رمضان المبارك على المسلمين من الروحانية مما يجعلهم يُقبلون على الخير بشتى أنواعه وتصغي آذانهم للمواعظ وتتفتح قلوبهم لها مما يجعل تأثيرها عظيماً جدًّا، بالإضافة إلى تلك الحشود الهائلة التي تؤم المساجد لأداء صلاة التراويح والقيام من رجال ونساء مما يجعل الفرصة سانحة أمام الدعاة إلى الله لنشر الخير والفضيلة وفيما مضى كانت الساحة شبه خالية من اختيار الموضوعات التي تطرح أمام تلك الجموع فغالبها يتكلم في زاوية معينة ترغيبًا وترهيبًا وقد تسمع هذا الموضوع في غالب المساجد؛ لأن المصدر واحد، بالإضافة إلى ما يشوب هذا الموضوع من ضعف الأحاديث وربما الموضوع

شأن غالب كتب الوعظ وتبقى موضوعات هامة حاجة المسلم ماسة إليها لم تجد من يتحدث عنها، من هذا المنطلق فكّر جماعة من طلبة العلم الفضلاء في مدينة بريدة في اختيار عدة موضوعات مهمة في حياة المسلم والكتابة عنها لتجمع في كتاب واحد يكون في متناول المسلمين في شهر رمضان، وهي ما يحملها هذا الكتاب الذي بين يديك أخي القارىء ولقد تميزت هذه الموضوعات بالطرح الجيد، والكلام العلمي الموثق، وكثرة الاستدلال من الكتاب والسنة، وسلاسة الأسلوب ولعل هذا العمل يكون بداية الطريق فيشرع بعض طلاب العلم بعمل مماثل، فالساحة لازالت بحاجة إلى المزيد.

وأخيرًا أخي القارىء لا تنس أن تخص من كتب تلك الأبواب وجمعها وصححها أو بذل أي جهد في هذا الكتاب بدعوة صالحة بظهر الغيب ليقل الملك الموكل ولك بمثل وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتبه

د. صالح بن محمد الونيان

رئيس قسم السنة بفرع جامعة الإمام بالقصيم

البابُ الأولُ

فضلُ شهرِ رمضانَ وخصائصُه ومزيةُ العبادةِ فيه

الحمدُ للهِ الذي خلقَ فَسوّى، وَقَدّرَ فَهَدى، لا يَعزُبُ عنه مِثقالُ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السماءِ.

وأشكرُه على نِعمٍ تترى، وآلاءٍ لا أُدرِكُ لها حصرًا وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شَريكَ لهُ الحكيمُ في صُنعِهِ، العَلِيمُ بخَلْقِهِ. وأَشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ رحمةً للعالمينَ، فَبلَّغَ البلاغَ المبينَ، وعبدَ ربَّه حتى أتاهُ اليقينُ. صلى الله عليه وعلى خُلَفَائِهِ الراشدينَ وعلى أزواجِهِ وآلِ بيتِهِ المطهرينَ، وصحابتِهِ الكرام السابقينَ. ومن تَبِعَهم بِإِحْسانٍ إلى يومِ الدينِ وَسَلَّمَ تَسليمًا كثيرًا. **أما بعدُ**:

فإن للهِ تعالى علينا نِعمًا عَظِيمةً لا نُحصِيها، وأجلُّها وأكبرُها نعمةُ الإِسلامِ التي اختصَّ اللهُ بها من شاءَ من خَلْقِهِ، وحَرَمَ مِنها مَنْ شاءَ بِحِكْمَتِهِ، وهو أَحكَمُ الحاكِمينَ. وله سُبحانَهُ الحِكْمةُ التَّامةُ فيما خَلَقَ وَشَرَعَ.

ولقد كَتبَ اللهُ صِيامَ شهرِ رمضانَ وجَعلَهُ أحدَ أركانِ الإِسلامِ، وَجَعلَ وقتَهُ وأيامَهُ أفضلَ الأيامِ، ومن مَواسِمِ الخيرِ المقرِّبةِ إليهِ.

عبادَ اللهِ. لَقَدْ أَظَلَّكُمْ مَوسِمُ هذَا الشهرِ العظيمِ، وَحَلَّ بِساحتِكِمْ هذا الضَّيفُ الكريمُ رحمةً من اللهِ بِكم لِيُقَرِّبَكم سُبحانَهُ إليهِ بطاعتِهِ

فتنالوا عندَهُ المنازلَ العاليةَ. فاحمدوا اللهَ عزَّ وجلَّ أولاً على هذه النعمةِ، واعلموا أن اللهَ اختصَّكم بها، وَحَرَمَ منها كثيرًا من الناس بسببِ إعراضِهم عن دينِ اللهِ وكفرِهم به والعياذُ بالله، وَبَلَّغكُمْ هذا الشهرَ وقد قَطَعَ منه ناسًا من إخوانِكم نَزلَ بهمُ الموتُ قَبلَ بلوغِهِ. فانتهِزوا فُرصةَ العُمُرِ بعِمارتِهِ بطاعةِ اللهِ قبلَ أن ينزلَ بكُمْ ما نَزلَ بهم.

وهذا الشهرُ الكريمُ له فَضَائِلُ وخَصَائِصُ عظيمةٌ يَختصُّ بها عن بقيَّةِ شهورِ العام.

عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إذا دخلَ رمضانُ فُتِحَتْ أبوابُ الجنةِ وغُلِّقتْ أبوابُ جهنمَ، وسُلْسِلَتِ الشياطينُ**» متفق عليه[1]، وفي روايةٍ لمسلم «**وصُفِّدَتِ الشياطينُ**». ومعنى سُلسِلتْ: قُيدِّتْ بالسلاسِل، ومعنى صُفِّدَتْ: أي أُوثِقَتْ بالأغلالِ[2].

وفي روايةٍ للترمذي، وابنِ ماجةَ وغيرِهما: «**إذا كان أولُ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ صُفِّدَتِ الشياطينُ وَمَردةُ الجنِّ، وغُلِّقَتْ أبْوابُ النارِ فلمْ يُفتحْ منها بابٌ، وفُتِحتْ أبوابُ الجنةِ فَلَمْ يُغلقْ منها بابٌ ويُنادي مُنادٍ: يا باغِيَ الخيرِ أَقبلْ، ويا باغيَ الشرِ أقْصِرْ، وللهِ عُتَقاءُ من النارِ وَذلِك كلَّ ليلةٍ**»[3].

---

(١) البخاري ٤/ ١١٢/ ح ١٨٩٨، ١٨٩٩ و ٦/ ٣٣٦/ ح ٣٣٧٧/، ومسلم ٢/ ٧٥٨/ ح ١٠٧٩.

(٢) من الصفد وهو الغل.

(٣) الترمذي ٣/ ٥٧/ ح ٦٨٢، وابن ماجه ١/ ٥٢٦/ حد، وكذا ابن خزيمة ٣/ ١٨٨/ ح ١٨٨٣ بلفظ «صفدت الشياطين مردة الجن» وذكر في الترجمة أن المراد بالشياطين في أصل الحديث هم المردة كما في روايته هذه. وحسن إسناده الألباني.

ففي هذا الحديثِ بيانُ اختصاصِ شهرِ رمضانَ بهذهِ الأمورِ، وتَفضيلِهِ بها. وهي: **فَتْحُ أبوابِ الجنةِ** لكثرةِ الأَعمالِ الصالحةِ من المؤمنينَ، وترغيبًا لهم في ذلك، **وَغَلْقُ أبوابِ النارِ** رحمةً بالمؤمنينَ لِقِلَّةِ اقترافِهِمُ المعاصيَ في هذا الشهرِ، **وتصفيدُ الشياطين** فلا يَخلُصُونَ فيه إلى ما كانوا يَخلُصونَ إليهِ في غيرِه.

ومِنْ فَضائِلِ هذا الشهرِ أن اللهَ اختصَّه بفريضَةِ الصيامِ الذي هو من أفضلِ الأعمالِ المقرِّبةِ إليهِ سبحانه وأجلِّها. فهو سببٌ لمغفرةِ ما تَقَدَّمَ مِنَ الذنوبِ.

كما في حديثِ أبي هريرة - رضي اللهُ عنه -: أن النبيَّ ﷺ قال: «**من صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**» متفقٌ عليه[1].

أي: تصديقًا بِوَعْدِ اللهِ بالثوابِ عليهِ، وَطَلَبًا للأَجْرِ، لا لِقَصْدٍ آخرَ من رياءٍ ونحوِهِ[2].

ومِنْ مزايا الصيامِ ما جاءَ في قولِ النبيِّ ﷺ: «**كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ، الحسنةُ بِعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمائةِ ضِعفٍ، قال اللهُ عز وجل: إلا الصومَ فإنه لي وأنا أجزي به، يَدَعُ شهوتَه وطعامَه من أجلي، للصائمِ فرحتانِ: فرحةٌ عندَ فطرِهِ، وفرحةٌ عندَ لقاءِ ربِّه، وَلَخُلُوفُ فيهِ أطيبُ عِندَ اللهِ مِنْ ريحِ المسْكِ**» متفق عليه من حديث أبي هريرة[3].

---

(١) البخاري ٤/ ٢٥٥/ ٢٠١٤ ومسلم ١/ ٥٢٤.

(٢) فتح الباري ٤/ ٢٥١.

(٣) البخاري ٤/ ١١٨/ح ١٩٠٤، ومسلم ٢/ ٨٠٧/ح ١٦٣ واللفظ له.

وهذا الحديثُ يدلُّ على عِظَمِ فضلِ الصيامِ من وجوهٍ عديدةٍ:

الأولُ: اختصاصُ اللهِ عزَّ وجلَّ الصومَ لَهُ، وذلكَ تشريفٌ للصيامِ، ومزيةٌ خاصةٌ له دونَ سائرِ الأعمالِ. وسببُ ذلكَ أنه سِرٌّ بينَ العبدِ وبينَ ربِّه لا يطَّلِعُ عليهِ أحدٌ فلو أرادَ أن يُفطِرَ دونَ أن يَعْلَمَ به أحدٌ من الخَلْقِ لاستطاعَ ولكنَّه لا يفعلُ ذلكَ خوفًا من اللهِ الذي يَطَّلِعُ عليه ويَعلَمُ سِرَّه وعلانيتَهُ، ورغبةً في ثوابِهِ على الصيامِ. فيكونُ الصيامُ أقربَ إلى الإخلاصِ من سائرِ الأعمالِ. ولذا قال اللهُ في الحديثِ القُدْسِّي المتقدمِ: «**يَدَعُ شهوتَهُ وطعامَهُ مِنْ أجلي**» فكأنه تَعليلٌ لِمَا سَبَقَهُ، أي الصيامُ لي، لأنه تَرَكَ طعامَه وشهوتَه مِن أجلي.

الثاني: أن الأعمالَ تُضاعَفُ بأَعدادٍ معلومةٍ. عشرِ أمثالِها إلى سَبْعِمائةِ ضِعفٍ، إلا الصومُ فإن اللهَ تعالى قال: «**وأنا أَجْزِي به**» فَلَيسَ للجزاءِ بِهِ عددٌ مُعَيَّنٌ. والكريمُ الجوادُ يُعطي على قَدْرِ كَرَمِهِ وجُودِهِ. فهذا يَدُلُّ على أن جَزاءَهُ بِغَيرِ تحديدٍ ولا حِسابٍ، واللهُ تعالى أكرمُ الأكرَمينَ وأجودُ الأجودِينَ.

وهذا كما قال تعالى في الصَّبْرِ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]. والصيامُ صَبرٌ على أَلَمِ الجوعِ والعَطَشِ، وصَبرٌ على طاعةِ اللهِ بِلُزومِ ذلكَ، وصبرٌ عن معصيةِ اللهِ. فتجتَمعُ فيهِ أنواعُ الصبرِ الثلاثةُ[2].

---

(١) سورة الزمر، آية: ١٠.

(٢) انظر: فتح الباري ٤/١٠٨، ولطائف المعارف/١٥٨، ومجالس شهر رمضان/١٠.

الثالثُ: أن الصومَ جُنَّةٌ أي وِقايةٌ لِصاحبِه مِن اللغوِ والرفثِ والآثام، ولذا قال بعدَهُ «**وإذا كان يومُ صَومِ أحدِكُمْ فَلا يرفُثْ ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّهُ أحدٌ أو قاتَلَه فَلْيَقُلْ: إنِّي امْرؤٌ صائِمٌ**»[١]. والمُرَادُ بالرَّفَثِ الفُحْشُ، ويُطلَقُ على الجِماعِ ومُقدِّماتِهِ، وكلُّ ذلكَ مَنهِيٌّ عنهُ حالَ الصومِ. والصَّخَبُ الخِصامُ والصِّيَاحُ[٢].

فالصومُ يَقِي صاحِبَهُ مِنْ أن يَفْعَلَ ذلِكَ، ويَمنَعُ عنهُ أَذى غيرِه ومُسابَّتَهُ ومشاتَمتَهُ، فَيقابِلُ مَنْ سابَّهُ بِقولِهِ: إني صائِمٌ، فلا يعامِلُهُ بالمِثلِ، بل يقتَصِرُ على قولِهِ ذلك لِيَمْتَنِعَ الآخَرُ عن المشاتَمةِ والسِّبابِ.

وهو وِقايةٌ لِصاحِبِهِ - أيضًا من النارِ - كما روى الإمامُ أحمدُ من حدِيثِ جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إنَّمَا الصيامُ جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بها العبدُ من النارِ**»[٣].

الرابعُ: أَن خَلُوفَ فَمِ الصائِمِ أطيبُ عِندَ اللهِ من رِيحِ المسكِ، وخلُوفُ فمِ الصائمِ تغيُّرُ رائحتِهِ بِسَبب الصيامِ لِخُلُوِّ المَعِدَةِ مِن الطعامِ والشرابِ، فهذا التغيُّرُ لَمَّا كانَ ناشِئاً من طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ كان جزاؤُهُ أنْ جَعَلَهُ عندَه أطيبَ من ريحِ المسكِ، كما صحَّ أن الشهيدَ يأتي يومَ القيامةِ وريحُ دَمِهِ كريحِ المسكِ، وإنْ كانَ ذلكَ أمرًا مكروهًا عندَ الناسِ.

---

(١) في رواية البخاري.
(٢) فتح الباري ٤/ ١٠٤، وشرح مسلم للنووي ٨/ ٣١.
(٣) المسند ٣/ ٣٩٦. وانظر: مجالس شهر رمضان/ ١٠.

الخامسُ: أن للصَّائِمِ فرحتينِ: فرحةً عِندَ فِطرِه، بتمامِ صومِه وإكمالِ هذه العبادةِ العظيمةِ، وهذا من أعظمِ نِعَمِ اللهِ عليه. وكذلكَ يَفرحُ بتناوُلِ ما أباحَ اللهُ له من الطَّعامِ والشَّرابِ والنِّكاحِ الذي مُنع مِنه وقتَ الصومِ، وهذا من فضلِ اللهِ تعالى عليهِ.

وفرحةً عِندَ لقاءِ ربه بما يجدُ من ثوابِ الصومِ الذي لا حدَّ له ولا حصرَ بعددٍ معينٍ - كما تَقَدَّمَ - ويجدُهُ مُدَّخَرًا له أحوجَ ما يكونُ إليه ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] .[2]

ومِنْ فَضائِلِ الصومِ ما جاء في الصحيحينِ من حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ رضي اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ في الجَنَّةِ بابًا يقالُ له: الريانُ، يَدخلُ منهُ الصائمونَ يومَ القيامةِ، لا يدخلُ منه أحدٌ غيرُهم، يُقالُ: أينَ الصائمونَ؟ فيقومونَ، ، لا يدخُلُ منه أحدٌ غيرُهُم فإذا دخلوا أُغلِقَ، فلمْ يَدخُلْ منه أحدٌ**»[3] .

زاد النسائي، وابنُ خزيمةَ: «**من دَخلَ شرِبَ، ومن شرِبَ لم يظمأْ أبدًا**»[4] .

هذهِ بعضُ فضائلِ الصيامِ الذي فرضَهُ اللهُ في هذا الشهرِ الكريمِ، فاحمدُوا اللهَ على نِعمةِ بُلوغِ هذا الشهرِ، واشكروهُ بالجِدِّ والاجتهادِ وعِمـارةِ أوقـاتِه بِأنواعِ الطاعاتِ من الصيامِ والقيامِ والذِّكرِ والدعاءِ

---

(١) سورة الشعراء، آية: ٨٨، ٨٩.
(٢) انظر: شرح صحيح مسلم ٨/ ٢٩-٣٢، وفتح الباري ٤/ ١٠٤-١١٠ أو ١١٨ ومجالس شهر رمضان/ ٩، ١٠.
(٣) البخاري ٤/ ١١١/ ح١٨٩٦، ومسلم ٢/ ٨٠٨ح ١١٥٢.
(٤) النسائي ٤/ ١٦٨، وابن خزيمة ٣/ ١٩٩٣.

وتلاوةِ القرآنِ، والعمرةِ إلى البيتِ الحرام قال رسولُ اللهِ ﷺ لامْرأةٍ من الأنصارِ: «ما منعكِ أن تحُجِّي معنا؟» قالتْ: كانَ لنا ناضِحٌ فركِبَهُ أبو فلانٍ وابنُهُ - لزوجها وابنها - وترك ناضحًا ننضح عليه، قال: «فإن عمرةً في رمضانَ تَقْضِي حَجَّةً معي» متفق عليه[1].

عبادَ اللهِ إن الإنسانَ لا يدري حينَ أدركَهُ هل يُتِمُّهُ، وإذا أتمَّهُ هل يُدْرِكُهُ في عامٍ آخرَ.

فاحفظوا الصيامَ مما يُدَنِّسُهُ ويُنْقِصُ ثوابَه، واسألوا اللهَ تعالى الإعانَةَ على ذلكَ فإنه لا مُعينَ إلا هُو، ولا تَيسيرَ إلا ما يَسَّرَ.

وبادِروا بالتوبةِ النصوحِ مما سَلفَ من الذنوبِ، فَطالما أَمضينا الأعمارَ في اللهوِ والغفلةِ عن طاعةِ الله:

يا ذا الذي ما كفاهُ الذنبُ في رجبٍ	**حتى عصى ربَّه في شهرِ شعبانِ**
لقد أَظَلَّكَ شهرُ الصومِ بعدَهُما	**فلا تُصَيِّرْه أيضًا شهرَ عِصيانِ**
واتلُ القُرآن وسبحْ فيهِ مُجتَهِدًا	**فإنه شهرُ تسبيحٍ وقرآنِ**
كم كُنتَ تعرِف ممنْ صامَ في سَلفٍ	**مِن بَينِ أهلٍ وَجِيرانٍ وإخوانِ**
أفناهُمُ الموتُ واستبقاكَ بعدَ هُمو	**حيًّا فما أقربَ القاصي من الداني**

إخواني:

إن صيامَ شهرِ رمضانَ أحدُ أركانِ الإسلام. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ

---
(١) البخاري ٣/ ٦٠٣، مسلم ٢/ ٩١٧.

فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[١].

وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا اللهُ وأن محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ والحجِّ، وصومِ رمضانَ» متفق عليه[٢].

ويجبُ الصومُ إذا عُلِمَ بدخولِ الشهرِ، ويثْبُتُ دُخُولُ الشهرِ حُكْمًا بأحدِ أمرينِ: رؤيةِ هلالِهِ أو إكمالِ شَعبانَ ثلاثينَ إذا لم يُرَ الهلالُ، لحديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«صُوموا لِرُؤْيَتِهِ، وأفطِروا لرؤيتِهِ، فإن غُبِّيَ - أو غُمَّ - عليكم فأكمِلوا عِدَّةَ شعبانَ ثلاثينَ»** متفق عليه[٣].

فمتى أُعْلِنَ ثُبوتُ دُخولِ الشهرِ وجبَ الصومُ على مَنْ كان مِن أهلِ الصيامِ.

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١٨٣-١٨٥.

(٢) البخاري ١/٤٩/ح ٨. ومسلم ١/١٤٥/ح ١٦.

(٣) البخاري ٤/١١٩/ح ١٩٠٩. ومسلم ٢/٧٦٢، ولحديث ابن عمر مثله، متفق عليه. وفي لفظ «**فإن غم عليكم فاقدروا له**» ومعنى «**اقدروا له**» أي عدوا له ثلاثين بدليل اللفظ الآخر عند مسلم: «**فاقدروا له ثلاثين**».

وقِيامُ شَهْرِ رَمَضانَ سُنَّةٌ لِترغِيبِ النبي ﷺ فيه بقولِهِ في حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه: «**مَن قامَ رمضانَ إيمانًا واحْتِسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبِهِ**» متفق عليه[1].

وهذا يَدُلُّ على أن للقيام في شهر رَمَضانَ مَزِيَّةً عن غَيرِهِ، وثوابًا خاصًا، وإلاَّ فإنَّ قِيامَ الليلِ مشروعٌ كُلَّ وقتٍ لقولِ النبي ﷺ: «**أفضلُ الصيامِ بعدَ رمضانَ شهرُ اللهِ المحُرَّمُ، وأفضلُ الصلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ الليلِ**» رواه مسلم من حديث أبي هريرة[2].

وعن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يقومُ مِنَ الليل حتى تَتَفَطَّرَ قدماهُ: فقُلتُ: لِمَ تَصنَعُ هذا يا رسولَ اللهِ وقد غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وما تَأَخَّرَ؟ قال: «**أفلا أكونُ عبدًا شكوراً**» متفق عليه[3].

ومن قِيام رمضانَ صلاةُ التروايح التي تُصلَّى جَماعَةً. وهي سُنَّةٌ ثابتةٌ سَنَّها رَسُولُ اللهِ ﷺ بفعلِهِ ثم تَركها خَشْيَةَ أنْ تُفْرَضَ على الأُمَّةِ، ثم أحياها الخليفةُ الراشدُ عُمرُ بنُ الخطابِ رضيَ الله عنه.

فعن عائشةَ رضي الله عنها: أن رسولَ الله ﷺ صلى في المسجدِ ذاتَ ليلةٍ فصلى بصلاتِه ناسٌ، ثم صلى من القابلِةِ فكثُرَ الناسُ، ثم اجتَمعوا من الليلةِ الثالثَةِ أو الرابِعَةِ فَلَمْ يَخرُجْ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ فلما أصبَحَ قال: «**قد رأيتُ الذي صنعتُم، فَلَمْ يَمنعْني مِن الخروجِ**

(١) البخاري ٤/ ٢٥٠/ح ٢٠٠٩، ومسلم ١/ ٥٢٣/ح ١٧٣.
(٢) ٢/ ٨٢١/ح ٢٠٢.
(٣) البخاري ٨/ ٥٨٤/ح ٤٨٣٧، ومسلم ٤/ ٢١٧٢/ح ٨١.

إليكم إلا أني خَشِيتُ أن تُفرَضَ عليكم - وذلك في رمضانَ -» متفق عليه[1].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: «صُمْنا مع رسولِ الله ﷺ رمضانَ، فلم يَقُمْ بِنا شيئًا حتى بَقِيَ سَبْعٌ، فقام بنا حتى ذهبَ ثُلُثُ الليل، فلما كانتِ السادِسةُ لم يَقُمْ بِنَا، فلما كانتِ الخامسةُ قامَ بِنَا حتى ذَهَبَ شَطرُ الليلِ، فقلتُ: يا رسولَ الله، لو نَفَلْتَنا قيامَ هذه الليلةِ فقال: «**إن الرَّجُلَ إذا صلى مع الإمامِ حتى يَنصرِفَ حُسِبَتْ له قيامُ ليلةٍ**» فلما كانتِ الرابعةُ لم يَقمْ، فلما كانتِ الثالثةُ جَمعَ أهلَه ونِساءَه والناسَ، فقام بنا حتى خَشِينا أن يفوتَنا الفلاحُ - قال الراوي: قلت: وما الفلاحُ؟ قال: السَّحُورُ -، ثم لم يَقُمْ بنا بَقِيَّةَ الشهرِ». رواه أهلُ السُّنَنِ وغيرُهم[2].

وعن عبدِالرحمنِ بن عبدٍ القاريِّ قال: خرجتُ مع عُمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه ليلةً في رمضانَ إلى المسجد، فإذا الناسُ أوزاعٌ مُتَفرقون، يُصلي الرجلُ لِنفسِه، ويصلي الرجلُ فَيُصَلِّي بصلاتِه الرهطُ، فقال عمرُ: «إني أرى لو جَمعتُ هؤلاءِ على قارئٍ واحدٍ لكان أمثلَ»، ثم عزمَ فَجمعَهم على أُبَيِّ بنِ كعبٍ، ثم خَرجْتُ معَهُ ليلةً أخرى والناسُ يُصلُّونَ بصلاةِ قارئِهم، فقال عمرُ: نِعْمَ

---

(١) البخاري ٣/ ١٠/ ح ١٢٩، ومسلم ١/ ٥٢٤/ ح ١٧٧.

(٢) أبو داود ٢/ ١٠٥/ ح ١٣٧٥، والترمذي ٣/ ١٦٠/ ح ٨٠٦، والنسائي ٣/ ٢٠٢، وابن ماجه ١/ ٤٢٠/ ح ١٣٢٧، وأحمد في المسند ٥/ ١٥٩، ١٦٣ وغيرهم، وقال الترمذي: حسن صحيح، وروى الإمام أحمد في المسند ٤/ ٢٧٢، والنسائي ٢/ ٢٠٣ نحوه عن النعمان بن بشير، وحسن إسناده النووي في الخلاصة (القسم الثالث ص ٥٠٣).

البدعةُ هذه، والتي ينامون عنها أفضلُ من التي يقومُونَ - يريدُ آخِرَ الليل - وكان الناسُ يقومونَ أولَهُ» رواه البخاري[1].

فينبغي للمسلمِ أن يواظبَ على قيامِ الليلِ في هذا الشهرِ، مؤمنًا بما وعدَ اللهُ عليهِ من الثوابِ مبتغيًا وجهَ اللهِ محتسبًا الأجرَ عندَه حتى ينالَ ما أخبرَ الرسولُ ﷺ به من مغفرةِ ما تقدَّم من ذنبِهِ.

وينبغي له المحافظةُ على صلاةِ التراويح مع الإمامِ، وألَّا ينصرفَ منها حتى يَقضيَ الإمامُ صلاتَه، لتُحسَبَ له قيامُ ليلةٍ كاملةٍ كما أخبرَ بذلك النبي ﷺ في حديثِ أبي ذرٍّ السابقِ، فإنها يا عبادَ الله ليالٍ معدودةٌ، وأيامُ العمرِ كلُّها وأنفاسُه محدودةٌ تَمْضي والإنسانُ في لهوِهِ وغفلتِهِ.

وأما عددُ الركعاتِ في صلاةِ التراويح فقد اختلفَ أهلُ العلمِ فيه: فَقِيلَ: إحدى وأربعون، وقيل: تِسعٌ وثلاثون، وقيل: ثلاثٌ وعشرون، وقيل: ثلاثَ عشرةَ، وقيل: إحدى عشرةَ، وقيل غيرُ ذلك.

وقد ثبتَ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: «ما كان رسولُ اللهِ، ﷺ، يَزيدُ في رمضانَ ولا غيرِهِ على إحدى عَشْرَةَ ركعةً، يُصلي أربعًا فلا تسألْ عن حُسنِهن وطُولِهن، ثم يُصلي أربعًا فلا تسألْ عن حُسنِهن وطولِهن، ثم يُصلي ثلاثًا. . الحديث» متفق عليه[2].

---

(١) ٤/ ٢٥٠/ح ٢٠١٠.

(٢) البخاري ٣/ ٣٣/ح ١١٤٧، و٤/ ٢٥١/ح ٢٠١٣، ومسلم ١/ ٥٠٩/ ح ١٢٥.

وصحَّ عنه ﷺ أنه صلى بالليلِ ثلاثَ عشرةَ ركعةً في حديثِ ابنِ عباس[١]، وزيدِ بنِ خالدٍ[٢] في صلاةِ الليلِ، وروىٰ مالكٌ وغيرُهُ عن السائبِ بنِ يزيدَ رضي الله عنه قال: «أمرَ عمرُ بنُ الخطابِ أُبَيَّ بنَ كعبٍ وتميمًا الداريَّ أن يقوما للناسِ بإحدى عشرةَ ركعةً، وكان القارِئُ يقرأُ بالمِئينَ حتى كُنّا نعتَمِدُ على العِصِيِّ من طولِ القيامِ»[٣].

وهذا مُوافِقٌ لفعلِ النبي ﷺ الثابتِ عنه - كما تقدم في حديثِ عائشةَ -.

وعن السائبِ بنِ يزيدَ - أيضًا رضي الله عنه قال: كانوا يقومونَ على عهدِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه في شهرِ رمضانَ بِعِشْرينَ ركعةً[٤].

وعنه: أن عُمرَ جَمعَ الناسَ على أُبيٍّ بنِ كعبٍ وعلى تميمٍ الداريّ على إحدى وعشرينَ ركعةً...»[٥].

وعن يَزيدَ بنِ رُومانَ قال: كان الناسُ يقومون في زمنِ عمرَ رضي الله عنه بثلاثٍ وعشرينَ ركعةً[٦].

---

(١) رواه البخاري في مواضع من صحيحه منها: ١/ ٢١٢ و ٢٣٨ و ٢٨٧ و ٢/ ٥٠٩/ح ١٢٥ و ٣/ ٧١ و ٢٣٦ و ٢٣٧ ومسلم ١/ ٥٢٥، ٥٢٦.

(٢) رواه مسلم ١/ ٥٣١/ح ١٩٥.

(٣) الموطأ ١/ ١١٥/ح ٤ رواه عن محمد بن يوسف عن السائب بن يزيد، ومحمد بن يوسف ثقة، والسائب صحابي صغير، فالإسناد صحيح.

(٤) رواه البيهقي في السنن ٢/ ٤٩٦ وسنده صحيح، صححه النووي في الخلاصة، وولي الدين العراقي في طرح التثريب ٣/ ٩٧ وغيرهما.

(٥) رواه عبدالرزاق في المصنف ٤/ ٢٦٠ وسنده صحيح.

(٦) رواه مالك في الموطأ ١/ ١١٥/ح ٥ وغيره، وهو منقطع، لأن يزيد بن رومان لم يدرك عمر، لكن يشهد له ما سبقه، وهناك روايات أخرى في هذا، وهذا كله يدل على ثبوت صلاة العشرين ركعة في عهد عمر خلافًا لمن ضعف هذا وزعم أنه لا يجوز الزيادة على إحدى عشرة. والله أعلم.
وانظر: صلاة التراويح للألباني، والرد عليه لإسماعيل الأنصاري وغيرها.

وذكَرَ **شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيةَ** رحمهُ الله أن النبيَّ ﷺ لم يُوقِّتْ في قِيامِ رمضانَ عددًا مُعَيَّنًا، ثم ذكرَ ما ورد من عَملِ السلفِ في عددِ القيَامِ، وقال: «**وهذا كلُّه سائغٌ، فكيفما قامَ في رمضانَ مِن هذه الوجوهِ فقد أَحسنَ**». وقال: «ولا يُكرَه شيءٌ من ذلك، وقد نَصَّ على ذلك غيرُ واحدٍ من الأئمةِ كأحمدَ وغيرِه». وقال: «ومن ظنَّ أنّ قيامَ رمضانَ فيه عددٌ موقَّتٌ عن النبي ﷺ لا يُزادُ فيه ولا يُنقصُ منه فقد أخطأ»[١].

فعلى هذا من صلى إحدى عشْرَةَ ركعةً أو ثلاثَ عشْرةَ قاصِدًا الاقتداءَ بصلاةِ رسولِ اللهِ ﷺ فقد أحسنَ ويُرجى له الثوابُ على قدرِ نيَّتهِ. ومن صلى ثلاثًا وعِشرينَ مُحْتَجًّا بما صحَّ مِن فِعلِ المسلمينَ في عهدِ عمرَ رضيَ اللهُ عنه فقد أحسنَ. وباللهِ التوفيقُ.

وينبغي للمأموم إتمامُ الصلاةِ مع الإمامِ مهما صلى من الركعاتِ قلّتْ أَوْ كثُرت لِيُكتَبَ له قيامُ ليلةٍ - كما سبق في حديثِ أبي ذرٍّ -.

ويجوزُ لِلنِّساءِ حضورُ الصلاةِ في المساجدِ لقولِه ﷺ: «**لا تَمنَعُوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ**» متفق عليه من حديث ابن عمرَ[٢]، وفي لفظٍ: «**إذا استأذَنَكُمْ نساؤُكم بالليلِ إلى المسجد فأْذَنوا لَهُنّ**»[٣].

لكنْ يجبُ أن تكونَ مُحتَشِمَةً مُتَسَتِّرَةً غيرَ مُتَزيِّنةٍ ولا مُتَطَيِّبَةٍ عِندَ خروجِها، دَرْءًا للفِتنةِ، فعن زينبَ امرأةِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنهما قالت: قال لنا رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا شَهِدَتْ إحداكُنَّ المسجدَ**

(١) الفتاوي ٢٢/ ٢٧٢، وانظر: ٢٣/ ١١٢، ١١٣.

(٢) البخاري ٢/ ٣٨٢/ح ٩٠٠، ومسلم ١/ ٣٢٧/ح ١٣٦.

(٣) البخاري ٢/ ٣٤٧/ح ٨٦٥ واللفظ له، ومسلم بنحوه/ح ١٣٧ و ح ١٣٩.

فلا تَمسَّ طيبًا» رواه مسلم[1]. وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّما امرأةٍ أصابتْ بَخُورًا فلا تشهدْ معنا العشاءَ الآخرةَ**» رواه مسلم[2].

فإذا قُضيتِ الصلاةُ يَخْرُجْنَ فورًا إلا لِحاجةٍ، لقولِ أمِّ سلمةَ رضي اللهُ عنها: «كان رسولُ اللهِ ﷺ إذا سلَّمَ قامَ النساءُ حينَ يقضي تسليمَهُ، وهو يَمكُثُ في مَقامِه يَسيرًا قبلَ أن يقومَ - قالت: نُرى واللهُ أعلمُ أن ذلك كان كي ينصرفَ النساءُ قبلَ أن يُدرِكَهنَّ الرجالُ»[3].

اللهم لك الحمدُ كما هديتَنا للإسلامِ، وبلَّغْتنا شهرَ رمضانَ، وأنعمتَ علينا بما لا نُحصي له عدًّا، اللهم كما هديتَنا فثبِّتْنا على الإسلام إلى أن نَلقاك وأنتَ راضٍ عنا، وَكَمَا بلَّغتنا شهرَ رمضانَ فأعِنَّا على صيامِهِ وقِيامِهِ وإتمامِهِ ووفقْنا للقيامِ بحقِّك، واجعلْ أعمالَنا خالِصةً لوجهِكَ صوابًا على سُنةِ نبيِّكَ، اللهم أَغْنِنا بحلالِك عن حرامِك، وبفضلِك عمَّن سواكَ. ولا تكلْنا إلى أنْفُسِنَا طَرفَةَ عينٍ ولا إلى أحدٍ مِن خَلْقِك، اللهم أصلحْ أزواجَنَا وذرياتِنا.

اللهم يا حيُّ يا قَيوُّمُ يا ذا الجلالِ والإكرامِ أصلحْ أحوالَ المسلمينَ وانصُرْهم على من عاداهم، ومن أرادَهم بسوءٍ فأشغِلهْ بنفْسِهِ. اللهمَّ اغفرْ لَنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ برحمتكِ يا أرحمَ الراحمين، وصلى اللهُ على نبينا محمدٍ وآله وصحبه وسلم.

---

(١) ١/٣٢٨/ح ٤٢.
(٢) ح ١٤٣.
(٣) ٢/٣٥٢/ح ٨٧٥.

الباب الثاني

أحكامُ الصيام

الحمدُ للهِ الذي أمرَ عبادَهُ بالتفقُّهِ في الدينِ، ليكونَ أَدَاؤُهُمْ على وُفقِ شرعِهِ المبينِ، وذَمَّ الإعراضَ عن الحقِ تعلُّمًا وعَمَلاً، وَوَصَفَ أربابَهُ بأنهم كالأنعامِ أو أضلُّ سَبيلاً، فكم فاتَ الجاهلَ من خيرٍ وَفِيرٍ، وكم أَوثقَ نفسَهُ بالأَصرارِ والأغلالِ وأودىٰ بها في مكانٍ سحيقٍ.

وصلى اللهُ على نبينا محمدٍ القائِلِ: «**مَن يُرِدِ اللهُ بهِ خَيرًا يفقِّهْهُ في الدين**». وعلى آلهِ وأصحابِهِ العلماءِ العاملينَ والهداةِ المهتدينَ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن اللهَ سبحانه شرعَ لعبادِهِ صيامَ شهرِ رمضانَ، وجعله أحدَ أركانِ الإسلامِ، فكان لِزامًا على كلِ مسلمٍ أن يَتَعلَّمَ من أحكامِهِ ما يكونُ به على بيِّنةٍ من الأمرِ.

وأوجبَ مسائلَ العلمِ ما احتاجَ المسلمُ إليهِ في إقامةِ دينِهِ وأحكامِ عُبودِيَّةِ ربِّهِ وفرائِضِهِ عليهِ.

ومعنى الصيامِ: الإمساكُ عن المفَطِّراتِ مِنْ طُلُوعِ الفجرِ الثاني حتى غُروبِ الشمسِ بِنيَّةِ التعبُّدِ للهِ - عز وجل -.

فَمَن تناول شيئًا من المَفَطّراتِ مختارًا ذاكرًا عالمًا لم يَصِحْ صومُه.

ومن لم يستوعبِ النهارَ كلَّه - صيامًا - لم يصحْ صومُه أيضًا.

ومن صامَ دونَ نيةٍ أو نوى الحُمْيَةَ فقط لم يصحْ صومُه أيضًا.

كما أن من صامَ بنيةِ النافلةِ لم يُجزئْهُ عَنِ الفريضةِ لعمومِ قوله ﷺ: «**إنما الأعمالُ بالنياتِ وإنما لِكُلِّ امرىءٍ ما نَوى**» متفق عليه.

ويجبُ صيامُ شهرِ رمضانَ بأحدِ أمرين: إما برُؤيةِ هلالِه، أو بإكمالِ عدَّةِ شعبانَ ثلاثينَ يومًا، ولا طَريقَ غيرُ ذلك لا من حِسابٍ ولا غيرِه.

والشخصُ الذي يَجبُ عليهِ صيامُ شهرِ رمضانَ: هو مَن تَوفّرتْ شروطٌ ستَّةٌ:

الشرطُ الأولُ:

أن يكونَ مسلِمًا.

إذ غيرُ المسلم - وإن كان مُطالَبًا بجميعِ شرائعِ الإسلامِ - إلا أنها لا تَصِحُّ منه حتى يُسلِم.

فَصِحَّةُ العباداتِ كلِّها - إذًا - مُتَوقِّفَةٌ على إسلامِهِ، كما تَتَوقفُ صحةُ الصلاةِ على الطهارةِ.

الشرطُ الثاني:

العقلُ لقولهِ ﷺ: «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ - وَذَكَرَ مِنهم - المجنونَ**

حتى يفيقَ» . رواه أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ ، وَيَدْخُلُ في هذا الشرطِ صُوَرٌ مِنها :

١ - المجنونُ جُنونًا مُطبِقًا جَميعَ الوقتِ فهذا لا يجبُ عليه الصيامُ حالَ فقدِ العقلِ ولا القضاءُ فيما بعدُ .

٢ - مَنْ جُنَّ وأفاق في بعضِ النهارِ ، أو كان ينتابُهُ في ساعاتٍ مُعَيَّنةٍ فهذا لا يَبْطُلُ صيامُهُ ، وبالتالي لا يلزمُهُ قضاءُ ذلك اليومِ لأنه أفاق جُزءًا منه يُمكنُهُ فيهِ النيَّةُ .

٣ - من أُغمِيَ عليه جميعَ النهارِ فلا يَصِحُّ منه الصيامُ بل يتعينُ عليه القضاءُ .

٤ - أما من أُغمِيَ عليه جُزءًا من النهارِ فلا قَضاءَ عليه لأنه أَفاقَ جُزءًا منه يُمكِنُهُ فيهِ النيةُ .

٥ - والنائمُ يَصِحُّ صومُهُ ولو نام جَميعَ النهارِ لأن النومَ لا يزولُ به الإحساسُ .

الشرطُ الثالث:

البلوغُ ، لقولِهِ ﷺ : «**رُفِعَ القلمُ عن ثلاثةٍ - وذكر منهم - الصغيرَ حتى يَبلُغَ**» . رواه أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ .

وينبغي لِوَليِّ الصغيرِ أن يأمرَهُ بالصيام متى أحسَّ أنه يُطيقُهُ وذلك تمرينًا له على الطاعَةِ ، وَلِيكونَ مُتهيِّئًا لأَحكامِ الصومِ بَعدَ البلوغِ كما يتأكدُ الأمرُ إذا قاربَ البلوغَ .

فعن الرُّبَيِّع بنتِ مُعَوِّذٍ - رضي الله عنها - قالت؛ «كنا نُصَوِّم صبيانَنا ونجعَلُ لهم اللُّعْبَةَ من العِهنِ فإذا بكى أحدُهم على الطعامِ أعطيناهُ ذلك حتى يكونَ عند الإفطارِ». رواه البخاري.

ويحصلُ بلوغُ الذَّكر بواحدٍ من أمورٍ ثلاثةٍ:

أحدُها: إنزالُ المنيِّ باحتلامٍ أو غيرِه.

الثاني؛ نباتُ شعرِ العانَةِ وهو الشعرُ الخَشِنُ ينبُتُ حولَ القُبُل.

الثالث: بلوغُ تمامِ خمسَ عشْرةَ سنةً. ويحصُلُ بلوغُ الأُنثى بما يحصُلُ به بلوغُ الذَّكرِ وزيادةُ أمرٍ رابعٍ وهو الحيضُ؛ فمتى حاضتِ الأُنثى فَقَدْ بلغَتْ.

الشرطُ الرابعُ:

القدرةُ على الصيامِ، وللعاجزِ عن الصيامِ صُورٌ. منها:

١ - أن يكونَ عجْزُهُ مستمرًا كالكبيرِ والمريضِ الذي لا يُرجى بُرؤُه فلا يجبُ الصيامُ في مثلِ هذه الحالِ ولا القضاءُ؛ وإنما يُطعِمُ عن كلِّ يومٍ مسكينًا فقط.

ومقدارُ الإطعام: نصفُ صاعٍ من البُرِّ وغيرِهِ يُدفعُ لِكُلِّ مسكينٍ. وإن شاء أصلَحَ طعامًا ودعا إليهِ من المساكين بِعَدَدِ الأيامِ التي أفطرها.

٢ - ومنها أن يكونَ عجْزُهُ طارئًا كالمريضِ الذي يُرجى بُرؤُه. وَحَدُّ المرضِ الذي يُبيحُ الفطرَ؛ أن يَشُقَّ عليهِ الصومُ أو يَتَضَرَّرَ بالصومِ، من حيثُ زيادَةُ المرضِ أو تأخرُ البُرْءِ.

٣ - ويدخُلُ في هذا الضربِ الحاملُ والمرضِعُ إذا خافتا على أنفسِهِما أو وَلَدَيْهِما.

فهؤلاءِ لا يَجِبُ عليهِمُ الصيامُ أداءً بل يجب قضاءً، وإن صاموه في شهرِ رمضانَ صحَّ مِنْهُمْ.

الشرطُ الخامسُ:

الإقامةُ، فالمسافرُ لا يجبُ عليه الصيامُ أداءً. بل يجبُ قضاءً، وإن صامَهُ في شهرِ رمضانَ صحَّ منه.

ولا يجوزُ أن يسافرَ بِقَصْدِ التحيُّلِ على الفطرِ، فإن فَعَلَ حَرُمَ عليهِ الفِطْرُ، مُعاملةً له بنقيضِ قصدِهِ.

الشرطُ السادسُ:

السلامةُ من الموانعِ، ويُقصَدُ بالموانعِ هُنَا: الحيضُ والنِّفاسُ، فالحائضُ والنُّفَساءُ لا يجبُ عليهما الصيامُ ولا يصِحُّ مِنهُما، وإنما يَتَعينُ القضاءُ.

ودمُ الحيضِ والنِّفَاسِ يُعتَبرُ من مبطلاتِ الصيامِ.

فإذا نزل دمُ الحيضِ أو النفاسِ أثناءَ النهارِ - ولو قُبيلَ غروبِ الشمسِ - بطل صومُ ذلك اليومِ.

كما أنها لو لم تطهُرْ إلا بعدَ طُلوعِ الفَجْرِ، فإنه لا يصِحُّ صيامُ ذلك اليومِ ولكن لو طَهُرَتْ قبلَ طلوعِ الفجرِ ولم تَغْتَسِلْ إلا بعدَ طلوعِ الفجرِ فإن صومَها صحيحٌ.

مُبْطِلاتُ الصِّيامِ

يَبْطُلُ الصَّوْمُ بِفِعْلِ شَيءٍ من الأُمورِ التاليةِ :

١ - **أحدُها** الجماعُ : وهو أعظمُها وأغلظُها تَبِعَةً .

فَمَنْ جامعَ بَطَلَ صومُهُ مطلقًا .

فإن كان في شهرِ رمَضَانَ ، ولم يكنْ مُسافِرًا ، ولا مَريضاً ، وَجَبَ عليهِ كَفَّارةٌ مُغَلَّظَةٌ وقضاءُ ذلكَ اليومِ .

والكفارةُ : عِتقُ رقبةٍ مُؤمنةٍ ، فإن لم يجدْ فَصِيامُ شهرين مُتَتَابِعَيْنِ ، فإن لم يستَطِعْ أطعَمَ سِتينَ مِسْكِينًا ، والكفارةُ على كلٍّ مِنَ الزوجينِ إذا كانَتِ المرأةُ مطاوعةً .

٢ - **الثاني** : الأكلُ أو الشربُ ، وهو إيصالُ الطعام أو الشرابِ إلى الجوفِ عن طريقِ الفمِ أو الأنفِ أيًّا كانَ نَوعُ المأكولِ والمشروبِ والأنفُ كالفم لقولِه ﷺ في حديثِ لَقيطِ بنِ صَبُرةَ : «**وبالِغْ في الاستنشاقِ إلا أنْ تكُونَ صائمًا**» .

لَكنْ يَنْبَغِي أن يُعلَمَ أن الفمَ والأنفَ غيرُ دَاخِلَيْنِ في مُسَمَّى الجوفِ ولهذا يُمَضمِضُ وَيَسْتَنْشِقُ ويَسْتَاكُ وهو صائِمٌ .

٣ - **الثالثُ** : ما كان بِمعنى الأكلِ أو الشُّربِ كَحَقْنِ الدمِ والإِبَرِ المغذِّيةِ ؛ لأنها تقومُ مقامَ الأكلِ والشُّرْبِ من حيثُ استغناءُ الجسمِ بها .

أمَّا استعمالُ بعضِ الأدويةِ الخاصةِ بالرَّبْوِ، والتي تُؤخَذُ عن طريقِ الاستنشاقِ فقد أجابتِ اللَّجنَةُ الدائِمةُ عن ذلك.

وخُلاصَةُ الجوابِ قولُهم: «والذي يَظْهَرُ عدمُ الفِطْر باستعمالِ هذا الدواءِ استنشاقًا. لما تقدَّمَ من أنه ليسَ في حُكْمِ الأكلِ والشربِ بوجهٍ من الوجوه».

ويجوزُ التقطيرُ في العينِ والأُذُنِ والاكتحالُ ولو وَجَدَ لها طَعْمًا في حَلْقِهِ لأنها ليستْ منفذًا، ولا في معنى المفَطِّراتِ «وهذا على القولِ الصحيح من أقوالِ أهلِ العلم».

٤ - **الرابعُ**: إنزالُ المنيِّ باختيارِه من غيرِ جماعٍ.

سواءً كان بسببِ تقبيلٍ أو لَمسٍ أو استمناءٍ أو تكريرِ نظرٍ، فأما الإنزالُ بالاحتلامِ أو التفكيرِ المجردِ فلا يُفسِدُ الصومَ؛ لأنه ليسَ باختيارِه، ولا يُفسِدُ الصيامَ خُروجُ المَذْى وحدَهُ بأيِّ سَبَبٍ كان على القولِ الصحيح.

الخامسُ: إخراجُ الدمِ بالحِجامَةِ لقولِه ﷺ: «**أَفطرَ الحاجِمُ والمحجُومُ**». أخرجَه أحمدُ وأبو داودَ عن شدادٍ بنِ أوسٍ - رضي الله عنه -.

قال سماحةُ الشيخ ابنُ بازٍ: «أما أَخْذُ الدم من الوريدِ للتَّحليلِ أو غيرِه فالصحيحُ أنه لا يُفطِّرُ الصائمَ، لكن إذا كَثُرَ فالأولى تأجيلُهُ إلى الليلِ، فإن فَعَلَهُ في النهارِ فالأحوطُ القضاءُ تشبيهًا بالحِجامةِ».

أما خروجُ الدمِ بالرُّعافِ أو خَلْعِ السِّنِّ أو شَقِّ الجُرْحِ والدمامِلِ

فلا يُؤَثِّرُ على الصيامِ لأنها ليستْ حِجامةً ولا بِمعناها، ولكنْ يَنْبَغِي الاحترازُ منه احتياطًا.

٦ - **السادسُ**: التقيُّىءُ عمدًا لما رَوى أبو داودَ والترمذيُّ وغيرُهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال: «**من ذَرَعَهُ القيءُ فلا قضاءَ عليه ومن استقاءَ فعليهِ القضاءُ**».

مسائلُ متفرقةٌ يجبُ التنبيهُ عليها

هناك مسائلُ يجب التنبيهُ عليها ليكونَ المسلمُ على بَصِيرَةٍ من الأمرِ:

المسألةُ الأولى:

من فَسَدَ صومُه بِشَيءٍ من المفَطِّراتِ لم يَجُزْ له أن يأكلَ بعدَ ذلك بل يُمسِكُ بَقيةَ يومِهِ ويَقْضي، بِخِلافِ من لم يَصُمْ أولَ النهارِ معذورًا كالمسافرِ والحائضِ فقد قال الشيخُ ابنُ عثيمينِ: «وإذا قَدِمَ المسافرُ إلى بلدِهِ في نَهارِ رمضانَ لا يَصِحُّ صومُه ذلكَ اليومِ لأنه كان مُفطِرًا في أولِ النهارِ، والصومُ الواجبُ لا يصحُّ إلا من طُلوعِ الفجرِ، ولكن هل يلزمُهُ الإمساكُ بقِيةَ اليومِ؟

اختلفَ العلماءُ في ذلك فقالَ بعضُهُمْ: يَجبُ عليهِ أن يُمسِكَ بقيةَ اليومِ احترامًا للزَّمَنِ، ويجبُ عليه القضاءُ أيضًا لِعَدَمِ صِحَّةِ صومِ ذلكَ اليومِ. وهذا المشهورُ من مَذهبِ أحمدَ - رحمه اللهُ -

وقال بعضُ العلماءِ: لا يجبُ عليهِ أن يُمسكَ بَقيةَ ذلكَ اليومِ؛ لأنه لا يسْتَفِيدُ مِنْ هذا الإمساكِ شيئًا لِوُجُوبِ القضاءِ عليه، وحُرْمَةُ الزمنِ قد زالتْ بِفِطرِهِ المباحِ له أولَ النهارِ ظاهرًا وباطنًا.

قال عبدُالله بنُ مسعودٍ - رضيَ الله عنه -: «من أَكَلَ أولَ النهارِ فليأْكُلْ آخرَه، أي: من حلَّ له الأكلُ أولَ النهارِ بِعُذرٍ حلَّ لهُ آخرَه وهذا مذهبُ مالكٍ والشافعِيِّ وروايةٌ عنِ الإمامِ أحمدَ، ولكن لا يُعْلِنُ أكلَهُ ولا شُرْبَهُ لخفاءِ سَبَبِ الفِطْرِ فَيُساءُ بِهِ الظنُّ أَوْ يُقْتَدَى بِهِ».

المسألةُ الثانيةُ:

مَنْ أَفْطَرَ في رمضانَ لِعُذْرٍ ثم ماتَ قبلَ أن يَتَمَكَّنَ مِنَ القَضاءِ فلا قضاءَ ولا كفارةَ؛ لأنه لم يصْدُرْ مِنْهُ تَفْرِيطٌ.

أما مَنْ تَمكَّنَ مِنَ القَضاءِ ولم يقضِ فَيُسَنُّ لِوَلِيِّهِ أن يصومَ عنهُ. لِما ثبتَ في الصحيحنِ عن عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ ماتَ وعليهِ صِيامٌ صامَ عنه وليُّه**». وهذا عامٌّ في كُلِّ صِيامٍ واجِبٍ سَواءً كان نَذْرًا أو فَرِيضَةَ الإسلامِ.

المسألةُ الثالثةُ:

لا يُشْتَرَطُ لِصحَّةِ الصِيامِ الطهارةُ من الحَدثِ الأكبرِ، فلو صام الإنسانُ وهو جُنُبٌ بِحَيثُ أَخَّرَ الاغتسالَ إلى ما بعدَ طلوعِ الفجرِ فلا شيءَ عليه.

المسألةُ الرابعةُ:

من فعلَ شيئًا من مُبطلاتِ الصيامِ ناسيًا أَوْ مُكْرَهًا أو جاهلاً

بالحُكْم، أو بالوقتِ فلا شيءَ عليه لِعُمُومِ قولِه - تعالى -: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾[1].

أ - فأما الناسي فلما في الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**من نَسيَ وهو صائمٌ فأكلَ أو شربَ فَلْيُتِمَّ صومَهُ فإنما أطعَمَهُ اللهُ وأسقاهُ**».

ويجبُ عليهِ أن يَنْتَهِيَ متى ذَكَرَ لأنهُ حِينئذٍ ارتَفَعَ عنهُ العذْرُ. كما يجبُ على من رآه أن يُعْلِمَهُ بذلك؛ لِأنَّهُ مِنَ الأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ.

ب - وأما المُكرَهُ فَلِقَولِه - تعالى -: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾[2]. وفي الحديث: «**إنَّ اللهَ تَجاوَزَ عن أمتي الخطأَ والنسيانَ وما استُكرِهُوا عليه**». رواه ابن ماجةَ والبيهَقِيُّ.

والإكراهُ مِثْلُ أن يُكرِهَ الرَّجُلُ زَوْجَتَهُ على الجِماعِ ولم تَستَطِعِ الامتناعَ منهُ فلا شَيءَ عليها وصيامُها صَحِيحٌ.

ولا ريب أنه يَبوءُ بإثمِها وإثمِه إن كانَ الصيامُ فرضًا.

جـ - وأمّا الجهلُ بالحُكْمِ فَلِحَديث عَدِيٍّ بنِ حاتِمَ وَقَدْ عَمِدَ إلى عِقالينِ - أبيضَ وأسودَ - وجعل يَأْكُلُ حتى تَبيَّنَ له أحدُهما من الآخَرِ، ولم يأمُرْهُ النبيُّ ﷺ بالقضاءِ والحديثُ في الصحيحينِ وغيرِهِمَا.

د - وأما الجهلُ بالوقتِ فَمِثْلُ أَنْ يأْكُلَ يَظُنُّ لَيلاً فبانَ نهارًا

(١) السورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

فلا شيءَ عليه لِما رَوَى البخارِيُّ عن أسماءَ بِنتِ أبي بكرٍ - رضي الله عنهما -: أنهم أفطروا على عهدِ رسولِ الله ﷺ يومَ غيمٍ ثم طلعتِ الشمسُ ولم يُذكرْ قضاءٌ.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمِيةَ - رحمه الله - «ولم يُذكرْ في هذا الحديثِ أنهم أُمِروا بالقضاءِ ولو أمرَهم لشاعَ ذلك كما نُقِلَ فِطْرُهُمْ، قال: وثبتَ عن عمرَ بنِ الخطاب - رضي الله عنه - أنه أفطرَ ثم تَبَيَّنَ النهارُ فقال: لا نَقْضِي فإنَّا لم نَتَجانَفْ لإِثمٍ» أ. هـ.

على أنه يجبُ التثبتُ والاحتياطُ في غروبِ الشمسِ لأن الأصلَ بقاءُ النهارِ.. واللهُ أعلَم.

اللهم اغفرْ لنا جميعَ الزلاتِ، واسترْ علينا كُلَّ الخطيئاتِ، وسامِحْنا يومَ السؤالِ والمناقشاتِ، اللهم يا مصلحَ الصالحين، أصلحْ فسادَ قلوبِنا، واستر علينا في الدُّنيا والآخرةِ عيوبَنا، واغفرْ بَعفْوِكَ وبرحمَتِك ذنوبَنا، ووفقنا لاغتنام أوقاتِ المهلةِ، واغفرِ اللهم لنا ولوالِدِيْنا ولجميع المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتين برحمتك يا أرحمَ الراحمين، وصلَّى الله وسلَّم على نبينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الباب الثالث

الزكاة ومنزلتها في الإسلام

الحمدُ للهِ الذي لهُ ما فِي السمواتِ وما في الأرضِ، ولَهُ الحمدُ في الْاخرةِ وهوَ الحكيمُ الخبيرُ، وأشهدُ أَن لَّا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، بيدِهِ الخيرُ وهوَ على كلِ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ البشيرُ النذيرُ والسراجُ المنيرُ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابِهِ وأتباعِهِ الذين يَعُدُّونَ ما أنفقوا خيرًا وأبقى مما ادَّخرُوهُ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

عبادَ اللهِ، إن دينَ الإسلامِ الذي أكرمَنا اللهُ به وَوَعَدَنا على تحقيقهِ أسمى الغاياتِ في الدنيا وأرفعَ الدرجاتِ في الآخرةِ، قد بُني على أُسُسٍ وقواعدَ مُترابطةٍ، وإن مِنْ بَينِ أركانهِ الركينةِ المتعدي نَفْعُها، والسَّاري أثرُها في المجتمعِ، أداءَ الزكاةِ المفروضةِ فهي أحدُ أركانِ الإسلامِ العِظامِ وهي قرينةُ الصلاةِ في أكثرِ آيِ القرآنِ الكـريم.

وقد أَجْمَـعَ المسلمون على فَرْضيتها إجماعًا قطعيًا، فَمَنْ أنكـرَ وجوبَها مع علمِه بها فهو كافرٌ خارجٌ عن الإسلامِ، ومن بَخِل بها أو انتَقَصَ مِنها شيئًا فهو من الظالمين المتعرضين للعقوبةِ والنَّكالِ.

واللهُ - سبحانه وتعالى - قد أنذر وحذَّر مَن تركَ الزكاةَ، أَنذرَ من جَحد، وأنْذَرَ مَن تَساهَلَ، أنذرهم بأُسلوبٍ يُرعِدُ الفرائِصَ، ويَهُزُّ

الأفئدة، بأُسلوب لو خُوطِبتْ به الجبالُ الصمُّ لرأيتُموها خاشِعةً متصدعةً.

يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1].

وقال النبي ﷺ: «**من آتاه اللهُ مالاً فلم يؤدِّ زكاتَهُ مُثِّل له يومَ القيامةِ شُجاعًا أقرعَ، له زَبيبتان يُطوِّقُهُ يومَ القيامةِ، ثم يأخذ بِلَهْزِمَتَيْهِ** (يعني شِدْقَيهِ) **ثم يقول: أنا مالُكَ، أنا كَنْزُكَ**، ثم تلا ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2]». رواه البخاري وغيرُهُ من حديثِ أبي هريرة[3].

والشجاعُ الأَقْرَعُ هو الحيةُ الذي ذهبَ شعرُ رأسِهِ لِكَثْرةِ سُمِّهِ وطولِ عُمُرِهِ.

وفسَّر ﷺ الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ فقال: «**ما مِن صاحبِ ذهبٍ ولا فِضةٍ لا يُؤدِّي مِنها حقَّها إلا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحتْ له صفائحُ من نار، فأُحمِيَ عليها في نارِ جهنمَ، فيُكوى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ له في يومٍ كان**

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري (٣/ ٢٦٨) ح (١٤٠٣).

مِقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقضى بينَ العبادِ فَيَرَى سَبيلَهُ، إما إلى الجنةِ، وإما إلى النَّارِ. قيل: يارسولَ اللهَ فالإبِلُ؟ قال: ولا صاحبِ إبلٍ لا يُؤدِّي مِنها حقَّها - ومِنْ حقِّها حلبُها يومَ وِردِها - إلا إذا كانَ يومُ القيامةِ بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ أوفرَ ما كانتْ، لا يفقِدُ منها فَصِيلاً واحدًا، تطؤُهُ بأخفافِها وتعضُّهُ بأفواهِها، كلما مرَّ عليهِ أُولاها رُدَّ عليهِ أُخْرَاها في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقضى بين العبادِ فَيَرى سبيلَهُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ. قيل يارسولَ اللهِ فالبقرُ والغنمُ؟ قال: ولا صاحبِ بقرٍ ولا صاحبِ غنمٍ لا يؤدِّي مِنها حقَّها إلا إذا كان يومُ القيامةِ بُطِحَ لها بِقاعٍ قَرقَرٍ أوفرَ ما كانت، لا يَفقدِ منها شيئًا، ليس فيها عَقْصاءُ ولا جَلحاءُ ولا عضباءُ[1] تَنطَحُهُ بِقُرُونِها، وتَطَؤُهُ بأظلافِها، كلما مَرَّ عليهِ أُولاَها رُدَّ عليهِ أُخراها في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ حتى يُقضى بينَ العبادِ، فَيَرى سبيلَهُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة[2].

وكما أنذر - تبارك وتعالى - مَنْ تركَ الزكاةَ جُحودًا أو تساهُلاً، فقد رغَّبَ في أدائِها ووعد أهلَها الطُّهْرَ والنماءَ والزكاةَ والمغفِرةَ والفضلَ العظيمَ، يقولُ - سبحانه وتعالى -: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[3]. ويقول - سبحانه- بعد أن أَمرَ بإخراجِها: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾[4].

---

(١) قال أهل اللغة: العقصاء ملتوية القرنين، والجلحاء التي لا قرن لها، والعضباء التي انكسر قرنها الداخل.

(٢) صحيح مسلم (٢/ ٦٨٠) ح (٩٨٧).

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

ويقولُ - سبحانه -: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1]. ويقول رسولُهُ الكريمُ ﷺ: «**ما نَقَصَتْ صدقةٌ مِن مالٍ**». أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة[2].

ويقول ﷺ: «**من تَصدَّقَ بِعَدْلِ تَمرةٍ من كَسْبٍ طيبٍ ولا يَقبلُ اللهُ إلا الطيبَ، فإن اللهَ يقبلُهُا بيمينِه، ثم يربِّيها لصاحبها كما يُرَبِّي أحدُكم فُلُوَّهُ حتى تكونَ مثلَ الجبلِ**». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة واللفظُ للبخاري[3].

وما تكادُ أيها المؤمنُ تقرأُ صفاتِ المؤمنين في القرآن الموعودِينَ أَسْمَى الغاياتِ، وأرفعَ الدرجات إلا وتجدُ الإنفاقَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ بما في ذلكَ الزكاةُ من أبرز صفاتِهم، واخصِّ أخلاقِهم.

وتجب الزكاةُ في أربعةِ أشياء:

الأولُ: الخارجُ من الأرضِ من الحبوبِ والثمارِ:

فلقد أنعمَ اللهُ على الإنسانِ بنعمٍ شتى في نفسِه ومالِه وسخَّرَ له كثيرًا من المخلوقاتِ تكريمًا وتشريفًا، ومِن نِعمِ اللهِ على عبادِه أن جعل الأرض صالحةً للإنباتِ والإثمارِ لتكونَ مصدرًا من مصادرِ رزقِ المخلوقين ووسيلةً من وسائلِ معيشتِهم التي تقومُ بها حياتُهم، والفضلُ من اللهِ أولاً وأخيرًا فهو الذي سخَّر الأرضَ للمخلوقِ

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٩.

(٢) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠١) ح (٢٥٨٨).

(٣) البخاري مع الفتح (٣/ ٢٧٨) ح (١٤١٠)، مسلم (٢/ ٧٠٢) ح (١٠١٤).

ليستفيدَ منها، يقول - تعالى -: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾[1].

ولعل من أبرزِ مظاهرِ الشُّكرِ لهذه النعمةِ العظيمةِ أداءَ الزكاةِ مما تخرِجُ الأرضُ من زرعٍ أو ثمرٍ مواساةً للفقراءِ والمساكينِ، وسَدًّا لِخَلَّةِ المحتاجين.

يقول - تبارك وتعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾[2]. ويقول - سبحانه -: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[3]. وأعظمُ الحقوقِ الزكاةُ.

وقال النبيُّ ﷺ: «**فيما سقتِ السماءُ والعيونُ أو كان عَثَرِيًّا العُشْرُ وما سُقي بالنَّضْحِ نصفُ العُشْر**». رواه البخاري من حديث عبدالله بنِ عُمرَ[4]. والْعَثَرِيُّ: قيلَ هو ما تَسْقِيه السماءُ، وقيلَ: ما يُجْمَعُ له ماءُ المطر فيصيرُ سَواقٍ يَتَّصِلُ الماء بها. وقال الجمهورُ: المرادُ منه ههنا ما يَشْرَبُ بِعُرُوقِهِ مِنَ غَيرِ سَقْيٍ. سُمِّيَ عَثَرِيًّا لأنّه عَثَرَ على الماءِ. ولا تجبُ الزكاةُ فيه حتى يَبْلُغَ نِصابًا وهو خَمسةُ أوسُقٍ لقول النبي ﷺ: «**ليس في حَبٍّ ولا ثمرٍ صَدَقَةٌ حتى يبلُغَ خمسةَ أوسُقٍ**». أخرجه مسلم[5].

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٤١.

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ٣٤٧) ح (١٤٨٣).

(٥) صحيح مسلم (٢/ ٦٧٤) ح (٩٧٩).

والوَسَقُ ستونَ صاعًا بصاعِ النبي ﷺ فيكون النِّصابُ ثلاثَمائةِ صاعٍ بصاعِ النبي ﷺ الذي يبلُغُ زِنتُهُ بالبُرِّ الجيِّدِ ألفين وأربعين جرامًا أي كِيلُوَيْنِ وخُمسَيْ عُشْرِ الكِيلوُ، فتكونُ زِنَةَ النصَابِ بالبُرِّ الجيِّد ستَّمائةٍ واثنى عشرَ كيلُو، ذكر ذلك فضيلةُ الشيخِ محمدُ بنُ صالحِ بن عثيمين - حفظه اللهُ تعالى -[1]، ولا زكاةَ فيما دونها، ومقدارُ الزكاةِ فيها العُشْرُ كاملاً فيما سُقِي بدونِ كُلْفَةٍ ونِصْفُها[2] فيما سُقِيَ بكُلْفَةٍ، ولا تَجبُ الزكاةُ في الفواكِهِ والخضرواتِ والبطيخ ونحوها لقولِ عُمرَ - رضي الله عنه -: «ليسَ في الخضرواتِ صدقةٌ»، وقول عَليٍّ: «لَيسَ في التفاحِ وما أَشْبَهَهُ صدقةٌ» ولأنها ليستْ بِحَبٍّ ولا ثمرٍ ولكنْ إذا بَاعها بدراهِمَ وحال الحولُ على ثمنِها ففيهِ الزكاة[3].

الثاني: بَهيمةُ الأنعامِ وهي الإبلُ والبقرُ والغنم وهي التي امْتنَّ الله بها على عِبادِهِ في قولِهِ - تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۞ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[4]. وتجبُ الزكاةُ فيها إذا كانتْ سائمةً وأُعِدَّتْ للدَّرِّ والنسْلِ وبلغتْ نِصابًا، وأقلُّ النصابِ في الإبلِ خَمسٌ، وفي البقرِ ثلاثون، وفي الغنمِ أربعون، والسائمةُ هي التي

(١) مجالس شهر رمضان.

(٢) أي نصف العشر.

(٣) المصدر السابق ص (٧٥) طبعة (١٤٠٦هـ).

(٤) سورة النحل، الآيات: ٥-٧.

تَرعى الكلأَ النابتَ بدونِ بَذْرِ آدميٍّ كُلَّ السنةِ أو أكثرَها، فإن لم تكنْ سائِمَةً فلا زكاةَ فيها، إلا أن تكونَ للتِّجَارةِ، وإن أُعدَّتْ لِلتَّكَسُّبِ بالبيع والشراءِ والمناقَلةِ فهي عُروضُ تُزكّى زكاةَ تجارةٍ سواءً كانت سائمةً أو مُعلَّفةً إذا بلغتْ نِصابَ التجارةِ بنفسِها أو بضمِّها إلى تجارة[1].

الثالثُ: الذهبُ والفضَّةُ على أي حالٍ كانتْ لقولِهِ - تعالى -: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]. وأَعظمُ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ إنفاقُها في الزكاةِ.

وجاء عن ابنِ عُمرَ أنه قال: «ما أُدِّيَ زكاتهُ فليسَ بكنزٍ وإن كان تحتَ سَبْعِ أرضين، وما كان ظاهرًا لا تُؤدى زكاتهُ فهو كنزٌ»[3].

وتجبُ الزكاةُ في الذهبِ والفضةِ سواءً كانت نُقودًا أو تِبْرًا[4] أو حُليًّا يُلْبسُ أو يُعَارُ أو غيرَ ذلك لعمومِ الأدلةِ الدالةِ على وجوبِ الزكاةِ فيهما بدونِ تفصيلٍ، وقال بالوجوبِ أبو حنيفةَ وهو اختيارُ سماحةِ الشيخِ عبدِالعزيز بنِ بازٍ والشيخِ محمدِ بنِ عثيمين، وعن عبدِاللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ - رضي الله عنهما - أن امرأةً أتتِ النبيَّ ﷺ ومعها ابنةٌ لها وفي يَدِ ابْنَتِها مَسْكَتَان غليظتان من ذهبٍ (أي سِواران من ذَهَبٍ) فقال لها النبيُّ ﷺ: «**أتُعطِينَ زكاةَ هذا؟** قالتْ: لا، قال: **أَيسُرُّكِ أن يُسَوِّرَكِ اللهُ بهما يومَ القيامةِ سِوارَينِ من نارٍ؟**

---

(١) مجالس شهر رمضان ص (٧٦).

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٣) سنن البيهقي (٤/ ٨٢)، وأصله في البخاري (٣/ ٢٧١) ح (١٤٠٤).

(٤) الذهب الذي لم يُصَنَّع.

قال: فَخَلَعَتْهُمَا فألقتْهما إلى النبي ﷺ وقالتْ: هما للهِ ورسولِه».
رواه أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وقال الحافظ ابنُ حجرَ: إسنادُهُ قوي[1].

وعن عائشةَ - رضي الله عنها - قالت: «دخلَ رسولُ الله ﷺ فرأى في يدي فَتَخَاتٍ من وَرِقٍ (تعني من فضةٍ) فقال النبي ﷺ: «**ما هذا؟** فقالت: صَنعتُهُنَّ أتَزَيَّنُ لكَ يارسولَ الله، فقال: **أَتَؤدِّين زكاتَهُنَّ؟** قالتْ: لا أو ما شاءَ اللهُ قال: **حَسْبُكِ من النارِ**». أخرجه أبو داود والبيهقي والحاكم وصحّحه وقال: على شرطِ الشيخين، وقال ابنُ حَجَرَ في التلخيصِ: على شرطِ الصحيحِ، وقال ابن دَقيقٍ: على شرط مسلم[2].

وذهب جماهيرُ العلماءِ ومنهم مالكٌ وأحمدُ والشافعيُّ إلى أنه لا زكاةَ في الحُلي لآثارٍ وردتْ عن الصحابةِ في ذلك. قال أحمدُ: «خمسةٌ من أصحابِ النبي ﷺ كلهم يقولون: ليس فيه زكاة». والخمسة هم: أنسٌ، وجابرٌ، وابنُ عمرَ، وعائشةُ، وأسماءُ - رضي الله عنهم - ولأنه لم يُرْصَدْ للنماءِ. والزكاةُ إنما شُرعتْ في الأموالِ الناميةِ، ولا ريبَ أنَّ إخراجَ زكاةِ الحليِّ أحوطُ لأن من اتّقى الشبهاتِ فقد استبرأَ لدينِه وعِرضِه. «**دعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ**». رواه أحمدُ والنَّسائِيُّ وسنده صحيحٌ والله أعلم.

---

(١) بلوغ المرام ص (١٢٣).

(٢) التلخيص الحبير (٢/ ١٧٨).

ولا تجبُ الزكاةُ في الذهبِ حتى يَبْلُغَ نِصابًا وهو عِشرونَ دينارًا، لأن النبيَّ ﷺ قال في الذهبِ: «**ليس عليكِ شيءٌ حتى يكونَ لكِ عشرون دينارًا**». رواه أبو داود[1].

والمرادُ بالدينار الإسلاميُّ الذي يَبلُغ وزنُهُ مثقالاً، وزِنَةُ المثقالِ أربعةُ غُراماتٍ وربْعُ غُرام، فيكونُ نِصابُ الذهبِ خمسةً وثمانين غرامًا يُعادِلُ أحدَ عشرَ جُنيهًا سُعوديًّا وثلاثةَ أسباع جنيهٍ.

ولا تجبُ الزكاةُ في الفضةِ حتى تَبلُغَ نِصابًا وهو خَمْسُ أَواقٍ لقولِ النبي ﷺ: «**ليسَ فيما دونَ خمس أواقٍ صدقةٌ**». متفق عليه.

والأُوقِيةُ أربعونَ دِرهمًا إسلاميًّا فيكونُ النصابُ مائتي دِرْهَم إسلامِيٍّ، والدرهمُ سبعةُ أعشارِ مثقالٍ فيبلغُ مائةً وأربعين مثقالاً، وهي خمسُمائةٍ وخمسةٌ وتسعونَ غُرَامًا تُعادِل ستةً وخمسين ريالاً عَربيًّا من الفضةِ ومقدارُ الزكاةِ في الذهبِ والفضةِ رُبْعُ العشرِ فقط. قرر ذلكَ كلَّه فضيلةُ الشيخ محمدُ بنُ صالح العثيمين - حفظهُ اللهُ تعالى -[2]، وتجبُ الزكاةُ في الأَوراقِ النقديَةِ[3]، فإذا بلغتْ نِصابَ الذهبِ أو الفضةِ وجبتْ فيها الزكاةُ ويُنظَرُ الأحظُّ للفقيرِ، وإذا ملكَ المسلمُ نِصابًا من الذهبِ أو الفضةِ وأراد إخراجَ زكاتِه بالعُمْلاتِ

---

(١) سنن أبي داود (٢/ ٢٣٠) ح (١٥٧٣). وقال الحافظ في بلوغ المرام ص (١٢١): «رواه أبو داود وهو حسن».

(٢) مجالس شهر رمضان ص (٧٧).

(٣) في بحث هيئة كبار العلماء في الأوراق النقدية قالوا: «وجوب زكاتها إذا بلغت قيمتها أدنى النصابين من ذهب أو فضة أو كانت تكمل النصاب مع غيرها من الأثمان والعروض المعدة للتجارة إذا كانت مملوكة لأهل وجوبها» ح (١) ص (٥٨).

الوَرَقيَّةِ المتداوَلةِ لَزِمَهُ أن يَسأَلَ عن سعْرِ الجرامِ من الذَّهبِ والفضةِ حال وجوبِ الزكاةِ وبعدَ ذلكَ يُخرِجُ الواجبَ بالعُملةِ المتداوَلةِ.

فمثلاً إذا أراد إخراجَ زكاةِ الذهبِ أو الفضةِ بالريالاتِ السعوديةِ فعليه أن يسألَ عن سعرِ الجرامِ من الذهبِ أو الفضةِ في وقتِ وجوبِ الزكاةِ عليه ثم يُخرجُ مِن حاصلِ ضربِ سعرِ الجرامِ من الذهبِ أو الفضةِ رُبعَ العُشرِ مما يملِكُ.

وتَجبُ الزكاةُ في الذهبِ والفضةِ والأوراقِ النقديةِ سواءً كانتْ حاضرةً عندَهُ أم في ذِمَمِ الناسِ، وعلى هذا فتَجبُ الزكاةُ في الدَّيْنِ الثابتِ سواءً كان قَرْضًا أم ثمنَ بيعٍ أم أُجرةً أم غيرَ ذلك، إذا كان على مَلِيءٍ باذلٍ فيُزَكّيهِ مع مالِهِ كُلَّ سَنَةٍ، فإن كان على مُعْسِرٍ أو مُماطِلٍ يَصْعُبُ استخراجُه منه فلا زكاةَ فيه حتى يقبضَهُ فيُزكِّيهُ سَنةً واحدةً سنةَ قبضِهِ، ولا زكاةَ عليه فيما قبلَها مِن السنينَ. ولا تَجبُ الزكاةُ فيما سِوى الذهبِ والفضةِ من المعادنِ وإنْ كَانَتْ أغلى منهما إلا أن تكونَ للتجارةِ فتُزَكّى زكاةَ تجارة[1].

والرابعُ: مما تجبُ فيه الزكاةُ عُروضُ التجارةِ وهي كلُّ ما أُعِدَّ للتَّكَسُّبِ والتجارةِ من عَقارٍ وحيوانٍ وطعامٍ وشرابٍ وسياراتٍ وغيرِها من جميعِ أصنافِ المالِ فيَقوِّمُها كلَّ سنة بما تُساوي عندَ رأسِ الحولِ ويُخرجُ رُبعَ عُشرِ قيمتِها سواءً كانت قيمتُها بقدرِ ثمنِها الذي اشتراها به أم أقلَّ أم أكثرَ، ويجبُ على أهلِ البقالاتِ والآلاتِ

---

(١) المجالس ص (٧٧).

وقِطَعِ الغيارِ وغيرِها أن يُحصُوها إحصاءً دقيقًا شاملاً للصغيرِ والكبيرِ، ويخرجُوا زكاتَها فإن شَقَّ عليهم ذلك احتاطوا وأَخرَجوا ما يكونُ به براءةُ ذِمَمِهم[1].

ولا زكاةَ فيما أعدَّهُ الإنسانُ لحاجتِهِ مِن طعامٍ وشرابٍ وفُرُشٍ ومَسْكَنٍ وحيواناتٍ وسيارةٍ ولِباسٍ لقولِ النبي ﷺ: «**ليس على المسلمِ في عبدِهِ ولا فَرَسِهِ صدقةٌ**». متفق عليه[2] ولا تجبُ الزكاةُ فيما أُعِدَّ لِلأُجرَةِ من عقاراتٍ وسياراتٍ ونحوِها، وإنما تجبُ في أُجرَتِها إذا كانتْ نُقُودًا وحال عليها الحولُ، وبلغتْ نِصابًا بِنفْسِها أو بِضَمِّها لما عندَهُ من جِنسِها.

عبادَ الله: أدّوا زكاةَ أموالِكم طَيِّبَةً بها نفوسُكُمْ، فقد أعطاكم اللهُ - تبارك وتعالى - الكثيرَ، وطلبَ منكم القليلَ، أعطاكُمُ المالَ ابتلاءً وعاريَّةً لينظُرَ ماذا تعملون فيه، فهو للهِ في أيديكم ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[3]. أعطاكم المالَ أمانةً عندَكُمْ، سَتُسأَلون عنها يومَ القيامةِ أمامَ عالمٍ بالمغيَّباتِ، مُطَّلعٍ على السرائر والخفياتِ، فَتحرَّوْا في ذلك الخيرَ والابتعادَ به عن الشَّرِّ، تحرَّوْا الخيرَ بِصَرْفِ زكاةِ أموالِكم كاملةً في مصارِفها الشرعيةِ التي حَدَّدَها - تعالى - بقوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

(١) المجالس ص (٧٨).
(٢) البخاري (٣/ ٣٢٧) ح (١٤٦٤)، مسلم (٢/ ٦٧٥) ح (٩٨٢).
(٣) سورة الحديد، الآية: ٧.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] . والابتعادَ بها عن الشر حالةَ إخراجِها كالرياءِ بها أو إيذاءِ من يُعْطَى منها أَو المَنِّ عليه فيها، فالحقُّ - سُبحانَهُ - يقولُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾[2] .

نسألُك اللهم بأسمائِكَ الحسُنى أن تَقِيَنا شُحَّ أنفُسِنا، وأن تُعيذَنا من نزغاتِ الشيطانِ ووساوِسِه، وأن تُحقِّقَ لنا ما وَعَدتَنا بقولِكَ، وقولُك الحق ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3] .

اللهم يا أكرمَ من رُجِي، ويا أحقَّ من دُعِي، ويا خيرَ من ابتُغِي، اُمنُنْ علينا بِغُفرانِك، وعامِلْنا بفضلِك وإحسانِك، واجعلْنا من وَرَثَةِ جنتِك، ونَجِّنا من عذابِكَ ونقِمَتِكَ، اللهم هب لنا ما وهبتَهُ لعبادِكَ الأخيارِ، وآمِنْ خوفَنا يومَ لا تَشفَعُ الأعذارُ، برحمتِكَ يا كريمُ يا غفارُ، واغفرِ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ. وصلى اللهُ على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبِه أجمعينَ.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

الباب الرابع

القرآنُ والإخلاصُ في قراءتِه

الحمدُ للهِ المنَّانِ، الذي أكرَمَنا بالقرآنِ. المعجزةِ المستمرَّةِ على تعاقُبِ الأَزْمَانِ، وجعله ربيعًا لقلوبِ أهلِ البصائرِ والعِرفانِ، لا يَخلَقُ على كثرةِ الردِّ وتَغايُرِ الأَزمانِ، ويسَّرهُ للذِّكرِ حتى استظهرَهُ صِغارُ الوِلدان، وضمِنَ حفظَهُ فهو محفوظٌ بحِفظِ اللهِ من الزيادةِ والتبديلِ والنقصانِ. أَحمدُه على ذلك وعلى غيرِه من نِعَمِه التي لا تُحصىٰ وخصوصًا نعمةَ الإِسلامِ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له شهادةً ننالُ بها الغفرانَ.

وصلى الله وسلم على رسوله وخَليلِه وخِيرَتِه من خَلْقِه نبينا محمدٍ الذي أَخْرَجَ اللهُ به الناسَ من الظلماتَ إلى النورِ وهداهُمْ به إلى صِراطٍ مستقيمٍ، فَبَلَّغَ الرسالةَ، وأَدَّى الأَمانةَ، ونَصحَ الأُمَّةَ وجاهدَ في اللهِ حقَ جهادِهِ. كان أتقى الناسِ وأخشاهُم لله، يقرأُ القرآنَ حتى يُسمَعَ لصدرِهِ أزيزٌ كأزيزِ المِرْجَلِ من البكاءِ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين تَبِعُوهُ واقْتَدَواْ به فكانوُا لا يفتُرونَ عن قِراءةِ كتابِ اللهِ، ولا يَملُّونَ من مُطالَعَتِهِ، ويتدارسونَه بينَهم، وُيوصِي بعضُهم بعضًا بالتزوُّدِ من الأعمالِ الصالحةِ رضي الله عنهم، فقد كانتْ حياتُهم قُدوةً للمقتدِينَ وسِراجًا للسائِرين.

إخواني: أنزل اللهُ - سبحانه وتعالى - القرآنَ الكريمَ على محمدٍ ﷺ رحمةً للعالمين. وقد اقتضتْ حِكْمتُهُ سبحانَهُ أن يكونَ نزولُهُ في أعظمِ الأزمانِ وأشرفِ الشهور ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1]. وكان نزولُهُ في أعظم ليلةٍ من هذا الشهرِ المباركِ قال - تعالى -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2]. بعثَ به رسولَهُ للبلاغ ونَشْرِ الدينَ فقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[3]. وتحدّى الثّقلينِ أن يأتواْ بمثلِه ولو اجْتَمَعُوا لِذلكَ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[4]. وأنزلَ فيه من الوعيدِ الشديدِ ما يَهُزُّ القلوبَ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[5]. وبيّنَ عظيمَ شأنه وجلالةَ قدره حتى إنه لو نَزلَ على الجبالِ الصُّمِّ لتصدَّعتْ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[6]. وضربَ به من كلِّ مثل ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[7]. وقصّ به على الناسِ قَصَصَ السابقين ﴿نَحْنُ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٢) سورة القدر، الآيات: ١-٣.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.
(٥) سورة طه، الآية: ١١٣.
(٦) سورة الحشر، الآية: ٢١.
(٧) سورة الزمر، الآية: ٢٧.

﴿نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[1]. وجعَلَهُ مُيَسَّرًا لِلحفظِ والفهم ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].
وأمر رسولَهُ أن يُذكِّرَ به المؤمنينَ ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[3].
وأن يُخرِجَ الناسَ من ظُلمات الكفرِ إلى نورِ الإسلام ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[4].

وقد فضَّل اللهُ القرآنَ على غيرِه من الكتُبِ وجعلَهُ ناسِخًا لها ومهيمِنًا عليها فقال - تعالى -: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[5].

اللهُ أكبـــرُ إن ديـــنَ محمـــدٍ وصـراطَـهُ أقـوى وأقـومُ قيـلا
لا تَذْكُرِ الكُتْبَ السوالِفَ قبلَهُ طَلَعَ الصباحُ فأطفِىءِ القِنديلا

وقد أخبرَ رسولُ اللهِ ﷺ عن الأجرِ العظيمِ المترتِّبِ على قراءته؛ فعن عبدِالله بنِ مسعودٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من قرأ حرفًا من كتابِ الله فله به حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقولُ الٓمٓ حرفٌ، ولكن ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ». رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح، وصححه الألباني[6]،

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣.
(٢) سورة القمر، الآية: ١٧.
(٣) سورة ق، الآية: ٤٥.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٦) صحيح الجامع الصغير: (٦٤٦٩).

والفرقُ بين البيتِ الذي يُتلى فيه كتابُ اللهِ والبيتِ الذي لا يُتلى فيه كالفرقِ بين الحيِّ والميِّتِ. فعن أبي موسى - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: **«مَثَلُ البيتِ الذي يُذكرُ اللهُ فيه والبيتُ الذي لا يُذكرُ اللهُ فيه مَثَلُ الحيّ والمّيتِ»**. رواه مسلم[1].

أما قارِىءُ القرآنِ والقائمُ به المتعاهدُ له فهو في المقامِ الرفيعِ والمنازلِ العاليةِ فقد قال رسول الله ﷺ: **«والذي يقرأُ القرآنَ وهو ماهرٌ به مع السفرةِ الكرامِ البرَرَةِ، والذي يقرأُ القرآنَ وهو عليهِ شاقٌّ فله أجرانِ»**. متفق عليه. وقارىءُ القرآنِ يرتقي في دَرَجِ الجنة بقدرِ اهتمامِه بكتابِ الله. فعن عبدِالله بن عَمْرٍو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُقال لصاحبِ القرآنِ اقرأْ وارتَقِ ورتِّلْ كما كُنتَ ترتِّلُ في دارِ الدنيا فإن منزلتَكَ عندَ آخرِ آيةٍ كنتَ تقرؤُها»**. رواه أحمد وحسنه الترمذي، وصححه الألباني[2]، والقرآنُ شفيعٌ لأصحابهِ يُحِلُّ عليهم رضوانَ اللهِ ويأخذُ بأيديهم إلى جَناتِه. فعن أبي أُمامةَ - رضي اللهُ عنه - قال: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول: **«اقرأوا القرآنَ فإنهُ يأْتي يومَ القيامةِ شفيعًا لِأصْحَابِهِ»**. رواه مسلم[3]. وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: **«القرآنُ شافِعٌ مشفَّعٌ وما حِلٌ مُصدَّقٌ[4] من جَعلَهُ أَمامَهُ قاده إلى الجنةِ ومن جعله خلفَهُ ساقه إلى**

(١) صحيح مسلم ح (٧٧٩).
(٢) صحيح الجامع (٨١٢٢).
(٣) صحيح مسلم ح (٩٩٧).
(٤) أي خصم مجادل مصدَّق، يعني أن من اتبعه وعمل بما فيه، فإنه شافع مقبول الشفاعة مصدق عليه فيما يرفعه من مساويه إذا ترك العمل به.

النارِ»[١]. رواه ابن حبان والبيهقيّ. بل إن السورة من القرآنِ لتشفعُ لحاملِها. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **إنَّ سُورةً مِنَ القرآنِ ثلاثُونَ آيةً شفعتْ لرجلٍ حتَّى غُفِرَ لَهُ وهِيَ**: « تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ» رواه أحمدُ وأهلُ السننِ وحسَّنهُ الألبانيُّ[٢].

وَيُحاجُّ القرآنُ عن حاملِهِ ويتقدَّمُ بين يديهِ يومَ القيامةِ، فعن النواسِ بنِ سمعانَ - رضي اللهُ عنه - قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «**يُؤتى يومَ القيامةِ بالقرآنِ وأهلِهِ الذين كانوا يعملون به في الدنيا تَقْدُمُهُ سورةُ البقرةِ وآلِ عِمرانَ تحَاجَّانِ عن صاحِبِهِما**»[٣]. ولا يزالُ القرآنُ الكريمُ يَطْلُبُ المزيدَ لصاحبِهِ مِن نَعيمِ اللهِ حتى يُلْبَسَ حُلَّةَ الكَرَامَةِ وتاجَها. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسولِ الله ﷺ قال: «**يَجيءُ القرآنُ يومَ القيامةِ فيقولُ: يا ربّ حَلِّه فَيُلْبَسُ تاجَ الكرامةِ ثم يقول: يا رَبِّ زده فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكرامةِ ثم يقول: يا رَبِّ ارْضَ عنه فَيَرْضَى عنه**»[٤].

إخواني: إنه لثوابٌ عظيمٌ موفورٌ ينالُه المسلمُ بِسَبَبِ حُبِّهِ لِكتابِ الله وعنايتِهِ به وإقبالِهِ عليه. فياليتَ شِعري ونحنُ نعرف ما لقارىءِ القرآنِ من الأجرِ هل نحن نُواظبُ على قراءةِ القرآنِ فلا يَمُرُّ بنا يومٌ إلا وقد قرأنا منه جُزءًا وتمعَّنَّا بما فيه فانْزَجَرْنا بِزواجِرِه وأْتَمَرْنا بأوامِرِهِ وابتغَيْنا ما فيه.

---

(١) صحيح الجامع (٤٤٤٣).

(٢) صحيح الجامع (٢٠٩١).

(٣) صحيح مسلم ح (٩٩٨).

(٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وليتَ شعري ونحنُ نسمعُ هذا الأجرَ العظيمَ من الشفاعةِ يومَ المحشرِ والتقلُّبِ في رياضِ الجناتِ ولُبْسِ حُلَلِ الكرامةِ والرضوانِ هل عقدنا العزمَ على المواظبةِ على تِلاوة القرآن.

دعني ووصفيَ آياتٍ له ظَهَرتْ ... ظُهورَ نارِ القِرى ليلاً على عَلَم
فالدُّرُّ يزدادُ حُسنًا وهو منتظمٌ ... وليسَ ينقصُ قَدرًا غيرَ مُنتظمِ
دامتْ لَدَينا ففاقت كلَّ مُعجِزَةٍ ... من النبيينَ إذ جاءتْ ولم تَدُمِ
لها معانٍ كموجِ البحر في مَدَدٍ ... وفوقَ جَوْهَرِهِ في الحُسنِ والقِيمِ
فما تُعدُّ ولا تُحصى عجائِبُها ... ولا تُسَامُ على الإكثارِ بالسأمِ
قَرَّتْ بها عينُ قارِيها فقُلتُ له ... لقد ظَفِرْتَ بحبلِ اللهِ فاعتصمِ
إن تتلُها خِيفةً من حرِّ نارِ لظى ... أطفأتَ حرَّ لظى من وَردِها الشَّبِمِ

إخواني: إن حَمَلَةَ القرآنِ القائمينَ عليه التالينَ له هم أهلُ اللهِ وخاصَّتُه فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**إن للهِ تعالى أَهلِين من النَّاس، قِيلَ: من همْ يا رسولَ الله؟ قال: أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللهِ**[1] **وخاصتُهُ**». رواه أحمدُ[2] والنسائيُّ وصححه الألباني، مَا اعْظَمَهَا من منزلةٍ وما أكرمَه من جوارٍ، وما أرفعَهُ من مكانٍ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۞ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۞ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3].
كانوا يترنَّمون بآياتِ الله والناسُ نائمون وتنحدِرُ دموعُهم والناس

(١) أي حفظة القرآن العاملون به هم أولياء الله المختصون به اختصاص أهل الإنسان به. النهاية لابن الأثير ١/ ٨٣.
(٢) صحيح الجامع (٢١٦٥).
(٣) سورة الذاريات، الآيات: ١٥، ١٦، ١٧، ١٨.

يَضحَكُون. ويُعْمِلُونَ أفكارَهم والناسُ في شهواتهم غافِلون، وفي لذاتِهم غارِقون ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾[1]. وعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلا في اثنتين: رجلٌ علَّمَهُ اللهُ القرآنَ فهو يتلوه آناءَ الليل وآناءَ النهارِ فَسَمِعَهُ جارٌ له فقال ليتَني أُوتيتُ مثلَ ما أوتَي فلانٌ فعملتُ مثلَ ما يعملُ، ورجلٌ آتاه اللهُ مالاً فهو يُهلِكُه في الحق فقال رجلٌ ليتَني أوتيتُ مِثلَ ما أوتَي فلانٌ فعمِلتُ مثلَ ما يَعملُ». رواه البخاري.

أما معلِّمُ القرآنِ ومتعلِّمُه فإنهما أفضلُ الناسِ وأرفعُهما مكانةً فعن عثمانَ - رضي الله عنه - أن النبيَّ ﷺ قال: «**إن أفضلَكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ**». رواه البخاري.

فشارِكْ يا عبدَالله في تَعَلُّم القرآنِ وتعليمِه ورغِّبْ أولادَك وجيرانَك وأقارِبَك من ذكورٍ وإناثٍ على المشاركةِ في حلقاتِ تحفيظِ القرآنِ، واعلمْ أنه ينبغي لقارىءِ القرآنِ أن يُخلِصَ في قراءَته ويبتغيَ بذلك وجهَ اللهِ تعالى ويحفظَ عملَه عن المُراءاتِ أَوْ أن يَقصِدَ به عَرَضًا من أعراضِ الدنيا الفانيةِ فتكونَ قراءَتُهُ وَبَالاً عليه. فعن جابرٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اقرأوا القرآنِ وابتغُوا بهِ اللهَ تعالى من قَبْلِ أن يأتيَ قومٌ يُقيمُونَهُ إقامَة القَدَحِ**[2] **يتعجَّلُونَهُ ولا يتأجَّلُونَهُ**». رواه أحمد وأبو داود[3] وحسَّنه الألبانيُّ.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(٢) القدح: السهم.

(٣) صحيح الجامع (١١٦٧).

وعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إن أولَ الناسِ يُقضى يومَ القيامةِ رجلٌ استُشهِدَ، فَأَتى به فعرَّفَهُ نِعَمَهُ فعرَفَها. قَال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى اسْتُشْهِدْتُّ. قال: كذبتَ، لكنك قاتلتَ لأنْ يُقالَ فلانٌ جَرِيءٌ فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقِي في النارِ، ورجلٌ تعلَّمَ العِلْمَ وعلَّمَهُ وقرأ القرآنَ، فَأَتَى به فعرَّفَهُ نعمَهُ فعرَفَها، قال: فما عَمِلْتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العِلْمَ وعلَّمتُهُ وقرأتُ فيكَ القرآنَ. قال: كذبتَ ولكنك تعلمتَ ليقالَ عالِمٌ، وقرأتَ القرآن ليقالَ هو قارىءٌ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقي في النار..».

الحديث رواه مسلم وأحمد والنسائي.

فالحذرَ الحذرَ يا عبادَ اللهِ من الرياءِ! ولتكنِ القراءةُ خالصةً لوجهِ اللهِ تعالى رغبةً فيما عندَهُ من الثوابِ وخوفًا من العِقابِ.

وإذا همَّ المسلمُ بالقراءَةِ فينبغي أن يتنظَّفَ ويتطهَّرَ ويتهيَّأَ بما يليقُ بكتابِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[1]. ويبدأُ قراءتَهُ بالاستعاذةِ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ وذلك أنها طَهارةٌ للفمِ مما كان يتعاطاه من اللَّغْوِ والرفَثِ وتَطْييبٌ له وهي استعاذةٌ باللهِ واعترافٌ له بالقُدرةِ ولِلعْبدِ بالضعْفِ واستجارةٌ للعبدِ باللهِ من الشيطانِ ألا يضرَّهُ في دينِهِ أو دُنياه أو يصُدَّهُ عن فِعْلِ ما أُمِرَ به أو يحثَّه على فعلِ ما نُهِي عنه[2] ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٧-٧٩.

(٢) تيسير العلي القدير (١/ ١٠).

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1]. وليقلْ عند بدايةِ السُّورةِ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]. لما فيها من الخير والبركةِ.

وينبغي للمسلم أن يُحسِّنَ صوتَهُ بقراءةِ القرآنِ فقد أمرَ عليه الصلاةُ والسلامُ بتَزْيينِ الصوتِ عندَ قراءتِه فعن البراءِ بنِ عازبٍ - رضيَ اللهُ عنه - أن رسولَ الله ﷺ قال: «**زيِّنوا القرآنَ بأصواتِكم فإن الصوتَ الحسنَ يَزيدُ القرآنَ حُسْنًا**». رواه الحاكم وصححه الألباني[3]، وقد مرَّ النبيُّ ﷺ من عندِ منزلِ أَبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - فسمعَهُ يقرأُ القرآنَ بصوتٍ جَميلٍ مُتَخَشِّع، فجلسَ يَسْتَمِعُ إلى قراءتِه ولما لقيَهُ في الصباحِ قال له ﷺ: «**يا أبا موسى لقد أوتيتَ مِزمارًا من مزاميرِ آلِ داودَ**». رواه البخاري[4]، وأخرجَ ابنُ أبي داودَ من طريقِ ابنِ أبي مَسْجَعَةَ قال: «كان عُمرُ - رضي الله عنه - يُقدِّمُ الشابَّ الحَسَنَ الصوتِ لِحُسْنِ صوتهِ بينَ يدي القوم»[5]، وعن البراءِ بنِ عازبٍ - رضي الله عنه - قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**حسِّنوا القرآنَ بأصواتِكم فإن الصوتَ الحَسَنَ يزيدُ القرآنَ حُسْنًا**». رواه الدارمي[6].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٨.
(٢) سورة الفاتحة، الآية: ١.
(٣) صحيح الجامع (٣٥٨١).
(٤) فتح الباري (٩/ ٩٢).
(٥) فتح الباري (٩/ ٩٢).
(٦) صحيح الجامع (٣١٤).

ومِن آدابِ قارىءِ القرآنِ أن يتفكَّرَ فيما يَقرأُ حتى تُؤتِي القراءةُ ثمارَها فيَفهَمَ المعنى المرادَ ويَصِلَ إلى الفهمِ المطلوب. قال - تعالى -: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[1]. وقال - تعالى -: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[2]. لذلك يُستَحبُّ ترديدُ الآيةِ أحيانًا للتَّدبُّرِ، وقد رُوي عن أبي ذرٍّ قال: «قامَ النبيُّ ﷺ بآيةٍ يردِّدُها حتى أصبحَ»، والآية: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾[3]. رواه الحاكمُ والنسائيُ وابنُ ماجه[4]. وعن تميم الداري - رضي الله عنه - أنه كرَّرَ هذه الآية حتى أصبحَ ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[5]. وعن عبّادِ ابنِ حَمزةَ قال: دخلتُ على أسماءَ - رضي الله عنها - وهي تقرأُ ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾[6]. فوقفتُ عندَها فجعلتْ تُعيدُها وتدعو فطالَ عَليَّ ذلكَ فذهبتُ إلى السوقِ فقضيتُ حاجتي ثم رجعتُ وهي تُعيدُها وتدعو. وكان الضَّحّاك إذا تـلا قولَه - تعالى -: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾[7]. ردْدَها إلى السَّحَرِ[8]. وقال حُذيفَةُ: «صَلَّيتُ مع النبيّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ فافتتَحَ البقرةَ فقلتُ: يركَعُ

---

(١) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.
(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٨.
(٤) التبيان ص (٦٧)، قال الأرناؤوط عن الحديث: وهو صحيح.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٢١.
(٦) سورة الطور، الآية: ٢٧.
(٧) سورة الزمر، الآية: ١٦.
(٨) انظر: في الآثار الثلاثة التبيان ص (٦١).

عِندَ المائةِ، ثم مضى فقلتُ: يُصلي بها في ركعةٍ فمضى قلتُ: يركعُ بها ثم افتتحَ النساءَ فقرأَها ثم افتَتَحَ آلَ عِمرانَ فقرأها يقرأُ مترسِّلا إذا مرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ وإذا مرَّ بِسؤالٍ سألَ وإذا مر بتعَوِّذٍ تعوَّذَ ثم ركَعَ . . » رواه مسلم[1].

إخواني: تمعَّنُوا في هذا الحديثِ وقارِنُوا بين واقعِ الناسِ وبينَ حالِ رسولِ اللهِ ﷺ الذي نَزلَ عليه كتابُ اللهِ. إن كثيرًا من الناس لا يفهمُونَ مما يقرأونَ شَيئًا، بل رُبَّما أسقَطُوا حُرُوفًا من كتابِ اللهِ إن لم يتجاوزوا آياتٍ بأكمَلِها هَمُّ أحدِهم أن يختِمَ القرآنَ، ومن هُنا فهو لا يتأَمَّلُ الآياتِ، ولا يُفكِّرُ في العِظاتِ، تمرُّ عليه آياتُ الوعْدِ بالنعيمِ التي لو تأمَّلَها لتحرَّقَ قلبُه شَوقًا إلى مَوعودِها، وتمرُّ عليه آياتُ العَذابِ والوعيدِ التي لو فَكَّرَ فيها لَتَقَطَّعَتْ نِياطُ قلبهِ فَزعًا وَخوفًا لكنَّه لا يُلقِي لهذه ولا لِتِلكَ بالاً. ولا يُقيمُ حروفَ القرآنِ ولا يُعطِيها حقَّها، فأضاعَ بذلِك عليهِ الفائدةَ ونَقَصَ بذلك منه الأجرُ. وكان الصحابةُ والسلفُ الصالحُ يُتابِعُونَ رسولَ اللهِ ﷺ في قراءتِه حيثُ أمرَه اللهُ بقوله: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[2]. وقولهُ- تعالى -: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[3]. وقد روى البخاريُّ ومسلمْ عن عبدِاللهِ بنِ مُغَفَّلٍ - رضي الله عنه - قال: «رأيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يومَ فتحِ مكةَ على ناقتِه يقرأُ سورةَ الفتحِ يُرَجِّعُ في قراءَتِهِ»[4].

---

(١) صحيح مسلم ح (٧٧٢).
(٢) سورة المزمل، الآية: ٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.
(٤) البخاري.

وعن ابنِ عباس - رضي الله عنه - قال: «لأَنْ أقرأُ سورةً أُرَتِّلُها أحبُّ إليَّ من أن أَقرأَ القرآنَ كُلَّهُ». وقد نُهِيَ عنِ الإفراط في الإسراع في قراءَةِ القرآنِ. فثبتَ عَنْ عبدِالله بنِ مسعودٍ - رضي الله عنه - أن رجلاً قال له: إنِّي أقرأُ المفصَّلَ في ركعةٍ واحدةٍ. فقال عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ: «هذًّا كهذِّ الشِّعْرِ إنَّ أقوامًا يقرأون القرآنَ لا يُجاوِزُ تراقِيَهُمْ ولكنْ إذا وقعَ في القلبِ فرَسَخَ فيه نَفَعَ». رواه البخاري ومسلمٌ[1].

قال محمدُ بنُ الحُسَيْنِ عندَ قولِه - تعالى -: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾[2]. ألا ترون يرحَمُكُمُ اللهُ إلى مولاكُمُ الكريم كيفَ يَحُثُّ خَلْقَهُ على أن يتدبروا كلامَهُ ومن تَدَبَّرَ كلامَهُ عرفَ الربَّ - عزَّ وجلَّ - وعرفَ عظيمَ سُلطانِه وقُدْرَتِه، وعرفَ عظيمَ تَفَضُّلِه على المؤمنينَ، وعرفَ ما عليه مِن فَرْضِ عبادَتِه، فألزمَ نفسَهُ الواجبَ فحذِرَ مما حذَّرهُ منه مولاهُ الكريمُ، ورغِبَ فيما رغَّبَ فيه، ومن كانتْ هذه صِفَتُهُ عندَ تلاوةِ القرآنِ وعِندَ استماعِه من غَيرِه كان القرآنُ له شفاءً، فاستغنى بلا مالٍ، وعزَّ بلا عشيرةٍ، وأَنِسَ بما يستوحشُ منه غيرُه، وكان همُّه عندَ تلاوةِ السورةِ إذا افتتَحها: متى أَتَّعِظُ بما أتلوه؟ ولم يكنْ مرادُه: متى اختِمُ السورةَ؟ وإنما مرادُه متى أعقِلُ مِنَ اللهِ الخطابَ؟ متى ازدَجِرُ؟ متى أعتَبِرُ؟ لأنَّ تلاوةَ القرآنِ عبادةٌ، والعبادةُ لا تكونُ بغفلةٍ واللهُ الموفق)[3].

---

(١) مسلم ح (٨٢٢). الفتح ٩/ ٨٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٢.

(٣) أخلاق أهل القرآن ص (٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم - رحمه اللهُ - (وكان ﷺ يُقطِّعُ قراءَتهُ، ويقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ فيقولُ: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» ويقف «ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» ويقف «مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ»). وذكر الزُّهريّ أن قراءَة النبي ﷺ كانتْ آيةً آيَةً، وهَذَا هوَ الأَفْضَلُ، وكَانَ النَّبيُّ ﷺ يُرتِّلُ السورةَ حتى تكونَ أطولَ من أطولَ منها.. وقال ابنُ مسعودٍ: «لا تَهُذُّوا القرآنَ هَذَّ الشعرِ، ولا تَنْثُروهُ نَثْرَ الدَّقْلِ[1]، وقِفوا عندَ عجائِبِه، وحرِّكوا به القلوبَ، ولا يكنْ همُّ أحدِكم آخرَ السورةِ»[2].

إخواني: إذا كانَ أقوامٌ يتبارون في سُرعةِ القراءَةِ للقرآنِ، ويتكاثرونَ في عددِ ختماتِه، فما كان هذا هديَ رسولِ الله ﷺ ولا هديَ صحابتِه من بعدِه وهم أعلمُ الناس بسُنَّتِه التي أُمِرْنا باتباعِها بقوله - تعالى -: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3].

قالتْ عائشةُ - رضي الله عنها - «... ولا أعلمُ نبيَّ اللهِ ﷺ قرأَ القرآنَ كلَّه في ليلةٍ ولا صلى ليلةً إلى الصبحِ ولا صامَ شهرًا كاملاً غيرَ رمضان». رواه مسلم[4].

ولنستمعْ إلى توجيهِ النَّبيِّ الكريمِ ﷺ للصحابيِّ الجليلِ عبدِالله بنِ عمْرٍو حيث قال له: **فاقرأْ في كل سَبْعٍ ولا تَزِدْ على ذلك فإنَ لِزوجِكَ عليك حقًّا، ولِزَوْرِك عليك حقًّا، ولجَسَدِكَ عليك حقًّا**». رواه البخاري ومسلم.

---

(١) ردي التمر وَيَابسه.

(٢) زاد المعاد (١/ ٣٣٧-٣٤٠).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢١.

(٤) صحيح مسلم ج (١) ص (٥١٤).

وكان ﷺ لا يقرأُ القرآنَ في أقلَّ مِن ثلاثٍ[1] وبيَّن أن من قرأَهُ في أقلَّ مِنـها لم يستطعْ الجَمْعَ بينَ القراءَةِ والفهْمِ. فقال: «**لا يفقَهُ من قرأ القرآنَ في أقلَّ مِن ثلاثٍ**»[2]. رواه أبو داود والترمذي وابنُ ماجةَ عن ابنِ عمرَ وصححه الألباني. ومن هنا فينبغي للمسلم الموفَّقِ ألاّ يَجْفُوَ فَيَمْضِيَ عليه الشهرُ ولم يختمْ كتابَ اللهِ وألاّ يَغْلُوَ فيتعدى هديَ نبيهِ ﷺ.

اللهم ارزقْنا تلاوةَ كتابِك على الوجهِ الذي يُرضيك عنا، واهدِنا به سُبلَ السلامِ وأخرجْنا به من الظلماتِ إلى النورِ، واجعلْهُ حُجَّةً لنا لا علينا يا ربَّ العالمين.

اللهم ارفعْ لنا به الدرجاتِ، وانقذنا به من الدَّرَكاتِ، وكفِّرْ عنَّا به السيئاتِ، واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ برحمتكِ يا أرحمَ الراحمين. وصلى الله وسلمَ على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه ابن سعد عن عائشة وصححه الألباني. صحيح الجامع (٤٨٦٦).
(٢) صحيح الجامع (٧٧٤٣).

الباب الخامس

السهر وإضاعة الوقت
والإسراف في الأكل في رمضان

إن الحمدَ للهِ نحمدُهُ ونسعينُهُ ونستغفِرُهُ ونستهديهِ ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وسيئاتِ أعمالِنا. من يهدهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه ﷺ تسليمًا كثيرًا وعلى آله وصحبه أَخُصُّ منهم أبا بكرٍ الصديقَ ثانيَ اثنينِ إذ هما في الغارِ، وعُمَرَ الفاروقَ الذي أعز اللهُ تعالى به الدينَ ونصرَ به المسلمين، وعثمانَ الذي كانت الملائكةُ تستحِي منه، وعليًّا أولَ سابقٍ إلى الدين وقامعَ الكفرةِ والمشركِينَ. وأُثَنِّي بالصحْبِ الكرامِ أجمعين.. ألحقَنا اللهُ تعالى بهم غيرَ مُبَدِّلين ولا مُغَيِّرِين.

أما بعد:

فاعلموا عبادَ الله - رحمني اللهُ وإياكم - أن نِعمَ اللهِ تعالى علينا كثيرةٌ ومنها أنْ مَنَّ علينا بنعمةِ الفراغِ والوقتِ الذي هو أغلى مِن كلِّ شيءٍ بعد الإيمانِ بالله، فالوقتُ هو حياةُ الإنسانِ ولِشَرَفِ الوقتِ أقسمَ اللهُ تعالى ببعضِ الأوقات ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾[1]،

---

(١) سورة الضحى، الآيتان: ١-٢.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾[1]، ﴿وَٱلۡفَجۡرِ * وَلَيَالٍ عَشۡرٍ * وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾[2]، وغيرُ ذلك كثيرٌ. وقوله ﷺ: «**نعْمَتَانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحةُ والفراغُ**» رواه البخاري وغيرُه عن ابنِ عباس، رضي اللهُ تعالى عنهما.

والوقتُ يمرُّ مَرَّ السحابِ، ويجري جَرْيَ الريحِ، وكلُّ يوم يَمْضِي، وكلُّ ساعةٍ تَنقَضِي، وكلُّ لحظةٍ تمرُّ ليس في الإمكانِ استعادتُها ولا تعويضُها، ولذِا كان الواجبُ على المسلم أن يحافظ عَلَى وقتِه، ويستفيدَ منه، ولقد كان السلفُ، رضيَ اللهُ تعالى عنهم، أحرصَ ما يكونون على أوقاتِهم لأنهم كانوا يعرفون قيمتَها. يقولُ الحسنُ البصريُّ: (أدركتُ أقوامًا كانوا على أوقاتِهم أشدَّ منكم حِرْصًا على دراهِمِكُم ودنانيرِكُم)، ويقولُ عمرُ بنُ عبدِالعزيز: (إن الليلَ والنهارَ يعملانِ فيكَ فاعملْ فيهما!). وكانوا يقولون: (مِنْ علامةِ المقْتِ إضاعةُ الوقتِ).

وكان حالُ السلفِ محاولتَهُمْ دائمًا الترقِّيَ مِن حالٍ إلى حالٍ أحسنَ منها بحيثُ يكونُ يومُ أحدِهم أفضلَ من أمسِه، وغدُه أفضلَ من يومِه..

يقولُ ابنُ مسعودٍ، رضي الله عنه: (ما ندمتُ على شيءٍ ندمي على يومٍ غَرَبَتْ شمسُهُ، ونَقَصَ فيه أجلي، وَلَمْ يَزِدْ فيه عَمَلِي).

وقال آخر: (كلُّ يومٍ يمرُّ بي لا أزدادُ فيه عِلمًا يُقَرِّبُني مِنَ اللهِ عز وجل فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلك اليومِ...).

---

(١) سورة الليل، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الفجر، الآيات: ١-٣.

وفي هذا قال الشاعر:

إذا مرَّ بي يومٌ وَلَمْ أَقْتَبِسْ هُدى ولم أستفدْ عِلمًا فَمَا ذَاكَ من عُمْري

ويجدُرُ بالمؤمنِ الذي يُقَدِّرُ قيمةَ الوقتِ وأهميتَهُ أن يملأَه بِفِعْلِ الخيرِ ما استطاعَ إلى ذلك سبيلاً، وقد أَمرَ اللهُ تعالى في القرآنِ الكريم باستباقِ الخيراتِ والمسارعةِ إليها قبلَ أن تُشْغِلَ عنها الشواغِلُ، أو تَعُوقَ العوائِقُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾[3].

كما ينبغي للمؤمنِ أن يتخذَ من مرورِ الليالي والأيامِ عبرةً لِنفْسِه، فإن الليلَ والنهارَ يُبْلِيانِ كلَّ جديدٍ ويُقَرِّبانِ كلَّ بعيدٍ، ويَطويانِ الأعمارَ، ويُشيبانِ الصغارَ، ويُفنيان الكبارَ. قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾[4].

عبادَ اللهِ: إن مما ينبغي الحذرُ منه والبعدُ عنه ما وقع فيه كثيرٌ من المسلمين من إضاعةٍ للأوقاتِ وتبذيرٍ للساعاتِ.. وهذا مما يُدمي القلبَ ويمزِّقُ الكَبِدَ أسًى وأسفًا.

ومن العباراتِ التي أصبحت مألوفةً عند هؤلاء أنه يقولُ أحدُهم

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٤) سورة النور، الآية: ٤٤.د

إذا سُئلَ عما يَحمِلُهُ على هذه الجَلسَةِ الفارِغَةِ المُمِلَّةِ وقد تكونُ أيضًا جَلسةً آثمةً فاجرَةً فيُجيبُ قائلاً: «أقتُلُ الوقتَ وأُضَيِّعُهُ». . وما درى هذا المسكينُ أن مَنْ يَقتُلُ وقتَهُ إنما يَضُرُّ نَفْسَهُ فإنما الوقتُ هو الحياةُ.

وهذا الفراغُ نعمةٌ مِنَ اللهِ سبحانه وتعالى وسَيُسْأَلُ العبدُ عنها. وفي الحديثِ: «**اغتنمْ خمسًا قبلَ خمس**» - وَعَدَّ منها - «**وفراغَكَ قبلَ شُغُلِكَ**». والفراغُ لا يَبْقى فراغًا أبدًا، فلابد له أن يُملأَ بخيرٍ أو شَرٍّ، ومَن لم يُشغِلْ نفسَهُ بالحقِّ شغَلتْهُ نفسُهُ بالباطِلِ، فطوبى لمن ملأَهُ بالخيرِ والصلاحِ، وويلٌ لمن ملأه بالشرِّ والفسادِ.

عبادَ اللهِ: إن مِن الآفاتِ التي ابتُلِيَ بها كثيرٌ من المسلمين أنهم غيرَّوا نظامَ يومِهم وخُصوصًا في شهرِ رمضانَ، فَهُم يَسهَرون طويلاً وقد يكون هذا السهرُ على لهوٍ محرمٍ أو فضولِ كلامٍ وأقلُّ ما في ذلك تضييعُ الأوقاتِ ويتأكدُ ذلك إنْ كانت هذه الأوقاتُ فاضلةً كرمضانَ، ثم بعدَ السهرِ المكدودِ والأجسامِ المتعَبةِ المنهكةِ، ينامون في نهارِهم طويلاً وقد ينامون عن بعضِ الصلواتِ كصلاةِ الفجرِ.

وهذا مِن شرِّ البَلِيَّاتِ، ومن عَظائِمِ المصائبِ والطّامّاتِ.

ولا شك أن مَن كان هذا دَأْبَهُ وعادتَه، وذلك دَيدَنَهُ ومنهاجَهُ أن سهرَهُ هذا مُحَرَّمٌ كما أفتى بذلك العلماءُ الأفاضلُ لأنه أَلْهَاهُ عن فروضِ دينهِ، وأَخَّرَ بسببهِ الأركانَ عن أوقاتِها، فيجبُ الحذرُ - عبادَ

اللهِ - مِن كلِّ ما يجلِبُ لنا المآثمَ والسيئاتِ، والابتعادُ عن الغرورِ والغفلاتِ، والاستغفارُ من جميعِ الذنوبِ والخطيئاتِ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1].

أيها الإنسانُ: يا مَن أيامُ عمرِه في حياتِه معدودَةٌ، يا مَن عُمرُه يُقضى بالساعةِ والساعةِ، يا كثيرَ التفريطِ في قليلِ البضاعةِ، يا شديدَ الإسرافِ، يا قويَّ الإضاعةِ، كأني بك عن قليلٍ تُرمَىٰ في جوفِ قاعةٍ، مَسلوبًا لباسَ القُدرةِ وبأسَ الاستطاعةِ، وجاءَ مُنكرٌ ونكيرٌ في أفظعِ الفَظاعةِ، وأمسيتَ تجني ثمارَ هذه الزراعةِ، وتمنيتَ لو قَدَرْتَ على لحظةٍ لِطاعةٍ، وَقُلتَ: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾[2] وما لَكَ كَلِمَةٌ مُطاعةٌ، يا متخلِّفًا عن أقرانِه قد آنَ أَنْ تلحَقَ الجماعةَ.

يا ساهيًا لاهيًا عما يُرادُ به ... آنَ الرحيلُ وما قَدَّمْتَ مِن زادِ

ترجو البقاءَ صَحيحًا سالمًا أبدًا ... هيهاتَ إن غدًا فيمن غدا غاد

إخواني: أيامُ العافيةِ غنيمةٌ باردةٌ، أَوقَاتُ السلامةِ لا تُشبِهُها فائدةٌ، فتناولْ مادامتْ لديكَ المائدةُ، فليستِ الساعاتُ الذاهباتُ بعائدةٍ.

مضى أمسُكَ الماضي شهيدًا مُعَدَّلاً ... وأتبعَـهُ يـومٌ عليـك شهيـدُ

فإن تكُ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فبـادرْ بـإحسـانٍ وأنـتَ حميـدُ

ولا تُبقِ فِعْلَ الصالحاتِ إلى غدٍ ... لعـلَّ غـدًا يـأتـي وأنـتَ فقيـدُ

إذا ما المنايا أخطأَتكَ وصادَفَتْ ... حميمَـكَ فـاعلـمْ أنهـا ستعُـودُ

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.

عبادَ اللهِ: قد ابتُلِيَ الكثيرُ منَّا بالإكثارِ والإفراطِ في تناوُلِ المطعوماتِ والمشروباتِ وخصُوصًا ما كان بعدَ حَظْرٍ ومنعٍ كما يكونُ الحالُ في رَمَضانَ.

فما أن يَحِلَّ موعدُ تناوُلِ الطعامِ والشرابِ كما في وقت الإفطارِ مثلاً إلا وتجدُ الكثيرَ يسارعُ إلى ما أمامَه من حارٍّ وباردٍ، ورَطْبٍ ويابِسٍ، ومطعومٍ ومشروبٍ، ونحنُ لا نقولُ بمنع تناولِ الطيباتِ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(١)، ولكنَّ الذي نُنَبِّهُ إليه ونُحذِّرُ منه هو الإفراطُ في ذلك كلِّه، يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾(٢)، فالمسلمُ يحرِصُ كلَّ الحرْصِ على أن يكونَ صَحيحَ الجسمِ، قويَّ البُنْيَةِ. ولهذا فهو يَعتَدِل في طعامِهِ وشرابِهِ، لا يُقبلُ على الطعامِ إقبالَ النَّهِمِ، وإنما يُصيبُ منه ما يقيمُ به صُلبَهُ، ويَحفَظُ عليه صحتَهُ وقوَّتَهُ ونَشاطَهُ.. يقولُ الرسولُ ﷺ: «**ما ملأ آدَميٌّ وعاءً شرًّا من بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابنِ آدمَ أُكْلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإن كانَ لا محالةَ، فَثُلُثٌ لِطعامِهِ، وَثُلُثٌ لِشرابِهِ، وثُلُثٌ لِنَفَسِه**» رواه الترمذي وقال حديث حسن وحسَّنَهُ ابن حجرٍ وصححهُ الألبانيُّ. «أُكلات» أي: لقمٌ.

ويقولُ عُمرُ بنُ الخطابِ، رضي الله عنه: «إياكم والبِطْنَةَ في الطعامِ والشرابِ، فإنها مُفْسِدَةٌ للجَسَدِ، مُورِثَةٌ للسَّقَمِ، مُكَسِّلَةٌ للصلاةِ، وعليكم بالقَصْدِ فيهما فإنه أصلحُ للجَسَدِ، وأبعدُ من

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

السَّرفِ. وإن اللهَ ليُبغِضُ الحَبْرَ السمينَ، وإن الرَّجُلَ لن يَهلِكَ حتى يُؤْثِرَ شهوتَهُ على دِينهِ»[1]. وأخرج البخاري ومسلم عن ابنِ عمرَ عن رسولِ اللهِ ﷺ: «**المؤمنُ يشربُ في معى واحدٍ، والكافرُ يَشربُ في سبعةِ أمعاءَ**»[2]. وقد تواترتِ الأقوالُ والآراءُ مِن العلماءِ والأطباءِ وأصحابِ الشأنِ أن التُّخْمَةَ والشِّبَعَ الزائدَ عن حَدِّه وإدخالَ الطعام على الطعام أن ذلك كلَّهُ من أسبابِ الأمراضِ الكثيرةِ والعِلَلِ الباطِنةِ قال الحارِثُ بنُ كَلْدَةَ وهو الطبيبُ العربُّي المشهورُ: «الحُميَةُ رأسُ الدواءِ، والبطِنَةُ رأسُ الداءِ».

وفوائِدُ التقليلِ من الطعامِ لا يحصُرُها عدٌّ ولا يحدُّها حَدٌّ. ومَنْ نَظَرَ في حياةِ الرسولِ ﷺ وأنه لم يَشبعْ من خُبزِ الشعير حتى توفاه اللهُ وأن الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم كانوا قَريبًا من حالهِ ﷺ ومن جاء بعدَهُم مِمَّن عرفَ قيمةَ الاتِّباعِ ومجانبةِ الهوى والشهواتِ.. عرف أنهم لم يُقَلِّلُوا ولم يُفَرِّطوا في الطعامِ والشرابِ إلا لحكمةٍ ومَصلحةٍ.. رُوِي عن عبدِاللهِ بن عُمرَ في أكْثَرَ من روايةٍ أنه كان في طعامِهِ لا يَبلُغُ حَدَّ الشِّبَعِ.. وعبدُاللهِ بنُ عمرَ ناهيك به اتِّبَاعًا للسُّنةِ في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، رضي اللهُ عنه وأرضاه. قال سفيانُ الثوري، رحمهُ اللهُ: «إن أردتَ أن يَصِحَّ جسمُكَ، ويقلَّ نومُك فأَقلِلْ من الأكلِ»، قيل لأحمدَ بنِ حنبلَ رحمه اللهُ: «هل يجدُ الرجلُ من قلبهِ

---

(١) الكنز (٨/ ٤٧)

(٢) مسلم: الأشربة ٢٠٦٣، البخاري ٩/ ٥٣٦، وقيل في معنى الحديث إنما هو مثل ضرب للمؤمن وزهده في الدنيا والكافر وحرصه عليها، وقيل في معناه أقوال كثيرة ومن اراد الاستزادة فليرجع إلى الفتح ٩/ ٥٣٨.

رِقَّةً وهو شَبعٌ؟ فأجابَ: ما أرى...». وقال محمدُ بنُ واسع، رحمهُ الله تعالى: «من قلَّ طعامُه فَهِمَ وأَفهَمَ وصفا وَرَقَّ، وإن كثرةَ الطعامِ لَتَغِلُّ صاحبَها عن كثيرٍ مما يُريدُ». قال عمرُو بنُ قيس: «إياكم والبطنةَ فإنها تُقَسِّي القلبَ».

وقد قيل: «لا تأْكُلوا كَثِيرًا، فَتَشْرَبُوا كَثِيرًا، فتنامُوا كثيرًا، فتخسرُوا كثيرًا».

فيا مَن أنفاسُه عليه معدودةٌ، وأيامُه مكتوبةٌ محسوبةٌ.

كم أسرعْتَ فيما يؤذي دينَك وَدَأَبْتَ؟ كم خرقْتَ ثوبَ إيمانِك وما انْتَبَهْتَ؟

كم فاتك من خيرٍ وما أكْتأَبْتَ؟ يا كاسبَ الخطايا بئس ما كَسبْتَ، جَمَعْتَ جُملةً من حسناتِك ثم اغتبتَ؟ تعلمُ أن مولاك يراك وما تَأَدَّبْتَ، تؤثِرُ ما يفنى على ما يَبقَى وما أصبْتَ، تُصبِحُ تائبًا فإذا أمسيتَ كذبتَ، تَعمرُ مالا يَبْقَى. وما يَبْقَى خَرَّبتَ، تأنسُ بالدُّنيا وغُرورِها وقد جَرَّبتَ، كَأَنِّي بك في القبرِ تبكي ما كَسبْتَ، هل لنفسِك حاسبتَ؟.

عبادَ الله، يقول الحق سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾[1]. ذلك اليومُ العظيمُ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾[2]. فَخُذوا من حياتِكم قبلَ موتِكم وَمِنْ صِحتِكم قبلَ مرضِكم واستَعِدّوا لِذلك اليوم.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

فإن العاقلَ البصيرَ من حاسبَ نفسَهُ على جميع أفعالِه وأقوالِه هل هيَ صالحةٌ أم لا؟ وإذا كانتْ صالحةً هل أرادَ بها وجهَ اللهِ؟ فإن مَن حاسبَها اليومَ هان عليه الحسابُ يومَ القيامةِ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1]. قال عمرُ بنُ الخطاب، رضي الله عنه: «حاسِبوا أنفسَكم قبلَ أن تُحاسَبوا وزنُوها قبلَ أن تُوزَنُوا، فإنه أهونُ عليكم في الحسابِ غدًا أَنْ تُحاسِبُوا أنفُسَكُمُ اليومَ، وَتَزَيَّنُوا للعَرْضِ الأكبرِ، يومئذٍ تُعْرَضُونَ لا تخفى منكم خافيةٌ»[2]. رواه ابن المبارك وأبو نعيم.

عبادَ اللهِ، قِفوا مع أنفسِكُمْ طويلاً وحاسِبوها حِسابًا دقيقًا فإنكم على ذلك مُحاسَبون ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

كتبَ عُمرُ بنُ الخطابِ، رضي الله عنه، إلى أحدِ عُمّالِه «حاسِبْ نفسَك في الرخاءِ قبلَ حِسابِ الشِّدةِ فإن مَنْ حاسَبَ نفسَهُ في الرخاءِ قبلَ الشِّدةِ، عادَ أمرُه إلى الرِّضى والغِبطَةِ، ومَنْ أَلْهتْهُ حياتُه وشَغَلَتْهُ أهواؤُه عادَ أمرُه إلى الندامَةِ والحسْرَةِ».

وقالَ مالِكُ بنُ دِينارٍ: «رَحِمَ اللهُ عبدًا قال لِنفسِهِ: ألسْتِ صاحبةَ كذا؟ ألسْتِ صاحبةَ كذا؟ ثم ذَمَّها، ثم خَطَمَها، ثم ألزَمَها كتابَ اللهِ عز وجل، فكان لها قائدًا».

---

(١) سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.

(٢) ابن المبارك في الزهد ص ١٠٣ وأبو نعيم ج ١/ ٥٢ وفي سنده انقطاع.

(٣) سورة المجادلة، الآية: ٦.

إخواني تَزَيَّنوا للعَرْضِ الأكبرِ يومَ تُبلى السَّرائِرُ، تَزينوا بالعَمَلِ الصالحِ الخالِصِ، تَزينوا بإزالةِ المنكراتِ من بُيُوتِكُمْ ومجتَمَعِكم حتى تَفْرَحُوا بذلك ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾(١).

ذُكِرَ أنّ رَجُلاً كان مُحَاسِبًا لِنفسِهِ فَحَسَبَ يومًا فإذا هو ابنُ ستِّينَ سَنةٍ، فَحَسَبَ أيامَها فإذا هيَ إحدى وعِشْرونَ ألفَ يومٍ، فَصرخَ وقال: يا وَيْلَتَىٰ ألقى ربي بإحدى وعِشرين ألفَ ذَنبٍ؟ كيفَ وفي كلِّ يومٍ آلافٌ مِنَ الذنوبِ؟ ثم خَرَّ مَغْشيًّا عليه.

عبادَ الله إنّ النفوسَ تَرْكَنُ إلى الكَسَلِ وتُحِبُّ الشهواتِ ولكنْ ليسَ ذاك بطريقِ النجاةِ الذي يَسعى له المسلمُ الجادُّ الحَريصُ على الفوزِ في آخِرَتهِ، بل إن السعيَ خَلْفَ الشهواتِ طريقٌ وَعِرٌ يوصِّل إلى النارِ. عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُجبَتِ النارُ بالشهواتِ وحُجِبَتِ الجنةُ بالمكارِهِ**» متفق عليه.

فعليكُم عبادَ اللهِ بِمُجاهَدَةِ النَّفْسِ والصَّبرِ على طُرُقِ الخيرِ واتَّخِذُوا مِنَ الرُّسُلِ الكرامِ ومَنْ سارَ على نَهجِهم في سالِفِ الأزمانِ قُدوةً لَكُمْ حتى تفوزوا بالجنانِ، واحذروا مِمَّن اتَّبَعَ هواه وكان أمرُه فُرُطًا، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٠.

(٢) سورة سورة الكهف، الآية: ٢٨.

قال قَتادة رحمه اللهُ، عِندَ قولِه ﴿أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾: أضاعَ نفسَه وغُبِن مَعَ ذلك تراه حافِظًا لمالِه مضيِّعًا لِدِينه.

إخواني مَن نامَ عَنْ صلاةِ الفجرِ ولم يَحْضُرْ إليها في وَقتِها المحدَّدِ، ولكنَّهُ حَضَرَ إلى وظيفتهِ في وقتِها المحددِ ألم يُقَدِّمِ الدُّنْيا على الآخِرَة؟ ألم يَكُنْ أمرُه فُرطًا؟ مَنْ أَهْمَلَ الزوجَةَ والأولادَ ولم يُعَلِّمْهُم دينَهم، وَيُربِّهم عليه ويُلزِمْهم إياه، وانشغل بِدُنياهُ؛ مِنْ عُمالٍ في مَتْجَرِهِ وَمَصْنَعِهِ وَمَزرَعَتِه، وَعَرَفَ أينَ يَقضِي هؤلاءِ العمالُ أوقاتَهم، ألم يُقدِّم الدنيا على الآخِرةِ؟ ألم يَكُنْ أمرُه فُرُطا؟. رَحِمَ الله قَتَادَةَ! كيفَ لو رأى ما نَحنُ فيه مِنَ التفريطِ والاضاعةِ كيفَ لو رأى ما نحن فيه مِن لهوٍ ولَعِبٍ؟ ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾(١).

عبادَ اللهِ، إن الدارَ الآخِرةَ هي الحياةُ الحقيقِيَّةُ الباقيةُ الدائِمةُ، أمّا الدنيا فهي كما ذَكرَ اللهُ سبحانَه لهوٌ ولَعِبٌ تَخدَعُ أصحابَها لا يدومُ بها سرورٌ ولا حياةٌ ولا مالٌ فهذا المالُ إمّا يَذهَبُ عَنكَ في حياتِكَ فَتَفْتَقِرَ بعد غِنًى أو تذهبُ عنهُ بالموتِ.

تَروحُ لنا الدنيا بِغَيرِ الذي غَدَتْ ... وَتَحدُثُ مِن بعدِ الأُمورِ أمورُ
وَتَجرِي الليالي باجتماعٍ وفُرقَةٍ ... وَتَطْلُعُ فيها أنجُمٌ وتَغورُ
فَمَنْ ظَنَّ أن الدهْرَ باقٍ سُرورُه ... فَذاكَ مُحالٌ لا يَدُومُ سُرورُ
عَفا اللهُ عمَّن صَيَّرَ الهمَّ واحِدًا ... وَأَيْقَنَ أنّ الدَّائِراتِ تَدُورُ

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

اللهم آتِ نفوسَنا تقواها، وزكّها أنتَ خيرُ مَنْ زَكّاها، أنتَ وليُّها وَمَولاها، رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنةً وَقِنا عَذابَ النارِ. اللهم إنّا نَسْأَلُكَ العَفوَ والعافِيَة في دِينِنا وَدُنيانا وَأَهْلِنا وَمَالِنا. اللهم استُرْ عَوْرَاتِنا وآمِنْ رَوْعاتِنَا واحفَظْنا مِن بَين أيدِينا وَمِن خَلْفِنا وَعَن أيمانِنا وَعَن شَمائِلِنا وَمِنْ فَوقِنا، وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتالَ مِنْ تَحتِنا. اللهم ارحمْ جَميعَ مَوتىٰ المسلِمين واغفرْ لَنا وَلَهُم يا ربَّ العالمين، وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِهِ أجمعين.

الباب السادس

مكائد الشيطان ومصائده

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ. الرحمنِ الرحيم. مالك يوم الدّين. خلقَ أبانا آدمَ من طينٍ، وجعلَ نَسْلهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهينٍ. ثم سَوّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وأكْرَمَهُ على خَلْقِه أجْمعين. أمَر ملائِكَتَهُ الكرامَ بالسُّجُودِ له إظْهَاراً لفَضْلِهِ وإشْهَاراً لأمرِه، فَحَسَدَهُ على ذلِكَ إبْليسُ اللعينُ، فأبى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ، فَطَرَدَهُ اللهُ من رحمتِهِ وأسْكَنَ آدمَ وَزَوْجَهُ جَنةَ النَّعِيم، فَبقِيَا فِيهَا حَتى أغْوَاهُما إبْلِيسُ فَعَصَيا رَبَّ العالمين. ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[1].

أحْمدُهُ سُبْحَانَه وَهُوَ لِلْحَمْدِ أَهْلٌ، وأَشْكُرُهُ على مَا أَوْلى مِنَ النِّعَمِ العَظِيمَةِ والآلاَءِ الْجَسِيمَةِ، وأَسْأَلُهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَقِينَ، الَّذِيْنَ لاَ خَوْفٌ عَلِيهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ. وَأَشْهَدُ أَنّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

صَلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِه وأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ، وَمَنِ اقْتَفَى أَثَرَهُمْ وَاهْتَدَى بِهُدَاهُم إلى يَوْمِ الدِّينِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

عبادَ الله: لَقَدْ قَصَّ اللهُ تَعَالَى عَلَينَا قِصَّةَ خَلْقِ أَبِينَا آدمَ عَلَيهِ السَّلاَمُ وَتَكْرِيمِ اللهِ لَهُ وُحَسْدِ إِبْلِيسَ، وَطَرْدِهِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَعَدَاوَتِهِ لآدمَ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

وَذُرِّيَّتِهِ، فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ الْكَرِيم فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[1].

فَلَقَدْ أَبَى إِبْلِيسُ أَنْ يَسْجُدَ لآدمَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. وَقَدْ حَمَلَهُ الْحَسَدُ والكِبرُ على مَعصيةِ اللهِ وَرَفْضِ أَمْرِ جَبّارِ السماواتِ والأرضِ فَكانَ مصيرُه الطردَ والإبعادَ عَن رحمةِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[2].

أَهْبَطَ اللهُ تعالى إبليسَ لَعنهُ اللهُ، وَأَسْكَنَ آدمَ وَزَوْجَهُ الجنةَ ينعُمانِ بما فيها من النَّعِيم والخَيرِ العَظِيم، ولكنَّهُ سُبحانَهُ وتعالى نَهاهُما عَنِ الأكلِ مِن شَجَرَةٍ مَخصُوصَةٍ في الجنةِ ابتلاءً لَهُما وامتحانًا. قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[3].

فَصارَ عدوُّ اللهِ إبليسُ يحاولُ جُهدَهُ أن يُغْرِيَهُما بالأَكْلِ مِنَ الشَّجَرةِ، فَجاءَهُما مِنْ بابِ الخوفِ على زَوالِ ما هُما فيهِ مِنَ النِّعْمَةِ، والرَّغْبَةِ في الخُلُودِ، وَصارَ يُقسِمُ لَهُما إنهُ لَهُما ناصِحٌ ولا يُريدُ لهما إلا الخيرَ ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[4]. فصدَّقَ الأبوانِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٩.
(٤) سورة الأعراف، الآيتان: ٢٠، ٢١.

إبليسَ فأكلا من الشَّجرَة ﴿ فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴾[1]، عَصَيَا أمرَ اللهِ تعالى وأطاعا الشيطانَ فناداهُما ربُّهما: ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[2]. فاعْتَرفَ الأَبوانِ بخَطَئِهما وَلَمْ يُصِّرا على مَعْصيَتِهما كما أَصَرَّ إبليسُ على مَعْصِيَتِهِ، وَتابا إلى اللهِ تعالى فَتابَ عَليهما وَعَفا عَنْهُما وأهْبَطَهُما إلى الأرضِ كَما أَهبطَ إبليسَ مِنْ قَبلُ، وَلَكِنَّهُ أَهبَطَهُما مغفورًا لَهما وأهبطَ إبليسَ مَلعُونًا مَطرودًا مِنْ رحمةِ اللهِ.

وَلَقَدْ أقسَمَ عَدُوُّ اللهِ إبليسُ أن يُضِلَّ الناسَ وأن يُخرِجَهم مِنَ رَحمةِ اللهِ إلى غَضَبِهِ وَسَخَطِه، ومِن جَنَّتِهِ إلى نارِه ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[3]، وأَخبرَ اللهُ تعالى عن إبليسَ أنه قال: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[4].

وَلَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تعالى عداوةَ الشيطانِ لَنا وأَمرَنا باتِّخاذهِ عدُوًّا لأنهُ يدعو حِزبَهُ لِيَكونوا مِنْ أهلِ النارِ وبئسَ المصيرِ. قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[5]، فَلا يَكْفِي أن نُؤمِنَ بِعَداوَةِ الشيطانِ لَنا إيمانًا نَظريًّا، وَلَكِنْ عَلَينا أن نُتْبِعَ هذا الإيمانَ النظريَّ بِخُطْوَةٍ عَمَلِيَّةٍ وَهي اتخاذُه

(١) سورة طـه، الآية: ١٢١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٢.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٨٢، ٨٣.
(٤) سورة النساء، الآية: ١١٩.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٦.

عَدُوًّا وَذلِكَ بِعَدَمِ طاعَتِهِ في أَمرِهِ وَنَهْيِهِ، فَهُوَ إنّما يَأمُرُ بالشَّرِ وَيَنْهى عَنِ الخَيرِ وَيَسْعَى جَاهِدًا لإِضلالِ مَنْ يَستَطِيعُ مِنَ الناسِ حتى يكونوا معَهُ في العذابِ الشَّدِيدِ عِياذًا باللهِ مِنْ ذلك.

فالشيطانُ - عبادَ اللهِ - عَدُوٌّ لَنا ظاهِرَ العداوةِ كَما كانَ عَدُوًّا لأَبَوَيْنا وَيُرِيدُ إِخْراجَنا مِنْ رَحمةِ اللهِ تعالى وإدخالَنا في نارِهِ وَعَذابِهِ، وَيُحاوِلُ ما استطاعَ إلى ذلك سَبيلاً. وَلَقَدْ جاءَ التَّعقِيبُ القرآنّي على قِصَّةِ آدمَ وإبليسَ في سورة الأَعراف مُحَذِّرًا بَني آدَمَ مِنْ طاعَةِ الشيطانِ. يقولُ اللهُ تبارَكَ وتعالى: ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]، فَيُنادي اللهُ تعالى الناسَ مُذَكِّرًا لهم بأَنّهم بَنُو آدمَ الذي أَخْرَجَهُ إبْليسُ مِنَ الجنّةِ وَمُحَذِّرًا لَهُم مِنْ أَنْ يُطِيْعُوا الشيطانَ فَيفتِنَهُم، كَما أخرجَ أَبَويهِمْ مِنَ الجنةِ، كَما يُوحِي هذا التعقيبُ على القِصَّةِ بِأَنّ الناسَ بَنُو آدمَ، وأَنّ آدمَ عَصى ربَّه ثُم تابَ إلى ربِّه فتَابَ عَليهِ، فَمَنْ عَصىٰ رَبَّه مِنْ ذُرِّيَّةِ آدمَ فَلْيَتُبْ كَما تابَ آدَمُ حَتى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ، وَعَلَيْهِ أَلّا يُصِرَّ على مَعْصِيَتِهِ كما أَصرّ إبليسُ فَكَانَ مصيرُه الطردَ والإِبعادَ مِنْ رحمةِ اللهِ تعالى.

وَلَقَدْ حَمَلَ الشيطانُ على عاتِقِهِ مُهِمَّةَ إضلالِ البَشَرِ وإخْراجِهم مِنَ النورِ إلى الظلماتِ كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[1].

وَيَعْمَلُ عدوُّ اللهِ على إبعادِ الناس عَنِ الصِّراطِ المستقِيم لِيَتَّبِعُوا السُّبُلَ الضّالَّةَ إِذْ كُلُّ سبيلٍ سِوى سَبيلِ اللهِ فهو مِن سُبُلِ الشيطانِ. قال اللهُ تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[2].

وَيُبَيِّنُ هذا حديثُ ابنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ «خَطَّ خَطًّا بيَدِه ثم قالَ: **هذا سبيلُ اللهِ مُستقِيمًا**، ثُم خَطَّ خُطوطًا عَنْ يَمين ذلك الخطِّ وَعَنْ شِمالِه ثُم قَالَ: **وهذه السُّبُلُ لَيْسَ منها سَبيلٌ إلا عليه شَيطانٌ يَدعُو إليه. ثم قرأ هذه الآية**: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ﴾». رواه الإمام أحمد وغيره.

وَمِن رَحمةِ اللهِ تعالى أنهُ يَحْمِي عِبادَهُ المتقينَ مِن كَيدِ الشيطانِ وإغْوائِه، كَما قالَ سُبحانَهُ وَتعالى مُخْبرًا عَنْ إبليسَ أنه قال: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ * لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

(٣) سورة الحجر، الآيات: ٣٦-٤٤.

وَلَقَدْ جَعَلَ اللهُ تعالى ضَمَانَةَ السلامِ مِنْ كَيدِ الشيطانِ اتِّباعَ شرعِ اللهِ وَطاعَتَهُ وذلك بِفِعْلِ أوامِرِهِ واجتِنابِ نَواهيهِ. وإنما يُضِلُّ الشيطانُ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكرِ اللهِ كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2].

والشيطانُ حريصٌ جدَّ الحِرصِ على إخراجِ الناسِ مِن الإيمانِ إلى الكفرِ فإن لَمْ يَسْتَطِعْ عَمِلَ على إخراجِهِمْ مِنَ الاتِّباعِ إلى الابْتِداعِ فإن لَّم يَسْتطِعْ عَمِلَ عَلَى إخْراجِهِمْ مِنْ الطاعَةِ إلى العِصْيانِ، وَقَدْ لا يُطِيعُهُ كثيرٌ مِنَ الناسِ في الكُفْرِ، فَيَعْمَدَ عَدُوُّ اللهِ إلى إبعادِهم عَنِ الهِدايةِ قَدْرَ ما يَسْتَطِيعُ. وَهُو ذو أُسلُوبٍ في الكَيدِ عَجيبٍ. فَإنّهُ يأتي إلى كُلِّ إنسانٍ مِن البابِ الذي يَتَوَقَّعُ أنّه يستطيعُ إضْلالَهُ مِنْهُ، فَإن كانَ عِندَ الإنسانِ تَقْصِيرٌ أو فُتُورٌ أخذَهُ الشيطانُ من هذا الجانبِ فَيُثَبِّطُهُ وَيُقَعِّدُهُ وَيَضربُهُ بالكَسَلِ والتَّوانِي، وَيُيَسِّرُ له فِعْلَ المعاصِي، وَيُهَوِّنُ عِنْدَهُ عَواقِبَها، وَيَفْتَحُ لَه بَابَ الرَّجاءِ، وَيُوردُ على ذِهْنِه بَعْضَ مَا وَرَدَ في سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ تعالى وأنّ الناسَ خَطّاؤُونَ وَمُذْنِبُونَ، وَنَحوَ ذلك

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٢٣-١٢٦.

مِنْ مِثْل قولِ اللهِ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

وَقَولِ الرسولِ ﷺ : «**إنّ للهِ مائةَ رَحْمةٍ أَنْزَلَ منها رحمةً واحِدَةً وأَخَّرَ تِسْعًا وتِسْعَينَ رحمةً يَرْحَمُ بِها عِبادَه يومَ القيامَةِ**» .

حَتى رُبَّما تَرَكَ هذا الإنسانُ المأمورَ بِهِ جميعَهُ وَارْتَكَبَ كَثِيرًا مِن المعاصي مُعْتَمِدًا على سَعَةِ رحمةِ اللهِ تعالى ناسِيًا أنَّ اللهَ تعالى كما أنّه غَفُورٌ رَحِيمٌ فإنَّه شَدِيدُ العِقابِ . قال سُبحانَه : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

وَقالَ سُبْحانَه : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾[3] ، وَقَدْ تكُونُ بِدَايةُ الشيطانِ مَعَهُ بَسِيطةً بِحَيْثُ يَأمرُهُ وَيُزَيِّنُ لَهُ فِعلَ مَعْصِيَةٍ بَسِيطَةٍ ثُمَّ يَجُرُّهُ بَعْدَها إلى فِعْلِ ما هُوَ أكبرُ مِنها وَهكَذا حَتى يُوقِعَهُ في الموبِقاتِ ، وانْظُروا عبادَ اللهِ إلى بدايةِ كثيرٍ من المُدمِنينَ على المُخَدِّراتِ مَثَلاً كَيْفَ كانتْ ! ! ، لَقَدْ زَيَّنَ لَهُم الشيطانُ مُصاحَبَةَ الأَشْرارِ فَلَمّا صَاحَبُوهُم صارُوا يُدَخِّنُونَ مِثْلهُم ثُم لَمْ يَزَل يَنْتَقِلُ بِهم مِنْ مَرْحَلَةٍ إلى مَرْحَلةٍ حتى أَوقَعَهُم فِيما أَوقَعَهُم فِيهِ ، وانظُرُوا أيضًا إلى الذينَ ابْتُلوا بِفِعْلِ الفواحشِ كَيفَ كانتْ بدايتُهم ! ! لَقَدْ زَيّنَ الشيطانُ لهم إطلاقَ النَّظرِ فِيما حَرّم اللهُ مِنَ النَّظرِ إلى النساءِ الأَجْنَبياتِ ، والنظرِ إلى الصُّورِ الخليعةِ ، سَواءً في المجلاتِ الماجِنَةِ أو الأَفْلامِ الساقِطَةِ ، ثم لم يَزَلْ يَنقُلُهم مِن طَورٍ

---

(١) سورة المزمل، الآية : ٢٠ .

(٢) سورة المائدة، الآية : ٩٨ .

(٣) سورة الحجر، الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

إلى طَورٍ حَتى وَقَعُوا في الفسادِ وَصَارُوا لا يَصْبرُون عنه، وَيُسافِرونَ إلى البلادِ الإباحِيَّةِ مِنْ أَجْلِهِ، وَما كانَ الواحدُ مِنْهُم في بِدايةِ أَمْرِه يَظُنُّ وهو يُطلِقُ بَصَرَهُ أَنْ يَصِلَ إلى ما وَصَلَ إليهِ. لَكِنَّهُ كيدُ الشيطانِ وَمَكْرُه. وَلَقَدْ أَحْسَنَ القائِلُ:

كُلُّ الحوادِثِ مَبْداها مِنَ النظَرِ ... وَمُعْظَمُ النارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشررِ

كَمْ نَظْرةٍ فَتكَتْ في قلبِ صاحبِها ... فَتكَ السهامِ بلا قَوسٍ وَلا وَترِ

والمرءُ ما دام ذا عَينٍ يُقَلِّبُها ... في أعيُنِ الغيدِ موقوفٌ على الخَطرِ

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ ما ضَرّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحَبًا بِسُرُورٍ جَاءَ بالضَّرَرِ

هذا إذا عَرَفَ الشَّيطانُ أَنّ عِندَ الإنسانِ تَقْصيرًا وَفُتُورًا عَنْ فِعْلِ الطاعاتِ، وَمَيلاً إلى فعلِ المعاصي. أَمّا إذا وَجَدَ عِندَهُ حَذَرًا وَتَشميرًا وَنَهضَةً وَحُبًّا للطَّاعاتِ وَكُرْهًا وَمَقْتًا لِلمعاصي، وأَيِسَ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنَ البابِ الأوَّل فإنّه يَأْمُرُهُ بالاجْتِهادِ الزائِد وَيُسَوِّلُ لَهُ وَيُزَيِّنُ عِندَه أُمُورًا من التَّشَدُّدِ كَثيرةً، وَينفُثُ في رَوْعِهِ أَنَّ هذا العملَ الذي أنتَ فيهِ لا يَكفيكَ، وَهِمّتُكَ فَوقَ هذا، وَينبغِي لك أن تَزيدَ على العامِلينَ، وأَلاَّ تَرقُدَ إذا رَقَدُوا، وأَلاَّ تُفْطِرَ إذا أَفطَروا وَإذا توضئوا هُمْ لِلصّلاةِ فاغْتَسِل لها أنتَ... وَنحوَ ذلك من الإفراطِ والتَّعدِّي، فَيحْمِلُهُ على الغُلوِّ والمجاوَزَةِ وَتَعدِّي الصراطِ المستقيم، كما يَحمِلُ الأولَ على التقصير دُونَ الصراطِ المستقيم، وألاَّ يَقْرَبَهُ.

وَمَقْصُودُ الشيطانِ من الرَّجُلَينِ وَاحِدٌ، وهو إخراجُهما عَنِ الصّراطِ المستقيمِ: فهذا بِأَنْ لا يَقْرَبَهُ ولا يَدْنُوَ منهُ وذلِك بالتَّقْصيرِ في

عَمَلِ الطاعاتِ والإكثارِ مِنْ فِعْلِ المعاصي، وهذا بأن يَتَجاوَزَهُ وَيَتَعدّاهُ بالغُلُوِّ الذي لَمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهِ سُلطانًا، والذي يَدْفَعُهُ إلى أنْ يَتَّهِمَ المسلمينَ ويُكَفِّرَهُم أو يُفَسِّقَهُم وَيُسِيءَ الظنَّ بِهم حتى لَقَدْ ذَكَرَ الإمامُ ابنُ القيِّم - رَحِمَهُ اللهُ - أَنَّ بَعضَ العُبَّادِ الذينَ نَقَصَ حَظُّهُم مِنَ العِلم امتنَعَ أَنْ يَأْكُلَ شَيئًا مما يُحمَلُ إليه مِنْ بلادِ المسلمينَ، وَكَانَ يَتَقَوَّتُ بما يُحمَلُ إليهِ مِنْ بلادِ النَّصارى. فَأَوْقَعَهُ الجَهْلُ المفْرِطُ والغُلُوُّ الزّائِدُ في إساءَةِ الظَّنِّ بالمُسْلِمينَ وإِحْسانِ الظنِّ بالنصارىٰ[1].

وَمَا أَحْسَنَ ما قال شيخُ الإسلامِ أبو إسماعيل الهروي - رَحِمَهُ اللهُ - في تعظِيم الأمرِ والنَّهي. قال - رحمه الله -: «هُو ألاّ يُعارَضا - أي الأمْر والنَّهْيُ - بتَرْخيصِ جافٍ ولا يُعَرَّضا لِتَشْديدِ غالٍ ولا يُحملا على عِلّةٍ تُوهِنُ الانقيادَ»[2]. أ. هـ.

وَذلِكَ لأَنَّ الجافِي يُفَرِّطُ في الأمرِ بأَلّا يَفعَلَهُ كَمَا يَنْبَغِي، وَفي النَّهْي بأَنْ يرتكبَهُ، والغالِي يَتَشَدّدُ في الأمرِ والنَّهي فَوقَ ما يَنْبَغِي، وقد يُكَفِّرُ مَنْ يُخالِفُهُما، والسُّنَّةُ وَسَطٌ بَينَ الإفراطِ والتَّفْريطِ.

وَمَعَ شِدّةِ عَداوَةِ الشَّيْطانِ للإنْسانِ وَحِرْصِهِ على إغوائِهِ وَإضْلالِه، إلاّ أَنَّ اللهَ تعالى لَمْ يَجعلْ لَهُ سُلْطانًا على عِبادِ اللهِ المتقينَ المخْلِصينَ المؤمنينَ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ

(١) انظر الوابل الصيب: ٣٧-٣٨.

(٢) انظر الوابل الصيب: ٢٥.

هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ﴾[1].

وَلَكِنْ لِشدّةِ كَيْدِ الشَّيطانِ وَمَكْرِه فإنّه يُوقعُ حَتّى المؤمنَ التقيَّ في مَعْصِيةٍ. وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ تعالى أَنْ فَتَحَ لِلعاصِي بابَ التوبةِ. يَتُوبُ العاصِي مِنَ الذَّنبِ فيتوبُ اللهُ عليهِ، بَلْ قَدْ تكُونُ هذه المعصيةُ خَيْرًا لَهُ حَيْثُ يُظْهِرُ مِنَ التوبةِ والندمِ والذّلِ والافْتِقَارِ والانكسارِ وصِدْقِ اللجوءِ إلى اللهِ ودَوامِ التضرُّعِ والدعاءِ والإكثارِ مِنَ الحسناتِ ما تكونُ تلكَ السيئةُ بِهِ سَبَبَ رحمتِهِ حتى يَقُولَ إبليسُ: يا ليتَني تَركتُه وَلَمْ أوقعْهُ في المعصيةِ. وهذا مَعْنى قولِ بعضِ السلفِ: إنّ العبدَ ليَعْمَلُ الذَّنْبَ يَدْخُلُ بِهِ الجنةَ، ويعْمَلُ الحسنةَ يَدخُل بها النارَ، قالوا: كَيفَ؟ قال: يَعْمَلُ الذنبَ فلا يزالُ نَصْبَ عَينَيه خائفًا منهُ مُشْفقًا وَجِلًا باكِيًا نادِمًا مُسْتَحْيِيًا مِنْ رَبِّهِ تَعالى، فَيكُونُ ذلك الذنبُ سَبَبَ سَعادَةِ العبدِ وَفَلاحِهِ حتى يَكونَ ذلك الذنبُ أنفعَ له مِنْ طاعاتٍ كثيرةٍ، وَيَفْعَلُ الحسنةَ فلا يزالُ يَمُنُّ بها على رَبِّه وَيتكَبَّرُ بها وَيرى نَفْسَهُ وَيُعْجَبُ بِها، وَيقُولُ: فَعَلْتُ وَفعَلْتُ، فَيُورِثُه ذلكَ مِنَ العُجْبِ ما يَكُونُ سَبَبَ هَلاكِه[2]. وهذا مِنْ كَيْدِ الشيطانِ الذي يُفْسِدُ بِهِ على الإنسانِ عَمَلَهُ الصّالِحَ. كَما أنّهُ قَدْ يُفْسِدُهُ عليهِ بالرياءِ وإرادَةِ ثَناءِ الناسِ وَمَدْحِهم. فالشيطانُ عَدُوّ للإنْسانِ، يَسْعى جُهْدَهُ لإِخراجِهِ عَنْ الصِّراطِ المستقيمِ إلى السُّبُلِ الضّالَّةِ، وَلا يَأْلُوا جُهْدًا في سَبيلِ تَحقِيقِ هَذه الغايةِ، حَتّى إنّه لَيَعرُضُ للإنْسانِ وهو في سَكَراتِ

---

(1) سورة النحل، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(2) انظر الوابل الصيب: ٢٠-٢١.

الموتِ علَّهُ يَنالُ مِنْهُ شَيئًا وَلَوْ يَسِيرًا.

فَلْنَحْرِصْ يا إخْواني المسلمينَ على اتِّخاذِ الشيطانِ عَدُوًّا وذلك بِعَدَمِ طاعَتِه في أيِّ أَمْرٍ مَهْما بَدا صَغيرًا، فإن الصَّغِيرَ يَكْبرُ، وَمُعْظَمُ النارِ مِنْ مُسْتَصْغَرِ الشَّرَرِ، وإذَا ما وَقَعَ الإنسانُ في مَعْصيةٍ فَلْيَعْلَمْ أَنَّها مِنْ كَيْدِ الشيطانِ وَلْيَتُبْ منها ما دامَ في زَمَنِ المُهْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَأتِيَ يَومٌ يَنْدَمُ فِيهِ وَلَكِنْ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ... قَبْلَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾[1]، فإنّ العبدَ إذا أَذْنَبَ نُكِتَ في قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سوداءُ فإنْ تَابَ مِنها صُقِلَ قَلْبُه، وإنْ زادَ زادَتْ حتّى تَعلوَ قلبَهُ فَذلك الرانُ الذي ذَكَرَهُ اللهُ تعالى في قولِه: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾[2].

وَلْنَتَذَكَّرْ أَنّ الشيطانَ - لَعَنَهُ اللهُ - يَدعُو الناسَ إلى اتّباعِهِ وطاعَتِهِ وَمَعْصِيَةِ اللهِ تعالى، وَيُزَيِّنُ ذلكَ للإنسانِ، وَلكنَّهُ بَعْدَ إيقاعِ الإنسانِ في المعصيةِ يَتَبرأُ منه في الدُّنيا والآخِرَةِ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[3].

وَيقُول سبُحانَهُ: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

(٢) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[1] .

اللَّهُمَّ يا حيُّ يا قيومُ يا عَليمُ يا ذا الجلالِ والإكرامِ أَعِذْنا مِن كَيدِ الشيطانِ الرجيم، وَكيدِ أعوانهِ من شياطينِ الإنسِ يا ربَّ العالمينَ .

اللَّهُمَّ لا تجعلْ للشيطانِ علينا سبيلاً .

اللَّهُمَّ اجعْلنا من عبادِكَ الأبرارِ وأعذْنا مِن كيدِ الفُجّارِ، واسْلُكْ بِنا سَبيلَ عِبادِكَ المصْطَفينَ الأخيار . وَنَجّنا يا مولانا مِن عذابِ النارِ .

اللَّهُمَّ اعصمْنا وذرارِينا وإخوانَنَا المسلمينَ مِن مُضِلّاتِ الفِتَنِ ما ظَهرَ مِنها وما بَطَنَ .

اللهم أَصْلِحْ لنا دِينَنا الذي هو عِصْمةُ أَمْرِنا وأَصْلِحْ لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلِحْ لنا آخِرتَنا التي إليها معادُنا، واجعلِ الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ، واجعلِ الموتَ راحةً لنا مِن كُلِ شرٍّ .

اللهم أصلحْ أحوالَ المسلمينَ شِيبًا وَشُبّانًا، رِجالاً وَنِساءً، أُمَراءَ ومأمورِينَ، يا ربَّ العالَمِينَ، واغفرِ اللهم لنا ولِوالِدِينا وَوالِدِيهم وَجَميعِ المسلمينَ، الأحياءِ مِنهم والميتينَ، بِرَحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ .

وصلِّ اللهمَّ وسلِّمْ على نَبِينا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصْحابِهِ أجمعينَ .

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان : ٢٢، ٢٣ .

الباب السابع

الجليس وأثره سلبا وإيجابا

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُه، ونستغفِرُه ونتوبُ إليه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسِنا ومِن سيِّئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَه، ومَن يُضْلِلْ فلا هاديَ لَه، وأشهدُ أَن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه، صلَّى اللهُ عَليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، ومنَ تَبِعهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ.

وبَعَد:

فإنَّ الله - جلَّ وعَلا - قَدْ حدَّدَ الغايةَ الَّتي لَها خَلَقَ الجنَّ والإِنسَ بقَولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]. وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾[3]. إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ الَّتي تُبينُ الهدفَ مِن إيجادِ الثَّقَلَينِ وَأنَّه عبادَةُ اللهِ وحدَه.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٦.

(٣) سورة الملك، الآيتان: ١، ٢.

وقد اقتَضَتْ حكمةُ اللهِ في خَلْقِه أنْ جَعَلَ الإنسانَ ميَّالاً بطبعِهِ إلى مُخَالطَةِ الآخَرينَ ومُجالَستِهمْ والاجتماع بِهِم.

وهذهِ المُجَالسَةُ والمقارَنةُ لَهَا أثَرُهَا الواضِحُ في فكرِ الإنسانِ ومنهجِهِ وسلوكِهِ. وهيَ سَببٌ فعَّالٌ في مَصيرِ الإنسانِ وسَعادتِه الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ؛ فإنَّ المرءَ يتأثرُ بِجَليسِه ويَصطَبِغُ صِبْغَتَهُ فِكرًا ومُعتَقَدًا وسُلوكًا وعَملاً.

وقد دلّ على ذلكَ الشرعُ والعَقْلُ والواقعُ والتجْرِبةُ والمُشاهَدةُ.

فمِنْ دِلَالةِ الشَّرْعِ ما أخبرَ بهِ - سُبحانَه - عن ندمِ الظَّالِم يومَ القيامةِ وتَأسُّفِه على مُصَاحبتهِ لِمَنْ ضلَّ وانحرفَ، وكانَ سَببًا في انحِرَافِه وإضْلالِه قال - تعالى -: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾[1].

قالَ ابنُ جَريرٍ في تَفسيرِه: «﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾ المشركُ بربِّه على يَدَيهِ نَدمًا وأَسفًا على ما فَرَّطَ في جَنْبِ اللهِ وأَوْبَقَ نفسَهُ بالكفرِ في طاعةِ خَليلِهِ الذي صَدَّهُ عن سبيلِ رَبِّه، يقولُ: يا لَيتَني اتخذتُ في الدُّنْيا مَع الرَّسولِ سَبيلاً، يَعْني طَريقًا إلى النجاةِ منْ عذابِ اللهِ...، وقولُه: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ﴾ يقولُ - جلَّ ثناؤُه - مخبرًا عنْ هذَا النادمِ على مَا سَلَفَ مِنهُ في الدُّنيا من مَعصيَةِ ربِّه في طاعةِ خَلِيلِهِ: لقد أَضَلَّني عن الإيمانِ بالقُرآنِ وهو الذِّكْرُ بَعدَ إذْ

(١) سورة الفرقان، الآيات: ٢٧-٢٩.

جَاءَنِي من عندِ اللهِ فَصَدَّني عَنْهُ) انتهى.

وقال عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: «**إنَّمَا مثَلُ الجليسِ الصالِحِ والجليسِ السُّوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكيرِ، فحامِلُ المِسْكِ إمَّا أن يُحْذِيَكَ وإمَّا أَنْ تبتاعَ مِنْهُ وإما أنْ تَجدَ منهُ ريحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكيرِ إمَّا أنْ يحرقَ ثيابَكَ وإمَّا أنْ تجدَ منهُ ريحًا خبيثةً**» متفق عليه.

فَبَيَّنَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، أنَّ الجليسَ لهُ تأثيرٌ عَلى جليسِهِ سَلبًا أوْ إيجابًا بحَسبِ صَلاحِهِ وفَسادِهِ، حيثُ شَبَّهَ الجليسَ الصالحَ بحاملِ المسكِ، فإنَّكَ إذا جالَستَهُ لابُدَّ أنْ يَحصُلَ لكَ منهُ واحدةٌ من ثَلاثٍ: إما أَنْ يُحْذِيَكَ أيْ: يُعْطِيَكَ ويُهْدِيَ إليكَ، أو تَشْتَرِيَ منهُ، أو عَلى أَدْنَى الأحوالِ تجدَ منهُ الرائحةَ الطَّيِّبةَ المؤثرةَ على نفسِكَ وبدنِكَ وثيابِكَ، فكَذلِكَ جَليسُكَ الصالحُ تَنتفعُ بِمُجَالسَتِهِ ولابُدَّ كما سَأَذْكُرُهُ بَعدَ قليلٍ في فوائدِ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الخيرِ والصَّالِحينَ إنْ شَاءَ اللهُ تَعالى.

وشبَّهَ - عليهِ الصلاة والسلامُ - الجليسَ السوءَ بِنافِخِ الكِيرِ - وهو جِلْدٌ غَلِيظٌ يُنْفَخُ بِهِ النارُ - فهُو إمَّا أنْ يَتَطايَرَ عليكَ من شَرَرِ نارِهِ فيُحرِقَ ثِيابَكَ، أو تجدَ منهُ الرائحةَ الكَريهةَ الَّتي تُصيبُ بدنَكَ وثوبَكَ. وكذلك جليسُ السوءِ لابدَّ أنْ تتضرَّرَ بمُجَالَستِهِ، كما سَيَأتي بيانُ ذلكَ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

ولا شكَ أنَّ النَّاسَ يَتفاوتونَ فِيمَا بينَهم، فمِنهُمْ منْ هو مِفْتاحٌ لِلْخَيْرِ دالٌ عليهِ، ومنْهمْ منْ هُوَ مِفتَاحٌ للشرِّ جالبٌ إليهِ، كما قالَ -

عليهِ الصلاةُ والسلامُ -: «إنَّ مِنَ الناسِ ناسًا مفاتيحُ للخيرِ، مغاليقُ للشرِّ، وإنَّ من الناسِ ناسًا مفاتيحُ للشرِّ، مغاليقُ للخيرِ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مفاتيحَ الخَيرِ على يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنَ جَعَلَ اللهُ مفاتيحَ الشرِ عَلى يَدَيْهِ». رواهُ ابنُ ماجةَ، وحسَّنهُ الألبانيُّ.

ثمراتُ مجالسةِ الصالحينَ وأهلِ الخيرِ

الخيرُ الحاصلُ والثمارُ التي تُجْنَى مِنْ مُجَالسةِ أهلِ الخيرِ ومصاحبةِ الجليسِ الصالحِ كثيرةٌ يَصْعُبُ إِحْصَاؤُها، وتَتَعذَّرُ الإِحاطةُ بِهَا، وحَسْبِي أنْ أَذْكُرَ في هذا المقَامِ شيئًا منها:

١ - فمِنْها أنَّ مَنَ يُجالسِ الصالحينَ تَشْمَلُهُ بَرَكَةُ مَجَالِسِهِم ويَعُمُّه الخَيرُ الحاصلُ لهُم وإن لَّمْ يكنْ عَمَلُهُ بالغًا مَبْلَغَهم، كما دَلَّ على ذلكَ ما أَخْرجَهُ الشَّيْخانِ عنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ للهِ ملائكةً يَطُوفُونَ في الطُرقِ يَلْتَمِسونَ أهْلَ الذِّكْرِ، فَإذَا وجَدُوا قومًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوا: هَلِمُّوا إلى حاجَتِكُم، قالَ: فَيَحُفُّونَهم بِأَجنِحَتِهِم إلى السَّماءِ الدُّنْيا، قالَ: فَيَسْأَلُهُم ربُّهم - عزَّ وجلَّ - وهْوُ أَعْلَمُ مِنْهم: ما يقولُ عِبادِي؟ قال: تَقُولُ - يَعْنِي الملائكةُ - يُسبِّحونَكَ ويُكَبِّرونَكَ وَيحْمَدُونَك ويُمَجِّدُونَكَ..» فذَكَرَ الحَديْثَ بِطُولِهِ، وفي آخرِهِ: «قالَ فيَقُولُ اللهُ: فَأُشْهِدُكُم أنِّي قَد غَفَرْتُ لَهم». قالَ: فيقولُ مَلَكٌ منَ الملائكةِ: «فيهم فُلانٌ ليسَ مِنْهم

إنَّما جاءَ لحاجةٍ»، وفي لَفْظٍ: **فِيْهم فُلانٌ عَبْدٌ خطَّاءٌ إنَّما مَرَّ فَجَلسَ مَعَهُم،** قال: **فيقولُ:** «**هُمُ الجلساءُ لا يَشْقَى جَلِيسُهُم**»، وفي لَفْظٍ: فيقولُ: «**ولهُ قدْ غَفَرْتُ هُمُ القومُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيْسُهُم**».

٢ - ومِن آثارِ الجليسِ الصالحِ أَنَّ المرءَ مجبولٌ على الاقتداءِ بجليسِه، والتأثرِ بعَملِه وعِلْمِه وسُلُوكِه، فَمُجَالِسُ أهلِ الخيرِ يتأثَّرِ بهِمْ، ومن المتقرِّرِ عندَ عُلماءِ التربيةِ أنَّ التأثيرَ عن طريقِ القدوةِ أبلغُ مِنَ التأثيرِ بالمقالِ والنُّصْحِ. ولذلكَ قالَ ﷺ: «**المرءُ على دينِ خَلِيلِهِ فلينْظُرْ أحدُكم مَنْ يُخالِلْ**». رواهُ أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ. وحسَّنَهُ الترمذيُّ والبَغَويُّ والأَلْبانيُّ.

فبيَّنَ ﷺ أن المرءَ مُشاكلٌ ومُماثلٌ لِخَليلِه وجليسِه في الاستقامةِ والصلاحِ وعَدَمِهما، ولذلكَ قال مُرغِّبًا في اختيارِ الجليس: «**فلينْظُرْ أحدُكم مَنْ يُخالِلْ**» أي لِيتبيَّنْ مَنْ هُو خَليلُه ولِيَخْترْ الخليلَ المرضيَّ في دينِه وَخُلُقِه.

قال الخَطَّابيُّ في كتابِ العُزلةِ: (قولهُ: «**المرءُ على دينِ خليلِه**»، مَعناهُ: لا تُخالِلْ إلا مَنْ رَضِيتَ دينَه وأمانَتَه فإنَّكَ إذا خالَلْتَه قادكَ إلى دينِه ومذهبِه). وقال ابنُ مسعودٍ: «ما مِنْ شيءٍ أدلُّ على شيءٍ ولا الدُّخانُ على النارِ من الصَّاحبِ على الصاحبِ». وقال ابنُ حبانَ: «إن مِنْ أعظمِ الدلائلِ على معرفةِ ما فيه المرءُ من تَقَلُّبِه وسُكُونِه هو الاعتبارَ بمَنْ يحادثُه ويودُّه، لأنَّ المرءَ على دينِ خليلِه وطيرُ السماءِ على أشكَالِها تقَعُ». وقال ﷺ: «**الأرواحُ جُنودٌ مجنَّدةٌ فما تعارفَ**

منها ائتلفَ وما تناكرَ منها اختلفَ». أخرجَهُ مسلمٌ. قال الخطابيُّ: يقولُ ﷺ: «إنَّ الأجسادَ الَّتي فِيها الأرواحُ تَلتَقِي في الدنْيا فتأتلفُ وتختلفُ على حَسَبِ ما جُبلَتْ عليهِ منَ التَّشَاكُلِ والتَّنَافُرِ في بدْءِ الخِلْقَةِ، ولِذَلك تَرَى البرَّ والخيِّر يُحِبُّ شَكْلَه ويحنُّ إلى تِرْبِه. ويَنفُرُ عن ضِدِّه، وكذلكَ الرَّهِق الفاجرُ يألفُ شكْلَه ويَستحسِنُ فعله وينحرفُ عن ضدِّه».

وقال عَديُّ بنُ زيدٍ الشاعرُ:

عن المرءِ لا تسألْ وسلْ عن قرينِهِ ... فكلُّ قرينٍ بالمقارَنِ يَقْتَدِي

إذا كنتَ في قومٍ فصاحبْ خيارَهُمْ ... ولا تَصحَبِ الأرْدَى فترْدَى معَ الرَّدِي

وقال المنتصِرُ بنُ بِلالٍ:

يزينُ الفتَى في قَومِهِ ويَشِينُهُ ... وفي غيرِهم أَخْدَانُه ومَدَاخِلهُ

لِكلِّ امرىءٍ شكلٌ مَن الناسِ مِثلُهُ ... وكلُّ امْرىءٍ يهْوَى إلى مَنْ يُشاكِلُه

٣ - ومِنْها أنَّ جليسَكَ الصالحَ يُبصِّركَ بعُيُوبك وَيَدُلُّكَ على جهاتِ النَّقصِ عندَك ومواطنِ العِلَلِ في نَفْسِكَ وخُلُقكَ، فَتَنْطَلِقُ نَحْوَ العِلاجِ وإِصلاحِ العُيوبِ، ولذلك نجدُ أنَّ النبيَّ ﷺ شبَّه المؤمنَ في كونِه مبصِّرًا لأخيهِ بعُيوبِهِ بالمرآةِ التي يرَى الإنسانُ فيها عيوبَه الظاهرةَ، فقالَ: «المؤمن مرآةُ المؤمنِ». رواهُ أبو داود من حديثِ أبي هريرةَ، وحسَّنَهُ العراقيُّ وابنُ حَجَرٍ، فالمؤمنُ مرآةٌ لأخيهِ يرَى مِنْ خِلالِهَا عيوبَه السُّلُوكيَّةَ والمعنويةَ. وذلكَ أنَّ أخاهُ يدلُّهُ على عيوبٍ فيهِ لم يطَّلِعْ عليها، ولم يفطَنْ لَها أَوْ لا يُدرِكُها أصلاً.

كالمرآةِ تُطْلِعُه على عيوبٍ ظاهرةٍ لا يَراهَا إلا مِنْ خِلالِها.

قال الحسنُ: «المؤمنُ مرآة أخِيهِ إنْ رَأَى فيهِ مَا لاَ يعجِبُهُ سدَّدَه وقوَّمَه وحاطَه وحفظَه في السرِّ والعَلانيةِ».

٤ - ومِنْها أنَّكَ تَتَعرَّفُ على أخطائِكَ في سُلُوكِكَ وعبادتِكَ من خِلاَلِ مُقارنةِ أعمالِكَ وسُلُوكِكَ بما عَليْه جَليسُكَ الصَّالح مِنْ هذهِ الأمورِ، الَّتي لدَيهِ عِلْمٌ وإلمامٌ بها، فتُصْلحَ تِلكَ الأخطاءَ.

٥ - ومِنْها أنَّ جُلَساءَكَ منْ أهلِ الخيرِ يَصِلُونَكَ بأشخاصٍ آخرينَ، فتنتفعُ بهِمْ كما انتفعتَ بهؤلاءِ.

٦ - ومِنْها أنَّك تَنْكَفُّ عن المعصيةِ، فإنَّكَ إذا جَلَستَ مَعَهُ استَدْعى ذلكَ التَّأَدُّبَ بمَجْلسِه وتَخلَّيْتَ عن المعصيةِ مراعاةً لمكَانتهِ وتقديرًا لِمنْزِلته فيكونُ ذلكَ الانكفافُ والتركُ الوقْتِيُّ سببًا في التَّخَلِّي الدائمِ عنْ هذهِ المحرماتِ.

٧ - إنَّ في مجالَسَةِ أَهْلِ الخيرِ حفظًا للوقْتِ الذي هُوَ الحياةُ وهوَ الوعاءُ لكلِ الأعمالِ.

٨ - ومِنْها أنَّ جَليسَكَ الصالحَ يعلِّمُكَ ويُرشِدُكَ إلى أمورٍ من أمورِ الخيرِ يَنفعُكَ العلمُ بِها، فيَدلُّكَ مثلاً على أمورٍ واجبةٍ كنتَ غافلاً عَنْها ومُتكاسِلاً عن أدائِها، ويُرشدُكَ إلى كثيرٍ من النَّوافلِ والتطوُّعاتِ التي تزدادُ بها خيرًا. ويُشجِّعكَ على المُشَاركةِ في مشروعاتٍ متعددةٍ من مشروعاتِ الخيرِ والبرِ.

٩ - ومنْها أنَّ جليسَك الصالحَ يحفظُكَ في حَضْرَتك ومَغِيبك، فلا يُفشِي لكَ سرًّا ولا يَنْتَهِكُ لكَ حُرمةً، ويُدافِعُ عَنْكَ في مواطِنَ تحتاجُ فيها إلى مَنْ يُدَافعُ عنْك.

١٠ - أَنّ أُخُوَّتَكَ ومصاحبتَك لأهلِ الخيرِ سببٌ في دُخُولِكَ ضِمْنَ الَّذِينَ لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يحزَنون يومَ القيامةِ، وكذلك ضَمَانٌ لاستمرارِ الصُّحْبةِ، كما قال - تعالى -: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ۞ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[1].

١١ - أنَّكَ تنظُرُ إلى عُلوِّ مكانتِهِ في العِلْم والعِبادةِ والدَّعْوةِ والخُلُقِ وسبقِه لَكَ في مجَالاتٍ كثيرةٍ من مجَالاتِ الخيرِ، فتنتفعُ بذلِكَ من وَجْهَين:

الأولُ: زوالُ ما قدْ يُوجَدُ لديكَ من العُجْبِ بالنَّفس والعَمَلِ حينمَا تَرَى مَنْ هُوَ خيرٌ منكَ، والعُجْبُ من الأمور التي خَافَها النبيُّ ﷺ على أمتهِ وعدَّها أشدّ من الذنبِ، حيثُ قالَ ﷺ: «**لوْ لم تكُونُوا تُذنِبُون لَخفْتُ علَيْكُمْ مَا هُو أشدُّ مِنْ ذَلِكَ العُجْبَ العُجْبَ!**». رواهُ البزارُ والقُضَاعيُّ، وقال المُنْذِريُّ والهيْثَميُّ: إسنادُهُ جَيِّدٌ.

والثَّاني: أنَّ ذَلِكَ يكونُ سَببًا في مُنافَستِك لَهُ في هذهِ الأوصافِ والأعمالِ، فتزدادُ حِرصًا على تَحصِيلِ العِلمِ والقيامِ بالعبادةِ وتحسينِ السُّلوكِ، وغيرِ ذلك.

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٦٧، ٦٨.

ولِهذا قالَ عُثمانُ بنُ حكيمٍ: «اصحبْ مَنْ هُو فَوقَك في الدِّينِ ودُونَكَ في الدُّنْيا».

١٢ - أنَّ المرءَ بِمُجَرَّدِ رُؤْيتِه للصَّالحينَ والأخيارِ يَذْكُرُ اللهَ تعالى. وقد دلَّ عَلى ذَلكَ الواقعُ والشَّرْعُ. قال ﷺ: «**أولياءُ اللهِ الذين إذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تعالى**». رواهُ الحكيمُ الترمذيُّ. وحسَّنَهُ الألبانيُّ. وقالَ ﷺ في حديثٍ آخرَ: «**ألا أُنبِّئُكم بخيارِكُمْ**؟ قالوا: بَلى يارسولَ اللهِ؟ قال: **خِيارُكم الذينَ إذا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجلَّ**». أخرجَهُ ابنُ ماجةَ. وحسَّنَ إسنادَهُ البُوصَيْريُّ. فأثبتَ في هذَيْنِ الحديثينِ أنَّ للأوْلياءِ والأخيار تَأثيرًا على مَنْ راَهُم، وأن مَنْ يَراهُمْ يذكرُ اللهَ - عزَّ وجلَّ - بمُجَرَّدِ هذهِ الرُّؤيةِ، ولعلَّ سببَ ذلك ما يَجدُهُ فيهِم من الهَدْي والسَّمْتِ والهَيْبةِ ونورِ الإيمانِ وحسنِ السيرةِ.

فإذَا كانَ هذا يحصُل لِمَنْ رَآهم، فكيفَ بمَن يُجالسُهم ويُخالِطُهم، ولهذَا قال موسى بنُ عقبةَ: «إنْ كنتُ لأَلْقَى الأخَ مِن إخْوَاني فأكونُ بِلُقِيِّه عاقلاً أيامًا». وقال سفيانُ: «لَرُبَّما لِقيتُ الأخَ مِن إخوانِي فأُقيمُ شَهْرًا عاقلاً بلقائِه». وقال أبو سليمانُ: «كنتُ أنظرُ إلى أخٍ من إخواني بالعراقِ فأعملُ على رُؤيتِه شهرًا».

١٣ - أنَّهم زَينٌ وأُنْسٌ في الرخاءِ وعُدّةٌ في البلاءِ، وهم خيرُ مُعينٍ لكَ على تخفيفِ همومِكَ وغمومِكَ، وحلِّ مُشْكلاتِكَ، فتَسْتَنِيرُ بآرائِهِم ومشورتِهم لاسيَّما إذا أَلَمَّتْ بِكَ الخطوبُ، وضَاقتْ بِك الدروبُ وأعيَتْك المسالكُ، قال عمرُ بنُ الخطابِ -

رَضِيَ اللهُ عنه -: «عليكَ بإخوانِ الصدقِ، فعشْ في أكنافِهم، فإنَّهم زينٌ في الرخاءِ وعُدّةٌ في البلاءِ». وقال شبيبُ بنُ شيبةَ: «إخوانُ الصدقِ خيرُ مكاسبِ الدُّنيا، وهُم زِينةٌ في الرَّخاءِ، وعُدّةٌ في البلاءِ، وَمعُونةٌ على حُسنِ المعاشرةِ». وقال بعضُ الحكماءِ: «اصْطفِ منَ الإخوانِ ذَا الدينِ والحَسَب والرَّأْي والأدب، فإنَّه رِدْءٌ لكَ عندَ حاجتِك، ويدٌ عند نَائِبَتِك، وأُنسٌ عند وَحْشَتِكَ، وزَيْنٌ عند عافِيتِك».

١٤ - أنَّك تَنتفعُ بدُعائِهم بِظهرِ الغيبِ في حَياتِك وبعد مَماتِك، فإنَّ مِن عادَة أهلِ الخيرِ دعاءَ بعضِهم لبعضٍ، وقد قال ﷺ: «**دعوةُ المرءِ المسلمِ لأخيهِ بظهرِ الغيبِ مُستجابةٌ. عند رأسِه ملَكٌ موكَّلٌ، كلما دَعَا لأَخيهِ بخيرٍ قال الملَكُ المُوكلُ بهِ: آمينَ ولَكٌ بِمثْلٍ**». رواه مسلم.

١٥ - أن المُجالَسةَ والمُصادَقةَ والزيارةَ في اللهِ سببٌ لمحبةِ اللهِ تعالى، كما في الحديثِ القُدسيِّ الذي رَواهُ مالِكٌ في مُوَطَّئِهِ من حديثِ معاذٍ. قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**قالَ اللهُ تباركَ وتَعالى: وجبتْ محبّتِي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتَجَالِسين فيَّ، والمُتَزاورينَ فيَّ، والمُتَباذِلين فيَّ**»، وصحَّحَ إسنادَه ابنُ عبدِالبرِّ والمنذريُّ والنَّوويُّ. وجاءَ مِن حديثِ عمرِو بنِ عَبَسةَ بِلفْظٍ: «**قد حقَّتْ محبّتِي للذينَ يتحابُّونَ من أَجْلي، وقد حقَّتْ محَبَّتي للذين يَتزاورُونَ من أجْلِي، وقد حقتْ محَبَّتي للذين يتصادقونَ من أجْلِي**».

قال الدُّمْياطِيُّ في المَتْجَرِ الرابح: رواهُ أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ.

وعنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ أن رجلاً زارَ أخًا له في قريةٍ أُخْرى، فأَرْصَدَ اللهُ له على مَدْرَجَتِه مَلَكًا، فلمَّا أتى عليهِ قال: أينَ تريدُ؟ قال: أريدُ أخًا لي في هَذِه القَريةِ، قال: هَل لَكَ عليهِ من نِعمةٍ تَرُبُّها؟ قال: لا، غيرَ أنِّي أحببتُه في اللهِ - عزَّ وجلَّ - قال: فإنِّي رسولُ اللهِ إليك بأنَّ اللهَ قدْ أحبَّكَ كما أحبَبْتَه فيهِ». رواهُ مسلمٌ.

ومعنى قولِه: «فأرْصَدَ» أي أَقْعَدَه يَرقُبهُ والمَدْرَجَةُ - بفَتْحِ الميم والرَّاءِ - هي الطَّريقُ، وقولُه: «تَرُبُّها» أي تَقُومُ بإصلاَحِها وَتنهضُ إليهِ بسببِ ذلك، ذكرهُ النَّوَويُّ.

١٦ - إن المرءَ بزِيارَتهِ لإِخْوانِه في اللهِ يطيبُ بنفْسِهِ ويطيبُ مَمْشَاهُ ويتبوأُ مَنازلَ عظيمةً في الجنَّةِ، قال ﷺ: «**من عادَ مريضًا أو زارَ أخًا لهُ في اللهِ نَاداهُ منادٍ أن طِبْتَ وطَاب مَمْشَاكَ وتبوَّأْت من الجنَّةِ مَنْزِلاً**». أخرجَهُ التِّرمِذيُّ وحسَّنَهُ من حديثِ أبي هريرةَ. وصحَّحَهُ ابنُ حِبَّانَ.

وعن أنس عَنِ النبيِّ ﷺ قال: «**النبيُّ في الجنَّةِ. والصدِّيقُ في الجنةِ، والرَّجُلُ يزورُ أخاهُ في نَاحِيةِ المِصْر لا يَزورُه إلا للهِ في الجنةِ**». رواهُ الطبرانيُّ في المعْجَمِ الصغيرِ. وقال الدُّمياطيُّ: إسنادُهُ جيدٌ إنْ شاءَ اللهُ.

١٧ - وبِالجُملةِ فالجليسُ الصالحُ منفَعةٌ لَكَ مِن كُلِّ وَجْهٍ فِي

دينِك ودُنْياكَ. قال ﷺ: «**المُؤْمِنُ إنْ مَاشَيتَه نَفعَكَ، وإن شاوَرْتَه نفعَك، وكلُّ شيءٍ من أمرِهِ مَنفَعةٌ**». رواهُ أبُو نُعيمٍ في الحِليةِ. وقال ثابتٌ صحيحٌ عن النبيِّ ﷺ من حديثِ ابنِ عُمَرَ.

وعن ابنِ عُمَرَ أيضًا قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَثَلُ المُؤمنِ مَثَلُ النخلةِ ما أخَذْتَ منْها من شيءٍ نَفعَك**». رواهُ الطبرانيُّ في الكبيرِ وصحَّحَهُ الألبانيُّ وأصلُهُ في الصحِيحَينِ بلفظِ: «**إنَّ من الشَجَرِ شَجَرةً لا يَسقُطُ وَرَقُها وإنَّها مَثَلُ المسلمِ فحدِّثُوني ما هِيَ؟ ثم قالَ: هِيَ النخلةُ**».

١٨ - ومن ثَمَراتِ مُجالسةِ الصالحينَ أنَّها تُؤَدِّي إلى محَبَّتِهِم في اللهِ. فكَما أن المحبَّةَ تُثمِرُ المُجالسةَ فكذلك المجالسةُ تُثمِرُ المحبةَ، والحبُّ في اللهِ لَهُ ثمراتٌ عظيمةٌ وآثارٌ جليلةٌ على النُّفوس، وقد رتَّبَ اللهُ عليهِ الأجورَ العظيمةَ والثوابَ الجزيلَ. ونَظرًا لِتَعَدُّدِ هذه الفوائدِ وكثرتِها فإني سأفرِدُها في المبْحثِ الآتي - إنْ شاءَ اللهُ تعالى -.

ثمراتُ وفضائلُ المحبةِ في اللهِ

أ - منها أنَّ المحبةَ في اللهِ سببٌ لمحبَّةِ اللهِ تعالى للعَبدِ، وقدْ مرَّ فيما سبَقَ قولُه ﷺ: «**وَجَبَتْ محبَّتي للمُتحابِّينَ فيَّ...**». الحديث. وقولُ الملَكِ للرَّجلِ الذي زارَ أخًا لهُ في اللهِ: «إني رَسولُ اللهِ إليكَ بأَنَّ اللهَ قد أحبَّكَ كما أحببتَه فيهِ».

ب - ومنها أنَّ اللهُ يُظِلُّ المتحابِّينَ فيه في ظِلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظِلُّه. فَعَنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «**سبعةٌ يُظلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.. فذكَرَ مِنْهم: ورَجُلانِ تحابَّا في الله اجتمعَا عليه وتفرَّقا عليهِ**». متفقٌ عليه. وعنه أيضًا قالَ: قالَ رسولُ اللهُ ﷺ: «**إن اللهَ يقولُ يومَ القيامةِ: أينَ المُتَحابُّون بِجَلَالِي. اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يومَ لا ظلَّ إلا ظلِّي**». رواهُ مسلمُ.

جـ - أنَّ الحبَّ في اللهِ والبُغْضَ في اللهِ دليلٌ على كَمالِ إيمان العبدِ، فعن أبي أُمامةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من أحبَّ للهِ وأبغضَ للهِ وأعْطى لله ومَنَعَ للهِ فقَد استكملَ الإيمانَ**». رواهُ أبو داودَ، وصحَّحَهُ الألبانيُّ.

د - أنَّ الحبَّ في اللهِ سببٌ لذوقِ حَلاوةِ الإيمانِ وطَعْمه، كما في الصَّحيحينِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**ثلاثٌ من كنَّ فيهِ وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ مما سِواهُما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للهِ، وأن يكْرَهَ أن يَعُودَ في الكفرِ بعدَ إذ أنقذَهُ اللهُ منه كما يكْرَهُ أن يقذفَ في النارِ**». وقال ﷺ: «**من أَحَبَّ أن يَجِدَ طَعْمَ الإيمانِ فليُحِبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا للهِ**». رواهُ أحمدُ والبزارُ وحسَّنَهُ الألبانيُّ.

هـ - أنَّ العبدَ بمحبَّتِهِ لأهلِ الخيرِ لِصَلاحِهِم يلتحقُ بهمْ ويصِلُ إلى مراتبهِم وإن لَّم يكنْ عَمَلُه بالغًا مبلَغَهُمْ، ففي الصحيحين عن ابنِ مسعودٍ - رضيَ اللهُ عنه - قال: «جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ

فقال: يا رسولَ اللهِ كيفَ تقولُ في رجلٍ أحبَّ قومًا ولمْ يلحقْ بِهِم؟ فقال: «**المرءُ مع مَنْ أحبَّ**». وفيهما أيضًا عن أَنَس: «أنَّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ متى الساعةُ؟ قال: **ما أعدَدْتَ لها؟** قال: ما أعددتُ لها من كثيرِ صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقةٍ، ولكنِّي أحبُّ اللهَ ورسولَهُ، قال: **أنتَ مع مَنْ أحبَبْتَ**، قال أنسٌ: فما فرحْنَا بشيءٍ فرحَنا بقولِ النبيِّ ﷺ: **أنتَ مع مَنْ أحببْتَ**، قال أنسٌ: فأنَا أحِبُّ النبيَّ ﷺ وأبا بكرٍ وعَمَرَ، وأَرْجُوا أن أكونَ معَهُم بِحُبِّي إيّاهُم وإن لَّمْ أعملْ بمِثْلِ أعمالِهْم».

و - أن المُتَحابِّينَ في اللهِ لَهُم منابرُ من نورٍ يَغْبِطُهُم النبيونَ والشُّهداءُ كما في الحديثِ الذي أخرجَهُ الترمذيُّ عن معاذٍ - رضيَ اللهُ عنه - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**المتحابُّونَ في جَلَالِي لهُم منابرُ من نورٍ يغبِطُهم النبيُّونَ والشهداءُ**». رواهُ الترمذيُّ، وقال: حسنٌ صحيحٌ.

ز - ومن فوائدِ المحبَّةِ في اللهِ أن اللهَ يُكْرِمُ مَنْ أحبَّ عبدًا للهِ. وإكرامُ اللهِ للعبد يَشْملُ إكرامَه لَهُ بالإيمانِ والعِلم النافعِ والعَملِ الصالِح وسائرِ صنوفِ النِّعَم. عن أبي أُمامةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما أحبَّ عبدٌ عبدًا لله إلا أكرَمَهُ اللهُ**». رواهُ أحمدُ وابنُ أبي الدنيا وحسَّنَهُ السُّيُوطيُّ والمَناوِيُّ. وقال الألبانيُّ: هذا إسنادٌ جيدٌ.

اللَّهُم اجمعْ قلوبَنَا على طاعتِكَ، وَوَفِّقْنا للجُلساءِ الصالحينَ الناصحينَ الخيِّرينَ الذين يأْخُذونَ بأيدِينا إلى السعادةِ الدنيويةِ

والأخرويةِ وأن يرزقَنا فعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ وأن يجعلَنا مفاتيحَ لِلخَيرِ مغاليقَ للشرِ، وأن يَجْمعَنا جميعًا في مُسْتقرِّ رحمتِه، وأَنْ يغْفِر لَنا ولوالِدينا آمينَ، وصلَّى اللهُ وسلم على نبينا محمدٍ وآله وصحبِه أَجْمعينَ.

الباب الثامن

أضرارُ الجليسِ السوءِ

الحمدُ للهِ المبدِي المعيدِ الفعالِ لما يريدُ، الذي حكمَ على خلقِه بالفناءِ فتباركَ الذي بيده الملكُ وهُو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلُوكُمْ أيُّكم أحسنُ عملاً وهُو العزيزُ الغفورُ، قسّمَ خَلقَه إلى شقيٍّ وسعيدٍ. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، سيدُ المُرسَلين وأفضلُ داعٍ إلى التوحيدِ، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ فقد تكلَّمْنا فيما سَبقَ عنِ الجليسِ الصالحِ وما لَه من فوائدَ على صاحبِه؛ وفي هذا البابِ نتحدثُ مَعَكم عن الجليسِ السوءِ. والجليسُ السوءُ مضرَّةٌ على صاحبِه من كلِّ وجهٍ وشُؤْمٌ عليهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ويتعذَّرُ تتبُّع كُلِّ ما يترتبُ على مجالسةِ أهلِ السوءِ من المفاسدِ والأضرارِ. ولعلَّ ذِكْرَ شيءٍ منها يَكْفِي في تحذيرِ العاقلِ من هذهِ المُجالسةِ وهيَ:

١ - أن الجليسَ السوءَ قد يشكِّكُ في مُعْتقدَاتِك الصحيحةِ ويَصرِفُك عنْها. كما قال تعالى في سورة الصّٰفات: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۞ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۞ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[1]، واسْمَعْ إلى قصةِ

(١) سورة الصافات، الآيات: ٥٠-٥٣.

وفاةِ أبِي طالبٍ على الكفرِ وكيفَ كان جليسُ السوءِ سببًا في موتِه على تلكَ الحالِ. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ عن المسيَّبِ بن حزنٍ قال: «لما حَضَرتْ أبا طالبِ الوفاةُ جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ فوجدَ عندَه أبا جهلِ بنَ هشام وعبدَ اللهِ بنِ أبِي أميةَ بنِ المغيرةِ، فقالَ: **أيْ عمِّ قلْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، كلمةً أُحَاجُّ لكَ بِها عندَ اللهِ**، فقالَ أبُو جهلٍ وعبدُالله بنُ أبِي أميةَ: أترغبُ عن ملّةِ عبدِالمُطَّلبِ؟! فلم يزلْ رسولُ اللهِ ﷺ يَعرِضُها عليه ويَعُودَانِ لتلكَ المقالةِ، حتى قالَ أبُو طالبٍ آخرَ ما كلَّمَهُم: أنا على ملّةِ عبدِالمطلبِّ، وأَبَىٰ أن يقولَ لا إلهَ إلا اللهُ»، فانظرْ - أخي المسلمُ - كيفَ صنعَ جُلسَاءُ السوءِ أضَلاَّهُ في حياتِه ومازالَا به حتَى أَسْلَماهُ إلى النارِ والعياذُ باللهِ،

٢ - أن الجليسَ السوءَ يدعُو جليسَه إلى مُماثلتِهِ في الوقوعِ في المحرَّماتِ والمنكراتِ ويُحبُّ ذلكَ منْه. كما قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: «. . . وذلك أَنَّ كثيرًا من أهلِ المنكرِ يُحبونَ من يُوافِقُهم على ما همْ فيهِ، ويُبغِضُونَ مَن لا يُوافقُهم وكذلكَ في أمورِ الدُّنيا والشهواتِ كثيرًا ما يَختارُون ويُؤْثِرُون من يُشارِكُهم: إما للمُعاونَةِ على ذلكَ كما في المُتَغَلِّبين من أصحابِ الرياساتِ وقُطَّاعِ الطرقِ ونحوِهم، وإمَّا بالمُوافقَةِ كما في المُجتَمِعين على شربِ الخمرِ فإنهم يختارُون أن يَشربَ كلُّ من حَضرَ عندَهم، وإما لكراهتِهمُ امْتِيازَهُ عنهمْ بالخيرِ، إما حَسَدًا على ذلكَ لِئَلَّا يَعلُوَ عليهِم بذلكَ ويُحْمَدَ دونَهم، وإما لِئَلا يكونَ له عليهِم حُجةٌ، وإما لِخَوفِهِم من

مُعاقبتِه لهم بنفسِه، أو بمَن يرفعُ ذلك إليهم، ولئَلا يكونُوا تحتَ منَّتِه وخطرِه، ونحوِ ذلكَ من الأسبابِ. قال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾[1]، وقال تعالى في المنافقين: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾[2]. وقال عثمانُ: «ودَّتْ الزانيةُ لو زَنَى النساءُ كلُّهنَّ».

٣ - أن المرءَ بطَبيعتِه يتأَثَّرُ بعاداتِ جليسِه وأخلاقِه وأعمالِه، وقد تقدّم ذكرُ قولِه ﷺ: «**المرءُ على دينِ خليلِه فلينْظُرْ أحدُكُم من يُخالِل**». فإذا كان الجليسُ سيِّئًا تأَثَّرَ به المرءُ واصطبغَ بصبغتِه.

٤ - أن رُؤيتَه تُذكِّرُ بالمعصيةِ سواءٌ كانت ظاهرةً عليه أو خفيةً وكنتَ تعرفُ ذلكَ منه، فتخطُرُ المعصيةُ في بالِ المرءِ بعدَ أن كانَ غافلاً أو مُتشاغلاً عنها.

٥ - أنه يصلُكَ بأناسٍ سيِّئين يضرُّكَ الارتباطُ بِهِم، وقد يكونونَ أشـدَّ انحرافًا وفسـادًا من هذا الجليس.

٦ - أنه يُخْفي عنك عيوبَك ويستُرُها عنكَ ويُحسِّنُ لكَ خطَاياكَ ويُخففُ وقعَ المعصيةِ في قلبِكَ ويهوِّنُ عليكَ التقصيرَ في الطاعةِ.

٧ - أنكَ تُحْرَمُ بسببِه مُجالَسةَ الصالحينَ وأهلِ الخيرِ لانْهماكِكَ معَهُ في الشهواتِ والمَلَذَّاتِ، أو لتحذيرِه ومنعِه لكَ من مُجالسَتِهم، أو هيْبتِك لهُم بسببِ مُجالستِك لهَذَا المنحرفِ. فيفُوتُك من الخيرِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٩.

والصلاح بقدرِ بُعدِك عنهمُ.

٨ - أن الذي يُجالسُ أهلَ السوءِ يُقَارِنُ أفعالَه السيئةَ بأفعالِهِم، فَيَسْتَقِلُّ سَيِّئَاتِه بجنبِ سيئاتِهم فيكونُ ذلك سَببًا في زيادةِ طُغيانِه وانحرافِه وتقصيرِه في الأعمالِ الصالحةِ، وعلى الأقلِّ يصابُ بالعُجْبِ بما هوَ عليه، والعُجْبُ مرضٌ مُهلِكٌ كما تقدم.

٩ - أن مَجالسَهم لا تَخْلُو من المحرَّماتِ والمعاصِي كالغيبةِ والنميمةِ والكذب واللَّعنِ ونحوِ ذلك، فَرُبَّما يوافِقُهم جليسُهم فيما همْ فيهِ أو يُنكرُ عليهِم لكنْ لا يفارقُ مَجلِسَهم فيقعُ في الإِثمِ، لأن الإِنكارَ - كما يقولُ العلماءُ - يستلزمُ مفارقةَ المَجلسِ إذا استمرَّ المُنكَرَ، لقولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

١٠ - إنَّ إخاءَهُ وصُحبتَه عُرضَةٌ للزوالِ عند وجودِ أدْنَى خلافٍ أو تغيُّرِ مصلحةٍ. قال عبدُالله بنُ المعتزِّ: «إخوانُ السوءِ ينصَرِفُون عندَ النكبةِ ويُقْبلونَ مع النعمة». وقال عليَّ بنُ داوُدَ الرقِّي:

كلُّ مَن كانَ لا يُؤَاخيكَ في اللهِ ... فَلا ترجُ أنْ يدومَ إخاؤُه

إن خيرَ الإِخوانِ من كانَ في اللهِ ... لَه دامَ ودُّه وصفاؤُه

وقال أبوُ الحسنِ التِّهاميُّ:

شيئانِ ينقشِعانِ أول وهلةٍ ... ظلُّ الشبابِ وصحبةُ الأشرارِ

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

وكان نَقْشُ خاتمِ بعضِ الحكماءِ: «من ودَّكَ لأمرٍ ولّى مع انقضائه».

وقال ابنُ حِبانَ: «العاقلُ لا يُصاحِبُ الأشرارَ، لأن صُحبةَ صاحبِ السوءِ قطعةٌ مِنَ النارِ تُعقِبُ الضغائنَ لا يستقيمُ ودُّهُ ولاَ يفي بعهده».

١١ - أنَّها لو دامتْ مَودَّتُهم في الدنيا فإنها سُرعان ما تنقشِعُ في الدارِ الآخرةِ وتَنقلبُ إلى عداوةٍ وبغضاءَ، كما قالَ تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وسببُ تبدُّلِ الخُلّةِ والصداقةِ إلى عداوةٍ هو ما أورثَتْه هذهِ المُخَالَلَةُ والصداقةُ من التعاونِ على الإثم والعدوانِ.

١٢ - أن غالبَ مَجالسِ أهْلِ الفِسْقِ لا يُذكرُ اللهُ فيها، فتكونُ حسرةً وندامةً على أصحابِها يومَ القيامةِ كما قالَ ﷺ: «**ما مِنْ قومٍ يقومونَ من مجلسٍ لم يذكرُوا اللهَ تعالى فيه إلا قاموا عن مثلِ جيفةِ حمارٍ وكان ذلكَ المجلسُ عليهمْ حسرةً يومَ القيامةِ**». رواهُ أبو داودَ. وصحَّحَ إسنادَه النّوويُّ والألبانيُّ.

وبالجملةِ فإنَّ مخالطةَ أهلِ السوءِ ضررٌ على صاحبِها في الدنيا والآخرةِ قال الشيخُ عبدُالرحمنِ السَّعدِي: «وبالجملةِ فمصاحبةُ الأشرارِ مضرةٌ من جميعِ الوجوهِ عَلى مَنْ صاحبَهم وشرٌّ على مَنْ خالَطَهم، فكمْ هَلَكَ بِسَبَبِهم أقوامٌ، وكمْ قادُوا أصحابَهم إلى

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.

المهالكِ من حيثُ يشعُرونَ ومن حيثُ لا يَشْعُرون» أ. هـ.

ولذلكَ قالَ أبو الأسودِ الدؤليُّ: «ما خلقَ اللهُ خلقًا أضرَّ من الصاحبِ السوءِ». فعلَى العاقلِ الناصحِ لنفسِه الذي يريدُ لها النجاة والسعادةَ في الدنيا والآخرةِ أن يتجنَّبَ مخالطةَ هؤلاءِ ويفرَّ منْهم غايةَ الفرارِ، ولا يتهاونَ في ذلك.

واعلمْ أخِي المسلمَ وفقكَ اللهُ أن الكتابَ والقصةَ والمجلةَ والشريطَ هو جليسٌ لك ولأولادِكَ يُؤَثِّرُ كالجليسِ بخيرِه وشرِهِ فاخترْ لنفسِكَ ولأولادِكَ الأفضلَ.

وفي ختامِ هذا البحثِ وبعدَ أن رأيْنا آثارَ الجليس الصالح ومضارَّ الجليسِ السوءِ، أنقلُ إليكم بعضَ الأقوالِ المأثورةِ في اختيارِ الجليسِ والترغيبِ في ذلك.

أقوالٌ مأثورةٌ في اختيارِ الجليس

قالَ ﷺ: «**لا تصاحبْ إلا مؤمنًا ولا يَأْكُلْ طعامَك إلا تقيٌّ**». رواهُ أحمدُ والترمذيُّ وأبو داودَ. وحسَّنَهُ التِّرمذيُّ والبغويُّ والألبانيُّ.

قال الخطابيُّ في شرحِهِ لهذا الحديثِ في كتابِ العُزْلَة: «معناهُ لا تَدْعُ إلى مؤاكلتِكَ إلا الأتقياءَ، لأن المؤاكلةَ توجبُ الأُلفةَ وتجمعُ بينَ القلوبِ».

وقال لقمانُ لابنِه: «يا بُنيَّ لا تَعْدُ بعد تقوى الله من أن تتخذ صاحبًا صالحًا».

وقال عمرُ بنُ الخطابِ: «لا تتكلمْ فيما لا يَعْنيكَ، واعتزلَ عدوَّكَ، واحذرْ صديقَكَ إلا الأمينَ، ولا أمينَ إلا مَن يخشَى اللهَ عزَّ وجلَّ وَيُطيعُه، ولا تمشِ مع الفاجرِ فيُعَلِّمَكَ من فجورِه، ولا تُطْلِعْه على سِرِّكَ ولا تشاورْ في أمرِكَ إلا الذين يخشَون اللهَ سبحانَه».

وقال أيضًا: «ما أُعطِيَ عبدٌ بعدَ الإسلام خيرًا من أخٍ صالحٍ».

وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: «عليكمْ بالإخوانِ فإنهمْ عُدَّةٌ في الدنيا والآخرةِ ألا تسمعُ إلَى قولِ أهلِ النارِ: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ❊ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1]».

وقال الغزاليُّ في الإحياءِ: قال عيسى ابنُ مريمَ عليه السلام: «جالِسوا مَن تُذكِّرُكم اللهَ رؤيتُه ومَن يزيدُ في عَملِكُم كلامُه. ومَن يُرَغِّبُكم في الآخرةِ عملُه».

وقال أبو الدرداءِ: «لولا ثلاثٌ لأَحببتُ أن أكونَ في بطنِ الأرضِ لا على ظَهرِها، لولا إخوانٌ لي يأتُونَني يَنتقونَ طَيِّبَ الكلام كما يُنتقَى طَيِّبُ التَّمْرِ، أو أعفِّرُ وجْهِي ساجدًا للهِ - عزَّ وجلَّ -، أو غَدوةٌ أو روحةٌ في سبيل اللهِ - عزَّ وجلَّ -».

وقال محمدُ بنُ واسعٍ: «ما بَقِي في الدنيا شيءٌ أَلَذُّ بهِ إلا الصلاةُ جماعةً ولُقِيُّ الإخوانِ».

وقال بلالُ بنُ سعدٍ: «أخٌ لكَ كلما لقِيَكَ ذَكَّرَكَ بحظِّكَ من اللهِ خيرٌ لك من أخٍ كُلَّما لقيَكَ وضعَ في كفِّكَ دينارًا».

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ١٠٠، ١٠١.

وسُئِل بعضُ الحكماءِ: أيُّ الكنوزِ خيرٌ؟ قالَ: «أما بعدَ تقوى اللهِ فالأخُ الصالحُ».

وقيل لسُفيانَ: ما ماءُ العيشِ؟ قال: «لقاءُ الإخوانِ».

وقال بعضُ السلفِ: «أَعْجَزُ الناسِ من قَصَّرَ في طلبِ الإخوانِ، وأعجزُ منهُ من ضيَّع مَن ظَفِرَ به منْهم».

وقيل لمُحمَّدِ بنِ واسعٍ: أيُّ العملِ أفضلُ في الدنيا؟ قال: «صحبةُ الأصحابِ، ومحادثةُ الإخوانِ إذا اصطَحَبُوا على التُّقَى والبّرِ فحينئذ يذهبُ الخلافُ مِن بينهِم».

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: «إنكَ إن تنقلِ الأحجارَ مع الأبرارِ خيرٌ لك من أن تأكلَ الخبيصَ مع الفجارِ وأنشدَ:

وصاحبْ خيارَ الناسِ تنجُ مُسَلَّمًا   وصاحبْ شرارَ الناسِ يومًا فتندَما

وقوله «الخبيصُ» المرادُ به نوعٌ مِنَ الحلوَى صُنِعَ من التمرِ مخلوطًا بالسَّمنِ.

وقال هلالُ الرأْيِ: «أوثقُ المودّاتِ ما كانَ في اللهِ - عزَّ وجلَّ -».

وكان سفيانُ الثوريُّ يتمثلُ:

أبْلُ الرجالَ إذا أردتَ إخاءَهُم   وتوسَّمَنَّ أمورَهمْ وتَفقَّدِ

فإذا وجدتَ أخَا الأمانةِ والتُّقَى   فبِه اليدينِ قريرُ عينٍ فاشدُدِ

وقال محمدُ بنُ عمرانَ:

وما المرءُ إلا بإخْوانِه   كما تَقْبضُ الكفُّ بالمعصمِ

ولا خيرَ في الكفِ مقطوعةً   ولا خيرَ في الساعدِ الأجذمِ

وقال بعضُ الشعراءِ - كما نقله القُرطبيُّ في تفسيرِه:

تجنبْ قرينَ السوءِ واصرمْ حبالَه ... فإنْ لم تجدْ عنهُ محيصًا فدارِه
وأحببْ حبيبَ الصدقِ واحذرْ مِراءَه ... تنلْ منهُ صفوَ الودِ ما لمْ تمارِه

وقال آخرُ:

اصحبْ خِيَارَ الناسِ أينَ لقيتَهم ... خيرُ الصحابةِ مَن يكونُ ظَريفًا
والناسُ مثلُ دراهمٍ ميَّزْتَها ... فرأيْتَ منْها فضةً وزُيُوفًا

وختامًا: الزمْ أخِي جلساءَ الخيرِ وأهلَ الصلاحِ ووطِّنْ نفسَك على ذلكَ واستفدْ من عُلومِهم وأخلاقِهم وأعْمالِهم واستنِرْ بآرائِهم وتوجيهاتِهم، ولا أنسَى أن أذكِّرك بالصبرِ على ما قدْ تجدُهُ من أذًى أو تقصيرٍ من بعضِهم بسببِ استيلاءِ النقْصِ عليهِ واختلافَ الطَّبائعِ والسلوكِ، واجعلْ هذهِ الآية دومًا أمام ناظِريْكَ وأَمرَّها على صفَحاتِ قلبِكَ، وهي قولُه تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[1].

أسألُ اللهَ أن يوفقَني وإياكُم لِجُلَسَاءِ الخيرِ الذينَ يأخُذونَ بأيدِينَا إلى السعادةِ الدنيويةِ والأخرويةِ، وأن يرزقَنا فعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ، وأن يجعَلَنا مفاتيحَ للخيرِ مغاليق للشرِ، وأن يجمعَنا في مُستَقرِّ رحمتِه آمين.

وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعَلَى آلهِ وصحبِه أَجمعينَ.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

الباب التاسع

الخلوةُ بالمرأةِ الأجنبيةِ وسفرُها بدونِ محرمٍ

الحمدُ للهِ ربِ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِهِ الأمينِ الذي بلَّغَ البلاغَ المبينَ، وعبدَ ربَّه حتَى أتاهُ اليقينُ، وعلى آلهِ وأصحابِهِ الغُرِّ الميامينِ، وعلى زوجاتِه وآلِ بيتِه المطهَّرِين، ومن تبعَهُم بإحسانٍ إلَى يومِ الدينِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا،

أما بعد:

فقد أمَرَ الإسلامُ بالعفَّةِ والنزاهةِ والتَّرفُعِ عنَ سفَاسِفِ الأمورِ ونَهى عنِ الأسبابِ المؤديةِ إلى ذلكَ حمايةً لِلأعراضِ وَصِيَانةً لَها، وهَذَا هُوَ الْمَنهَجُ الصحيحُ أنَّكَ إذا نَهيتَ عن شيءٍ أَغْلَقتَ الطرقَ المُوْصِلةَ إليهِ، وأوجدْتَ البدائِلَ قدْرَ استطاعتِكَ.

عبدَاللهِ: إن الإسْلاَمَ لما نَهى عن الزِّنا نَهى أولاً عن النَّظَرِ إلى الأَجْنَبيَاتِ وَعَن الدُّخُولِ عَلَى الْبُيُوتِ بدونِ استئذانٍ، وَعنِ استعمالِ الْوَسَائِلِ الَّتِي تَدعُو إلى الفَاحِشَةِ من أُغْنِيةٍ أو نَظَرِ صُورةٍ أو فِيلمٍ يدعُو إلى رَذيلةٍ، ونهى عن التبرُّجِ والاخْتِلاطِ، ومما نَهى عنهُ الإسلامُ الْخَلْوَةُ بالمرأةِ الأجنبيةِ وهو موضوعُ حديثِنَا، فالْخَلْوَةُ بالمرأةِ الأجنبيةِ والاختلاطُ بينَ الرجالِ والنساءِ حرامٌ في دينِ اللهِ، وهما من عواملِ الهدمِ لأخلاقِ أمتِنا الإسلامِّيةِ، ومدعاةِ غَضَبِ اللهِ وعذابِه.

فَلنَتَّقِ اللهَ في بناتِنا ونسائِنا، ولنعلمْ أنَّنا مسئُولون عنهنَّ بينَ يدي اللهِ الَّذي ائتمَنَنَا عَلَيْهِنَّ، قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

لقد حَرَّمَ الإسلامُ ذلكَ تَحْرِيمًا قاطعًا - بِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ الْمُسْتَوَى الخُلُقِي لِلرَّجُلِ والْمرْأَةِ - فالْخَلْوَةُ حرامٌ وَلَوْ كَانَتْ بينَ أَصْلَحِ الخَلْقِ وأتْقَاهُم وبينَ أيَّةِ امْرأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ كَمَا حَرّمَ الاخْتلاطَ رِعَايةً مِنْهُ لِمصَالِحِ الناسِ الدُّنْيَوِيَّةِ والأُخْرَوِيَّةِ؛ لأِنهُ بذلكَ يَصُونُهم عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْحَرَامِ.

كيفَ يَرضَى امرؤٌ يتَّقِي اللهَ وَيَخْشاهُ بأنْ تخلُوَ زَوجُه أو ابنتهُ مع رجلٍ أجنبيٍّ عنْها؟

إن الإِسْلامَ حَرَّمَ الْجَرِيمَةَ وَمَنعَ أَسْبَابَها الْمؤَدِّيَةَ إِليْهَا؛ لأَنَّ مَنْ فرَّطَ في الأَسْبَابِ وَقَعَ فِي الْجَرِيمةِ وَمَنْ حامَ حَوْلَ الحِمَى أَوْشَكَ أَنَ يرتَعَ فِيهِ.

عَنِ النُّعْمَانِ بنِ بَشيرٍ - رَضِيَ اللهُ عنْهما - قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الحَلاَلَ بيِّنَ وإِنَّ الحرامَ بيِّنٌ، وَبَيْنَهُما أُمُورٌ مُشْتَبِهاتٌ لاَ يعْلمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقى الشُّبُهَاتِ فَقَد اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ ومَنْ وقَعَ في الشُّبُهَاتِ وقَعَ فِي الْحَرَامِ، كالرَّاعِي يرْعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أَنَ يرْتَعَ فِيهِ، ألا وإِنْ لِكلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا إِنَّ حَمَى اللهِ محارِمُهُ،**

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

أَلَا وإنَّ في الْجَسَدِ مضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسدُ كُلُّهُ، وإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كلُّهُ، ألا وَهِي القَلْبُ». متفقٌ عليه[١].

قال سماحةُ الشيخ عبدِالعزيز بن بازٍ - وفقَهُ اللهُ - :

(ومِنْ أعظمِ أسبابِ الفسادِ خَلْوةُ الرِّجالِ بالنِّساءِ، وسَفَرُهُم بهنَّ من دونِ مَحْرمٍ، وقد صحَّ عنِ النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «لا تُسَافرْ امرأةٌ إلا معَ ذِي محرمٍ ولا يَخْلو رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إلا معَها ذُو محرمٍ». وقال ﷺ: لا يخلُو رَجُلٌ بامْرأةٍ إلاَّ كانَ الشيطانُ ثالثَهُمَا». وقال ﷺ: «**لا يبيتَنَّ رجلٌ عندَ امْرَأَةٍ إلاَّ أنْ يكونَ زوجًا أو مَحْرَمًا**». رواه مسلمٌ في صحيحِهِ. فاتقُوا اللهَ أيُّها الْمُسْلِمُونَ. وَمِنْ أَعْظَمِ الواجبَاتِ تحذيرُ الرِّجَالِ من الْخَلْوَةِ بالنِّساءِ والدُّخُولِ عَلَيْهِنَّ والسَّفَرِ بِهِنَّ بُدُونِ مَحْرَمٍ؛ لأَن ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ الْفِتْنَةِ والفَسادِ، وقد صَحَّ عَنِ النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**ما تركتُ بعدِي فتنةً أضرَّ على الرجالِ مِنَ النِّسَاءِ**». وقال ﷺ: «**إن الدُّنْيَا حُلوةٌ خَضِرةٌ، وإن اللهَ مستخْلِفُكم فيها فناظرٌ كيفَ تعْمَلونَ، فاتقوا الدُّنيا، واتّقُوا النِّسَاءَ، فإِنَّ أول فتنةِ بني إِسْرَائِيلَ كَانتْ في النساءِ**»)[٢].

قال الشَّوكَانيُّ: «والْخَلْوةُ بالْأَجْنَبيَّةِ مُجْمَعٌ عَلَى تَحْرِيمِها كَمَا حَكَى ذَلِكَ الْحَافِظُ فِي الفَتح، وعِلَّةُ التَّحْرِيم ما في الْحَديثِ مِنْ كَوْنِ الشَّيْطَانِ ثَالِثَهُمَا وحُضورُهُ يوقِعُهُمَا فِي الْمَعْصِيَةِ، وَأَمَّا مَعَ وُجُودِ

(١) تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية للشيخ محمد الصباغ بتصرف.
(٢) كتاب التبرج لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز.

الْمَحْرَمِ فالخلوَةُ بالأَجْنَبيَّةِ جَائِزةٌ لامْتنَاعِ الْمَعْصِيَةِ مع حضوره»[1].

وقد حَذَّرَ الرسولُ ﷺ من الدُّخولِ على النِّسَاءِ الأَجْنَبيَّاتِ فَعَنْ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إيَّاكم والدخولَ على النساءِ، فقالَ رجلٌ من الأنصارِ: يا رسولَ اللهِ! أفرأيتَ الحَمْو؟ قال: الحَمْو الموتُ**». متفقٌ عليه.

قال النوويُّ: «وَأَمَّا قَوْلُه ﷺ: الحَمْو الموتُ فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْخَوفَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ، والشرُّ يُتوقَّعُ مِنْهُ والْفِتْنَةُ أَكْثَرُ لتَمَكُّنِهِ من الوصولِ إلَى الْمَرْأَةِ والْخَلْوَةِ مِنْ غَيْرِ أن يُنْكَرَ عَلَيْه بِخلَافِ الأَجْنَبيِّ، والْمُرَادُ بالحَمْو هنا أَقاربُ الزوجِ غيرُ آبائه وَأَبْنَائه، فأما الآباءُ والأَبْنَاءُ فَمَحَارِمُ لِزَوْجَتِه تَجُوزُ لهم الْخَلْوَةُ بِهَا وَلاَ يُوصَفُون بالْمَوْتِ، وَإِنَّمَا الْمُرادُ الأَخُ وابْنُ الأَخِ والْعَمُّ وابنُه وَنَحْوُه ممَّن لَيْسَ بِمَحْرَم. وَعَادَةُ النَّاس الْمُساهَلَةُ فيه وَيَخْلُو بامْرَأَةِ أخيهِ فَهَذَ هُوْ الْمَوْتُ وُهُوَ أَوْلَى بِالْمَنْعِ مِنَ الأَجْنَبيِّ لِما ذَكَرْنَاهُ»[2].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**ألاَ لا يبيْتنَّ رَجُلٌ عندَ امرأةٍ ثَيِّبٍ إلاَّ أن يكونَ ناكحاً، أو ذا محرمٍ**» رواهُ مسلمٌ.

قال العلماءُ: «إنما خَصَّ الثيِّبَ لِكونِها التي يُدخَلُ إليها غَالبًا، وأما البِكْرُ فمَصُونَةٌ مُتصوِّنةٌ في الْعَادَةِ مُجَانِبَةٌ للرِّجَالِ أَشَدَّ مُجَانبَةً فلمْ يحتجْ إلى ذِكْرِهَا وَلأنَّه مِنْ بابِ التَّنْبِيهِ لأنهُ إذا نَهى عن الثَّيِّبِ التي

---

(١) نيل الأوطار جـ٦ ص ١١٢.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٥٤.

يتسَاهَلُ الناسُ في الدخولِ عليها في العادةِ فالبكرُ أوْلَى»[1] .

فعليكَ أخِي المسلمَ أن تغارَ على زوجِك وابنتِك من أن يَنْفرِدَ بهَا رَجُل فإنَّ الغَيْرةَ من سُلُوكِ الصَّالِحين، فَهَذَا الْخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ أبُو بكرٍ - رضي الله عنهُ - دَخَلَ يَوْمًا على زَوْجه أسماءَ بنتِ عُمَيْس فرَأَى عِنْدَهَا نفَرًا مِنْ بني هَاشم فكَرِهَ ذلك فذكَرَ ذلك لرسولِ اللهِ ﷺ وقال: لم أرَ إلاَّ خَيْرًا. فقال رسولُ الله ﷺ **إن اللهَ قد برَّأَها من ذلك**، ثُمَّ قامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى الْمنبَر فقال: «**لا يَدْخُلَنَّ رجلٌ بَعْدَ يَوْمي هَذَا على مُغَيَّبةٍ إلاَّ معهُ رَجُلٌ أوِ اثْنَانِ**». رواهُ مسلمٌ. والمغيَّبةُ هِيَ التي غابَ زوجُها، والمرادُ غابَ زوجُها عن مَنزلِها سواءٌ غابَ عن البلدِ بأنْ سَافرَ أو غَاب عَن الْمَنْزلِ وإنْ كَانَ فِي الْبَلَدِ وَالْقِصَّةُ الَّتي قِيلَ الْحَدِيثُ بسببِها وأبو بكرٍ - رضيَ الله عنه - غَائبٌ عَنْ مَنْزِلِه لاَ عَنِ الْبَلَدِ.

وفي قَصَصِ الْقُرآنِ عِبرةٌ للمُعتَبرِينَ، فهذِهِ تَجْربةٌ تعرَّضَ لها نبيُ الله يوسفُ عليهِ السَّلاَمُ، عِنْدَمَا كَانَ فِي بَيْتِ الْعَزِيز. . لَقَدْ تَعرَّضَ لِلْفِتْنَةِ الْمُغْرِيةِ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾[2]. وَلَوْلاَ عِصْمةُ اللهِ - تَبارَكَ وَتَعالى - فأَراهُ بُرْهَانَ رَبِّهِ لَكَانَ الأَمرُ الفَظِيعُ المُسْتَبْشَعُ. وبعضُ الناس هداهُ اللهُ يقرأُ الْقُرآنَ ولا يَتَّعِظُ فهُو يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى عَمَلِه، أَوْ إِلَى صَدِيقِه، أوْ إلى شَأنٍ مِنْ شُئُونِهِ وَقَدْ تَرَكَ زوجَه مع الخَادِمِ الشَّابِّ الذي يَتَفَجَّرُ حَيَوِيةً وَنَشَاطًا وَقُوَّةً، ولا تَسْتَتِرُ مِنْه، وقد ارتفَعَتْ الكُلْفَةُ بيْنَهما،

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٤ ص ١٥٥.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٣.

فهي تأمرُه وتُنَادِيه وَتَنْهَاهُ، وَهُوَ بِحُكْم عَمَلِه يستجيبُ، والشّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدمَ مَجْرَى الدَّم، وَمَا خَلاَ رجُلٌ بامْرَأَةٍ إلاَّ كَانَ الشَّيْطَانُ ثالِثَهما، يُحبِّبُه إليْهَا وَيُحَبِّبُها إلَيْه حَتَّى تَقَعَ الجريمةُ. وَمِنَ الْخَلْوَةِ المحرمةِ أن تذهبَ المرأةُ إلى الطَّبِيبِ وَحْدَها، وَقَدْ تَذْهَبُ بِطِفلٍ معَها، وُجودُه كعَدَمِه، فتَتَحقَّقُ الْخَلْوَةُ الْمَحْظُورَةُ فيكشِفُ بِحُكْم مِهْنَتِهِ عَنْ مَوَاضِعَ من جَسَدِها، ثُمَّ يُبالِغُ في الاستِفسارِ بالأسئِلَةِ الَّتِي تقودُ إلى الحَرام.

ومما ابتُلِيَ به بَعْضُ الْمُسْلمينَ تركُ زَوْجه أو ابنتِهِ مع السائق يذهبُ بها أنَّى شَاءَتْ، وَلاَ يَدْرِي أحدٌ عن طبيعَةِ الْحَديثِ الذي يَدُورُ بَينهُما في دَاخِلِ السَّيَّارةِ إلاَّ اللهُ، يَذْهَبُ بالبِنْتِ إلى الْمَدْرَسةِ ويَذْهَبُ بالأمِّ إلى السُّوقِ، فَهُوَ يغْدُو وَيَرُوحُ بأُسَرِهم وَيَنْفَرِدُ بِنِسَائِهِمْ وَكَأَنَّه واحدٌ منهُم، أو كأنَّهم لَمْ يسمَعُوا إلى قَوْلِ الرسولِ ﷺ: «**لا يْخلُوَنَّ رُجُلٌ بامْرأَةٍ إلاَّ كان الشيطانُ ثالثَهُما**»[1].

أخِي المسْلِمَ: إنَّ ذهابَ الْمَرْأَةِ وحدَها مَعَ الرَّجُلِ بَعِيدًا عَنْ أَعْيُنِ الناس لاَ يَجُوزُ، فَعَنْ عِليِّ بن حسينٍ، عن صَفِيَّةَ بنتِ حُييٍّ قالَتْ: كانَ النبيُّ ﷺ مُعْتكفًا فأتيتُه أَزُورُه لَيْلاً، فَحَدّثتُه ثُمَّ قُمتُ لأَنْقَلِبَ فقامَ مَعيَ ليَقْلِبَنِي (لِيَرُدَّنِي إلَى منْزِلي) وكان مَسْكَنُها في دارِ أُسَامَةَ بنِ زيدٍ، فَمَرَّ رَجُلاَن مِنَ الأَنْصارِ فَلمَّا رأَيَا النبيَّ ﷺ أسرعَا فقال النبيُّ ﷺ: «**على رِسْلِكُما إنَّها صَفِيةُ بنتُ حُيَيٍّ**». فَقَالاَ: سُبحانَ اللهِ

---

(١) تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية بتصريف.

يا رَسُولَ الله ، قال : «**إنَّ الشَّيطانَ يجرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشيتُ أن يَقْذِفَ في قلوبِكما شَرًّا. أو قال شيئًا**» . رواهُ مسلمٌ .

أَمَّا اليومُ فإنَّ انفرادَ الرجلِ الأَجْنَبِيِّ بالمرأَةِ يَحْدُثُ كثيرًا في بيوتِ الْمُسْلِمينَ الذين اتَّخَذُوا الخادماتِ ، فإنَّ منَ الْمُتَوقَّع بلْ منَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ ربَّ البيتِ أو أحدَ أَبْنائِهِ أَوْ أَحَدَ رجالِ الأسرة يخلوُ بهذِهِ الخادمةِ حِينَما تَخْرُجُ الأُسْرَةُ وَحينَئذٍ يَأْتِي دَورُ الشيطانِ وهو دَورٌ مُحَقَّقُ الخطرِ ؛ حيثُ أخبرَ الرسولُ ﷺ بذَلكَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ وهُوَ يعُمُّ جَميعَ الرِّجالِ وَإِنْ كانوُا صالحينَ أوْ كبارَ السِّنِّ ، كَمَا يعُمُّ جَميعَ النِّسَاءِ وَإنْ كُنَّ صَالحاتٍ ، أَوْ عَجَائِز وَهَذَا شَيءٌ مُشَاهَدٌ مِنَ الطَّبيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ مَيلُ الرِّجال إلى النِّساءِ بِالفِطَر ولا سيَّما أَنَّ الكثيَر من هَذِه الخادماتِ فَتَياتٌ جَميلاتٌ[1] .

أخي المسلمَ : ارجعْ إِلى ربِّك واسْتَجِبْ لأَمْرِه فإنَّ نِساءَ الرَّسَولِ ﷺ وَهُنَّ مَنْ هُنَّ في الطُّهْرِ والعَفافِ يَقُولُ اللهُ - سبحانَه وتعالى - ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[2] .

قال سيد قطب رحمه الله : «فلا يَقُلْ أحدٌ غيرَ ما قالَ اللهُ، لا يَقُلْ أَحدٌ إنَّ الاخْتِلَاطَ ، وَإِزالةَ الحُجُبِ والترخُّصَ في الحديثِ واللِّقاءِ وَالْجُلوسِ والْمُشَاركَةِ بَيْنَ الجِنْسَينِ أَطْهرُ للقلوبِ ، وَأَعَفُّ للضمائرِ ، وأعونُ على تصريفِ الغريزةِ المكبوتَةِ ، وعلى إِشْعَارِ

---

(١) مسئولية المرأة المسلمة لعبدالله الجارالله .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٥٣ .

الجِنْسَين بالْأَدَبِ، وَتَرْقِيقِ الْمَشَاعِرِ والسُّلوكِ، إلى آخرِ ما يَقُولُهُ نفرٌ من خَلْقِ اللهِ الضِّعافِ المهازِيلِ الجُهَّالِ الْمَحْجُوبينَ. لا يَقُلْ أحدٌ شيئًا من هذا واللهُ يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. يقولُ هذا عنْ نساءِ النبيِّ الطَّاهِرَاتِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنينَ وَعَنْ رِجَالِ الصَّدْرِ الْأَوَّلِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ممَّنْ لاَ تَتطاوَلُ إليهنَّ وإليهمُ الأعناقُ؛ وحَينَ يَقُولُ اللهُ قَوْلاً وَيقُولُ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ قَوْلاً فالْقَولُ للهِ سُبْحانَه وكلُّ قولٍ آخرَ هُرَاءٌ لا يردِّدُهُ إلا من يَجْرُؤ على القولِ بأنَّ العبيدَ الفَانينَ أعلمُ بالنفسِ البشريةِ من الخالقِ الباقِي الذي خلقَ هؤلاءِ العبيدَ»(١).

وكما نُهِى عن الْخَلْوَةِ بالْمَرْأَةِ الْأَجْنَبِيةِ سَدًا لذَرائعِ الفسادِ، فقد نُهِيَ عن سفرِها بدونِ مَحرمٍ وقد بلغَ من تَشْديدِ الرسولِ ﷺ في ذلك أنْ منعَ رجلاً من الخُروجِ لِلْجِهَادِ لأَنَّ امرأَتَهُ خَرجَتْ للحجِّ بدونِ مَحْرمٍ، فعن ابنِ عباسٍ - رضيَ الله عنهُما - أنهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يخطُبُ ويقولُ: «**لا يخلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا ومعَهَا ذُو مَحْرمٍ ولا تسافرْ المرأةُ إلا معَ ذِي مَحْرمٍ**. فقامَ رجلٌ فقالَ: يا رسولَ اللهِ إن امْرأَتِي خَرجَتْ حاجَّةً، وإني اكتُتِبْتُ في غزوةِ كذَا وكذَا. فقال: فانطلقْ فحُجَّ معَ امْرأَتِكَ». متفقٌ عليه.

عبادَ اللهِ: اتقُوا اللهَ في أنفُسكُم وَفِي مَنْ تَحتَ أيديكُمْ من بنينَ وبناتٍ وَزَوْجَاتٍ وَأَخَواتٍ وبَاعِدُوا بيْنَهم وَبينَ الأَسْبابِ الْمُؤَدِّيَةِ

---

(١) في ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٨٧٨.

للجَرِيمَةِ مِنْ خَلْوَةٍ بالْأَجَانبِ والأَجْنَبيَّاتِ، أَوْ سَفَرٍ بِدوُنِ مَحْرم لِلْبنَاتِ والْأَخَوَاتِ وَالزَّوْجَاتِ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ تَسَاهَلَ بالسَّفَرِ بدوُن مَحْرمٍ خَاصَّةً فِي الطَّائِرَاتِ، وَمَا يُدْرِيكَ فِي أيِّ مَكَانٍ سوفَ تَهبِطُ هذه الطَّائِرَةُ، فَرُبَّما لا تَهْبطُ فِي الْمطَارِ الَّذي اتَّجهتْ إلَيْه.

عَبدَ اللهَ إنَّ الخَطرَ فِي هذهِ الْموَاطِنِ عَلَى عِرْضٍ لو انكسرَ فإنُه لا ينجَبرُ، حمَانا اللهُ وإياكَ وذُريَّاتنا وجميعَ المسلمين.

أخا الإِسْلام: إنَّ فِي العَالم الإِسْلاَميِّ مَنْ تَرَكَ ابنتَه تُسافرُ بدُونِ محرمٍ للدِّرَاسَةِ فِي الخارِجِ وتَخْتَلطُ معَ الرِّجالِ فِي مَدَراسِهم، وتعملُ بَعْدَ ذَلكَ في مَجالاَتٍ مُختَلطَةٍ توصِّلُها حَتمًا إلى الْخَلوَةِ بالأجانبِ، فلا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

يقولُ الشيخُ محمدُ رشيدِ رِضَا: «ومَنْ يَعلمُ أخبارَ الأَسْفارِ في هذا العصرِ وما يكونُ دائمًا من تأثيرِ اجتماعِ النساءِ بالرجالِ في البَواخِرِ والفنادقِ، فإنه يفقَهُ من حِكْمَةِ هذا النَّهي، أن السفَرَ الطويلَ والقصيرَ سواءٌ في عدمِ خروجِ المرأةِ فيهِ معَ غيرِ ذي محرم»[1].

اللَّهمَّ لكَ الحمدُ كما هَديتَنا للإِسلامِ، اللهُم كما هَديتَنا فثَبتْنا إلى أن نلقَاكَ وأنتَ راضٍ عنّا، اللهمَّ آمَنْ روعاتِنَا، واستُرْ عَوْرَاتِنَا ولا تفضَحْنا، اللهم وفِّقْنا لاتِّباعِ أَمرِكَ واجتنابِ نَهيكَ، اللهمَّ لا تجعلْ مُصِيبتَنا في دينِنَا، اللهم أصْلحْ زوجاتِنا وذُريَّاتنا، اللهم يا حيُّ يا قيُّومُ يا ذا الجلالِ والإِكرامِ أصلحْ أحوالَ المسلمينَ

(١) عن حقوق المرأة في الإسلام - محمد عرفة.

وانصُرهُم على مَن عَاداهُم، اللهمِ مَن أرادَهم بسوءٍ فأَشْغِلْه بنفسِهِ، اللهم اغفِرْ لنا ولوالديْنا ولجميع المسلمينَ برحمتِك يا أرحَم الراحمين، وصلى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وآلهِ وأصحابِه أجمعينَ.

أسئلة موجهة لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز عن حكمِ مقابلةِ المرأةِ للسائقِ والخادم والخلوة بهم

السؤال الأول: ما حكمُ مُقابلةِ الخَدَمِ والسَّائقينَ وهل يُعتبرون في حُكمِ الأجانبِ علمًا بأنَّ والِدتِي تَطلبُ مني الخروجَ أمامَ الخدَمِ وأنْ أضعَ على رأسِي «إيشارِبَ» فهل يجوزُ هذا في دينِنا الحنيفِ الذي أمرَنَا بعدمِ مَعْصيةِ أوامرِ اللهِ عز وجل؟[1]

الجوابُ: السائقُ والخادِمُ حكمُهُما حكْمُ بقيةِ الرِّجالِ يجبُ التحجبُ عنهما إذا كانَا ليسَا مِن المحارِمِ، ولا يجوزُ السُّفورُ لَهما ولا الخلوة بكلٍّ واحدٍ منْهما لقولِ النبيِّ ﷺ: «**لا يخلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإن الشيطانَ ثالثُهما**» ولعمومِ الأدلةِ في وجوبِ الحِجابِ وتحريمِ التَّبَرُّجِ والسَّفورِ لغيرِ المحارمِ ولا تجوزُ طاعةُ الوالدةِ ولا غيرِها في شيءٍ من معاصِي اللهِ.

عبد العزيز بن عبدالله بن باز

---

(١) كتاب الدعوة ص ١٩٩.

السؤال الثاني: ما حُكمُ رُكوبِ المرأةِ معَ سائقٍ أجنبيٍّ عنْها وحدَها ليوصِلَها في داخلِ المدينةِ؟ وما الحكْمُ إذا رَكبتْ المرأةُ ومجموعةٌ من النساءِ معَ السائقِ وحدَهنَّ؟[1]

الجواب: لا يجوزُ رُكوبُ المرأةِ مع سائقٍ ليسَ محرمًا لَها وَلَيْسَ معَهُما غيرُهُما لأنَّ هذا في حكمِ الْخَلْوَةِ وقد صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنهُ قالَ: **لا يخلُو رجلٌ بامْرأةٍ إلا ومعَهُما محرمٌ**».

وقالَ ﷺ: « **لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ فإنَّ الشَّيطانَ ثالثُهما** »، أما إن كان معَهُما رجلٌ آخرُ أو أكثرُ أو امرأةٌ أخرَى أو أكثرُ فلا حرجَ في ذلكَ إذا لم يكنْ هناكَ ريْبَةٌ؛ لأن الْخَلْوةَ تزولُ بوُجودِ الثالثِ أو أكثرَ وهذا في غيرِ السفرِ أما في السَّفرِ فليسَ للمرأةِ أن تُسافرَ إلا مع ذِي محرمٍ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**لا تسافرْ امرأةٌ إلاَّ مَعَ ذي مَحْرمٍ**» متفقٌ على صحتِهِ ولا فرقَ بينَ كونِ السفرِ من طريقِ الأرضِ أو الجوِّ أو البَحْرِ واللهُ وليُّ التوفيقِ.

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

---

(١) مجلة الدعوة ص ١٠٣٤.

حكمُ ركوبِ المرأة مع سائقٍ أجنبيٍّ

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

أقولُ وأنَا كاتبُه محمدُ بنُ صالح العثيمينَ إنهُ لا يجوزُ للرجلِ أن ينفردَ بالمرأةِ الوَاحِدَةِ في السيَّارةِ إلَّا أَنْ يكونَ محرَمًا لَها لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**لا يَخْلَونَّ رجلٌ وامرأةٌ إلا مع ذِي مَحْرمٍ**» أمّا إذا كان معَه امرأتانِ فأكثر فلا بأسَ لأنهُ لا خلوةَ حِينَئِذٍ بشرطِ أنْ يكون مأمونًا وأنْ يكون في غيرِ سفرٍ، واللهُ الموفقُ.

محمد بن صالح العثيمين

مصافحةُ المرأةِ الأجنبيةِ

سؤالٌ: ما حُكمُ مصافحةِ المرأةِ الأجنبيةِ، وإذَا كانتْ تضعُ على يدِهَا حاجزًا من ثوبٍ ونحوِه.. فما الحكمُ وهل يختلفُ إذا كانَ المصافِحُ شابًّا أو شيخًا أو كانتْ امرأةً عجوزًا؟

الجوابُ: لا تجوزُ مصافحةُ النساءِ غيرِ المحارم مُطلَقًا سواءٌ كنَّ شاباتٍ أم عجائِزَ وسواءٌ كانَ المصافِحُ شابًا أمْ شيخًا كبيرًا لِما في ذلكَ من خطرِ الفتنةِ لكلٍّ منهما.. وقد صحَّ عن رسولِ الله ﷺ أنُه قالَ: «**إِني لا أصافحُ النساءَ**»... وقالتْ عائشةُ - رضيَ اللهُ عنها: «**ما مسَّتْ يَدُ رسولِ اللهِ ﷺ يَدَ امرأةٍ قَطُّ؛ ما كانَ يُبايِعُهُنَّ إلا بِالكلام**» ولا فرقَ بينَ كونِها تصافِحُه بحائِلٍ أو بَغيرِ حائلٍ لعُموم الأدلةِ ولسدِّ الذرائع المُفْضِيَةِ إلى الفتنةِ.

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

الباب العاشر

الخشوعُ عندَ قراءةِ القرآنِ والأدبُ عند تلاوتِه، والعملُ بما فيهِ

الحمدُ للهِ الداعِي إلى بابِه، الموفِّقِ مَنْ شاءَ لصوابِه، أنعمَ بإنزالِ كتابِهِ، اشتملَ على مُحْكَمٍ ومُتَشابِهٍ، فأمَّا الذينَ في قلوبِهم زيغٌ فيتَّبِعُونَ ما تشابَه منهُ، وأما الراسخونَ في العلمِ فيقولن آمنَّا بِهِ، أحْمدُهُ على الهُدَى وتيسيرِ أسبابِه، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه أكملُ الناسِ خشوعًا عند تلاوةِ كتابِه.

فعن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ - رضيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ ليَ النبيُّ ﷺ: «اقْرأْ عليَّ. فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أَقْرَأُ عليْكَ وعليْك أُنزلَ؟ قال: نعم، فقرأتُ سورةَ النساءِ حتى أتيتُ على هذه الآيةِ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[١]، قال: حَسْبُكَ. فالتفتُّ إليهِ فإذا عَيناهُ تَذْرِفانِ» رواهُ البخاريُّ[٢].

إخوانِي: هكَذَا كانَتْ حَالُ النبيِّ ﷺ عندَ قراءَةِ القرآنِ، وسماعِه. وهو أعلمُ الناسِ بدقائِقِه، وأفهَمُهُم لمرامِيهِ، وأكثرُهم إدْرَاكًا لمعانِيهِ. وقد غَفَرَ اللهُ لُه ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر، ومع ذلك فقد كانَ يصَلِّي ولجوفِه أزيزٌ كأَزيزِ المَرْجَلِ من البُكاءِ[٣].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) فتح الباري (٩/ ٩٤).

(٣) المسند (٤/ ٢٥-٢٦) بإسناد صحيح قاله الألباني: المشكاة (١/ ٣١٦).

وقد ذكرَ اللهُ سبحانَه اشتمالَ القرآنِ على الوعْدِ والوعيد والتَّخْويفِ والتَّهديدِ ووصفِ الجنةِ ونَعيمِهَا، والنارِ وعَذابِها، وذلكَ كلُّه مدعاةٌ إلى الطمَعِ في الجنةِ ونعيمِها، والبكاءِ خوفًا من النارِ وعذابِها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[1]، وقد مَدَحَ اللهُ قومًا بقولِه: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[2].

وقد حثَّ النبيُّ ﷺ أصحابَه على التَّخَشُّعِ والتذَلُّلِ والبكاءِ عند قراءةِ القرآنِ ورغَّبَهُم في ذلك، فقال: **«عينانِ لا تَمسُّهُما النارُ، عينٌ بكَتْ من خشيةِ اللهِ وعينٌ سَهِرَتْ في سَبيلِ اللهِ»**[3]، بلْ بيَّن ﷺ أن مَنْ بَكَى منْ خشيةِ اللهِ دخلَ الجنةَ. فعنْ أبي هريرَةَ رضَي اللهُ عنه، قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«لا يَلِجُ النَّارَ رجلٌ بكَى مَنْ خشيةِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرعِ . . .»** رواه الترمذيُّ وصححه[4].

وقد كانَ صحابةُ رسولِ اللهِ ﷺ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ ويتأثرُونَ بآياته فتلينُ جُلودُهُم، وتدمعُ عيونُهم وتخشعُ قلوبُهم، فيرفعونَ أكفَّهُم

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة الإسراء، الآيات: ١٠٧-١٠٩.
(٣) الترمذي (١٦٣٩).
(٤) ج ٤/١٤٧.

إلى ربِّهم ضَارِعينَ يسألونَه قبولَ الأعمالِ ويرجُونَهُ غفرانَ الزلاتِ، ويتشوَّقُونَ إلى ما عندَه من النَّعِيم المقيم. رُوِيَ أنَّ أبا بكر - رضيَ اللهُ عنه - كان ابْتَنَى مسجدًا بِفِنَاءِ دارِه فكَانَ يُصلي فيه ويقرأُ القرآنَ فيَتَقَصَّفُ عليه نساءُ المشركينَ وأبناؤهُم وهم يتَعجَّبُونَ منه وينظُرُونَ إليه، وكان رجُلاً بكَّاءً لا يملِكُ دموعَه إذا قرأَ القرآنَ.. وكان عمرُ ابنُ الخطابِ - رَضِيَ اللهُ عنه - يُصلِّي بالناسِ فبَكَى في قراءتِه حتى انقطعَتْ قراءتُه وسُمعَ نَحِيبُه من وراءِ ثلاثةِ صفوفٍ.. وقَرأَ ابنُ عمرَ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[1] فلما أتَى على قولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2] بَكَى حتى انقطَع عن قراءةِ ما بعدَها»[3].

قال القُرطبيُّ - رحمهُ اللهُ -: «مدحَ اللهُ البكَّائينَ في كتابه - عزَّ وجلَّ - مخبرًا عن الأنبياءِ ومَن انْضَافَ إليهمْ من الأولياءِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾[4]، وقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩﴾[5]، وقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾[6]، وأخبرَ أنَّ البكاءَ يزيدُهم خُشُوعًا، والذينَ أوتُوا العلمَ هُم أهلُ الخشيةِ كما قالَ في تنزيلِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١.
(٢) سورة المطففين، الآية: ٦.
(٣) التذكار ص (١٨٨).
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.
(٥) سورة مريم، الآية: ٥٨.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

ﭐلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾(١)، فأعلَمُهُم باللهِ أشدُّهم خشيةً. ولهذا قالَ ﷺ: «**واللهِ إنِّي لأخْشاكُم لله وأعلَمُكم بما ألقَى**»(٢)، رواهُ مسلمٌ.

وعن أبي رَجاءٍ قالَ: «رأيتُ ابنَ عباسٍ وتحتَ عَيْنَيْه مِثْلُ الشِراكِ البالِي من الدُّمُوعِ».

قال أبُو حامدٍ الغزاليُّ: «البكاءُ مُسْتَحَبٌّ مَع القراءةِ وعندَها، وطريقَةُ تحصيلِه أن يُحضِرَ قلبَهُ الحُزنَ، بأن يَتأملَ ما في التهديدِ والوعيدِ الشديدِ والمواثيقِ والعهودِ، ثم يتأملَّ تقصيرَه في ذلكَ، فإنْ لم يحضرْه حزنٌ وبكاءٌ، فلْيبْكِ على فَقدِ ذلكَ، فإنَّه من أعظَمِ المصائِب»(٣).

إخواني: هذهِ حالُ سلفِ الأُمَّةِ وصُلَحائِها وخِيارِها يَمُرُّ أَحدُهُم على ذكرِ النارِ فينخلعُ قلبُه خَوفًا منها ورهبةً من أهوالِها ونكالِها وخشيةً من عذابِها وآلامِها، ويَمرُّ بذكرِ الجنةِ ونعيمِها، وما أعد اللهُ فيها فتَرْتَجِفُ أوصالُهُ أنْ يُحرمَ ذلكَ النعيمَ المقيمَ، وفي هذا وذَاك يتأثَّرُ بما يقرأُ، فتدمعُ عيناهُ، ويخشعُ قلبُه ويحاولُ كِتْمانَ ذلك التَّأثُّرِ، وربَّما لم يَتَسَنَّ لهُ ذلكَ فسمعَ مَنْ حَولَه صَوتَه وأحسُّوا بِبُكائِه وَحَبَّذَا لَعَمْرُ اللهِ البكاءُ من خشيةِ اللهِ والعملُ الخالصُ من أجلِه. ولقدْ وُجِدَ من يَعْلُو صُراخُه، ويرتَفعُ زَعيقُه، وربَّما صُرِع، وربما خرَّ ميِّتًا عندَ سماعِ القرآنِ، ولكنَّ ذلكَ لم يردْ عنْ أحدٍ من صحابةِ رسولِ اللهِ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) التبيان ص (٦٢).

ﷺ أنه صُرِعَ عندَ قراءةِ آيةٍ أو غُشِيَ عليهِ أثناءَ قراءتِه كتابَ اللهِ. (عن عبدِالله بنِ عروةَ بنِ الزُّبيرِ قالَ: قُلْتُ لِجَدَّتِي أسماءَ بنتِ أبِي بكرٍ كيفَ كانَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يفعلونَ إذا قُرِىءَ عليهِمُ القرآنُ؟ قالتْ: كانُوا كما نعتَهُم اللهُ - عزَّ وجلَّ - تدمعُ عيونُهُم وتَقْشَعِرُّ جلودُهُم. قالَ: فقلتُ لَها: إنَّ ناسًا اليومَ إذا قُرِىءَ عليهِمُ القرآنُ خرَّ أحدُهُم مغْشِيًّا عليه. فقالتْ: أعوذُ باللهِ منْ الشيطانِ الرجيم. ورُوِيَ عن ابنِ عمرَ أنهُ مرَّ برجلٍ من أهلِ العراقِ ساقطٌ فقال: ما بالُ هَذا؟ قالوا: إذا قُرِىءَ عليهِ القرآنُ أوْ سَمعَ ذِكْرَ اللهِ سَقَطَ. قال ابنُ عمرَ: إنا لنَخْشى اللهَ وما نسْقُط. وقال ابنُ عمرَ: إنَّ الشيطانَ يدخُلُ في جوفِ أحدِهم. ما كانَ هذَا صنيعَ أصحابِ محمدٍ ﷺ)[1].

قال ابنُ تيميةَ: «... ولهذَا غالبُ ما يُحكَى من المبالغةِ في هذَا البابِ إنما هُو عنْ عُبَّادِ أهلِ البصرةِ، مثلُ حكايةِ من ماتَ أو غُشِيَ عليهِ في سَماعِ القرآنِ ونحوِه. كقِصَّةِ زُرارةَ بْنِ أوفَى قاضي البصرةِ فإنهُ قرأَ في صلاةِ الفجرِ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾[2]، فَخرَّ ميِّتًا، وكقِصَّةِ أبي جَهِيرٍ الأَعْمَى الذي قَرَأَ عليهِ صالحٌ المُرِّيُّ فماتَ، وكذلكَ غيرُهُ مِمَّن رُوِيَ أنهم ماتُوا باستِماعِ قراءَتِه، وكانَ فيهم طوائفُ يُصْعَقُونَ عندَ سماعِ القرآنِ، ولم يكنْ في الصَّحَابةِ مَنْ هَذا حالُه، فلمَّا ظهرَ ذلكَ أنكَرَ ذلكَ طائفةٌ من الصحابةِ والتابعينَ: كأسماءَ بنتِ أبِي بكرٍ. وعبدِالله بنِ الزبيرِ ومحمدِ بنِ سيرينَ، ونحوِهم».

---

(١) جامع الأصول (٢/ ٤٦٧) «تعليق».
(٢) سورة المدثر، الآية: ٨.

والمنكرون لهم مأخذان:

منهُمْ مَن ظنَّ ذلك تكلُّفًا وتصنُّعًا. يُذْكَرُ عن محمدِ بنِ سيرينَ أنهُ قالَ: ما بيننَا وبينَ هؤلاءِ الذينَ يُصعقُون عندَ سَماعِ القرآنِ إلا أنْ يُقْرأَ على أحدِهِمْ وهُو على حائطٍ فإن خَرَّ فهُو صادقٌ.

ومنهُمْ مَنْ أنكَرَ ذلكَ لأنَّهُ رآهُ بِدْعةً مخالفًا لِمَا عُرِفَ من هَدْيِ الصَّحابةِ كما نُقِلَ عن أسماءَ، وابنِها عبدِالله.

والذي عليهِ جمهورُ العلماءِ أنَّ الواحَدَ مِنْ هؤلاءِ إذا كانَ مَغْلُوبًا عليهِ لم يُنْكرْ عليهِ، وإن كانَ حالُ الثابتِ أكملُ منْهُ، ولهذا لما سُئِلَ الإمامُ أحمدُ عنْ هذَا. فقال: قُرِىءَ القرآنُ على يحيَى بنِ سعيدٍ القطانِ فغُشِيَ عَليهِ ولو قَدرَ أحدٌ أنْ يَدفعَ هذَا عنْ نَفسه لدفَعَهُ يحيَى ابنُ سَعيدٍ. فَما رأيتُ أعقَلَ منْهُ، ونحوُ هذا. وقد نُقِلَ عن الشافِعيِّ أنهُ أصابَهُ ذلكَ. وَعَليُّ بنُ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ قصتهُ مشهورةٌ، وبالجملةِ فهذا كثيرٌ ممن لا يُسْتَرَابُ من صِدْقه.

ولكنَّ الأحوالَ التي كانتْ في الصَّحابةِ هَي المذكورةُ في القرآنِ، وهيَ: «وَجَلُ القُلوبِ، ودُمُوعُ العينِ، واقشعْرارُ الجُلُودِ، كَمَا قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[2]، وقالَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

تعالَى: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾[1]، وقالَ: ﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[2]، وقالَ تعالَى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾[3]، . . . . »[4]. فلم تكنْ حالُ السلفِ كحالِ بعضِ الناسِ من رَفْعِ الأصواتِ والضجيجِ لأنَّ في ذلكَ إشْغَالاً للمصلِّينَ وخَشيةَ الوُقوعِ في الرياءِ والبعدِ عن هَدْيِ الرسَولِ ﷺ وسلفِ هذهِ الأُمَّةِ، فمَنْ غلبَهُ الخُشوعُ فليكتُمْ ما استطَاعَ لأن ذلك خيرٌ وأفضلُ.

ومما يتصلُ بقراءةِ القرآنِ التأدبُ معَهُ بلُزُوم الصمتِ حينَ يُتلَى توقيرًا واحترامًا وامتثالاً لأَمرِ الباري - عزَّ وجلَّ - حيثُ يقولُ: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[5]، ويُسْتَحَبُّ الاستماعُ لِقراءَةِ كتابِ اللهِ وتعلُّمِه فعنْ أبي هُريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنْهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: « . . . . **وَما اجْتَمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَيَتَدارَسُونَه بينَهم إلا نَزلَتْ عليهِمْ السَّكِينَةُ وغَشِيَتْهُمُ الرحمةُ وحَفَّتْهُمُ الملائكةُ وذكرَهمُ اللهُ فيمنْ عندَهُ، ومن أبطأَ بِهِ عملُهُ لم يسرعْ بِهِ نسبُهُ**» رواهُ مسلمٌ.

وقراءةُ القُرآنِ أفضلُ مِنْ كُلِّ ذِكرٍ يقُولُه المسلمُ. قالَ النوَوِيُّ - رحمهُ اللهُ -: «واعْلمْ أنَّ المذهَبَ الصَّحيحَ المختارَ الذي عليهِ منْ

(١) سورة مريم، الآية: ١٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٨٣.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.
(٤) الفتاوي لشيخ الإسلام ص (١١٩).
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

يُعْتَمَدُ منَ العلماءِ أن قِراءَةَ القرآنِ أفضلُ مِنَ التَّسبيح والتَّهْليلِ وغيرِهِمَا من الأذْكَارِ، وقد تَظَاهَرَتْ الأدلةُ على ذلكَ. واللهُ أعلَمُ»[1].

ويَنْبغِيْ للمسلمِ أنْ يحافظَ على ما حَفِظَ من كتابِ اللهِ وأنْ يديمَ قراءَتَه ليبقَى في صَدْرِهِ فإن القرآنَ سريعُ التفلُّتِ إذا قلَّ تعاهُدُهُ. فعنْ أبِي موسى الأشْعَريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ قال: «**تَعاهَدُوا القرآنَ فوالذي نفسِي بيدِهِ لَهُوَ أشدُّ تَفَصِّيًا من الإبلِ في عُقُلِهَا**» متفقٌ عليهِ.

وعن ابنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: يَنبغِي لحاملِ القرآنِ أنْ يُعْرفَ بليلِهِ إذَا الناسُ نائمونَ، وبنهارِهِ إذا الناسُ مفطرونَ، وبحُزنِهِ إذا الناسُ يَفرحونَ، وببُكائِهِ إذا الناسُ يَضحكونَ، وبصمتِهِ إذا الناسُ يخوضُون، وبِخُشُوعِهِ إذا الناسُ يَخْتالونَ.

وعن الحسنِ البصريِّ - رحمهُ اللهُ - أنهُ قالَ: إنَّ مَنْ كانَ قبْلَكُمْ رأَوْا القرآنَ رسائلَ مِنْ ربِّهِمْ فكانُوا يتدبَّرُونَها بالليلِ، ويُنفِّذُونَها في النهارِ، وعنْ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ - رحمهُ اللهُ - قالَ: يَنْبغِي لحاملِ القرآنِ ألَّا يكونَ له حاجةٌ إلى أحدٍ منَ الخلفاءِ فَمَنْ دونَهُمْ. وعنهُ أيضًا قالَ: حاملُ القرآنِ حاملُ رايةَ الإسلام لا ينبغي لهُ أنْ يلْهُوَ مع مَنْ يلْهُو، ولا يَسْهُوَ معَ منْ يَسْهُو، ولا يَلْغُوَ معَ مَنْ يَلْغُو، تَعظِيمًا لحقِّ القرآن)[2].

يَا مُنْزِلَ الآياتِ والفرقانِ ... بيْنِي وبَيْنَكَ حرمةُ القرآنِ

اشرحْ به صدرِي لمعرفةِ الهُدَى ... واعصمْ بهِ قلبِي من الشيطانِ

(١) التبيان ص (٢١).

(٢) التبيان ص (٤٣).

يَسِّرْ بـه أمـرِيْ وَقَـضِّ مَـآربِـي ... وأَجِـرْ بـه جَسَـدِي مـن النِّيـرانِ
واحْطُطْ به وِزْرِي وأَخْلِصْ نيَّتِي ... واشْدُدْ بِهِ أَزْرِيْ وأَصْلِحْ شَأْنِي
واكشفْ به ضُرِّي وَحِّقِقْ توبَتِي ... وأَرْبِـحْ بـه بيْعِـي بِـلا خسـرانِ
طهِّرْ به قلْبِي وصَفِّ سريرَتي ... أجملْ به ذكرِي وأعلِ مكانِي
واقطعْ به طمَعِي وشرِّفْ هِمَّتِي ... كثِّر بِهِ وَرَعِي وأَحْيِي جَنَانِـي
أَسْهرْ به لَيْلِي وأَظمِ جَوارِحِي ... أَسْبلْ بفيضِ دمُوعِها أجفَانِي؟
امزِجْه يا رَبي بلحْمِي معْ دَمِي ... واغسِـلْ به قَلبِي مِن الأَضْغَانِ

ولقراءةِ القرآنِ آثارٌ عظيمةٌ وفوائدُ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى. وذلك غيرُ ما أعدَّهُ اللهِ لِقارِئه من الأجْرِ العظيمِ والثوابِ الجزيلِ والإِنْعَامِ الدائم. فكتابُ اللهِ شِفاءٌ للنفوس من الشهواتِ ودواءٌ للقلوبِ من الأهواءِ والشُّبهاتِ وعلاجٌ للأبدانِ من العِلَلِ والأمرَاضِ والآفات. قالَ تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وثبتَ عن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - أن النبيَّ ﷺ كان إذا آوَى إلى فراشهِ كُلَّ ليلةٍ جمعَ كفَّيهِ ثم نَفَثَ فيهما فقَرَأَ فيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[3] و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[4] و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[5]، ثم مَسَحَ بِهِمَا ما اسْتَطاعَ من جَسَدِهِ،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٥٧.
(٣) سورة الاخلاص، الآية: ١
(٤) سورة الفلق، الآية: ١
(٥) سورة الناس، الآية: ١.

يبدَأُ بِهِمَا على رَأسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أقبَلَ من جَسَدِهِ، يفعلُ ذلكَ ثلاثَ مراتٍ، رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ واللفظ للبخاري وفي روايةٍ قالتْ عائشةُ - رضيَ اللهُ عنها - فلما اشْتكَى كان يَأمُرُنِي أنْ أفعَلَ ذَلِكَ.

وبِقراءَةِ القرآنِ تَتَنَزَّلُ السَّكِينةُ كما مرَّ في قولِ النبيِّ ﷺ: «.. **وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلون كتابَ اللهِ ويَتَدَارسُونَهُ بينَهُمْ إلا نزلَتْ عليهِمُ السكينةُ**»، وعن أُسَيد بنِ حُضَيرْ قالَ: بينَما هُو يَقْرأُ من الليلِ سورةَ البقرةِ وفرسُهُ مربُوطٌ عِنْدهُ إذْ جالتْ الفرسُ، فسكَتَ، فسكَنَتْ، فقرأَ فجالتْ الفرسُ، فسكتَ، فسكنتْ الفرسُ، ثم قرأَ، فجالتْ الفرسُ، فانصرف... وكان ابنُهُ يحيىَ قَريبًا منْها فأشْفقَ أنْ تُصيبَه. ولما خرجَ رفعَ رأسَه إلى السماءِ، فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فيها أمثالُ المصابيح. فلما أصبحَ حدَّثَ النبيَّ ﷺ فقال له: اقرأْ يا ابنَ حُضَير اقرأْ يا ابنَ حُضير. قالَ فأشفقتُ يا رسولَ الله أن تطأَ يحيىَ وكان منْها قريبًا. فانصرفتُ إليه فرَفَعْتُ رأسي إلى السماءِ فإذا مِثْلُ الظُّلَّةِ فيها أمثالُ المصابيحِ فخرجْتُ حتى لا أَرَاها. قال: وتَدْري ما ذَاك؟ قال: لا. قال: تلكَ الملائكةُ دَنَتْ لصوتِكَ ولو قرأتَ لأَصبَحَتْ ينظرُ الناسُ إليها لا تَتوارَى منْهُم» رواهُ البخاريُّ.

عبادَ اللهِ... لا تكُونُوا مِمنْ هَجرَ القرآنَ.

قال ابنُ القيِّمِ - رحمهُ اللهُ -: هَجْرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُها: هَجْرُ سَماعِهِ والإيمانِ بِهِ، والإِصْغاءِ إليهِ.

والثاني: هَجْرُ العملِ بِهِ والوقوفِ عندَ حَلالِهِ وحرامِهِ وإن قرأَهُ وآمَنَ بِهِ.

والثالث: هَجْرُ تحكيمِهِ والتَّحاكُمِ إليهِ في أصولِ الدينِ وفروعِهِ واعتقادِ أنهُ لا يفيدُ وأن أدلتَهُ لَفْظيةٌ لا تحصِّلُ العلمَ.

والرابع: هَجْرُ تَدبُّرِهِ وتَفهُّمِهِ ومعرفةِ ما أرادَ المتكلمُ بِهِ منهُ.

والخامس: هَجْرُ الاستشفاءِ والتَّداوي بِهِ في جميعِ أمراضِ القلوبِ وأَدْوَائِها فيَطْلُبُ شفاءَ دائِهِ من غيرِهِ ويَهجُرُ التداوي بِهِ.

وكلُّ هذَا داخِلٌ في قولِهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾[1]، وإن كان بعضُ الهَجْرِ أهونَ من بعضٍ.

وكذلك الحَرَجُ الذي في الصدورِ منهُ فإنه تارةً يكونُ حَرَجًا من إنزالِهِ وكَوْنِهِ حقًا من عندِ اللهِ، وتارةً يكونُ من جِهَةِ التَّكَلُّمِ بِهِ أو كونِهِ مخلوقًا من بعضِ مخلوقاتِهِ أَلْهَمَ غيرَهُ أنَّه تكلَّم بِهِ، وتارةً يكونُ من جِهَةِ كفَايَتِهِ وعدمِها وأنهُ لا يكفِي العبادَ بلْ هُمْ محُتَاجُون معَهُ إلى المعقولاتِ والأَقْيِسةِ أو الآراءِ أو السياساتِ، وتارةً يكونُ من جِهَةِ دلالتِهِ وما أريد بِهِ حقائقُهُ المفهومةُ منهُ عندَ الخِطابِ، أو أُرِيَد به تأويلُها وإخراجُها عن حَقائِقِها إلى تأويلاتٍ مستكرهةٍ مُشْتَرَكَةٍ، وتارةً يكونُ من جِهَةِ كونِ تلكَ الحقائقِ وإن كانتْ مرادةً فهيَ ثابتةٌ في نفسِ الأمرِ أو أوْهَمَ أنَّها مرادةٌ لضَربٍ من المصلحةِ، فكلُّ هؤلاءِ في صُدُورِهم حرج ولا تجد مبتدِعًا في دينِهِ قَطُّ إلا وفي قَلْبِهِ حرَجٌ من

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

الآياتِ التي تخالفُ بِدْعتَه كما أنكَ لا تجدُ ظَالمًا فاجِرًا إلا وفي صدرِهِ حرجٌ من الآياتِ التي تحولُ بينَه وبينَ إرادتِهِ، فتدبَّرْ هذا المعنى ثمَّ ارْضَ لنفسِكِ بما تشاءُ[1].

***

اللهمَّ إنا نَسْألُكَ بكلِّ اسم هو لكَ سمَّيْتَ به نفسَكَ أو أنزلتَه في كتابِكَ أو عَلَّمْتَه أحدًا من خلقِكَ أو استَأْثرْتَ بِه في عِلْمِ الغيبِ عندَكَ أنْ تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلوبِنَا ونورَ صدورِنَا وجلاءَ أحزانِنا وذهابَ هُمُومِنَا وغُمُومنَا.

اللهمَّ ذَكَّرْنا منُه ما نُسِّيْنَا، وعلِّمْنا منه ما جَهِلْنا، وارزُقْنَا تلاوتَهُ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ على الوجهِ الذي يُرضِيكَ عنَّا.

اللهم وَفِّقْنَا للعمَلِ بأوامرِه واجْتنابِ نواهيهِ في جميعِ أعمالِنَا وأقوالِنَا وأحوالِنَا وتعلِيمِنا وإعلامِنَا يا ربَّ العالمينَ وصلَّى اللهُ وسلمَ على رسولِهِ الأمينِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

(١) الفوائد لابن القيم ص (١٥٦).

الباب الحادي عشر

الموت .. عظاته وعبره

الحمدُ للهِ المبدئِ المعيدِ الفعالِ لِما يريدُ الذي حَكَمَ على خَلْقِهِ بالموتِ وَهُوَ الحكيمُ الحميدُ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ سيدُ المرسلينَ وأفضلُ داعٍ إلى التوحيدِ، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وصحْبِه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا. **أما بعد . .**

فاعْلَمُوا يا عبادَ اللهِ أنكُمْ لَمْ تخلقُوا عَبَثًا ولن تُتْرَكُوا سدًى بل خُلِقْتُم لأَمْرٍ عَظيمٍ وهُيِّئْتُمْ لِخَطْبٍ جَسيمٍ وما بينكُم وبين ذلكَ إلا الموتُ وليسَ لكمْ منه بدٌّ ولا فوتٌ إن أقمتُم لهُ أخذَكُم وإنْ هربتُم منهُ أَدْرَكَكُم قالَ تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[١] .

فالموتُ حَتْمٌ لازمٌ والحياةُ للاختبارِ والابْتلاءِ، والأنفاسُ معدودةٌ والآجالُ محَدُودةٌ والرجوعُ إلى اللهِ تَعالى القائلِ عن نفسه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾[٢] .

فالحياةُ في هذهِ الأرضِ موقوتةٌ محدودةٌ بأجلٍ، ثُمَّ تَأتِي نهايتُها. يموتُ الصالحونَ ويموتُ الطالحونَ، يموتُ المجاهِدونَ ويموتُ

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الملك، الآيتان: ١، ٢.

القاعِدونَ، يموتُ مُريدُو الآخرةِ، ويموتُ مريدُو الدُّنيا، يموتُ ذَوُو الهِمَمِ الرفيعةِ والأهدافِ العاليةِ النبيلةِ، ويموتُ الغافِلُونَ السَّادِرُونَ الذينَ لا تتجاوزُ اهتماماتُهُمْ الفروجَ والبطون.

قالَ تعالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[1].

قال بلالٌ بنُ سعدٍ - رحمهُ اللهُ -: «أيُّها الناسُ إنكمْ لم تُخلَقُوا للفناءِ وإنما خُلِقْتُمْ للبقاءِ، ولَكنَّكُمْ تَنتَقِلُون من دارٍ إلى دار كما نُقِلْتمْ منَ الأَصْلابِ إلَى الأَرْحَام. ومن الأَرحامِ إلى الدنيا، ومنَ الدنيا إلى القُبُورِ، ومنَ القُبُورِ إلى الموقفِ، ومن الموقفِ إلى الجنةِ أو النار».

واعْلَمُوا - يا عبادَ اللهِ - أنَّه يَجبُ على المريضِ أن يُحْسِنَ الظَّنَّ بربِّهِ. عن جابرِ بنِ عبدِاللهِ الأنصاريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ قبلَ موتِهِ بثلاثةِ أيام يقولُ: «**لا يَمُوتَنَّ أحدُكُم إلا وهُو يُحْسِنُ الظنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ**» رواه مسلم[2]. ويجبُ أن يكونَ بينَ الخوفِ والرجاءِ.

يخافُ عقابَ اللهِ ويرجُو رحمتَهُ وينبغِي أن يُغلِّبَ جانبَ الرجاءِ عندَ الموتِ. عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ على شابٍّ وهو بالموتِ فقالَ: كيف تجدُكَ قال: واللهِ يا رسولَ اللهِ إنِّي أرجُو اللهَ وإنِّي أخافُ ذنوبِي. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَجتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطنِ إلا**

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) مسلم (١٧/ ٢٠٩).

أعطاهُ اللهُ ما يرجُو وأمَّنَهُ مِمَّا يخافُ»، أَخرجَه الترمذيُّ وابنُ ماجَه[1].

قال القُرْطُبيُّ - رحمهُ اللهُ -: «حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ ينبغِي أنْ يكونَ عندَ الموتِ أغلبَ على العبدِ منهُ في حالِ الصحةِ؛ وهُوَ أنَّ اللهَ تعالى يرحَمُهُ ويتجاوزُ عنهُ ويغفرُ لَهُ».

ويُشْرَعُ لمن حَضَرَ المُحْتَضِرَ أن يُلَقِّنَهُ «لا إلهَ إلا اللهُ» عن أَبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ؛ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَقِّنُوا موتَاكُم لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ» رواهُ مسلمٌ[2].

قال صالحُ بنُ عبدِالقُدُّوس:

والروحُ فيكَ وديعةٌ أُودِعْتَها ... سَتَرُدُّها بالرغمِ منكَ وَتُسْلبُ

وغُرورُ دُنياكَ الَّتي تَسعَى لها ... دارٌ حقِيقَتُها متاعٌ يذهبُ

والليلُ فاعْلَمْ والنهارُ كلاهُمَا ... أنفَاسُنَا فيها تُعَدُّ وتُحسَبُ

وجميعُ ما حصَّلْتَهُ وجمعْتَهُ ... حقًّا يقينًا بعدَ موتِكَ يَذْهَبُ

تبًّا لدارٍ لا يدومُ نَعيمُها ... ومَشِيدُها عما قليلٍ يَخربُ

إخواني: اعلمُوا أن للموتِ سكراتٍ شديدةً عانَى منها الرسولُ ﷺ لِيُضَاعفَ لَهُ الأجرُ وتُرْفَعَ لَهُ الدرجةُ.

رَوَى البخاريُّ في صحيحِهِ عن عائشةَ قالتْ: «ماتَ رسولُ اللهِ ﷺ، وإنه لَبَيْنَ حاقِنَتِي وذَاقِنَتِي فلا أكْرَهُ شِدةَ الموتِ لأحدٍ أبداً بعدَ النبيِّ ﷺ»[3].

(١) حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٧٨٥) وصحيح سنن ابن ماجه (٤٢٦١).

(٢) مسلم (٦/ ٢٢٠).

(٣) البخاري (٨/ ١٤٠).

وفي البخاريِّ أيضًا من حديثِ عائشةَ:

«. . . وبينَ يديهِ رَكْوَةٌ أو عِلبةٌ - يشكُّ عُمَرُ - فيها ماءٌ فجَعلَ يُدْخِلُ يَديهِ في الماءِ فيمسحُ بِهِما وَجهَهُ يقولُ: **لا إله إلا اللهُ إن لِلْموتِ سكراتٍ** ثمَّ نَصَبَ يدهُ فجعلَ يقولُ: **في الرَّفِيقِ الأعْلى** حتى قُبضَ ومالتْ يدُهُ» رواهُ البخاريُّ[1].

وعن أنس قالَ: «لَما ثَقُلَ النبيُّ ﷺ جَعَلَ يتغشَّاهُ فقالتْ فاطمةُ عليها السلامُ: واكربَ أباهُ فقالَ لَها: **ليسَ على أبيكِ كربٌ بعدَ اليوْمِ**، فَلمَّا ماتَ قالتْ: يا أبتَاهُ أجابَ ربًّا دَعاهُ يا أبتاهُ مَن جنةِ الفردوس مأواهُ. يا أبتاهُ إلى جبريلَ ننعاهُ. فلما دُفِنَ قالتْ فاطمةُ عليْهَا السَلامُ: يا أنسُ أَطَابتْ نفوسُكُم أنْ تَحثُوا على رسولِ اللهِ ﷺ الترابَ» رواهُ البخاريُّ[2].

وقد حثَّنا ﷺ على ذكرِ الموتِ فقالَ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللذاتِ**». رواه النسائيُّ وابنُ ماجةَ والترمذيُّ وقال حسنٌ غريبٌ وقال الألبانيُّ حسنٌ صحيحٌ.

ولذا كان سلفُنَا الصالحُ مِن أكثرِ الناس ذكرًا للموتِ واستعدادًا لَهُ: قال القُرطبيُّ - رحمهُ اللهُ -: «قال الدقَّاقُ: مَنْ أكثرَ من ذكرِ الموتِ أُكرِمَ بثلاثةٍ: تعجيلِ التوبةِ، وقناعةِ القلبِ، ونشاطِ العبادةِ. ومَنْ نَسِيَ الموتَ عُوجِلَ بثلاثةٍ: تسويفِ التوبةِ وتَرْكِ الرِّضا بالكفافِ والتكاسُلِ في العبادةِ».

---

(١) البخاري (٨/ ١٤٤).

(٢) البخاري (٨/ ١٤٩).

فتفكرْ يا مغرورُ في الموتِ وسَكْرَتِه وصُعوبةِ كأسِهِ ومَرَارتِهِ . . .
كَفَى بالموتِ مُقَرِّحًا للقلوبِ وَمُبْكيًا للعُيُونِ ومُفَرِّقًا للجماعاتِ وهَاذِمًا لِلَّذَّاتِ وقاطعًا للأمنياتِ .

فهلْ تفكرْتَ يا ابنَ آدمَ في يومِ مَصْرَعِكَ وَانتقالِك من موضِعِكَ[1] .

قال العلماءُ : «تَذكُّرُ الموتِ يَرْدَعُ عن المعاصِي ، ويُلَيِّنُ القلبَ القاسِي ، ويُذْهِبُ الفرحَ بالدنيا ، ويهونُ المصائبَ فِيها»[2] .

وقال الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ : «فَضَحَ الموتُ الدُّنْيا فلَمْ يترك لِذي لُبٍّ فيها فرَحًا . وما أَلْزمَ عبدٌ قَلْبَهُ ذِكْرَ الموتِ إلا صَغُرَتِ الدنْيا علَيْهِ وهَان عليهِ جميعُ مَا فِيها» .

وكان عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ رَضِيَ اللهُ عنهُ إذا ذُكِرَ الموتُ انتفضَ انتفاضَ الطيرِ ، وكان يجمعُ كلَّ ليلةٍ الفقهاءَ ، فيَتَذَاكرُونَ الموتَ والقيامةَ ، ثم يَبكونَ حتى كأنَّ بين أيدِيهم جَنَازةً .

وكانَ يَعقُبُ بكاءَهم هذا عَملٌ صالحٌ وجهادٌ ، ومسابقةٌ إلى الخيراتِ ، بخلافِ ما عليهِ حالُ كثيرٍ من الناسِ الذي يُصَوِّرُهُ حامدٌ القَيْصَرِيُّ بقولِهِ : «كُلُّنا قد أَيقنَ بالجنةِ وما نَرَى لَها عَاملاً ، وكُلُّنا قد أيْقنَ بالنارِ وما نَرَى لَها خَائفًا ، فعلامَ تَفْرَحُونَ؟ وما عَسَيْتُم تَنتظِرونَ؟ الموتَ! فَهُوَ أولُ واردٍ عليْكُم من أمرِ اللهِ بِخَيْرٍ أو بِشَرٍّ .
فَيَا إخْوتَاهُ سِيرُوا إلى رَبِّكم سَيْرًا جميلاً .

---

(١) التذكرة ص ١٧ .

(٢) التذكرة ص ٢١ .

أَذْكُـــرُ المـــوتَ ولا أرهَبُـــهُ   إنَّ قَلْبــي لغليــظٌ كــالحجَــرْ
أطلــبُ الـدنيـا كـأنِّـي خـالـدٌ   وورائِـي المـوتُ يقفُـو بـالأثـرْ
وكفَى بالموتِ فاعلمْ واعظًا   لِمَـن المـوتُ عليـهِ قـد قُـدِرْ
والمنـايـا حـولَـهُ تَـرْصُـدُه   ليس يُنْجِي المرءَ منهنَّ المَفَرْ

وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يقولَ:

«إذا وُضِعَتِ الجنازةُ فاحتَمَلَها الرجالُ على أعناقِهِم فإن كانتْ صالحةً قالتْ قدِّمُوني قدِّمُوني، وإن كانتْ غيرَ صالحةٍ قالتْ لأَهلِها يا ويلَها أينَ يذهبونَ بها؟ يَسمَعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانُ ولو سَمعَ الإنْسَانُ لصَعِقَ» رواهُ البخاريُّ[1].

قال الشاعرُ:

هي القنـاعـةُ لا تَبغِي بهـا بَـدلاً   فيهـا النعيمُ وفيهـا راحةُ البـدنِ
انظُرْ لمِنْ مَلَكَ الدُّنيا بأجمعِها   هل راحَ منها بغيرِ القُطْنِ والكَفَنِ

وقال الآخرُ:

عجبـتُ لـلإنسـانِ فـي فخـرِهِ   وهْــو غــدًا فــي قبــرِهِ يُقْبَــرُ
مــا بــالُ مَــن أولــهُ نُطْفَــةٌ   وجيفَـــةٌ آخــــرُه يَفْجُـــرُ

اعلموا أيها الأحبابُ أن من مقتضياتِ الإسلامِ «أن يُؤْمِنَ المسلمُ بمَلَكِ الموتِ الموكَّلِ بقبضِ أرواحِ العالمينَ وبعذابِ القبرِ ونعيمِهِ لمن كانَ لَهُ أهلاً وسؤالِ مُنْكَرٍ ونَكِيرٍ في قبرِهِ عن ربِّهِ ودينِهِ ونبيِّهِ على ما جاءَتْ به الأخبارُ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعن الصحابةِ رضوانُ اللهِ

---

(١) البخاري (٣/ ١٨٤).

عليهم»[1]. قال تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۞ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[2].

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: بينَما النبيُّ ﷺ في حائطٍ لبني النجارِ على بَغلةٍ لهُ ونحنُ معهُ إذ حادَتْ به فكادتْ تُلْقِيه وإذا أَقْبُرٌ ستَّةٌ أو خَمسةٌ فقالَ: «**مَن يعرفُ أصحابَ هذه الأَقْبُرِ**؟ قال رجلٌ: أنا، قال: **فمتى ماتُوا**؟ قال: في الشِّرْكِ، فقالَ: **إن هذه الأُمَّةَ تُبْتَلَى في قبورِها فلولاَ أَن لا تَدفنُوا لدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكُم من عذابِ القبرِ الذي أسمَعُ منهُ**. ثم أقبلَ علينا بوجْهِهِ، فقالَ: **تَعَوَّذُوا باللهِ من عذابِ القبرِ**. قالوا: نعوذُ باللهِ من عذابِ القبرِ. قالَ: **تَعَوَّذُوا باللهِ من عذابِ النارِ**. قالوا: نَعوذُ باللهِ من عذابِ النارِ. قالَ: **تَعَوَّذُوا باللهِ من الفتنِ ما ظهرَ منها وبطنَ**. قالوا: نَعوذُ باللهِ من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطنَ. قالَ: **تَعَوَّذُوا باللهِ من فتنةِ الدجالِ**. قالوا: نعوذُ باللهِ من فتنةِ الدجالِ» أخرجَه مسلم[3].

وعن أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: خرجَ رسولُ اللهُ ﷺ بعدما غَربَتْ الشمسُ فسَمعَ صَوتًا فقال: **يهودُ تُعذَّبُ في قبورِها**» أخرجَهُ البخاريُّ ومسلمٌ[4].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: كُنَّا في جَنازةٍ في بَقيعِ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٠.
(٢) سورة غافر، الآيتان: ٤٥، ٤٦.
(٣) مسلم (١٧/ ٢٢).
(٤) البخاري (٣/ ٢٤١) ومسلم (١٧/ ٢٠٣).

الغَرقَدِ فأتانَا النبيُّ ﷺ فقعَدَ وقَعَدْنَا حولَهُ كأنَّ على رُؤوسِنَا الطيرَ وهو يُلَحِّدُ لهُ فقالَ: «أعوذُ باللهِ منَ عذابِ القبرِ» ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قالَ: إنَّ العبدَ المؤمنَ إذا كانَ في إقبالٍ منَ الآخرةِ وانقطاعٍ منَ الدنْيا نَزَلَتْ إليهِ الملائكةُ كأَنَّ على وجُوهِهِمُ الشمسَ، معَهُم كَفَنٌ من أكفانِ الجنةِ وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجنةِ فجَلسُوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يجيءُ ملَكُ الموتِ حتَّى يجلسَ عندَ رأسِهِ فيقولُ: يا أَيَّتُها النفسُ الطيبَةُ اخْرُجي إلى مغفرةٍ من اللهِ ورضوانٍ. قالَ: فتخرُجُ تَسِيل كما تَسِيلُ القطرةُ مِنْ فِيِّ السِّقاءِ فيأخُذُها فَإذا أخذَهَا لم يَدَعُوهَا في يدِهِ طرْفَةَ عينٍ حتَّى يأخُذُوهَا فيجْعَلُوها في ذلكَ الكفنِ، وذلكَ الحنوطِ، ويَخرجُ منها كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجِدتْ على وجْهِ الأرضِ. قال: فَيَصْعَدُونَ بها فلا يمرُّون بها - يعني على ملأٍ من الملائكةِ - إلا قالُوا: ما هذا الروحُ الطيبةُ؟ فيقولُونَ: فلانُ ابنُ فلانٍ بأحسنِ أسمائِهِ الَّتِي كانُوا يُسمُّونَهُ بها في الدنيا حتى ينتَهُوا بها إلى السَّماء فيسْتَفْتِحُونَ لَهُ فيُفْتَحُ لهُ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سماءٍ مُقرَّبُوها إلى السماءِ التي تَلِيها، حتى يُنْتَهَىٰ بها إلى السماءِ التي فِيها اللهُ فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كتابَ عبدِي في عِلِيِّينَ وأعيدُوهُ إلى الأرضِ؛ فإني منها خلقْتُهم وفيها أُعيدُهُم ومنها أُخرجُهُم تارةً أُخْرَى، قال: فَتُعادُ رُوحُهُ في جسدِهِ فيأْتِيهِ ملَكانِ فيجْلسانِهِ فيقُولَان لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فيقولُ: رَبِّيَ اللهُ. فيقولانِ لهُ: وما دينُك؟ فيقولُ دينِي الإسلامُ. فيقولانِ لَهُ: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقولُ: رسولُ اللهِ. فَيَقولانِ لَهُ: ما عِلْمُك؟ فيقولُ

قرأتُ كتابَ اللهِ فآمنْتُ به وصدَّقْتُ فينادِي مُنادٍ من السماءِ: أنْ صَدَقَ عبدِي فأفْرِشُوهُ من الجَنَّةِ وافْتَحُوا له بابًا إلى الجنَّةِ قالَ فيأتيه من رَوْحِها وطِيبِها ويُفسحُ لَهُ في قبرِهِ مَدَّ بصرِهِ قال: ويأتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الوجهِ حَسَنُ الثيابِ طَيِّبُ الريح فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسُرُّكَ! هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ فيقولُ لَهُ: من أنتَ؟! فَوَجْهُكَ الوجهُ الذي يجيءُ بالخيْرِ. فيقولُ: أنا عَمَلُكَ الصالحُ فيقولُ: يا ربِّ أقِمِ الساعةَ حتى أَرْجِعَ إلى أهلِي ومالِي. قالَ: وإن العبدَ الكافرَ إذا كانَ في انقطاعٍ مِنَ الدُّنْيا وإقبالٍ من الآخرةِ نَزلَ إليهِ منَ السماءِ ملائكةٌ سُودُ الوجوهِ معَهمُ المُسُوحُ. فيَجْلِسُونَ منهُ مدَّ البصرِ ثمَّ يجيءُ ملَكُ الموتِ حتى يجلسَ عندَ رأسِهِ فيقولُ: أيتُها النفسُ الخبيثةُ اخرجِي إلى سخَطٍ من اللهِ وغَضَبٍ. قال: فَتَتَفَرَّقُ في جسدِهِ فَينتزِعُها كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ من الصوفِ المَبْلُولِ، فيأخذُها. فإذا أخذَها لم يدَعُوهَا في يدِهِ طرفةَ عينٍ حتَّى يجعلُوها في تلكَ المُسُوحِ ويخرجُ منْها كأنتنِ ريحِ خبيثةٍ وُجِدَتْ على وَجْهِ الأرضِ، فيصْعَدُونَ بها. فلا يمُرُّون بها على مَلأ مِنَ الملائكةِ إلا قَالوا: ما هذا الروحُ الخبيثُ؟ فيقولونَ فلانُ ابنُ فلانٍ بأَقْبَحِ أسمائِهِ التي كانُوا يسمُّونَهُ بها في الدنيا حتَّى يُنْتَهى بها إلى السماءِ الدنيا فيُستفتحُ لَهُ. فلا يُفْتَحُ لهُ ثم قرأَ رسولُ اللهُ ﷺ ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[1]. فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتبُوا كتابَهُ في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلَىٰ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٤٠.

فتُطرحُ روحُهُ طَرْحًا ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1]، فتُعادُ روحُهُ في جَسَدِه وَيأْتيه مَلَكانِ فيُجلسانِه فيقُولانِ لَهُ: من رَبُّكَ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ لا أدرِي، فيقولانِ لَهُ: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكُمْ؟ فيقول هاهْ هاهْ لا أدرِي فينادِي منادٍ منَ السماءِ: أنْ كَذَبَ فأَفْرِشُوهُ منَ النارِ وافتَحُوا لَهُ بابًا إلى النارِ، فيأتيهِ من حَرِّهَا وَسَمُومِها، ويُضَيَّقُ عليهِ قبرُهُ حتى تختلفَ أضْلاعُهُ ويأتيهِ رجلٌ قبيحُ الوجهِ قبيحُ الثيابِ مُنْتِنُ الريحِ فيقولُ: أبشرْ بالذي يَسُوؤُكَ هذا يومُك الذي كنتَ توعَدُ فيقولُ: من أنتَ فوجهُكَ الوجهُ الذي يجيءُ بالشَّرِّ. فيقولُ: أَنا عَمَلُكَ الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ لا تُقِمِ الساعةَ» رواهُ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ وصححهُ الألبانيُّ[2].

فتصوَّرْ أخِي المسلمُ عندما يَنزِلُ بكَ مَرضُ الموتِ، وتَحِلُّ ساعةُ الاحتضارِ، ويقفُ أبوكَ المشفقُ بِجَوارِكَ، وأُمُكَ الحنونُ وأولادُكَ الكبارُ والصغارُ منْ حولِكَ، وقَدْ أَحاطُوا بكَ إحاطةَ السوارِ بالمِعْصَمِ، ينظُرونَ إليكَ بعينِ الرحمةِ والعطفِ والشفقةِ، وقد سالتْ دموعهُمْ وحَزُنَتْ قلوبُهم، يرجُون لكَ الشفاءَ وَيَتَمَنَّوْن لك البقاءَ، ولكنْ هَيْهَاتَ فلا يَمْلِكُ أحدٌ من الخلقِ أن يَزِيدَ في عُمُرِكَ أو يَرُدَّ إليكَ عافيتَكَ، إنَّ الذي أعطاكَ الحياةَ بلا اختيارٍ منكَ هو الذي يسلُبُها، فلَهُ ما أخذَ ولَهُ ما أعطَى وكلُّ شيءٍ عندَه بأجلٍ مسمًّى.

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣١.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٩.

وشَتَّانَ أيُّها المسلمونَ بينَ مَن يُحيطُ بِهِ عندَ موتِهِ قُرَنَاءُ السوءِ وأهلُ الفسادِ، وبينَ منْ يُحيطُ بِهِ قُرَنَاءُ الخيرِ وأهلُ الصلاحِ، يَدْعُونَ لهُ بالخيرِ ويُذَكِّرُونَه باللهِ وبلا إلهَ إلا اللهُ.

فَاحرِصْ أيُّها المسلمُ واجتهدْ لنفسِكَ بالاستعدادِ وتقديمِ الزادِ ليومِ المعادِ وجدِّدِ التوبةَ، وجانبِ الأشرارَ والزمِ الأخيارَ، فإنَّهم من أقْوى معينٍ - بعدَ اللهِ - على سلوكِ الصراطِ المستقيمِ والثباتِ على هذا الدينِ.

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ أنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قال: «**إذا حُضِرَ المؤمنُ أتتْ ملائكةُ الرحمةِ بحَرِيرةٍ بَيْضاءَ فيقولونَ اخْرُجِي راضيةً مَرْضيًّا عنكِ إلى رَوْحٍ منَ اللهِ وَرَيْحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانَ، فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المسكِ حتى إنه ليُناوِلُهُ بعضُهُم بعضًا حتى يأتُوا بِهِ أبوابَ السماءِ فيقولون: ما أطيبَ هذهِ الريحِ التي جاءَتْكم من الأرضِ فيأتونَ بِهِ أرواحَ المؤمنينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فرحًا من أَحدِكُم بغائِبِهِ يَقدُمُ عليهِ فيسألونهَ، ماذا فَعَلَ فلانٌ؟ ماذا فعَلَ فلانٌ؟ فيقولونَ: دعُوهُ فإنَّه كانَ في غَمِّ الدنيا فيقولُ: قد ماتَ؛ أَمَا أتاكُم؟ قالوا: ذُهِبَ به إلى أُمِّهِ الهاويةِ. وإن الكافرَ إذا حُضِرَ أتتْهُ ملائكةُ العذابِ بمِسْحٍ فيقولونَ: اخْرُجِي ساخطةً مَسخوطًا عليكِ إلى عذابِ الله عزَّ وجلَّ فتخرُجُ كأنتَنِ ريحِ جِيفةٍ حتَّى يأتونَ بِهِ بابَ الأرضِ فيقولونَ: ما أنتَنَ هذهِ الريحِ حتَّى يأتونَ به أرواحَ الكفارِ**» أَخْرَجَهُ النسائيُّ والحاكمُ وابنُ حبانَ، وصححهُ الألبانيُّ[1].

(١) صحيح الجامع الصغير ١/ ١٤٦، النسائي ٤/ ٨، الحكم ١/ ٣٥٢.

إخـوانـي: أيـنَ الآبـاءُ والأجـدادُ؟ أيـنَ الإِخـوانُ والمعـارفُ والجيرانُ؟ أينَ فلانٌ وفلانٌ؟ أينَ الذينَ شيَّدُوا البيوتَ، وغرَسُوا النخيلَ والأشجارَ؟ بل أينَ الأممُ السابقةُ من لَدُنْ آدمَ إلى يومِنَا هذَا؟ لقد قَدِمُوا على ما قدَّموا ووَرَدُوا على ما عَمِلُوا. اللهمَّ أَيْقِظْنا وارْزُقْنا الاستعدادَ ليوم المعادِ. اللهمَّ هوِّن علينَا الموتَ وسكراتِهِ وافسحْ لنَا في قبورِنَا. ربَّنا واجعلْ الجنةَ دارَنا واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميع المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنَا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ أجمعين.

الباب الثاني عشر

أهــوالُ القيــامـةِ

الحمدُ للهِ الذي أنزَلَ على عبدِهِ الكتابَ، وخَلَقَ الناسَ من ترابٍ، وفاوتَ بينَهم في العُقولِ والعلومِ والمعارفِ والآدابِ. قَسَمَ خَلْقَهُ إلى تَقِيٍّ أوابٍ همَّتُهُ طلبُ الخيراتِ والاكتسابِ، ومطلبُهُ ما به الزُّلْفَى إلى اللهِ والاقترابِ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1]. وفاجرٍ كذابٍ، همتُهُ مصرُوفةٌ إلى جمع الحطام الفاني والطعامِ والشرابِ، يَسْعَى لِنيلِ شهواتِهِ وإشباع رغباتِهِ، يَعمُرُ جسمَهُ وقلبُهُ في خرابٍ. فكيفَ بحالِهِ عندَ الموتِ إذْ يَحقُّ عليهِ قولُ ربّ الأربابِ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾[2].

أحمدُهُ سبحانَهُ وأشكُرُهُ على مَا منَّ بِهِ عَلَيْنا مِنْ نِعَمِهِ العظيمةِ التي لَا تُعَدُّ ولا تُحصَى، ومنْ أعظَمِها نعمةُ الإسلامِ الذِي بِهِ تكونُ النجاةُ مِن العذابِ وهولِ الحسابِ. وأشهدُ أن لَا إلـهَ إلّا اللهُ الملكُ الوهَّابُ. خَلَقَنَا في هذهِ الدنيا لعبادتِهِ وإليهِ المرجعُ والمآبُ. يُجازِي كلاً بِعَمَلِهِ فإما إلى نَجاحٍ وفلاحٍ أوْ إلى خسارٍ وتبابٍ. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ أفضلُ الخلقِ وسيدُ ولدِ آدمَ. صاحبُ اللواءِ المعقودِ والحوضِ الموردِ.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.

صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِهِ أفضلِ الآلِ والأصحابِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

عبادَ اللهِ: اعْلَمُوا رَحِمَكُمُ اللهُ أنَّ عقيدةَ الإيمانِ باليومِ الآخرِ وما فيه من البعثِ والحسابِ والجزاءِ.. من العقائدِ الأساسيةِ والمواضيعِ المهمةِ التي يُركِّزُ عليها القرآنُ الكريمُ في كثيرٍ من آياتِهِ، وَوَرَدَتْ كثيرًا في السنةِ النبويةِ. بلْ إنَّ القرآنَ كلَّهُ مِنْ فاتحتِهِ إلى خاتِمَتِهِ مملوءٌ بذكرِ أحوالِ اليومِ الآخرِ وتفاصيلِ مَا فيهِ، وتقريرِ ذلكَ بأصدقِ الأخبارِ وضربِ الأمثالِ للاعتبارِ، والإرشادِ إلى دليلِ ذلكَ لكلِّ امرئٍ بأنْ يَعتبَرَ في بدنِهِ، ويستدِلَّ بهِ على إعادتِهِ. فالذي أوجَدَهُ من العَدَمِ قادرٌ على إعادتِهِ بعدَ مَوتِهِ. قال اللهُ تَعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[1].

وكذلكَ إحياءُ الأرضِ بعدَ موتِها... فَيُحْيِيهَا اللهُ تَعالَى بالمطرِ فتُصْبِحُ مخضرةً تهتزُّ بعَدْ مَوتِها بالقَحْطِ وهُمُودِها وخُمُودِها واسوِدَادِها، فإذا أنزَلَ اللهُ عليها الماءَ اهتزَّتْ ورَبَتْ وأنبتَتْ مِن كلِّ زَوجٍ بَهيجٍ. ولهذَا يَذْكرُ اللهُ سبحانَهُ إحياءَ الموتَى بعد ذِكرِ إحيائِهِ لِلأرضِ لِيُسْتَدَلَّ على الآجلِ بالعَاجلِ وعلى الغيبِ بالشَّهَادةِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[2].

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٨، ٧٩.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٩.

وقال سبحانه: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۞ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾(1).

وقال النبيُّ ﷺ: «**قال اللهُ تعالَى: (كَذَّبَني ابنُ آدمَ ولمْ يكنْ لَهُ ذلِكَ، وشَتَمَنِي ولَم يكُنْ لَهُ ذلِكَ. فأَمَّا تكْذِيبُهُ إيَّايَ فقَولُه: لنْ يُعِيدَنِي كما بدَأَنِي. ولَيْسَ أولُ الخلقِ بأهونَ عليَّ مِنْ إعادَتِه، وأَمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ فقَولُهُ: اتخذَ اللهُ ولدًا وأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَم ألدْ ولمْ أُولَدْ ولم يكُنْ لِيْ كُفُوًا أَحَدٌ)**»، رواهُ البخاريُّ عنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ(2).

وعلى الرُّغْم منْ أَهَمِّيةِ الحديثِ عنِ الحشْرِ والحسابِ وأهوالِ القيامةِ إلا أنَّ هذَا صارَ غَريبًا عندَ بعضِ الناسِ الذين شَغَلُوا حياتَهم باللَّعِبِ واللَّهْوِ والغَفْلَةِ، وإشباعِ النفسِ مِن شَهَواتِ هذهِ الحياةِ وملاذِّها، والذينَ أَلْهتْهُمْ أموالهُمْ وأولادُهُم وغيرُها من نعمِ اللهِ فَنسُوا أنَّ هذِهِ الحياةَ ما هِيَ إلا مرْحَلةٌ، وأنَّ بعدَهَا موتًا، وأنَّ وَرَاءَ الموتِ قَبْرًا وحياةً بَرْزَخِيَّةً، وأنَّ وراءَ القَبْرِ أَهْوالاً عَصِيبةً وحسابًا عَظيمًا لا يَنْجُو منهُ إلا المؤمنونَ الصادِقونَ. ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾(3).

عبادَ اللهِ: ويَومُ القيامةِ قريبٌ جدٌّ قريبٍ. قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ

---

(1) سورة ق، الآيات: 9-11.

(2) البخاري: جـ(8/ 222) تفسير سورة الإخلاص.

(3) سورة الشعراء، الآيتان: 88، 89.

﴿ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[1].

وقالَ سُبحانَهُ: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[2].

ويقولُ النبيُّ ﷺ: «**بُعثتُ أنَا والساعةُ كهاتين**»[3]، وأَشارَ بأَصْبُعَيْهِ السَّبابهِ والوُسْطى. رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن أنسِ بنِ مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -.

ويَبدَأُ يومُ القيامةِ بالنَّفْخِ في الصُّور فيُهَلكُ مَنْ فِي السموات ومَنْ في الأرضِ إلا مَنْ شاءَ اللهُ، ثم يُنْفَخُ فيهِ أخْرَى فَيُبعَثُ الجميعُ ويَخرُجُونَ من قبورِهِمْ.

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[4].

وذلك اليومُ يا عبادَ اللهِ يومٌ رهيبٌ فَظيعٌ، وما أَعْظمَ قولِ اللهِ تعالَى في تَصْويرِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾[5].

وبعدَ النفْخَةِ الثانيةِ يقُومُ الناسُ مِنْ قُبُورِهم للحسابِ حُفاةً عُراةً

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٣.

(٣) البخاري: (٨/ ١٣١)، ومسلم (٤/ ٢٢٦٩) ح (٢٩٥١).

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٥) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

غُرْلًا[1]. . . لا يلْتَفِتُ بعضُهُمْ إلى بعضٍ مِنْ هولِ الموقفِ وشدَّتهِ كما قالَ رسولُ الله ﷺ: «**يُحْشَرُ الناسُ حفاةً عُراةً غرلًا**». قالتْ عائشةُ: فقلتُ يَا رسولَ اللهِ الرِّجَالُ والنساءُ جميعًا يَنْظُرُ بعضُهُم إلى بعضٍ؟! فقالَ ﷺ: «**الأمْرُ أشدُّ مِن أنْ يُهِمَّهُم ذلكَ**» رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ[2] عن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها -.

وعن أمِّ سَلَمَةَ - رَضِيَ اللهُ عنْها - قالتْ: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ عُراةً حفاةً**». قالتْ أمُّ سلمةَ: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ واسَوْأَتاهُ ينظُرُ بعضُنَا إلى بعضٍ! فقالَ: «**شُغِلَ الناسُ**». قلتُ: ما شَغَلَهُم؟ قالَ: «**نَشْرُ الصَّحَائفِ فيها مثاقيلُ الذرِّ ومثاقيلُ الخردلِ**». رواهُ الطبرانيُّ في الأوسطِ[3].

ومما يزيدُ في هولِ يوم القيامةِ وشِدَّتِه أنَّ الشمسَ تَدْنُو مِن الخلائقِ ويَعْرَقُ الناسُ فَيشْتَدُّ عليْهِمُ الكربُ ويتمنَّونَ الخلاصَ مما همْ فيهِ. فعنْ أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ رسولَ اللهِ، ﷺ، قالَ: «**يَعْرَقُ الناسُ يومَ القيامةِ حتَّى يذْهَبَ عرقُهُمْ في الأرضِ سبعينَ ذراعًا ويُلْجِمُهُم حتى يَبلُغَ آذانَهُم**». متفقٌ عليه[4]. وعن المقدادِ بنِ الأسودِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**تُدنَى الشمسُ يومَ القيامةِ مِن الخلقِ حتى تكونَ منهُم كمِقدارِ ميلٍ**».

---

(١) أي: غير مختونين.

(٢) صحيح مسلم: (٤/ ٢١٩٤) ح (٢٨٥٩). والبخاري: (٨/ ١٣٦)، كتاب الرقاق.

(٣) انظر: كتاب اليوم الآخر في ظلال القرآن. جمع وترتيب أجمد الفائز (١٦٤)، وقال عن حديث الصحائف إسناده صحيح.

(٤) البخاري: جـ(٨) ص(١٣٨) كتاب الرقاق. ومسلم: (٤/ ٢١٩٦) ح (٢٨٦٣).

قال سليمُ بنُ عامرٍ: فواللهِ ما أدرِي ما يعنِي بالمِيلِ: أمسافةُ الأرضِ أمْ الميلُ الذي تكْتَحِلُ به العينُ. قالَ: «**فيكونُ الناسُ على قدرِ أعمالِهِمْ في العَرَقِ. فمنهم مَنْ يكونُ إلى كعْبَيْهِ، ومنهم مَنْ يكونُ إلى رُكبتَيْهِ ومنهم من يكونُ إلى حَقْوَيْهِ ومنهم مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجَامًا. وأشارَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى فيهِ**». رواهُ مسلمٌ[1].

فَلْيتصوَّرْ كلٌّ حَالَهُ وهو في ذلكَ الموقفِ العصيبِ. إنَّ الإنسانَ لو زادَ عليهِ الحرُّ شيئًا يسيرًا لعَمِلَ جاهدًا على أن يُذهبَ الحرَّ بوسائلِ التبريدِ المختلفةِ. فكيفَ لا يعملُ على أنْ يقِيَ نفسَهُ مِنْ ذلكَ الحرِّ الرهيبِ والعرقِ الكثيرِ الذي يبلغُ من الإنسانِ على قدرِ عملِهِ.

وفي الوقتِ الذي يكونُ فيهِ عامةُ الناسِ في الحرِّ والعَرَقِ والكَرْبِ يكونُ بعضٌ مِنَ الناسِ في الظلِّ مُسترِيحينَ لا ينالُهُم شيءٌ مما ذَكَرْنَا. وهؤلاءِ هُمْ الذينَ أخْبرَ النبيُّ ﷺ عنْهم بقولِهِ: «**سبعةٌ يظلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌ نشأ في عَبادةِ اللهِ، ورَجلٌ قلبُهُ معلقٌ بالمساجدِ، ورجلانِ تحابَّا في اللهِ اجتَمعَا عليهِ وتفرَّقَا عليهِ. ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجمالٍ فقالَ إنِّي أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّقَ بصدَقَةٍ فأخفَاهَا حتى لا تعلَمَ شِمالُهُ ما تُنفقُ يمينُهُ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناهُ**». رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ[2] عن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -.

وعن أبي اليَسَرِ كعبِ بنِ عمرٍو - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ

---

(١) صحيح مسلم: (٤/٢١٩٦) ح (٢٨٦٤).

(٢) مسلم: كتاب الزكاة، باب (٣٠)، والبخاري: وجوب صلاة الجماعة، باب (٨).

رسولُ اللهِ ﷺ: «من أنظَرَ مُعْسِرًا أو وَضَعَ عنْهُ أظلَّهُ اللهُ في ظلِّهِ». رواهُ مسلمٌ(١). وعن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ أنَّ أبا الخيرِ حدَّثَه أنهُ سَمعَ عُقْبَةَ بنَ عامرٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - يقولُ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «كلُّ امرىءٍ في ظلِّ صدقَتِهِ حتَّى يُفْصَلَ بينَ الناسِ» أو قالَ: «يُحْكَمَ بينَ الناسِ». قال يزيدُ: وكانَ أبو الخيرِ لا يخُطِئُهُ يومٌ إلا تصَدَّقَ فيهِ بشيءٍ ولَو كعكةٍ أَوْ بَصَلَةٍ أو كَذَا. رواهُ الإمامُ أحمدُ(٢).

وَلِعَظَمِ الكَرْبِ الذي يعيشُهُ الناسُ في المحشرِ فإنَّهم يبْحثونَ عمَّنْ يشفَعُ لهمْ إلى ربِّهم حتَّى يُقْضَىٰ بينَهم. وقَدْ رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ(٣) عَنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: أُتِي رسولُ اللهِ ﷺ يومًا بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إليه الذراعُ وكانتْ تُعجِبُهُ، فَنَهسَ منها نَهْسَةً فقالَ: «أنا سَيِّدُ الناسِ يومَ القيامةِ. وهلْ تدرونَ بِمَ ذاكَ؟ يَجمعُ اللهُ يوم القيامةِ الأولينَ والآخِرينَ فِي صعيدٍ واحدٍ فيُسْمِعُهم الداعِي ويَنفُذُهم البصرُ، وتدنُو الشمسُ فيبلغُ الناسَ من الغمِّ والكرْبِ ما لا يُطيقونَ وما لا يَحتَمِلون فيقولُ بعضُ الناسِ لبعضٍ؛ أَلَا تَرَوْنَ ما أَنْتُم فيهِ؟ أَلَا تَرَونَ ما قد بَلَغَكُم؟ أَلَا تَنْظُرُون مَن يشَفعُ لكم إلى ربِّكم؟ فيقولُ بعضُ الناسِ لبعضٍ: ائتُوا آدمَ فيأتُون آدمَ، فَيَقُولونَ: يا آدمُ أنت أبو البشرِ؛ خَلَقَكَ الله بيدِهِ ونَفَخَ فيكَ من رُوحِه وأَمَرَ الملائكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؛ اشفَعْ لنا إِلى ربِّك؛ أَلَا تَرَىٰ إِلىٰ ما نحنُ فيه؟ أَلَا ترى إِلىٰ ما قد بَلَغَنا؟

---

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب (١٨).

(٢) المسند (٤/ ١٧٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٤/ ١٧٠).

(٣) البخاري (٨/ ٣٩٥) تفسير سورة بني إسرائيل. ومسلم: كتاب الإيمان/ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها: (١: ١٨٤-١٨٦).

فيقولُ آدمُ: إن ربي غَضِبَ اليومَ غضبًا لم يَغْضَبْ قَبْلَه مِثْلَه ولن يَغْضَبَ بعدَه مثلَه، وإنهُ نَهَاني عن الشجرةِ فعصَيْتُهُ. نَفْسِي نَفْسِي اذهبُوا إلى غيرِي. اذهبُوا إلى نوحٍ. فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوحُ أنتَ أول الرُّسُلِ إلى الأرضِ وسمَّاكَ اللهُ عبدًا شكورًا، اشفعْ لنا إلى ربِّك ألَا ترى إلىٰ ما نحن فيه؟ ألَا ترى ما قد بَلَغنَا؟ فيقول لهم: إن ربِّي قد غَضِبَ اليوم غضبًا لم يَغْضَبْ قبلَه مثلَه، ولن يَغْضَبَ بعدَه مثلَه. وإنه قد كانتْ لي دعوةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي. نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيم ﷺ فيأتون إبراهيمَ فيقولون: أنت نبيُّ اللهِ وخَلِيلُه مِن أَهْل الأَرضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى ربِّك أَلَا ترى ما نحنُ فيه؟ أَلا ترى إلى ما قد بَلَغَنَا؟ فيقول لهم إبراهيمُ: إن ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لم يَغْضَبْ قبلَه مثلَه، ولن يَغْضَبَ بعدَه مثلَه. وذكرَ كَذِباتِهِ. نَفْسِي نَفْسِي، اذهَبُوا إلى غَيْرِي. اِذهبُوا إِلى مُوسَى. فَيَأْتُون مُوسَى ﷺ فَيَقُولُونَ يَا موسَى. أنتَ رسولُ اللهُ، فَضَّلَكَ اللهُ برسَالَتِهِ وبتكْليمِهِ على الناس. اشفعْ لنا إلى ربِّك، أَلَا ترى ما نحنُ فيه؟ أَلا تَرَى مَا قَدْ بَلَغنَا؟ فيقولُ لَهُم مُوسَى ﷺ: إِنْ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لم يَغْضَبْ قبلَه مثله ولن يغضَبَ بعدَه مثلَه. وإني قد قَتَلْتُ نفسًا لم أُوْمَرْ بِقَتْلِها. نَفْسِي نَفْسِي، اذْهبُوا إِلى عيسَى ﷺ فيأتون عيسى، فيقولون: يَا عِيسى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وكَلَّمْتَ الناسَ في المهدِ، وكَلِمَةٌ منهُ أَلْقَاهَا إِلى مريمَ وُروحٌ منه، فاشْفَعْ لَنَا إِلَى ربِّك. ألا تَرَى ما نحنُ فيه؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فيقولُ لَهُم عِيسى ﷺ: إِنَّ ربِّي قَدْ غَضِبَ اليومَ غَضَبًا لم يغضَبْ

قبلَه مِثْلَه. ولن يَغْضَبَ بعدَه مثلَه، ولم يَذْكُرْ له ذنباً، نَفْسِي نَفْسِي. اذهبُوا إلى غَيْري. اذْهَبُوا إلى محمدٍ ﷺ. فَيَأْتُوني فَيَقُولُونَ: يا محمدُ أنتَ رسولُ اللهِ وخاتمُ الأنبياءِ، وغَفَرَ اللهُ لكَ ما تقدَّمَ من ذَنْبك وما تَأَخَّرَ، اشفعْ لنا إلَى ربِّك. ألاَ ترى ما نَحْنُ فِيه؟ أَلاَ تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنا؟ فأَنْطَلِقُ فَآتِي تحتَ العرشِ فَأَقَعُ ساجدًا لِرَبِّي، ثمَّ يَفتَحُ اللهُ عليَّ ويُلْهِمُني مِنْ محَامِدِه وحُسْنِ الثناءِ عليهِ شيئًا لم يَفْتَحْهُ لأحدٍ قَبْلِي. ثمَّ يُقالُ: يا محمدُ ارفعْ رأسَك سَلْ تُعطَه، اشفعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رأسي فَأَقُولُ: يا رَبِّ أُمتي أُمتي. فيقالُ يا محمدُ. أَدْخِلِ الجنةَ من أُمَّتك من لا حِسَابَ عليه من البابِ الأيمنِ من أبوابِ الجنَّةِ وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبوابِ. والَّذي نفسُ محمدٍ بَيدِهِ إن ما بينَ المِصْرَاعَينِ من مَصَارِيـعِ الجنةِ لَكَمَا بينَ مَكَةَ وهَجَرَ أَوْ كَمَا بيَن مكة وبُصْرَى». فتأمّلُوا يا إِخْوَتي كيفَ أن آدمَ ونوحًا وإبراهيمَ وموسى وعيسى وَهُمْ أفضلُ الخلقِ بعد رسولِ اللهِ ﷺ، وقد امتدَحَهُم اللهُ تعالى كيف كانَ الواحدُ منهم يطلبُ النجاةَ لنفسِه في ذلك الوقتِ الرهيبِ، وذلك لِما يَرَوْنَ من شدَّةِ غضبِ اللهِ تعالى، فكيفَ إذا نُودِيَ بكَ على رؤوس الخلائقِ: لِيَقُمْ فلانٌ ابنُ فلانٍ فانظُرْ إلى ما تعَملهُ الآنَ في الدُّنيَا واعلَمْ أَنَّكَ مسؤولٌ عنهُ يومَ القيامةِ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

وتَذَكَّرْ أنَّ اللهَ تعالى الذي لا تَخْفَىٰ عليهِ خَافيةٌ في الأرضِ ولا في

(١) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣.

السماءِ هو الذي سَيَسْأَلُكَ، وأنّ الكرامَ الكاتِبينَ هُم الشُّهودُ، ومَنْ أنكَرَ اسْتَنْطَقَ اللهُ جوارحَهُ، وأنَّ المصيرَ إمَّا إلى الجنَّةِ وإما إلى النَّارِ.

إنَّ الإِنسانَ ليصابُ بنوعٍ من الخوفِ والفزعِ إذا وقفَ أمامَ بشرٍ مثلِهِ يستجوبُه، وهو يعلمُ أنه مُذْنبٌ؛ فكيفَ بذلك الموقفِ... حيث تُبْلى السرائرُ ولا يَنْفَعُ الإنكارُ. واسمعُوا الحديثَ الآتي ففيه عِبْرةٌ وعِظةٌ.

عن أبي هريرة - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالوا: «يا رسول الله هل نَرَى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: **هل تُضَارُّونَ في رُؤْيَةِ الشَّمسِ في الظَّهيرةِ ليستْ في سَحَابةٍ؟**» قالوا: لا. قال: **فهل تضارُّون في رُؤيَةِ القمرِ ليلةَ البدرِ ليسَ في سحابةٍ؟** قالُوا: لا. قال: **فَوَالذي نَفْسِي بيدِهِ، لا تُضَارُّونَ في رؤيةِ ربِّكُم إلاّ كَمَا تُضَارُّونَ في رُؤيةِ أَحَدِهِمَا. قال: فيَلقَى العبدَ فيقولُ: أَيْ فُلَ. يعني يا فُلانُ. ألم أُكْرِمْكَ وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْكَ وأُسَخِّرْ لكَ الخيلَ والإبل؛ وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلى. فيقول: أفظننتَ أنكَ مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإني أنساكَ كما نَسِيتَنِي. ثم يَلْقَى الثاني فيقولُ: أي فُلَ. ألم أكْرِمْك وأسوِّدْك وأزوِّجْك وأُسَخِّرْ لك الخيلَ والإِبلَ، وأَذَرْك تَرْأَسُ وتَرْبَعُ؟ فيقولُ: بلى أَيْ ربِّ فيقولُ أَفَظَنَنْتَ أنّكَ ملاقيَّ؟ فيقولُ: لا. فَيَقُولُ: فإنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي. ثم يَلْقَىَ الثالثَ فيقولُ له مثلَ ذلك. فيقولُ: يا ربِّ آمنتُ بِكَ وبِكتَابِك وَبِرُسُلِك وصلَّيتُ وصُمتُ وتصدَّقتُ. ويُثْنِي بخيرٍ ما استطاعَ. فيقولُ: هٰهُنا إذًا. قال؛ ثم يقالُ له: الآن**

نَبَعثُ شاهِدَنا عليك. ويَتَفَكَّرُ في نفسِه مَن ذا الذي يَشْهُد عليَّ؟ فَيُخْتَمُ على فيه ويقالُ لِفَخِذه ولحمِهِ وعظامِهِ؛ انطِقِي. فتنطقُ فخِذُهُ ولَحمُه وعِظَامُه بعملِه وذلك ليُعذِرَ مِنْ نفسِه، وذَلِكَ المنَافقُ، وذَلِك الَّذِي يسخطُ اللهُ عليه». رواه مسلم[1].

وعن عديّ بنِ حاتِم - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا سَيُكَلِّمُه ربُّه ليسَ بينَه وبينَه تَرْجُمان، فَيَنْظُرُ أيمنَ منه فلا يرى إلا ما قدّمَ من عملِه، وينظرُ أَشْأَمَ منه فلا يرى إلا ما قدّمَ، وينظُرُ بينَ يَديهِ فَلَا يَرَى إلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وجهِهِ فاتقُوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ» رواه البخاريُّ ومسلمٌ[2].

وعن أنس - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قال: «كُنّا عند رسولِ الله ﷺ فضَحِكَ. فقالَ: هلْ تَدْرُونَ لِمَ أَضْحَكُ؟ قلنا: الله ورسولُه أعلمُ. قالَ: مِنْ مُخَاطبةِ العَبْدِ ربَّه يومَ القيامةِ. يقُولُ: يا ربِّ ألم تُجِرْنِي من الظلمِ؟ فيقولُ: بلَى. فيقولُ: فإني لا أُجيزُ اليومَ عَلَى نفسي شاهدًا إلاّ منيِّ. فيقول: كَفَى بنفسِكَ اليومَ عليكَ حَسِيبًا وبالكرامِ الكاتبينَ شُهُودًا. قال: فيُخْتَمُ على فِيهِ، ويقال لأَرْكَانِه: انطِقِي. فتنطقُ بأَعمالِه، ثم يُخَلَّىٰ بينَه وبينَ الكلامِ، فيقولُ: بُعدًا لَكُنّ وسُحْقًا، فعَنْكُنّ كنتُ أُناضِلُ» رواه مسلمٌ. وعن عبدِالله بنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن اللهَ يُدْنِي المؤمنَ فيضعُ عليه كَنَفَهُ ويَسْتُرُهُ، فيقولُ: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقول: نعمْ أَيْ ربِّ.

---

(١) مسلم: كتاب الزهد والرقائق (٤/ ٢٢٧٩ - ٢٢٨٠).

(٢) البخاري: كتاب الرقاق، جـ(٨) ص(١٤٠)، مسلم: كتاب الزكاة (٢/ ٧٠٣).

حتى إذا قَرَّرَهُ بذنوبِه ورأىٰ في نفسِهِ أنهُ قدْ هَلَكَ قالَ: سترتُها عليكَ في الدنيا وأنَا أغفرُهَا لكَ اليومَ، فيُعْطَىٰ كتابَ حَسَنَاتِه. وأما الكفَّارُ والمنافقونَ فيُنَادَىٰ بهمْ على رؤوسِ الخلائقِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]» متفقٌ عليه.

عبادَ اللهِ: وإنّ مما يزيدُ في كَرْبِ يوم القيامةِ أَنه يومٌ طويلٌ كَمَا قالَ اللهُ تعالى وهو أصدقُ القائلين: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ۞ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۞ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۞ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾[2]. فهو - أَيُّها الإخوةُ - يومٌ طويلٌ جدًّا ولكنْ هذا اليومُ يُخَفَّفُ على المؤمنينَ كما قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يومُ القيامةِ على المؤمنينَ كقدرِ ما بينَ الظهرِ إلى العصرِ**».

نسألُ اللهَ أن يجعلَنا من عبادِه المؤمنينَ المتقينَ الناجينَ يومَ القيامةِ.

فلنتفكرْ - عبادَ اللهِ - بهذِه الأهوالِ، ولنتذكرْ أن النجاةَ منها إنما تُنَال برحمةِ اللهِ، ثم بصالحِ الأعمالِ، وأن الإنسانَ في ذلك اليوم سيندمُ لا محالةَ، فإن كان محسنًا نَدِمَ على أَنْ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الإحسانِ، وإن كان مُسيئًا نَدِمَ على التفريطِ في العملِ الصَّالحِ زمنَ الإمكانِ، وتذكروا تَطَايُرَ الصُّحفِ في ذلك اليوم والإنسانُ لاَ يدري هل يأخذُ كِتَابَهُ بيمينِه فيسعدُ سعادةً أبديةً، أم يَأخذُه بشماله فيخسرُ خسارةً لا تَعْدِلُهَا خسارةٌ. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۞ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۞ فِي

---

(١) سورة هود، الآية: ١٨.

(٢) سورة المعارج، الآيات: ١-٤.

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۞ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۞ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۞ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۞ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۞ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾[1].

وَتَذكروا - عبادَ اللهِ - الصراطَ حينَ يُجْعَلُ علَى ظهرِ جهنمَ وهو مَدْحَضَةٌ وَمَزلَّةٌ، عليهِ خَطَاطِيفُ وكَلاَلِيبُ يَجُوزُهُ الناسُ على قدرِ أعمالِهم فمنهم من يَجُوزُهُ كالطَّرفِ وكالْبَرْقِ وكالرِّيح وكأَجَاويدِ الخَيْلِ والرِّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وناجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ في نارِ جهنمَ حتى يَمُرَّ آخرُهم يُسْحَبُ سَحْبًا، ودعاءُ الرُّسُلِ يومَئذٍ اللهمَّ سَلِّمْ. فلْيَتَفَكَّرْ كُلُّ واحدٍ منَّا بأنَّهُ مارٌّ على هذا الصراطِ من فوقِ جهنمَ وأنه لا يَدْرِي ما مصيرُه هل يَنْجُو أمْ يُكَبُّ في النارِ؟ عياذًا باللهِ من ذلكَ - قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2]. بَكَى عبدُالله بنُ رواحةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - فَقِيلَ له: ما يُبْكِيكَ يا ابنَ رواحةَ؟ فقالَ: أَمَا واللهِ ما بي حُبُّ الدنيا ولا صَبَابَةٌ لَكُم ولكنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقرأُ آيةً من كتابِ اللهِ - عَزَّ وجلَّ - يَذْكُرُ فيها النارَ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾، فَلَسْتُ أدرِي كَيْفَ لي بالصَّدَرِ

(١) سورة الحاقة، الآيات: ١٩-٣٧.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

بعدَ الوُرُودِ. فقال المسلمونَ: صَحِبَكُم اللهُ ودَفَعَ عنكُم وَرَدَّكُم إلينا صالحينَ. فقال عبدُالله بنُ رواحةَ:

لكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَٰنَ مَغْفِرَةً　　وضَرْبَةً ذاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا[1]

عبادَ الله: اسْأَلُوا اللهَ التَّخْفيفَ عنكُم في ذلك اليوم وأن يُحاسِبَكم حسابًا يَسيراً فلقد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[2]، وأسْأَلُوهُ أَنْ يُورِدَكُم حوضَ نبيِّه محمدٍ ﷺ، وأَنْ يَسْقِيَكُم منه شربةً هنيئةً مريئةً، فإنَّهُ من شرِبَ منه فَلاَ يَظْمَأُ بعدَها أبدًا. ولقد قال ﷺ: «**حَوْضِي مسيرةُ شهرٍ، ماؤُه أبيضُ من اللبَّنِ، وريحُهُ أطيبُ من المِسْكِ وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّماءِ من شرِبَ منه فَلاَ يظمأ بعدَها أبدًا**»، رواه البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ عبدِالله بنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللهُ عنهما[3].

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تَرِدُ أُمتَّي على الحوضِ وأنا أذودُ الناسَ عنه كما يذودُ الرجلُ إبلَ الرجلِ عن إبلِهِ. قالوا: يا نبيَّ الله أتعرفُنا؟ قالَ: نعم. لكم سيمًا ليستْ لأحدٍ غيرِكُم. تَرِدُونَ عليَّ غُرًا مُحَجَّلينَ من أَثَرِ الوَضُوءِ، وليُصَدَّنَّ عنيِّ طائفةٌ منكم فلا يصِلُون، فَأَقُولُ يا رَبِّ هَؤلاَءِ مِنْ أَصْحَابي. فَيُجِيبُنِي مَلَكٌ فيقولُ: وهل تَدْرِي ما أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**» رواهُ مُسلمٌ[4].

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٤٢٧).

(٢) سورة الإنشقاق، الآيات: ٧-٩.

(٣) البخاري: (٨/ ١٤٩) كتاب الرقائق. ومسلم (٤/ ١٧٩٣).

(٤) مسلم: (١/ ٢١٧) ح (٢٤٧) كتاب الطهارة

عبادَ اللهِ: ويُحاسَبُ الناسُ في ذلك اليومِ على ظلمِهم لِلآخَرِينِ ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحدًا.

فعنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**لَتُؤَدَّنَّ الحقُوقَ إِلَى أَهْلِها يومَ القيامَةِ، حتى يُقاد للشاةِ الجَلْحَاءِ**[1] **من الشاةِ القَرْناءِ تنطَحُها**» رواهُ مُسلمٌ[2]، وعنه - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**منْ كانتْ عندَه مظلمَةٌ لأخيهِ من عِرْضِهِ أو شيءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليومَ قبلَ ألَّا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ، إن كانَ له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منه بقدرِ مَظْلَمَتِه، وإن لم تكنْ له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحِبِه فحُمِلَ عليه**»، رواه البخاريُّ[3]. وعنه- رَضِيَ اللهُ عنهُ - أيضًا أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**أَتَدْرُونَ ما المفلسُ؟ قالوا: المفلسُ فينا من لا دِرْهمَ له ولا متاعَ. فقال: إن المفلسَ من أُمَّتِي مَنْ يَأْتي يومَ القِيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، وَيأتِي وقدْ شتمَ هذا وقذفَ هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذَا وضربَ هذَا فيُعطىٰ هذَا من حسناتِه وهذَا من حسناتِه، فإن فنيتْ حسناتُه قبلَ أن يُقْضَى ما عليهِ أُخِذَ من خطَايَاهُم فَطُرِحَتْ عليهِ ثم طُرِحَ في النارِ**». رواهُ مُسلمٌ[4].

تَذَكَّرُوا عبادَ اللهِ كلَّ هذهِ الأمورِ من وقوفِ الإنسانِ بين يَدَيْ ربِّه وسؤالِه إياهُ عن أعمالِه وتَطَايُرِ الصحفِ، وأهوالِ الموقفِ والصراطِ وغيرِها، وتَيَقَّنُوا بأن هذهِ الأمورَ حقٌّ وأنها ستحصُلُ لا محالةَ وأنها

---

(١) الجلحاء: هي الجماء التي لا قرن لها.

(٢) مسلم: (٤/ ١٩٩٧) ح (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة.

(٣) البخاري: (٨/ ١٣٨) كتاب الرقاق.

(٤) مسلم: (٤/ ١٩٩٧) ح (٢٥٨١) كتاب البر والصلة.

قريبةُ الوقـوع مهما طالتِ الحياةُ، فالموتُ حقٌ وكلٌّ سيموتُ مَهْمَا عُمِّرَ، واعلَمُوا بأن هذهِ الأهوالِ تحتاجُ من الإنسانِ إلى عملٍ صالح خالصٍ حتى يَنْجُوَ منها ويَسْلَمَ ويكونَ من أهلِ السعادةِ من أهلِ الجنةِ الذين لا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يحزنونَ.

***

شعر

وفي البَعْثِ بعدَ الموتِ نشرُ صحائفٍ ... وميزانُ قسطٍ طائشٌ أَوْ مُثَقَّلُ

ونشرٌ يَشِيبُ الطفلُ من عُظْمِ هولِهِ ... ومِنْهُ الجبالُ الراسياتُ تَزَلْزَلُ

ونارٌ تَلَظَّى. فِي لظَاها سَلاسلٌ ... يُغَلُّ بها الفَجَّارُ ثم يُسَلْسَلُ

شَرَابُ ذوي الإجرامِ فيها حميمُها ... وَزَقُّوْمُهَا مطعومُهم حينَ يُؤكلُ

حميمٌ وغسّاقٌ وآخرُ مثلهُ ... من المُهْلِ يَغْلي في البطونِ ويُشعَلُ

يزيدُ هوانًا مَنْ هواها ولم يَزَلْ ... إلى قعرِها يهوي دوامًا ويَنْزِلُ

وفي نارِه يَبْقَىٰ دوامًا مُعذَّبًا ... يَصيحُ ثُبُورًا وَيْلَهُ يَتَوَلْوَلُ

عليها صراطٌ مَدْحَضٌ ومَزَلَّةٌ ... عليه البرايا في القيامةِ تُحْمَلُ

وفيه كلاليبٌ تَعَلَّقُ بالْوَرَى ... فَهَذَا نَجَا مِنْها وَهَذَا مُخَرْدَلُ

فلا مُجرمٌ يَفْدِيه ما يَفْتَدِى به ... وإنْ يَعْتَذِرْ يومًا فلا عُذْرَ يُقْبَلُ

فهذا جزاءُ المجرمينَ على الرَّدَى ... وَهَذَا الَّذِي يَومَ القِيامةِ يَحْصُلُ

أعوذُ بربي من لَظَى وعذابِها ... ومِنْ حَالِ مَنْ يهوي بها يَتَجَلْجَلُ

ومِنْ حَالِ مَنْ في زمهريرٍ معَذبًا ... ومَنْ هُوَ بالأغلالِ فيها مُكَبَّلُ

اللهمَّ يا حيُّ يا قيومُ يا ذا الجلالِ والإكرامِ يا غفورُ يا رحيمُ يا ودودُ يا حليمُ اغفرْ لنا ذنوبَنا وكفِّرْ عنا سيئاتِنا وتوفَّنا معَ الأبرارِ.

اللهمَّ واجعلْنا في موقفِ القيامةِ آمنينَ، وأعطِنَا كُتُبَ أعمالِنا باليَمينِ، وأَظِلَّنا في ظِلكَ يوم لا ظلَّ إلا ظلُّك يا ربَّ العالمينَ.

اللهمَّ أَوْرِدْنا حوضَ نبيِّك وأسقِنا منه شَرْبةً هنيئةً مريئَةً لا نظمأُ بعدَها أبدًا.

اللهمَّ وفقْنا للعملِ الصالحِ الذي يُرضيكَ عنا ويُنيلُنا رحمتَك.

اللهمَّ ارْحمنَا برحمتِكَ التي وَسِعتْ كلَّ شيءٍ.

اللهمَّ وأَحْسِنْ ختامنا وتوفَّنا على الإسلامِ وارفعْ درجاتِنا في الجنةِ وأَعِذْنَا يا مولانا من سخطِكَ وعذابِ النارِ. واغفر اللهمَّ لنا ولوالدِينا ووالدِيهم وجميعِ المسلمينَ. الأحياءِ منهم والميتينَ برحمتِك يا أرحمَ الراحمينَ.

وصلِّ اللهمَّ وسلمْ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه أجمعينَ!!!!

الباب الثالث عشر

حقوقُ المسلمينَ على بعضِهم

الحمدِ لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفِرُهُ ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنا وَمِنْ سيِّئَاتِ أَعمالِنا، من يَهْدِه اللهُ فلاَ مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأشهدُ أَن لاَّ إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمَّدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

وعلى آلِه وأصحابِه وأَخُصُّ منهم أبا بكرٍ الصديقَ قامعَ أهلِ الردّةِ. وعمرَ الفاروقَ الذي أَقرَّ اللهُ تعالى به عيونَ أَهلِ المِلَّةِ، وعثمانَ الحَيِيَّ مُجَهِّزَ جيشِ العُسْرَةِ، وَعَلِيًّا أبا الْحَسنِ الذي إذَا عُدَّ الرجالُ كان في العِدَّةِ، والتابعِينَ وتابعيهم ومنْ تَبِعَهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وعنَّا مَعهمْ بعفوِكَ ومغفرتِك يا أرحمَ الرَّاحمينَ.

أما بعد:

فيا عبادَ اللهِ.. اعلمُوا أنَّ لإِخوانِكمُ المسلمينَ عليكُمْ حقوقًا ينبَغِي عليكم القيامُ بها وهي - بحمدِ اللهِ - يسيرةٌ على مَنْ يسّرَها اللهُ عليه.. فقد رَوَى أبو هُريرةَ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قوله: «**حقُّ المسلم على المسلم ستٌّ**». قيل: يا رسول الله وما هُنَّ؟ قال: «**إذا لَقِيتَهُ فَسلِّمْ عليه، وإذا دعاكَ فأجِبْهُ، وإذا اسْتَنْصَحَكَ فانْصَحْ لَه، وإذا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ. وإذا مَرضَ فَعُدْهُ، وإذا ماتَ فاتْبَعْهُ**» رواهُ مسلمٌ.

هذه الحقوقُ الستَّةُ مَنْ قامَ بِهَا فِي حقِّ المُسْلِمِينَ كَانَ قِيامُه بِغيرِها أَوْلَى وَحَصَلَ لَهُ أَداءُ هذه الواجباتِ والحقوقِ التي فيها الخيرُ الكثيرُ والأجرُ العظيمُ من اللهِ تعالى.

الأولى: «إذا لقيتهَ فسلّمْ عليه». فإن السلامَ تحيّةُ المسلمينَ، وأتمُّ هذهِ التحيةِ وأكملُها «السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وَبَرَكاتهُ». فهو دعاءٌ للمسَلَّم عليه بالسلامةِ والرحمةِ والبركةِ، وهي اسمٌ من أسماءِ اللهِ الحُسْنَى، والسلامُ من محاسنِ الإسلامِ، ومن حقِّ المسلمِ على أخيهِ المسلم.

وابتداؤُه سنّة عندَ اللِّقاءِ على من عرفتَ ومن لم تعرفْ من صغيرٍ وكبيرٍ. وغنيٍ وفقيرٍ وشريفٍ ووضيعٍ وهو يتضمنُ تواضعَ المسلمِ وأنه لا يتكبرُ على أحدٍ، فمن بَدَأَ الناسَ بالسّلام فقد بَرِىءَ من الكِبْرِ، وأولى الناس باللهِ من بَدَأَهمُ بالسّلام، وأبْخَلُ الناس الذي يَبْخَلُ بالسّلامِ، وإفشاءُ السّلامِ من أبوابِ المحبّةِ والأُلْفَةِ بين المسلمينَ الموجبةِ للإيمانِ الذي يوجبُ دخولَ الجنّةِ والنجاةَ من النّار كما قال النبي ﷺ: **«لا تدخُلُوا الجنّةَ حتى تؤمنُوا، ولا تُؤمِنُوا حتى تَحابُّوا، أَلا أَدُلُّكُمْ على شيء إذا فعلتُمُوه تحابَبْتُمْ أَفْشُوا السّلامَ بينكم»** رواهُ مسلمٌ.

عبادَ اللهِ: ابْدَأُوا بالسّلامِ ثم قولوا بعدَه ما تشاؤُون من الترحيبِ والدعاء مثل (مساكَ اللهُ بالخيرِ وصبحك اللهُ بالخيرِ)، ولا فرقَ في ذلك بين المُقَابَلَةِ المُباشرة أو بواسطَةِ الهاتفِ. فلا ينبغي للمُسْلِمِ أن يقَلِّدَ الكفّارَ بقولِ عباراتهم مثل «آلوُ».

وعلى المُسَلَّم عليه ردُّ السّلام بأحسنَ منه أو مثلِه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾[1].

ثانيًا: وَمِنْ حَقِّ أَخِيكَ المُسْلِم عليكَ «**إذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ**»: أي دعاكَ لدَعوةِ طَعامٍ أو شَرابٍ فاجْبُرْ خَاطرَ أخيكَ الذي أكرمَكَ بالدعوةِ وأجبْهُ لذلكَ إلاَّ أَنْ يكون لَكَ عُذرٌ شرْعيٌ. قَالَ رَسولُ اللهُ ﷺ: «**مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوُهُ**» رواه أبو داودَ والنسائيُّ بسندٍ صحيح.

ثالثًا: ومِنْ حقِّ أخيكَ المسلم عليك «**إِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ**»: إِذَا استشاركَ في عملٍ من الأعمالِ هلْ يعملُه أم لا فانْصَحْ له بما تحبُّ لنفسِك، فإن كان العملُ نافعًا من كلِّ وجْهٍ فَحُثَّهُ على فعلِه، وإن كانَ مُضِرًّا فَحَذِّرْهُ منهُ وإن احتَوَى على نفعٍ وضُرٍّ فاشرَحْ لهُ ذَلِكَ وَوَازِنْ بين المَنافعِ والمَضَارِ والمصَالح والمفاسِدِ، وكذلك إذا شاوَرَك عَلى مُعَامَلَةِ أَحدٍ من الناسِ أو التَّزوُّج منه أو تزويجهِ فأظْهِرْ له محضَ نُصْحِكَ، واعمَلْ له مَن الرَّأْيِ ما تَعْمَلُ لنفسِك، وإيّاكَ أن تَغُشَّ المسلمينَ في أي شَأْنٍ من شُؤونِهم فمن غشَّ المسلمينَ فليسَ منهم، وقد تركَ واجبَ النصيحةِ، والنصيحةُ واجبةٌ دائمًا وعلى كلِّ حالٍ. ولكنها تتأكدُ إذا طُلِبَ منكَ النصيحةُ والرأيُ النافعُ، ولهذا قيّدَه بهذِه الحالةِ التي تتأكدُ.

وفي الحديثِ: «**الدينُ النصيحةُ**». قالها ثلاثًا. رواه مسلمٌ.

رابعًا: ومَن حقِّ أخيكَ المسلمِ عليكَ «**إذا عَطَسَ فحَمِدَ اللهَ**

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٦.

فشَمِّتْهُ»، وذلكَ أن العُطاسَ نِعمةٌ من اللهِ تعالى بخروج هذه الرِّيح المُحْتَقِنَةِ في أَجْزَاءِ بدن الإنسانِ يسَّرَ اللهُ لها مَنْفَذًا تَخرجُ منه فَيْستريحُ العاطسُ، فشُرِعَ له أن يَحْمَدَ اللهَ على هذهِ النعمةِ، وشُرِعَ لأخيهِ المسلم أن يقولَ له: يَرْحَمُكَ اللهُ. وأَمَرَهُ أن يجيبَه بقوله: يهديكُمُ اللهُ وُيُصْلِحُ بَالَكُمْ - كما في الحديثِ الذي أخرجَه البخاريُّ -. فَمَنْ لم يَحمَدِ اللهَ لم يستحقَّ التَّشْمِيتَ ولا يَلُومَنَّ إلا نفسَه فهُو الذي فَوّتَ على نفسِهِ النِّعْمَتَينِ: نعمةَ الحمدِ ونعمةَ دعاءِ أخيهِ المرتَّبِ على الحمدِ.

خامسًا: ومن حقِّ أخيكَ المسلم عليكَ **«إِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ»**. فإن عيادةَ المريضِ وزيارتَهُ من حقوقِ المسلمِ وخصوصًا من له حقٌّ عليكَ متأكدٌ كالقريبِ والجارِ والصّاحبِ. وهذه الزيارةُ من أفضل الأعمالِ الصالحةِ ومن عادَ أخاهُ المسلمَ لم يزلْ في رحمةِ اللهِ. فإذا جلسَ عندَه غَمَرَتْهُ الفرحَةُ، ومن عادَهُ في أولِ النهارِ صَلَّتْ عليه الملائكةُ حتى يُمْسِي، ومن عادَهُ آخرَ النهارِ صَلَّتْ عليه الملائكةُ حتى يُصبحَ، كما في الحديثِ الذي رَواه التِّرمذيُّ وأبو داودَ. وينبَغِي لمن زارَ مريضًا أن يشرحَ خاطرَهُ بالبِشَارةِ بالعافِيةِ والدُّعاءِ لَهُ بالشِّفاءِ وَأَنْ يقوُلَ له كما في الحديثِ: **«لا بأسَ طهورٌ إن شاءَ اللهُ»**، رواه البخاريُّ، ويُذَكِّرَهُ بالتوبةِ والإنابةِ إلى اللهِ والإكثارِ من الذكرِ والدّعاءِ والاستغفارِ، ويأْمُرَهُ بالوصيّةِ النافعةِ ولا يطيلَ عندَه الجلوسَ، بل بقدرِ العيادةِ، إلا أن يُؤْثِرَ المريضُ كثرةَ ترَدُّدِهِ وجلوسَه عندَه فلكلٍّ مقامٍ مقالٌ.

سادسًا: ومِنْ حقِّ المسلم على المسلم «**اتّباعُ جَنَازَتِه إذَا مَاتَ**»: فإن من تَبِـعَ الجَنَازةَ حتى يُصَلِّيَ عليها فله قيراطٌ من الأجرِ، فإن تَبِعَها حَتَّى تُدفنَ فلهُ قيراطان كلُّ قيراطٍ مثلُ الجبل العظيم.

واتباعُ الجَنَازَةِ فيه حقٌّ للهِ وحقٌّ للميتِ وحقٌّ لأقاربِه الأحياءِ.

عبادَ اللهِ: الواجبُ على العاقلِ التنبهُ لمصالح وحقوقِ نفسِه، ثم لحقوقِ إخوانِه المسلمينَ، ولا تُشْغِلَنَّكُم الدنيا عن هذه الحقوقِ..

فيا عجبًا لِمن عَرَفَ الدنيا ثم اغْتَرّ، أما يقِيسُ ما بَقِيَ بِمَا مرّ؟ أَيُؤْثِرُ اللبيبُ على الخيرِ الشرَّ؟ أيختارُ الفَطِنُ على النفع الضُّرَّ؟ إذا دُعِيتَ إلى التوبةِ سَوَّفْتَها! وإذا قُمْتَ في العبادةِ خَفَّفْتَها! كَمْ حيلةٍ في مَكاسبِ الدنيا تَلَطَّفْتَها! كَمْ قِفَارٍ في طلبِها قَطَعْتَها! كَمْ كَذِباتٍ من أجلِ الدنيا زخرفتَها! تحضُرُ المسجدَ وقلبُك مع التي أَلِفْتَها! تاللهِ لو علمتَ ما تَجْنِي لِعْفتَها.

أقَـلُّ قليلهـا يكفيـكَ منهـا ولكـن لسـتَ تقنـعُ بـالقليـلِ
ومـن هـذا الـذي يبقـى وتبقـى مضـاربُـه بمـدرجـةِ السيـولِ

أيُّها المسلمُ: ومن حقِّ أخيكَ المُسْلم عليكَ أن تَبَرَّ قَسَمَهُ إذا أَقْسَمَ عليكَ في شيءٍ لا محذورَ فيه فتفعلَ ما حَلَفَ عليك من أَجْلِهِ حتى لا يحنَثَ في يمينِه. ومن حقّه عليكَ أن تحفظَه بظهرِ الغيبِ إذا غابَ عنكَ، وأن تُحبَّ له ما تُحبُّ لنفسكَ من الخيرِ، وتكرَهَ له ما تكره لنفسكَ من الشرِّ، قال ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» متفقٌ عليه. ومن حقِّه عليكَ أن تُخَالِقَه بخُلُقٍ

حَسَنٍ فَتَبْذُلَ له المعروفَ وتكفَّ عنه الأذى وأن تَوقِّرَه إنْ كَان كبيرًا، وترحَمَه إنْ كَان صَغِيرًا، وأن تُنْصِفَهُ مِنْ نَفْسِك، وَتُعَامِلَهُ بما تحبُّ أَنْ يعامِلَكَ بِه، وأن تساعِدَهُ إذا احتاجَ إلى مُساعدَةٍ، وأَنْ تَشْفَعَ له في قضاءِ حاجتِه بالحدودِ المعروفةِ شرعًا، وأن تكونَ صادقًا مع الناس جميعًا، ولا تغشَّ ولا تخدعْ ولا تَغْدِرْ، ولا تحسُدْ وكن موفياً بالعهدِ، عَفُوًّا مُتَسَامِحاً، حليماً تجتنِبُ السبابَ والفُحْشَ وبذيءَ الكلامِ، لا ترمي أحدًا من المسلمينِ بِفِسْقٍ أوْ كفرٍ بغَيرِ حقٍّ، ولا تتَدَخّلْ فيما لا يْعنيكَ، وأن تَبْتَعِدَ عنِ الغِيبةِ والنَّميمةِ بَينَ إخوانك المسلمينَ، وتَجَنَّبْ قوْلَ الزُّورِ وظنَّ السُّوءِ، وَإِذَا ائتَمَنكَ أحدٌ على سِرّ فإِنَّكَ تَحْفَظُهُ ولا تُفشيهِ، وكُنْ مُتواضعًا ولا تتكبرْ ولا تسْخرْ من أحدٍ، تُعاشرُ كرامَ الناسِ وتبتعدُ عن أراذِلِهم إلا ما كانَ لمصلحةٍ دِينيةٍ بالضَّوابطِ الشَّرْعِيَّة، وَتَحْرِصُ على نَفْعِ الناس ودَفْعِ الضُّرِ عنهم. وَتَسْعَى للصُلح بينَ المسلمينَ، وَتدْعُو إلى اللهِ تعالى بَينهم بالحِكْمةِ والموعظةِ الحَسَنةِ، وَأَنْ تكافِئَ عَلَى المعروفِ وتشكرَ عليهِ، وتَخُالِطَ الناسَ وَتصْبرَ على أَذَاهُم، وتُدْخِلَ السرورَ على قُلوبِ المسلمينَ، ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، ولا تُرَوِّعُ أحدًا من المسلمينَ، تدلُّ الناسَ على الخيرِ، وَتُحبُّ التيسيرَ وتجتنبُ التعسيرَ، وتبشّرُ ولا تُنَفِّرُ، وتَعْدِلُ في حُكْمِكَ، ولا تَظْلِمُ ولا تُحَابي ولا تُنافقُ ولا تُداهِنُ ولا تُرائي، ولا تُبَاهِي بأعمالك ومُنْجَزاتِك ولا تَلْتَوِي ولا تَتَلَوّنُ مهما كانتِ الظروفُ، ولا تُصَعّرْ خدّكَ للناسِ، وكن كريمًا جوادًا، ولا تَمنُنْ على مَنْ أَعطَيتَ أو على مَنْ أَسدَيتَ

إلَيهِ مَعْروفًا، وحاولْ أن تُؤْثِرَ على نفسك إخوانَك المسلمينَ - فتلِكَ مرتبةٌ عاليةٌ - وتُنَفِّسَ عن المعسرِ، وأن تكونَ عفيفًا لا تَتَطَلَّعُ إلى المسْألَةِ، آلفًا مألوفًا، وأن تُخْضِعَ عاداتِك كُلَّها لِمَقاييس الإسلامِ، وَتَتأدبَ بأدبِهِ في نَفْسِكَ ومع مُجْتمَعِك في طعامِك وشرابِك ولباسِك وسائرِ حياتِك، ومع الناسِ من زياراتٍ وعلاقاتٍ وغيرِ ذلكَ من الأعمالِ والصلاتِ الاجتماعيةِ.

أيها المسلمُ: هذه من الأمورِ المطلوبةِ منكَ، وهي تدلُّ على شخصيةِ المسلمِ الوضيئةِ المشرقةِ العظيمةِ التي صاغَهَا الإسلامُ.

واعلمْ أن هذا المُستوى العالي من مكارمِ الأخلاق وجميلِ الطباعِ التي هذَّبَها الإسلامُ وَنقَّاها وجعلَ لها شكْلاً مُنَظمًا عاليًا من حقوقِ أخيكَ بل إخوانِك ومجتمعِك الإسلاميِّ عليكَ، تلتزمُ بها وتؤدِّيها وأنتَ تعتقدُ أن فِعْلَكَ إيَّاهَا عبادةٌ للهِ تعالى وقُربةٌ تتقربُ بها إليه سُبْحانَهُ وتعالىٰ، ترجو من وراءِ ذلكَ الأجرَ والثوابَ العظيمَ في الآخرةِ، والتوفيقَ والتسديدَ في الدنيا.

إخواني: كم مشغولٍ بالقصورِ يعمرُها، لا يفكرُ في القبورِ ولا يَذْكُرُهَا، يبيتُ الليالي في فِكَرِ الدنيا ويُسْهِرُهَا، يجمعُ الأموالَ إلى الأموالِ يُثَمِّرُهَا، ونَسِيَ الحقوقَ وسَهَا، ما كانَ منها لنفسِه ضَيّعَها، وما كان لغيرِه أهمَلَها. . وقعَ في شِراكِ المنايا وهو لا يُبْصِرُها ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾[1].

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ١١.

إخواني: لقد خصَّ الإسلامُ الجارَ بحقوقٍ تَخُصُّهُ، ووصَّى به، وجعل له مكانةً تَخُصّهُ. قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[1].

(والجارِ ذي القربى) هو الذي تجمعُك به مع الجِوارِ آصرةُ النَّسَبِ. فكلُّ من جَاوَرَكَ في السكنِ له عليك حقُّ الجِوَارِ، ولو لم يكنْ بينَك وبينَه رابطةُ دينٍ أو نسَبٍ، ولهذا كانت أحاديثُ الرسولِ ﷺ توصِي بالجارِ على وجهِ العمومِ من غيرِ نَظَرٍ إلى دينهِ أو قرابتهِ. .

قال ﷺ: «ما زال جبريلُ يوصِينِي بالجارِ حتى ظَنَنْتُ أنه سَيُوَرِّثُهُ» متفق عليه. وقال ﷺ: «مَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليوم الآخرِ فليُحْسِنْ إلى جارِه، ومنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فليُكْرِمْ ضيفَه، ومنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليومِ الآخر فليَقُلْ خيرًا أو ليَسْكُتْ» متفق عليه. وفي روايةٍ للبخاريِّ: «من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فلا يؤذِ جارَه. . .».

أيها المسلمونَ: إن هَناك آدابًا معَ الجيرانِ لا ينبغي تركُها بل الواجبُ معرفتُها والعملُ بها والاستمرارُ عليها لأنها من حقوقِهِ.

أولًا: عدمُ أَذِيَّتِهِمْ بقولٍ أو فعلٍ ومَنْ آذى جيرانَه فقد عَرَّضَ نفسَه للوعيدِ الشديدِ. يقولُ الرسولُ ﷺ: «واللهِ لا يؤمنُ، واللهِ لا يؤمنُ،

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.

والله لا يؤمنُ» قيل: مَنْ يا رسوَل اللهِ؟ قال: «من لا يأمنُ جارُه بَوَائِقَهُ»[1] متفق عليه.

ثانيًا: الإحسانُ إليه، وذلك بأن يَنْصُرَهُ إذا اسْتَنْصَرَهُ، ويعينَهُ إذا استعانَه، ويعودَهُ إذا مَرِضَ، ويُهَنِّئَهُ إذا فَرِحَ، ويُعَزِّيَهُ إذا أُصِيبَ، ويساعِدَه إذا احتاجَ، ويبدأه بالسلامِ، ويُلين له الكلامَ، ويتلطفَ في مُكالَمةِ وَلَدِه، ويرشدَه إلى ما فيه صلاحُ دينِه ودنياه، ويرعى جانِبَهُ ويَحْمِيَ حِمَاه، ويصفَحَ عن زلاَّتِه، ولا يتطلَّعَ إلى عوارتِه، ولا يُضَايِقَه في بناءٍ أو مَمَرٍّ، ولا يؤذِيَهُ بميزابٍ يصبُّ عليه، أو بقَذَرٍ أو وَسَخٍ يُلْقِيهِ أمامَ منزلِه، كلُّ هذا من الإِحسانِ إلى الجارِ المأمورِ به في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾.

ثالثًا: إكْرامُه بإسداءِ المعروفِ والخيرِ إليه لقوله ﷺ: «**يا نساءَ المسلماتِ لا تَحْقِرَنَّ جارةٌ لجارتِها وَلَوْ فِرْسَن**[2] **شَاةٍ**» رواه البخاري ومسلم[3].

وقولِه ﷺ لأبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: «**يا أبا ذرٍّ إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأَكْثِرْ ماءَها وتعاهَدْ جيرانَك**» رواه البخاريُّ، وقولِه ﷺ لِعَائِشَةَ، رَضِيَ اللهُ تعالى عنها، لما قالتْ له: إنّ لي جارَيْنِ فإلى أَيِّهما أُهْدِي؟ قال: «**إلى أقْرَبِهِمَا منكِ بابًا**» متفقٌ عليه.

---

(١) البوائق: الغوائل والشرور.

(٢) فرسن شاه: ظلف شاة وهو كناية عن الشيء الحقير.

(٣) مسلم في كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة.

رابعًا: احترامُه وتقديُره، فلا يَمْنَعُه أن يضعَ خشبةً في جدارِه، ولا يبيعُ أو يؤجِّرُ ما يتصلُ به، أو يَقْرُبُ منهُ حتَّى يَعْرِضَ عَلَيهِ ذَلكَ وَيَسْتَشِيرَه لقولِ الرسوله ﷺ: «**لا يَمْنَعَنَّ أَحدُكُم جارَه أن يَضَعَ خشبةً في جدارِه**» متفقٌ عليه.

ختامًا عبدَ اللهِ.. قُلْ للذينَ أَعْرَضُوا عن الهُدَى فماتَبعُوا، وخُوِّفوُا يوم الرَّدَىٰ فما ارتَدَعُوا، وسَمِعُوا المواعِظَ فكأنَّهم ما سَمِعُوا، تَقَلَّبُوا كيفَ شِئْتُمْ وما شِئْتُمْ فاصْنَعُوا.

غدًا تُوَفَّىٰ النفوسُ ما كَسَبَتْ ويحصدُ الزارعُونَ ما زَرَعُوا
إن أحسَنُوا أحْسَنوا لأَنْفُسِهِمْ وإن أَسَاءُوا فبئسَ ما صَنَعُوا

للهِ دَرُّ أقوامٍ بادَرُوا الأَعمالَ واستَدْرَكُوها، وجاهدُوا النفوسَ حتى ملكُوها، وتأهّبُوا لسبل التوبةِ ثم سَلَكُوهَا، وعرفُوا عيوبَ العاجِلَةِ فتَرَكُوها.

يا صاح إن كنت لبيبًا حازما فكن لأسبابِ الهوَى مُراغِما
وإن أردْتَ أنْ تفوزَ في غدٍ فكن تقيًّا واهجرِ المحارِما
لا تهوَ دنياكَ فإنَّ حُبَّها رأسُ الخطايا يُكْسِبُ المآثما

اللهمَّ يَا كريمُ يا مَنَّانُ آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً، وقنا عذابَ النارِ ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[1].

اللهم إنا نعوذُ بك من علمٍ لا ينفعُ، وقلبٍ لا يَخْشَعُ، ونَفْسٍ

(١) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

لا تشْبعُ، ومِنْ دُعاءٍ لا يُسْمَعُ.

اللهم إنا نَسْأَلُك البرَّ والتُّقىَ، والهدَى والعفافَ والغِنىَ، واغفرْ اللهمَّ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ الأحياءِ منهم والميِّتينَ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمينَ.

وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِه أجمعينَ ومن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

---

(١) سورة الصافات، الآيتان: ١٨٠، ١٨١.

الباب الرابع عشر

حقيقةُ الدنيا وذمُ الاغترار بها والأمرُ بالاستعدادِ للدارِ الباقيةِ

الحمدُ لله الذي عرَّفَ أولياءَهُ غوائلَ الدنيا وآفاتِها وكَشَفَ لَهُم عن حقيقتِها وسَوْآتِها، فعلِمُوا أن كلَّ مَغْرورٍ بها إِلَى الذُّلِّ مَصيرُه، وإلى التَّحَسُّرِ مُنتهاهُ، وأدْرَكُوا أن صَفْوَها مَشُوبٌ بالأكدارِ، وصِحَّتَها تَسوقُ إلى الأسْقامِ، وشَبابَها يَنْعِقُ بالمشيبِ، وما وراءَهُ من أهوالٍ. وصلى الله على نَبِيِّنا محمدٍ الذي دلَّ الأمةَ على الاستعدادِ ليومِ المعادِ وعلى آله وأصحابِه إلى يومِ يقومُ الأشهادُ.

أما بعدُ:

فإنَّ الدُّنيا دارُ نفادٍ لا محلَّ إخْلادٍ، وَمَرْكبُ عُبُورٍ لا منزلَ حُبُورٍ، ومشرَعُ انفصَامٍ لا موطِنَ دوامٍ، جديدُها يَبْلَى، ومُلْكُها يَفْنَى، وعزيزُها يَذِلُّ، وكثيرُها يَقِلُّ، وحيُّها يموتُ، وخيرُها يفوت.

أحــلامُ نــومٍ أو كظــلٍ زائــلٍ   إن اللَّبيــبَ بمثِلهــا لا يُخْــدَعُ

فهي إذًا حياةٌ سريعةُ الفناءِ، قريبةُ الانقِضاءِ، تَعِدُ بالبقاءِ ثم تُخْلِفُ عندَ الوفاءِ، تَنْظُرُ إليها فتَتخَيَّلُها ساكنةً مستقرةً وهي تسيرُ سيرًا حثيثًا، وَتَطْوِي الأعمارَ طيًّا عَنيفًا، ولكنَّ الناظرَ إليهَا قَدْ لاَ يَسْتَشْعِرُ حركتَها فيطمئنُّ إليها، فتصرعُهُ أوثقَ ما كانَ منها.

قـد نـادتْ الـدنيـا علـى نفسِهـا   لو كان في ذا الخلقِ مَنْ يَسْمَعُ

كَــمْ واثــقٍ بــالعمــر أوثَقْتُــهُ   وجــامــعٍ بَــدّدتُ مــا يَجْمَــعُ

قال بعضُ الحكماء: الأيامُ سهامٌ والناسُ أهدافٌ والوقتُ يرميكَ كلَّ يوم بسهمٍ ويخرمُ بضعةً منكَ وأنتَ لا تشعُرُ. فما بقاءُ جسمِك مع نَبْلِ اللّيالي وسهامِ الأيامِ، ولو كُشِفَ لك الغطاءُ لكرِهتَ مَرَّ الساعاتِ التي تُسَرُّ بمرورِها، ولاستوْحَشْتَ من وقْعِ تلكَ السهامِ في جَسَدِك، ولكنّ السُلُوَّ عن غوائلِ الدنيا أوجدَ طَعْمَ لذَّاتِها وحجابَ الغرورِ أُسْدِلَ على ما يُزْعِجُ منها.

ومَنْ يَحمْدِ الدنيا لعيشٍ يسرُّه   فسوف لَعَمْرِي عن قليلٍ يلومُها

إذا أدْبَرَتْ كانتْ على المرءِ حسرةً   وإن أقبلتْ كانتْ كثيرًا همومُها

ولمّا عَلِمَ أهلُ الفضل والنُّهَىٰ أن اللهَ عزَّ وجلَّ قد أهانَ الدنيا ولم يرضَها جزاءً لأوليائِه وأنّها عندَه حقيرةٌ ذليلةٌ وأن رسولَ اللهِ ﷺ زَهِدَ فيها وحَذَّرَ أصحابَه من فِتْنتِهَا. أكلُوا منها قليلاً وقدَّمُوا كثيرًا، وأخذُوا منها ما يكْفِي وتركُوا ما يُلْهِي. لَبِسُوا من الثيابِ ما سَتَرَ العورةَ وأكَلُوا من الطعامِ ما سدَّ الجَوْعَة.

ونظروا إلى الدنيا بِعَينٍ فاحِصَةٍ فعلمُوا أنها فانيةٌ، وإلى الآخرةِ فعلموا أنها باقيةٌ فتزودوا من الدنيا كزادِ الراكبِ وما بَقِيَ عَمَرُوا به الآخرةَ. ثم تفكَّرُوا مَلِيًّا في أمرِ الآخرةِ فارتَحَلُوا إليها بِقُلوبِهِمْ قبلَ أن تَرْتَحِلَ إليها أبدانُهُم.

إن للهِ عِبّــــادًا فُطَنَــا   طلَّقُوا الدنيا وخَافُوا الفِتَنَا

نظَـروا فيهــا فلمــا عَلِمُــوا   أنهــا ليســتْ لِحَــيٍّ وَطَنَــا

جعلـــوهـــا لُجَّـــةً واتخَـــذُوا صـــالـحَ الأعمـالِ فيهـا سُفُنَـا

وبمثلِ هذا أوصَىٰ النبيُّ ﷺ عبدَالله بنَ عُمَرَ، رَضِيَ اللهُ عنهما فقال: «**كُنْ في الدنيا كأنكَ غريبٌ أو عَابرُ سبيلٍ**» أخرجه البخاريُّ.

فامتَثَلَ، رَضِيَ اللهُ عنهُ. هذه الوَصِيَّةَ قولاً وعملاً. فأمَّا في القَوْلِ فَقَدْ كانَ يقولُ: إذا أَمسيتَ فلا تَنْتَظِرِ الصباحَ وإذا أصبحتَ فلا تَنْتَظِرِ المساءَ، وخُذْ من صِحّتِكَ لمرضِك ومن حياتِك لموتِك.

وأما في الفعلِ: فقد كانَ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، على جانبٍ كبيرٍ من الزُّهدِ فيها والقناعةِ منها باليسيرِ الذي يُقِيمُ صُلْبَه وَيَسْتُرُ بَدَنَه وما سِوَىٰ ذلك يُقَدِّمُه لغدِه.

قال جابرُ بنُ عبدِالله، رَضِيَ اللهُ عنهما: ما أدْركْنَا أحدًا أو قال: ما رأَيْنَا أحدًا إلا قد مالتْ به الدنيا أو مالَ بها إلا عبدَالله بنَ عمرَ.

وقال حذيفةُ، رَضِيَ اللهُ عنهُ: ما منا أحدٌ يُفتِّش إلاَّ يُفتِّشُ عن جائفةٍ أو مُنَقّلةٍ إلا عمرُ وابنُه. وقالت عائشة، رضي الله عنها: ما رأيتُ أحدًا ألْزَمَ للأمرِ الأوَّلِ من ابنِ عمرَ.

قلتُ: وهذا القولُ منهم - رضي الله عنهم أجمعين - من بابِ التواضعِ ورؤيةِ الفضلِ لأهلِه وعدمِ رؤية المرءِ منهم لنفسه - مهما يكن لديهِ من زهدٍ وقناعةٍ ورغبةٍ في الدارِ الباقيةِ - وإلا فإن القومَ كانتْ تشمَلُهم صبغةُ الفضلِ الذي لا يُجارَىٰ وزكاءُ الصحبةِ الذي لا يُبَارَىٰ، قومٌ اختارَهُم اللهُ لصحبةِ نبيِّه وحفظِ دينه. وربُّك يخلقُ ما يشاءُ ويختارُ، أَبرُّ الأمةِ قُلوبًا، وأزكاها أعمالاً، وأصدقُها لَهْجَةً،

وأقلُّها تَكَلُّفًا، وأطيبُها مجالسَ. قومٌ لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ، ولا يُبغضُهم أو يَنْتَقِصُهم إلا مُنافقٌ. «**لو أنفقَ أحدُنا مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بَلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَه**»، رضيَ اللهُ عنهم أجمعينَ وجعَلَنَا من التابعينَ لهم بإحسانٍ. الذين قلتَ فيهم وقولُكَ الحقُّ المُبينُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1].

أيها المسلمونَ: بعثَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ، رضيَ اللهُ عنهُ. أبا الدرداءِ، رضيَ اللهُ عنه، إلى دمشقَ ليكونَ لهم مُعَلِّمًا ومُفَقِّهًا وإمَامًا في الصلاةِ. فلما بَلَغَها وجدَ الناس أُولِعُوا بالترفِ وانْغَمَسُوا في النَّعِيم فَهَالَهُ ذلِكَ ودعا الناسَ إلى المسجدِ فاجتمعُوا عليهِ فوقَفَ فيهِمْ وقالَ: يا أهلَ دِمَشْقَ أنتم الإخوانُ في الدين، والجيرانُ في الدارِ، والأنصارُ على الأعداءِ. يا أهلَ دمشقَ ما الذي يمنعُكُم من مودَّتِي والاستجابةِ لنَصيحَتِي. وأنا لا أبتَغِي منكُم شيئًا فنصيحَتِي لكم ومُؤنَتِي على غَيرِكُم. ما لي أَرَى عُلَماءَكم يَذهبُون وجُهَّالَكم لا يتعلمُون؟! وَأَرَاكُم قد أَقْبَلْتُم على ما تَكَفَّلَ لكم بِه اللهُ عزَّ وجلَّ، وتركتُم ما أُمِرْتُم به؟! ما لي أَرَاكُمْ تَجْمَعُون ما لا تَأْكُلُون، وتَبْنُونَ ما لا تَسْكُنُون، وتُؤَمِّلُون ما لا تَبْلُغُون! لقد جَمَعَتِ الأَقْوَامُ التي قبلكم وأَمَّلَتْ. فما هو إلا قليلٌ حتى أصبحَ جمعهم بورًا[2]، وأَمَلُهُمْ غرورًا، وبُيُوتُهم قُبورًا. هذه عادٌ - يا أهلَ دِمَشْقَ - قد

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٢) أي هالكين.

مَلأتِ الأرضَ مالاً وولدًا فمن يَشْتَرِي تركةَ عادٍ اليومَ بدرهمين؟

فجعلَ الناسُ يَبْكُون حتى سُمعَ نَشِيجُهُم مِنْ خَارج المسجدِ. ثم دارتِ الأيامُ بعدَ ذلك وقدمَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، على الشام متفقِّدًا أحوالَها فزارَ صاحبَه أبا الدرداءِ في منزلِهِ ليلاً فدفعَ البابَ فإذا هو بغيرِ غَلْقٍ ثم دخلَ في بيتٍ مُظْلمٍ لا ضوءَ فيه فلما سَمعَ أبو الدرداءِ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، حِسَّهُ قامَ إليهِ ورحَّبَ بهِ ثم جَلَسَ الرجلانِ يتفاوَضَانِ الأحاديثَ والظلامُ يحجُبُ كلًّا منهما عن عَيْنَيْ صاحبِهِ فجَسَّ عمرُ وسادَ أبي الدرداءِ فإذا هو بَرْذَعَةٌ وجَسَّ فراشَه فإذا هو حصًى وجسَّ دِثارَه فإذا هو كساءٌ رقيقٌ لا يفعلُ شيئًا في بَرْدِ الشامِ فقال له: رحمكَ الله، ألم أُوَسِّعْ عليكَ؟! ألم أبْعثْ إليكَ؟! فقالَ له أبو الدرداءِ: أتذكُرُ يا عمرُ حديثًا حَدَّثَنَاه رسولُ اللهِ ﷺ؟ قال: وما هو؟ قال: أَلَمْ يَقُلْ: «**لِيكُنْ بَلاَغُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ؟!**» فماذا فعلنا بعدهُ يا عمرُ؟

فبكى عمرُ وبكىٰ أبو الدرداءِ وما زَالاَ يَتَجَاوَبَانِ البكاءَ والنحيبَ حتى طَلَعَ عليهِمَا الفَجْرُ. ومضتِ الأيامُ قُدُمًا وتُوُفِّيَ أبو الدرداءِ، رضي اللهُ عنه - كما هو سبيلُ كلِّ حيٍّ - فرأى عوفُ بنُ مالكٍ الأشجعيُّ، رَضِيَ اللهُ عنهُ - رَأَى فيما يراهُ النائمُ - مَرْجًا أخضرَ فَسِيحَ الأرجاءِ وارفَ الأفياءِ فيه قُبّةٌ عظيمةٌ من أَدَمٍ حولَها غنمٌ رابضةٌ لم تَرَ العينُ مِثْلَها قَطُّ. فقال: لمنْ هذا؟ فقيل لهُ: لعبدِالرحمنِ بنِ عوفٍ. فبينَما هو يتأملُ في حُسْنِهِ وبهائِهِ إذْ طَلَعَ عليه عبدُالرحمنِ بنُ

عوفٍ من القُبَّةِ وقال يا ابنَ مالكٍ: هذا ما أعطانا اللهُ - عزَّ وجلَّ - بالقرآن، ولو أشرفْتَ على هذه الثَّنِيَّةِ لرأيتَ ما لَمْ ترَ عينُكَ وسمعتَ ما لَمْ تَسْمَعْ أُذُنُكَ وَوَجَدْتَ ما لَمْ يَخْطُرُ على قَلْبِك، أعدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لأبي الدرداءِ لأنه كانَ يدفعُ عنه الدنيا بالراحتينِ والصدرِ.

وصدقَ اللهُ العظيمُ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. وهل هذا إلا أثرٌ من آثار التربيةِ النبويةِ التي صَنَعَتْ فيهم سُلُوكًا لا نظيرَ له!!

عنْ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ، رَضِي اللهُ عنهُ، قال: نامَ رسولُ اللهِ ﷺ على حصيرٍ فقامَ وقد أَثَّرَ في جَنْبِهِ، قلنا: يا رسولَ اللهِ لو اتخذْنا لك وِطَاءً؟ فقال: «**ما لِي وَلِلدُّنْيا؟ مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**» رواه الترمذيُّ وصححه.

عبادَ اللهِ: إنَّ الزهدَ في الدنيا مطلوبٌ لِمَا يَبْعَثُهُ من التَفَرُّغِ للعملِ الصالحِ والاستعدادِ ليومِ المعادِ ومحاربةِ الغفلةِ التي أَوْثقُ أسبابِها التكاثرُ واتباعُ الشهواتِ والمتعِ الفانيةِ.

خَطَبَ حذيفةُ، رضي الله عنه، يومَ جُمعَةٍ في المدائنِ فقال: إن الله عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾[2] ألَا وإنَّ الساعةَ قد اقتربتْ، أَلَا وإن القمرَ قَدْ انشقَّ أَلَا وإن الدُّنْيا قد آذنَتْ بِفِرَاقٍ، أَلَا وإن اليومَ الضِمارُ وغدًا السباقُ، أَلَا وإن الغايةَ النارُ والسابقُ من سَبَقَ إلى الجنةِ.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) سورة القمر، الآية: ١.

فيا أيها العاجزُ المقصِّرُ في الأعمالِ، الغارقُ في لُجَجِ الآمالِ، المغترُّ بطولِ الإمهالِ، إن الأمرَ جدٌّ والخَطْبَ جَلَلٌ ولن ينفعَكَ - بعدَ رحمةِ اللهِ - إلا العملُ الصالحُ. فالبدارَ البدارَ إليهِ! فهو الذخيرةُ المأمولةُ والوسيلةُ المرجُوَّةُ وهو المؤنسُ في الوحشةِ والقرينُ في الخَلْوَةِ والصاحبُ حيثُ لا صاحبَ، ولا أهلَ ولا مالَ.

فاعملْ لنفسِكَ قبلَ الموتِ مجتهدًا فإنما الربحُ والخسرانُ في العملِ

جاء في الصحيحين عن أنس بن مالكٍ، رضي الله عنه، عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**يَتْبَعُ الميتَ ثلاثةٌ أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجعُ اثنانِ ويبقَى واحدٌ، يرجِعُ أهلُه ومالُه ويبقى عملُه**».

تأمَّلْ أخي المسلمَ هذا الحديثَ وما تَضَمَّنَهُ من مَثَلٍ عظيمٍ يصوِّرُ لكَ المصيرَ الذي ينتظرُك ويعكسُ مآلَكَ المحتَّمَ وموقفِكَ الحَرِجَ حينمَا تَلْتَمِسُ الرفيقَ وليسَ ثَمَّ هُو.

فرحمَ اللهُ أمرءًا أخذَ من نفسِه لنفسِه، وأعدَّ العُدةَ لأوانِ رمسِه، وتأهَّبَ للرحيلِ قبلَ غروبِ شمسِه فما الحياةُ إلا كانَ ثُمَّ بانَ.

فلستَ تسمعُ إلا كانَ ثُمَّ مضى ويَلْحَقُ الآخرُ الباقي كما غَبَرُوا
والناسُ في سَكْرةٍ منْ خمرِ جَهْلِهِمُ والصَّحْوُ في عَسْكَرِ الأمواتِ لو شَعَرُوا

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(١).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

قالَ الحسنُ البصريُّ رحمه الله: «لم يزلِ الليلُ والنهارُ سريعين في نقصِ الأعمارِ وتقريبِ الآجالِ هيهاتَ قد صَحِبَا نوحًا وعادًا وثمودَ وقرونًا بين ذلك كثيرًا فأصبحُوا وقد قَدِمُوا على ربِّهم وَوَرَدُوا على أعمالِهم، وأصبحَ الليلُ والنهارُ غَضَّيْنِ جديدَيْنِ لم يُبْلِهِمَا ما مَرَّا به مستعدَّيْنِ لِمَنْ بَقِيَ بمثْلِ ما أصَابا به من مَضَى».

قال الشاعر:

أَيْنَ أهلُ الديارِ من قومِ نوحٍ ... ثم عادٌ من بعدِهم وثمودُ

بينمَا القومُ في النَّمارقِ والإستبـ ... رقِ أَفْضَتْ إلى التُّرابِ الخدودُ

كم صحيحٍ أضحَى يعودُ مريضًا ... وهو أَدْنَى للموتِ مِمَّنْ يَعُودُ

قالَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: «أَلَا إن الدّنيا بقاؤُها قليلٌ وعزيزُها ذليلٌ، وغنيُّها فقيرٌ. وشابُّها يهرمُ، وحَيُّها يموتُ، فلا يَغُرَّنَّكُم إقبالُها مع معرفتِكم بسرعةِ إدبارِها، فالمغرورُ من اغترَّ بِها.

أين سكَّانُها الذين بنوا مدائِنَها، وشَقُّوا أنهارَهَا، وغرسُوا أشجارَهَا، وأقاموا فيها أيامًا يسيرة غرَّتْهم بِصِحَّتِهِمْ فاغْتَرُّوا بنشَاطِهِمْ فَرَكِبُوا المعاصِي، ماذَا صنع الترَابُ بأبدانِهم والرَّملُ بأجسادِهمْ والدِّيدانُ بعظامِهم وأوصالِهم، فإذا مررتَ بهم فنادِهم إن كنتَ منَاديًا، وَمُرَّ بعسْكَرِهِمْ وانظُرْ إلى تقارُبِ منازِلِهم، واسألْ غنيَّهم ما بَقِيَ من غِناهُ واسألْ فقيرَهم ما بَقِيَ من فقرِه، واسأَلْهم عن الأَلْسُنِ التي كانوا بها يتكلمُون، وعن الأعينِ التي كانوا بها ينظُرونَ، واسأَلْهم عن الجلودِ الرقيقةِ والوجوه الحسنةِ والأجسادِ

الناعمةِ ما صنعَ بها الديدانُ.

أَلَيسُوا في منازلِ الخلواتِ والفلواتِ؟ أليسَ الليلُ والنهارُ عليهم سواءً؟، أليسُوا في مُدْلَهِمَّةٍ ظلماءَ، وقد حيلَ بينهَم وبين العملِ وفارَقُوا الأحبةَ: فكَمْ من ناعمٍ وناعمةٍ أصبَحتْ وجُوهُهُم باليةً وأجسادُهم من أعناقِهم نائيةً، وأوصالُهم متمزقةً، وقد سالَتْ الحَدَقَاتُ على الوَجَنَاتِ وامتلأتِ الأَفْواهُ دمًا وصديدًا، ودبّتْ دَوابُّ الأرضِ في أجسادِهم ففرّقتْ أعضاءَهم، ثمَّ لَمْ يلبَثُوا واللهِ إلا يسيرًا حتى عادتِ العظامُ رميمًا، قد فارَقُوا الحدائقَ وصارُوا بعدَ السَّعَةِ إلى المضَايقِ، وقد تزوجَتْ نساؤُهم وتردَّدَتْ في الطريقِ أبناؤُهم، وتَوَزَّعَتْ الورثةُ ديارَهم وتراثَهُم، فمنهم الموسَّعُ له في قبرِه الغضُّ الناضرُ فيه المتنعمُ بَلَذَّته.

يا ساكنَ القبرِ غدًا ما الذي غرَّكَ من الدنيا؟ هل تعلمُ أنكَ تَبقى أو تَبْقَى لك؟

يا مُغْمِضَ الوالدِ والأخِ والولدِ وغاسلَه. يا مُكفِّنَ الميِّتِ وحاملَه يا مُخَلِّيَهُ في القبرِ وراجعًا عنه، ليتَ شعرِي كيفَ كنُتَ على خُشُونَةِ الثرَّىَ. ليتَ شعرِي بأيِّ خَدَّيْك يبدأُ البِلَى وأيُّ عَيْنَيْكَ سالَتْ أَوَّلاً. يا مجاور الهَلْكَىصِرْتَ في محلِّ المَوْتَى. ليتَ شعرِي ما الذي يَلْقَانِي به مَلَكُ الموتِ عندَ خروجِي من الدنيا، وما يأتِينِي به مِن رِسالةِ رَبِّي»[١].

---

(١) حلية الأولياء، جـ ٥ ص ٢٦١ - ٢٦٣.

تزودْ من الدنيا فإنك لا تدرِي ... إذا جَنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجرِ
فكم من عَرُوس زَيَّنُوها لزوجِها ... وقد أُخِذَتْ أرواحُهم ليلةَ القَدْرِ
وكم من صِغَارٍ يُرتجَى طولُ عُمْرِهِم ... وقد أُدْخِلَتْ أرواحهم ظلمةَ القبرِ
وكم من سليمٍ ماتَ من غيرِ علةٍ ... وكم من سقيم عاشَ حينًا من الدهرِ
وكم من فتىً يُمسِي ويُصبحُ لاهيًا ... وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يدرِي
وكم ساكنٍ عندَ الصباحِ بقصرِهِ ... وعندَ المسا قد كانَ من ساكنِ القبرِ
فكن مُخْلصًا واعمل من الخيرِ دائمًا ... لعلَّكَ تَحْظَى بالمَثُوبَةِ والأَجْرِ
ودَاوِمْ على تَقْوَىٰ الإلٰهِ فإنها ... أمانٌ من الأهوالِ في موقفِ الحشرِ

إن الأمر جِدٌّ عظيمٌ - يا عبادَ اللهِ - يحتاجُ منَّا لعُدةٍ واستعدادٍ ويقظةٍ مستمرةٍ.

عن البراءِ بنِ عازبٍ، رضي اللهُ عنه، قال: بينما نحنُ مع رسولِ اللهِ ﷺ إذْ بَصَرَ بجَمَاعةٍ فقالَ: **علامَ اجتمعَ عليهِ هؤلاءِ؟**، قيلَ على قبرٍ يَحْفِرُونَه. قال: فَفَزِع رسولُ اللهُ ﷺ فبدُرَ بينَ يَديْ أصحابهِ مسرعًا حتى انتهى إلى القبرِ فجثا عليه، قال فاستقبلتُه من بينِ يديه لأنظُرَ ما يصنعُ؟ فبكى حتى بَلَّ الثرَى من دموعِه، ثم أَقْبَلَ علينا قال: «**أَيْ إِخْوَانِي لِمِثْلِ الْيَومِ فَأَعِدُّوا**» رواه أحمدُ وابن ماجه وحَسَّنه الألباني.

أَيُّها الأحبابُ اعلَمُوا أن الاستعدادَ للموتِ لا يكونُ بالآمالِ العريضةِ، والتسويفاتِ المتتابعةِ والأمانيِّ المَعْسُولةِ، فهذه بضاعةٌ

---

(١) أحمد (٤/ ٢٩٤) وابن ماجه (٤١٩٥) وحسنه الألباني (الصحيحة ١٧٥١).

كاسِدَةٌ وسرابٌ خادعٌ وهي رأسُ مالِ المفلسينَ.

قال الحسنُ البصريُّ رحمهُ اللهُ: «إن أقوامًا أَلْهَتْهُمْ أمانِيُّ المغفِرَةِ حتى خرجُوا من الدنيا بغيرِ توبةٍ. يقولُ أحدُهم لأني أُحْسِنُ الظنَّ برَبِّي، وكذبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسنَ العملَ».

قال بلالُ بنُ سعدٍ رحمهُ اللهُ: «يقالُ لأَحَدِنا تحبُّ أن تموتَ؟ فيقول: لا. فُيقال له ولِمَ؟ فيقولُ حتى أعملَ. فيقال له: اعمَلْ فيقول: سوفَ أعملُ فلا يحبُّ أن يموتَ، ولا يحبُّ أن يعملَ. وأحبُّ شيءٍ إليه أن يؤخِّرَ عملَ اللهِ، ولا يحبُّ أن يؤخِّرَ اللهُ عنه عَرَضَ الدنيا».

فالاستعدادُ للموتِ لا يكونُ إلا بالنصيحةِ والجهادِ وحفظِ الأنفاسِ والأوقَاتِ بالأعمالِ الصالحةِ وسائرِ الطاعاتِ، فهذا هو الزادُ ليومِ المعادِ وهو الذي يَدْخُلُ مع الإنسانِ في قبرِه حين يُحْثَىٰ عليهِ الترابُ ويفارقُ الأهلَ والأحبابَ.

وقالَ تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

وجاءَ في صحيح البخاريِّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ، رضي اللهُ عنه، قال: «ارتحلتِ الدنيا مُدْبِرةً وارتحلتِ الآخرةُ مقبلةً، ولكلِّ واحدةٍ منهُما بنونَ فكونوا من أبناءِ الآخرةِ، ولا تكونوا من أبناءِ الدنيا، فإن اليومَ عملٌ ولا حسابٌ وغدًا حسابٌ ولا عملٌ».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

وكان عليٌّ، رضي اللهُ عنه، يشتدُّ خوفُه من اثنينِ: طولِ الأملِ، واتِّباعِ الهوى، قال: «فأما طولُ الأملِ فيُنْسِي الآخرةَ وأما اتباعُ الهوى فيصُدُّ عن الحقِّ».

ولـو أنّـا إذا مِتْنَـا تُـركْنـا لكـانَ المـوتُ راحـةَ كـلِّ حَيٍّ
ولكنـا إذا مِتْنَـا بُعِثْنَـا ونُسـألُ بعـدَهُ عـن كـلِّ شـيءٍ

فَقَصِّـرُوا - يـا عبـادَ اللهِ - الآمـالَ وأَصْلِحُـوا الأعمـال وجَـدِّدُوا التوبةَ، وبادرُوا بها قبلَ أن يُفاجِئَكُم الأجلُ، وتَنْتَقِلُوا إلى ما قدَّمْتُم من عملٍ ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

قال الشاعر:

قـدِّم لنفسـكِ تـوبـةً مـرجـوةً قبلَ المماتِ وقبلَ حبسِ الألسنِ
بـادِرْ بِهَـا غلـقَ النفـوسِ فـإنَّهـا ذُخْـرٌ وَغُنْـمٌ للمُنيـبِ المحسـنِ

وتخلّصْ أخي المسلمَ من حقوقِ الآخرينَ ومظالمِهم وتجردْ منها فإن الناسَ يُريدونَ حقوقَهم يومَ القيامةِ.

عن أبي هريرةَ، رضي اللهُ عنه، قالَ: قال: رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ منْهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»** رواه البخاريّ[2].

ولا تَنْسَ أخي المسلمَ أن تُصَوِّر نَفسَك دائمًا أنّكَ في ساعةِ

(١) سورة النور، الآية: ٣١.
(٢) البخاري: ٥/ ١٠١.

الاحتضارِ ثم تنظرُ ماذا قدّمتَ لنفسك من الأعمالِ الصَالحةِ، وماذا خَلّفتَ من الآثارِ النافعةِ التي تَدُرُّ عليكَ - بإذنِ اللهِ - حسناتٍ بعدَ المماتِ فإن هذا من أسبابِ إتقانِ العملِ والزهدِ في الدنيا، وإياكَ والغفلةَ فإنها هَلَكَةٌ.

كان مكحولُ الدِمَشْقيُّ إذا رأى جَنَازَةً قالَ: «اغدُوا فإنا رائِحُون، موعظةٌ بليغةٌ وغفلةٌ سريعةٌ، يذهبُ الأولُ والآخرُ لا عقلَ له».

ولقد زَهِدَ سلفُنا الصالحُ من الصحابةِ والتابعينَ في الدنيا واستعدُّوا للموتِ وما بعدَه، فراقَبُوا اللهَ واتَّقَوْه حقَّ تقواه وخافُوا ألاَّ تُقْبَلَ أعمالهُم كما اشتدَّ خوْفُهم من ذنوبِهم رَغْمَ صلاحِ أحوالِهم وقوةِ إيمانِهم، ولكنْ من كانَ باللهِ أَعْرفَ كانَ منه أخوفَ.

لما طُعِنَ عمرُ بنُ الخطابِ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، وجاء الناسُ يُثْنُونَ عليه، جاءَ رجلٌ شابٌ فقال: «أبشِرْ يا أميرَ المؤمنين بِبُشْرَى من اللهِ؛ لكَ صُحْبَةٌ مِن رسولِ اللهِ ﷺ وقِدمٌ في الإِسلامِ ما قد عَلِمْتَ ثم وُلِّيتَ فَعَدَلْتَ، ثم شهادةٌ». فقال: «وددتُ أن ذلكِ كانَ كَفافًا لا لِيَ ولا عَليَّ».

وفي أفرادِ مسلم من حديث المِسْوَر بنِ مِخْرَمةَ أن عُمَرَ قال: «واللهِ لو أنّ لي طِلاعَ الأرضِ ذَهَبًا لافتديتُ به من عذَابِ اللهِ قبلَ أن أراه».

ورُوِي أن مُعاذَ بنَ جبلٍ لما حَضَرَتْهُ الوفاةُ قال: «انظروا هل أصْبَحْنَا؟ فقيل له: لقد أصبَحْنا. فقال: أعوذُ باللهِ من ليلةٍ صباحُها إلى النارِ ثم قال: اللهم إنكَ تعلمُ أنّي لم أَكُنْ أُحبُّ الدنيا وطولَ البقاءِ فيها لِكَرْيِ الأنهارِ، - أيْ: حَفْرُها - ولا لِغَرْسِ الأشْجارِ،

ولكنْ لطولِ ظمأٍ الهواجرِ، وقيامِ الليلِ وُمكابدِة الساعاتِ، ومزاحمةِ العلماءِ، بالرُّكَبِ عند حِلَقِ الذِّكْرِ».

وقال أبو الدرداءِ، رضي الله عنه: «إن أشدَّ ما أخافُ على نفسي يومَ القيامةِ أن يقالَ لي: يا أبا الدرداءِ قد عَلِمْتَ فكيفَ عملت فيما عَلِمْتَ؟». وكان يقولُ: «لو تعلمونَ ما أنتم لاقونَ بعد الموتِ لما أكلتُم طعامًا على شهوةٍ، ولا شربتُم شرابًا على شهوةٍ ولا دخلتُم بيتًا تستظلونَ فيه، ولخرجتمُ إلى الصعيدِ تضربُون صدورَكُم وتبكونُ على أنفسِكُم، ولودِدْتُ أنِّي شجرةٌ تُعْضَدُ ثم تُؤْكَلُ».

قالت امرأة عُمَرَ بنِ عبدِالعزيزِ فاطمةُ بنتُ عبدِالملكِ: «ما رأيتُ أحدًا أكثرَ صلاةً وصيامًا منه ولا أحدًا أشدَّ فَرَقًا من ربِّه منه، كان يصلي العشاءَ ثم يجلسُ يبكي حتى تغلبَه عيناه، ثم يَنْتَبِهُ فلا يزالُ يبكي حتى تغلِبَه عيناه. قالت: ولقد كان يكونُ معي في الفراشِ فيذكُر الشيءَ من أمرِ الآخرة فيَنْتَفِضُ كما يَنْتَفِضُ العصفورُ في الماءِ، ويجلسُ يبكي فأطرحُ عليه اللحافَ رحمةً له وَأَنَا أقولُ يا ليت كان بيَنَنا وبين الخلافةِ بُعدَ المشرقين فواللهِ ما رأينا سرورًا منذ دخَلْنَا فيها»[1].

ولقد كان سلفُنا الصالحُ يخافُون أشدَّ الخوفِ من سوءِ الخاتمةِ فيدفَعُهم ذلك لإصلاحِ أحوالِهم وإِتْقَان أَعمالِهم مَعَ ما هُمْ عليه من الصلاحِ والتقوىٰ، فينبغي أن يكونَ لنا فيهم أَسوةٌ.

---

(١) البداية والنهاية للحافظ ابن كثير (١٠/ ٢٠٤).

وإذا كان كلُّ إنسانٍ يحبُّ حُسْنَ الخاتمةِ فَلْيَطْلُبْهَا بإصلاحِ قلبِهِ وعمارتِهِ بالإيمانِ والتقوى فإن ذلك من أعظمِ أَسْبَابِهَا .

قال القرطبيُّ رحمه الله : «قال أبو محمدٍ عبدُالحقِّ : اعلم أن سوءَ الخاتمةِ - أعاذَنَا اللهُ منها - لا تكونُ لمن استقامَ ظاهرُه وصَلَحَ باطِنُه ما سُمعَ بهذا ولا عُلِمَ به - والحمدُ لله .

وإنما تكونُ لمن كانَ له فسادٌ في العقلِ أو إصرارٌ على الكبائرِ وإقدامٌ على العظائم ، فَرُبَّما غَلبَ ذلكَ عليهِ حتَّى ينزلَ به الموتُ قبلَ التوبةِ فَيَصْطَلِمُهُ الشيطانُ عندَ تلك الصَّدفةِ ويختطفُه عن تلك الدَّهْشَةِ ، والعياذُ باللهِ ، ثم العياذُ باللهِ ، أو يكونُ مِمَّن كانَ مستقيمًا ثم يتغيرُ عن حالِهِ ، ويخرجُ عن سُنَّتِهِ ويأخُذُ في طريقِهِ فيكونُ ذلك سببًا لسوءِ خاتمتِه وشؤمِ عاقبتِه»[1] .

وعندَ ذكرِ الموتِ - يا عبادَ اللهِ - يجبُ أن نَحْذَرَ موتَ القلوبِ ومَرَضَهَا فإنه هلاكٌ محقَّقٌ وخسارةٌ في الدنيا والآخرةِ .

فالمؤمنُ إذا ماتَ بخروجِ رُوحِه استراحَ من نَصَبِ الدنيا بخلافِ الكافرِ كما في الحديثِ الصحيحِ عن أبي قتادةَ رضي الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عليه بجنازةٍ فقالَ : «**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ**، قالوا : يا رسولَ الله ما المستريحُ؟ وما المستراحُ منه؟ فقال : **الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلى رحمة الله عزَّ وجلَّ، والْعَبْدُ**

(١) التذكرة : ص (٥٣) .

الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالْبِلَادُ والشَّجَرُ والدَّوَابُّ» رواهُ البخاريُّ ومسلم[1].

وأما من ماتَ قلبهُ فإنه يخسرُ نفسَه في الدارَيْنِ، وينالُ الشقاءَ فيهما إذا لم يتبْ ويرجِعْ إلى ربِّهِ. وكم من إنسانٍ ماتَ قلْبهُ وهو لا يشعرُ فصارَ بدنهُ كفنًا لقَلْبه وقبرًا.

وفي الموتِ قبلَ الموتِ موتٌ لأَهلِهِ وأَجْسَامُهمْ قبلَ القُبُورِ قُبُورُ

وبالمقابلِ كم من إنسانٍ ماتَ منذ قرونٍ ولكنه حيٌّ يعيشُ بين الأحياءِ، بما خَلَّفَهُ من علمٍ نافعٍ وأثرٍ طيِّبٍ.

فذِكْرُه يُذَكِّرُ باللهِ وبالطاعةِ والعلم والجهادِ. فهذا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ وتلميذُه ابنُ القيِّم والمُجَدِّدُ محمدُ بنُ عبدِالوهابِ وغيرُهم من العلماءِ، والمصلحينَ يعيشونَ بينَنَا وكأنَّهم أحياءُ، وذكرُهم يُنْعِشُ القلوبَ ويُقَوِّي العَزَائمَ ويُعَطِّرُ المجالسَ.

قال بعضُ السلفِ: شَتَّانَ بين أقوامٍ موتى تحيا القلوبُ بذكرِهم، وبين أقوامٍ أحياءَ تموتُ القلوبُ بمخالَطَتِهم.

اللهم اهدِ قلوبَنا واغفر ذنوبَنا واختم بالصالحاتِ أعْمَالَنَا وارفع في الآخرة منازلَنا.

اللهم توفَّنا مسلمينَ وألحِقْنا بالصالحينَ، واغفر لنا ولوالدينا وجميعِ أموات المسلمين، وصلى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِه وسلم.

---

(١) البخاري: الرقاق ج ١١ ص ٣٦٢، مسلم: جنائز، ج ٩٥٠.

الباب الخامس عشر

أَمْرُ المسلم بغضِّ بصره
وأَمْرُ المسلمةِ باللباسِ الشَّرْعِيّ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ الرحمنِ الرحيم، مالكِ يومِ الدينِ خَلَقَ آدمَ من طينٍ وجَعَلَ نسلَه من ماءٍ مهينٍ، أحمدُه سبحانَه وهو للحمدِ أهلٌ، وأشكرُه على ما أولى من النعم العظيمةِ والآلاءِ الجسيمةِ، وأسألهُ أن يجعلَنا جميعًا من عبادِه المتقينَ الذينَ لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ رحمةً للعالمينَ صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعينَ، ومن اقتفى أَثَرَهُمُ واهتدى بهداهُم إلى يومِ الدينِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

عبادَ اللهِ: إن الإِسلامَ حَرِصَ على وقايةِ المجتمعِ المُسْلِم من كلِّ شَرٍ ومنْ كلِّ أسبابِ الإِغراءِ والغِوايةِ، ومَنَعَ المؤثِّراتِ التي تُهَيِّجُ الشهوةَ للفسادِ، وأَبْعَدَ كلَّ عواملِ الفتنةِ، وأخذَ الطريقَ على أسبابِ التهييج والإِثارة ومن ذلك غضُّ البَصَرِ، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾[1]. قال النَّسَفِيُّ - رحمه اللهُ -: «وإنما قدّمَ غضَّ الأبصارِ على حفظِ الفروجِ؛ لأن النظرَ بريدُ الزنا ورائدُ الفجورِ فبَذْرُ الهوى طموحُ

(١) سورة النور، الآيتان: ٣٠-٣١.

العينِ، وهذه الآياتُ أَمْرٌ من اللهِ لعبادِه المؤمنين والمؤمناتِ أن يَغُضُّوا أبصارَهم عن الحرامِ فإن اتفقَ أَنْ وَقَعَ نَظَرُ المسلمِ على محرَّمٍ من غيرِ قصدٍ فَلْيَصْرِف بصرَهُ سريعًا لحديثِ جريرِ بنِ عبدِالله البَجلي - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قال: سألتُ النبيَّ ﷺ عن نَظْرَةِ الفَجْأَةِ فأمرني أن أصرِفَ بَصَرِي. رواه مسلمٌ. ولحديثِ عبدِاللهِ بنِ برُيدةَ عن أبيه قالَ: قال: رسولُ الله ﷺ لِعَليٍّ: «**يا عليُّ لا تُتْبعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فإن لك الأولى وليسَ لك الآخِرَةُ**». رواه الترمذيُّ وأبو داود وأحمدُ والحاكم وصححه ووافق الذهبي. والمقصودُ بالأُولَى التي وَقعَتْ من غيرِ قصدٍ، ويجبُ عليه أن يَصْرِفَ بَصَرَهُ سريعًا عَنْ هَذَا الحرامِ وَإِلَّا أَثِمَ.

عبادَ اللهِ: تجنَّبُوا مواطنَ الفتَن ولا تَذْهَبُوا إلى الأَمكنةِ التي تُرَىٰ فيها النساءُ المتبرجاتُ إلا إِنْ كُنتُم ذَاهبينِ لِلأَمْرِ بالمعرُوفِ والنَّهيِ عن الْمنكرِ، فَعَنْ أبي سعيدٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إيَّاكُم والجلوسَ في الطُّرقات**» فقالوا: يا رسولَ اللهِ ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدثُ فيها، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**فإذا أبَيْتُمْ إلا المجلسَ فأَعطُو الطريقَ حقَّه**». قالوا: وما حقُّ الطريقِ يا رسولَ الله؟ قالَ: «**غضُّ البصرِ، وكفُّ الأذى، وردّ السلامِ، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ**». رواه البخاري ومسلم.

ولما كان النظرُ داعياً إلى فسادِ القلبِ كما قال بعضُ السلفِ: «النظرُ سهمُ سُمٍّ إلى القلبِ» أمرَ اللهُ بحفظِه كما أمر بحفظِ الفرج

وما انْتُهِكَتْ الفروجُ إلا بعدَ النظرِ الحرامِ. فاتقِ اللهَ يا عبدَاللهِ واحفظْ بصرَكَ يورِثْكَ اللهُ نورًا في بصيرتِك، وقد وَرَدَ في الأثرِ: «إن النظرَ سهمٌ من سهام إبليسَ مسمومٌ مَنْ تركَهُ من مخافةِ اللهِ أبدلَهُ إيمانًا يجدُ حلاوتَه في قلبِه». والمعنى أن النظرَ يفعلُ في القلبِ مثلَ ما يفعلُ السهمُ في الرَّمِيَّةِ، إن لم يقتُلْ جَرَحَ، وهو ليسَ سهمًا عادِيًا، بل إنه سهمٌ مسمومٌ، والسهمُ المسمومُ قد يُرى في العينِ بسيطًا ولكنه يسرِي في الجسمِ بِسُمِّهِ فيهلكُ صَاحِبَهُ، وكذلك النظرُ هو بمنزلةِ الشرارةِ من النارِ تَرُمَّى في الحطبِ اليابسِ فإن لم تَحْرِقْهُ كلَّه أحرقَتْ بعضَه، وكما قيل:

كلُّ الحوادثِ مبْداها من النَّظَرِ ... ومُعْظَمُ النارِ من مُسْتَصْغَرِ الشررِ
كم نظرةٍ فتكتْ في قلبِ صاحبِها ... فَتكَ السهامِ بلا قوس ولا وَتَرِ
والمرءُ ما دامَ ذا عينٍ يقلِّبُها ... في أعينِ الغِيدِ موقوفٌ على خَطَرِ
يَسُرُّ مقلتَه ما ضَرَّ مُهْجَتَهُ ... لا مَرْحبًا بسرورٍ عادَ بالضررِ

قالَ خالدُ بنُ أبي عِمرانَ: لا تُتْبِعِ النظرَةَ النظرَةَ فُرُبَّما نظرَ العبدُ نظرةً نُغِلَ منها قلبُه (أي فَسَد).

عبدَاللهِ: ضعْ أمامَك هذه الآية: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾[1]. واعلمْ أنّ لِتَرْكِ المعاصي طاعةً للهِ حلاوةً ولذةً يجدُها المؤمنُ هي أحلى وأطيبُ مما صَرَفَ بصرَه عَنْهُ، فإنّ مَنْ تركَ شيئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ خيرًا منه، والنفسُ مُولَعةٌ بحبِّ النظرِ إلى الصورِ

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٩.

الجميلةِ والعينُ رائدُ القلبِ فيبعثُ رائدَه لنظرِ ما هنالِك فإذا أخبرَه بحُسْنِ المنظورِ إليه وجمالِه تحركَ اشتياقًا إليه وكثيرًا ما يُتْعِب رسولَه ورائدَه فإذا كفَّ الرائدُ عن الكَشْفِ والمطالَعة استراحَ القلبُ من كَلَفَةِ الطلبِ والإرادةِ فمن أطلقَ نظراتِه دامتْ حسراتُه ووقَع في الأسرِ فصارَ أسيرًا بعدَ أن كانَ مَلِكًا، ومسجونًا بعد أن كانَ مُطْلَقًا، يَتَظَلَّمُ من الطَّرْفِ وَيْشكُوه والطَّرْفُ يقول: أنا رائدُك ورسولُك وأنتَ بَعَثْتَنِي.

فاتقوا اللهِ عبادَ اللهِ وتوبُوا إلى ربِّكم واعزِمُوا عزيمةً صادقةً في هذا الشهرِ الكريمِ أَلاَّ تَنْظُرُوا إلى الحرامِ حتى المماتِ، وأن تُعِينُوا أبناءَكم وبناتكم على ذَلكَ بإزالة أسبابِ الغِوايةِ وآلاتِ اللهو من بيوتِكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[1].

وَبِغَضِّ البصرِ نورُ القلبِ وصحةُ الفِراسةِ.

قال أبو شجاعٍ الكرمانيُّ: «من عمّرَ ظاهرَه باتباعِ السُّنَّةِ وباطِنَه بدوامِ المُراقَبَةِ، وكفَّ نفسَه عن الشهواتِ، وغضَّ بصرَه عن المحارمِ، واعتادَ أكلَ الحلالِ لم تخطىءْ له فِراسةٌ».

وسِرُّ هذا: أن الجزاءَ من جنسِ العملِ، فمن غضَّ بصرَه عما حرّمَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - عليهِ عوّضَه اللهُ تعالى من جِنْسِهِ ما هو خيرٌ منه فكما أمسكَ نورَ بصرِه عن المحرماتِ أطلقَ اللهُ نورَ بصيرتِه وقلبِه فرأى به

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

ما لم يَرَهُ من أطلقَ بصرَه في محارمِ اللهِ، وهذا أمرٌ يُحِسُّهُ الإنسانُ من نفسِه فإن القَلْبَ كالمرآةِ، والهوى كالصَّدَإِ فيها فإذا خَلَصَتِ المرآةُ من الصَّدَأ انطبعَتْ فيها صورُ الحقائقِ كما هي، وإذا صَدَأَتْ لم تَنْطَبِعْ فيها صورُ المعلوماتِ فيكونُ علمُه وكلامُه من بَابِ الخوضِ والظنونِ.

وبطاعةِ اللهِ يكسَبُ المسلمُ قوةَ القلبِ وشجاعتَه وثباتَه، كما في الأثرِ أن الذي يخالفُ هواه يفرَقُ الشيطانُ من ظِلِّهِ، ولهذا يوجَدُ في المتَّبِعِ هواه من ذُلِّ النفسِ، وضعفِها ومهانتِها ما جعلَه اللهُ لِمَنْ عَصَاهُ، فإنَّهُ - سبحانه - جعل العزةَ لمن أطاعَه والذُّل لمن عصاه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]. وقال أحدُ السَّلفِ: «الناسُ يطلبُون العِزَّ بأبوابِ الملوكِ ولا يجدونَه إلا في طاعةِ اللهِ»[2].

عبادَ اللهِ: لقد أمرَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ بغَضِّ الأبصارِ وحِفظ الفروجِ دفعًا للفتنةِ، وحرصًا على بقاءِ المجتمعِ الإسلاميِّ بعيدًا عن الفاحشةِ.

ولا شكَّ أن هذا يحتاجُ إلى تعاونِ الرجلِ والمرأةِ، فالمرأةُ مطلوبٌ منها أن تَتَّقِيَ اللهَ في نفسِها، وتحافِظَ على لباسِها الشرعيِّ، وتَحْذَرَ من التبرجِ للرجالِ وفتنتِهِم بها، والرجلُ عليه أن يُعينَ المرأة في الحفاظِ على هذا اللباسِ، ويُبَيِّنَ لها حكمَ اللهِ إذا رأى منها ما يخالفُ ذلك.

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ٨.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان لابن القيم.

قالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾[١].

عبادَ اللهِ: أَتَدْرونَ ما هو الجِلْبَابُ؟ إنه الثوبُ الواسعُ أو الخمارُ، أو الرداءُ، والمعنى: يُرخِينَ جانبًا من خُمُرِهِنَّ أو ثِيَابِهِنَّ على أنفسِهن، ومن مصالحِ هذا اللباس - كما ذكرَتِ الآيةُ - أَنَّ المسلماتِ إذا خرجْنَ من بيوتِهن متستراتٍ على هذا النحوِ عَلِمَ أهلُ الرَّيْبَةِ والفسادِ أنهن شريفاتٌ فلم يتعرضْ لهن أحدٌ.

فإذا عُلِمَ هذا فينبغي على المرأةِ أن يكونَ لباسُها شرعيًّا، واللباسُ الشرعيُّ هو ما تتوفرُ فيه عِدَّةٌ من الشروطِ منها:

١ - استيعابُ اللباس لجميعِ البدنِ.

٢ - أَلَّا يكونَ زينةً في نفسِه فيجلبَ انتباهَ الناسِ إليها ويدعُو إلى إيذائِها وفتنةِ الناسِ بها، وذلك نوعٌ من التبرجِ الذي نَهَىٰ عنه الإسلامُ بقولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾[٢]. وقالَ ﷺ مُحَذِّرًا: «**ثَلَاثَةٌ لَا تسْأَلُ عنهم. فذكر منهم امرأةٌ غابَ عنها زوجُها قد كَفَاهَا مؤونَةَ الدُّنيا فتبرَّجَتْ بعدَه**»[٣]. رواه أحمد والحاكم وقال صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي وحسنه ابن عامر.

٣ - أَلَّا يكونَ رقيقًا يشِفُّ عورتَها، وفي هذا يقولُ المصطفى ﷺ: «**سيكونُ في آخرِ أُمتي نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ على رؤسِهِنَّ**

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.

(٣) أهم قضايا المرأة ص ٤٩

كأَسْنِمَةِ البُخْتِ، الْعَنُوهُنّ فإنهن ملعُوناتٌ». أخرجه مسلمٌ.

أتدرُونَ ما اللَّعْنُ؟ إنه الطَّرْدُ والإبعَادُ مِنْ رَحمَةِ الله. فهل ترغب المسلمة أن تكون كذلك؟!

وللمرأةِ المسلمةِ بأسماءَ بنتِ أبي بكر - رضيَ اللهُ عنهما - قدوةٌ، وقد أرسلَ إليها المنذرُ بنُ الزبيرِ بكسوةٍ من العراقِ كانت رقيقةً وعتيقةً، وكانت أسماءُ قد كُفَّ بصرُها، فَلمَسَتْها بيدِها ثم قالت: أفٍّ ردُّوا عليه كِسْوتَهُ، فشقَّ ذلك على ابنِ الزبير وقال: أُمَّه، إنه لا يشِفُّ، قالت أسماءُ: إنها إنْ لم تشِفَّ فإنها تَصِفُ»[1] أخرجه ابن سعد في الطبقات.

وفي هذه دلالةٌ صريحةٌ على أنه يحرُمُ على المرأةِ أن تَلْبَسَ لِباسًا يصِفُ أو يَشِفُّ، بل لقد اعتبرَهُ بعضُ العلماءِ من الكبائرِ.

٤ - أَنْ يكونَ الثوبُ واسعًا فالملابسُ الضيقةُ تَصِفُ عورةَ المرأةِ وتُبْدِي ملامحَهَا وينتجُ عن ذلك إفسادُ قلوبِ الرجالِ، وتَعَرُّضُ المرأةِ لِلْفِتْنَةِ حتى وإنْ لم تقصِدْها، والدليلُ على ذلك أن رسولَ الله ﷺ كسا أسُامةَ بنَ زيدٍ قِبْطَيَّةً كثيفةً مما أهْدَاها له دِحْيَةُ الكلبيُّ، فكَسَاها أسامةُ امرأتَه، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «مالك لم تلبس القِبْطِيَّةَ؟ فقال: كَسَوْتُها امْرأتي، فقال: مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تحتَها غِلالةً فإني أخافُ أن تَصِفَ حجمَ عِظَامِهَا» رواه أحمدُ والبيهقيُّ وحسنه الألباني.

والغلالةُ: شعارٌ يُلْبَسُ تحتَ الثوبِ ليُمْنَع بها وَصْفُ عورةِ المرأةِ.

---

(١) انظر أهم قضايا المرأة ص ٥٠.

٥ - أَلَّا يكونَ اللباسُ مُبَخَّرًا أو مُعَطَّرًا، وذلك لما فيه من تحريكِ الشهوةِ، وفي هذا يقولُ النبيُّ ﷺ: «**أَيُّما امرأةٍ اسْتَعْطَرَتْ فَمَرَّتْ على قومٍ ليجدوا من ريحِها فهي زانيةٌ**». صَحَّحهُ الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ[1].

وقال عليه السلامُ: **أَيُّما امرأةٍ أصابَتْ بُخُورًا فلا تَشْهَدْ معنا العِشاءَ الآخِرَةَ**». رواه مسلم.

فإذا كانَ هذا للذَّهابِ للمسجد وهو طاعةٌ للهِ، فإن تركَ البُخُورِ حينَ الخروج للشوارعِ وأماكن تواجدِ الرجالِ من بَابِ أولى.

٦ - أَلَّا يُشبِهَ لباسُ المرأةِ لباسَ الرجلِ، فقد لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ الرجلَ يلبَسُ لِبْسَةَ المرأةِ، والمرأةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرجلِ.

وقالَ في حديثٍ آخرَ: «**ثلاثةٌ لا يَدْخُلونَ الجنةَ ولا ينظرُ اللهُ إليهم يومَ القيامةِ: العاقُّ لوالدَيه، والمرأةُ المترجلةُ المتشبهةُ بالرجالِ، والدَّيُّوثُ**». رواه أحمدُ والبيهقيُّ والحاكم وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبيُّ.

وقد أوردَ الذهبيُّ تَشَبُّهَ المرأةِ بالرجالِ أو العكسِ في الكبائِر.

قالَ بعضُ العلماءِ: سواءٌ كانَ التشبهُ في الملابسِ، أو الشَّعْرِ، أو الأحْذِيَةِ، أو نحوِها[2].

ولا شكَ أن الإسبالَ في ثيابِ الرجالِ تحتَ الكَعْبِ من التشبهِ بالنِّسَاءِ كما أن رفعَ المرأةِ ثوبَها تشبهٌ بالرجالِ وهم في ذلك على

---

(١) أهم قضايا المرأة ص ٨٩

(٢) أهم قضايا المرأة ص ٥٨.

خطرٍ عظيمٍ؛ لأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لعنَ من تشبهَ من الرجالِ بالنساءِ أو من النساءِ بالرجالِ. ذكره البخاري في صحيحه.

٧ - أَلَّا يُشبِهَ لباسَ الكافراتِ.. وهذه مسألةٌ ينبَغِي على المرأةِ المسلمةِ أن تَتَنَبَّهَ لها، وذلك بأن تَعْتَزَّ بإسلامِها، ولا تنظرْ إلى لباس الكافراتِ الماجناتِ فتُقَلِّدَهُنَّ، فهؤلاءِ كافراتٌ وليسَ بعدَ الكفرِ ذنبٌ، أما المسلمةُ التي تُؤْمِنُ بالجنةِ والنارِ فَحَرِيٌّ بها أن تلتزمَ ما شرعَ اللهُ لها من اللباس ولا تَنْسَى أن هذا اللباسَ للكافراتِ بقِصَرِهِ أو ضيقِهِ، أو شَفَافِيَّته كانَ سببًا لوقوع الفاحشةِ عندَ هؤلاءِ الكفارِ، الأمرُ الذي بِسَبَبِهِ تختلطُ الأنسابُ، ولا توجدُ الغَيْرَةُ، ونتجَ عنه الجفاءُ بين الابنِ وأبيهِ أو أُمِّهِ، فأصبَحَتْ حياتُهم لا تختلفُ عن حياةِ البهائم.

عبادَ اللهِ: لا تَرْضَوْا بذلكَ الانحرافِ في اللباسِ في بناتِكم وأخواتِكم حتَّى وإن كنَّ صغيراتٍ، فإن اللِّبَاسَ الشرعيَّ من الصِّغَرِ سببٌ لزرعِ الحياءِ في قلوبِهّن ونفوسِهن، وهو اعتزازٌ وافتخارٌ، فالواجبُ على المسلمِ والمسلمةِ أن يكونا قدوةً في لباسِهم ولباس أولادِهم. والتقليدُ والتبعيةُ للكفارِ انهزامٌ وذلةٌ، ومن تشبهَ بقومٍ فهو منهم.

إذا عرفتمُ الشروطَ فربَّما تَسألونَ وما هو الحدُّ في إظهارِ الزينةِ، أي ما هو الأمرُ المباحُ للمرأةِ لتُظهرَه من زينَتِها؟ وفي هذا يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(١).

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

فما المقصودُ بما يظهرُ منها؟ أهو شيءٌ من بدنِها؟ أم أنه أمرٌ خارجٌ عن بدنِها؟

المقصودُ - بما ظهرَ منها - الثيابُ والجِلْبابُ، وهو مقيدٌ بالشروطِ السابقةِ، وهذه الزينةُ لا تستطيعُ المرأةُ إخفاءَها، ولابدَّ أن تَظْهرَ للرجالِ فأُبيحَ للمرأةِ إظهارُها بشرطِ ألا يكونَ فيها فتنةٌ.

ويؤكدُ الشنقيطيُّ على أن المقصودَ بما يظهرُ أنه الثيابُ مستدلاً على ذلك من الآيةِ نفسِها بقرينةِ الزينةِ المذكورة في الآية ذلكَ أن الزينةَ في لغةِ العربِ ما تتزينُ به المرأةُ خارجًا عن أصلِ خِلْقَتِها كالحُلِيِّ والحُلَلِ، أما تفسيرُ الزينةِ ببعضِ بدنِ المرأةِ (كالوجهِ واليدينِ مثلاً) فهو خلافُ الظاهرِ، ولا يجوزُ الحملُ عليه إلا بدليلٍ يُرْجَعُ إليه.

وأمرٌ آخرُ وهو أن المتَتَبِّعَ لآيِ القرآنِ يجدُ أن لفظةَ الزينةِ بالقرآنِ وردتْ وتكررتْ مرادًا بها الزينةُ الخارجيةُ عن أصلِ المزيَّنِ بِهِ ولا يرادُ بها بعضُ اجزاءِ الشيءِ المزيَّنِ بها.

ومن ذَلِكَ قولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[1]. وقولُه: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[2]. إلى غير ذلك من الآيات[3].

وعلى هذا فالزينةُ للمرأةِ ظاهرةٌ وباطنةٌ، فالظاهرةُ ما يظهرُ منها

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) أضواء البيان ٦/ ١٩٨.

غالبًا كالثيابِ والجلبابِ ونحوِها، والباطنةُ ما سوى ذلك من أجزاءِ جسمِها كالْوجْهِ واليدينِ والساقين ونحوهما.

فالزينةُ الظاهرةُ لا حرجَ في إخراجِها للرجالِ الأجانب.

أَما الباطنةُ فلا شكَّ في جوازِ إخراجِها للزوجِ كُلِّها وتحريم إخراجِ شيءٍ منها للأجانبِ الذينَ يشتهونَ النساءَ، أما محارِمُها - غيرُ الزوجِ - فقد قالَ صاحبُ المُغْني: «يجوزُ للرجلِ أن ينظُرَ من ذواتِ محارمِه إلى ما يظهرُ غالبًا كالرقبةِ والرأس والكفينِ والقدمينِ ونحوِ ذلك، وليسَ له النظرُ إلى ما يَسْتَتِرُ غالبًا كالصدرِ والظهرِ ونحوهما».

قالَ الأثرمُ: سألتُ أبا عبدِالله عن الرجلِ ينظرُ إلى شعرِ امرأةِ أبيه أو امرأةِ ابنه فقالَ: هذا في القرآنِ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾. إلا لكذا وكذا. قلتُ: ينظرُ إلى ساقِ امرأةِ أبيهِ وصدرِها؟ قالَ: لا يعجبُني، ثم قالَ: أنا أكرهُ أن يَنْظُرَ من أُمِّه وأختِه إلى مثلِ هذا وإلى كلِّ شيءٍ لشهوةٍ[1].

قالَ تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[2].

فعلى المسلمِ أن يأمرَ أهلَه بطاعةِ اللهِ ويُلزمَهم بذلكَ، وعلى المسلمةِ أن تَستجيبَ لذلكَ وأَنْ تراقبَ اللهَ وأن تَلبسَ اللِّباس الشرعيَّ وتُغَطِّيَ وجهَها عن الرجالِ الأجانبِ في بلدِها أو خارجَ

---

(١) المغني ٦/ ٥٥٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

بلدِها، في السوقِ أو في العملِ، وقدوتُها في ذلك أمهاتُ المؤمنين اللاَّتي يَتَحَجَّبْنَ وهنَّ مُحْرِماتٌ فلا يجوزُ لِلْمَرأةِ المُسلمةِ أن تكشفَ وجهَها حالَ إحرامِها إذا كانتْ بحضورِ الرجالِ الأجانبِ في الحرم أو خارجَه تقول عائشةُ - رضي الله عنها -: «كَانَ يَمُرُّ بِنَا الرِّجَالُ وَنَحْنُ مُحْرِمَاتٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَإذا حَاذَوْا بِنَا سَدَلَتْ إحْدَانَا خِمَارَهَا عَلَى وَجْهِهَا فَإذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ». رواه أحمدُ وأبو داود والبيهقيُّ وحسنهُ الألبانيُّ.

خلاصةُ القولِ: فعلى قدرِ إيمانكم ستكونُ استفادتُكم من هذا الحديثِ، فحاسِبُوا أنفسَكم، وانْظُروا في بيُوتِكم فَما وجدتُّم مِنَ انْحرافٍ في لباس نسائِكم فقوِّمُوهُ فإنكمُ سَتُسْأَلُونَ عَن ذَلِكَ يومَ القيامةِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[1]. وقالَ رسولُ الله ﷺ: «**وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي بَيْتِه وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». رواه البخاري ومسلم، والأمُّ والأختُ والمعلِّمةُ واجبٌ عليهِن أن يوجِّهْنَ مَنْ تحتَ أيديهِنَّ ويأمُرْنَ بالمَعْرُوفِ وينهَيْنَ عن المنكرِ ﴿**وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ**﴾[2]. «**فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ**». والقدوةُ من المُسْلِمَةِ في نفسِها وبناتِها وأخواتِها خيرُ دعوةٍ لذلِكَ، فالمرأةُ التي تلبسُ الثوبَ الطويلَ الواسعَ غيرَ الشفافِ وتُلْبِسُهُ لبناتِها وأخواتِها وتنصحُ به تِلْمِيذَاتِها وتحجُبُ

---

(١) سورة عبسى، الآيات: ٣٤-٣٧.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

وجهَها عن الرجالِ الأجانبِ دليلٌ واضحٌ على فخرِها واعتزازِها بإسلامِها، وحرصِها على تطبيقِ أوامرِ ربِّها واستجابتِها لندائِه في قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1].

اللهمَّ إنا نسألُك الجنةَ وما قرّبَ إليها من قولٍ أو عملٍ، ونعوذُ بك من النارِ وما قرّبُ إليْها من قولٍ أو عملٍ، ونعوذُ بكَ من عذابِ القبرِ، ونعوذُ بكَ من فتنةِ المسيحِ الدجال، ونعوذُ بكَ من فتنةِ المحيَا والمماتِ. اللهم آتِ نُفوسَنَا تَقْواها وزكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاَها. رَبَّنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ. اللهم قنا عذابَك يومَ تبعثُ عبادَك. اللهم لا تفضَحْنَا على رؤوسِ الخلائقِ يوم البعثِ والنشور، وآتِنا كتابَنا باليمينِ برحمتِك يا أرحمَ الراحمين، واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ آمين، وصلى الله وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعين.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

أهمية الغطاء في وجه المرأة

من عبدِالعزيزِ بنِ عبدِاللهِ بن بازٍ إلى الأخِ المكرمِ وفَّقَهُ الله لكلِّ خيرٍ آمين.

سلامٌ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، وبعدُ. كتابُكُم . . . . وَصَلَ. وَصَلَكُم الله بِهُدَاه وهذا نصُّه: أرجُو من فضيلتِكم إجابَتِي عن أهميةِ الغطاءِ على وجهِ المرأةِ وهل هو واجبٌ أوجبَهُ الدينُ الإسلاميُّ وإذا كانَ كذلك فما هو الدليلُ على ذلك، إنني أسمعُ الكثيرَ وأعتقدُ أن الغطاءَ عمَّ استعمالُه في الجزيرةِ على عهدِ الأتراكِ ومنذُ ذلكَ الوقتِ سارَ التشديدُ على استعمالِه حتى أصبَحَ يراهُ الجميعُ أنه فرضٌ على كل امرأةٍ كما قرأتُ أنه في عهدِ النبيِّ ﷺ وعهدِ الصحابةِ الراشدينَ كانتِ المرأَةُ تشاركُ الرجلَ في الكثيرِ من الأعمالِ كما تساعدُه في أيـامِ الحروبِ فهل هذه الأشياءُ حقيقةٌ أم أن فَهْمِي غلطٌ لا أساسَ لَهُ إنَّنِي أنْتَظِرُ الإجابةَ من فضيلتِك لفهمِ الحقيقةِ وحذفِ ما هو مُشَوَّهٌ انتهى.

الجوابُ: الحجابُ كانَ أولَ الإسلامِ غيرُ مفروضٍ على المرأةِ وكانتْ تُبْدِي وجهَها وكَفَّيْهَا عندَ الرجالِ، ثم شرعَ اللهُ سبحانهُ الحجابَ للمرأةِ وأوجبَ ذلكَ عليها صيانةً لها وحمايةً لها من نظرِ الرجالِ الأجانبِ إليها وحَسْماً لمادةِ الفِتْنَةِ بها وذلك بعدَ نزولِ آيةِ الحجابِ وهي قولُه تعالى في الآيةِ من سورةِ الأحزابِ: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ

﴿حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾[1]. والآيةُ المذكورةُ وإن كانتْ نزلتْ في زوجاتِ النبيِّ ﷺ فالمرادُ من الآية هُنَّ وغيرُهُنَّ من النساءِ لعمومِ العِلَّةِ المذكورةِ والمَعْنى في ذَلكَ. وقالَ سبحانَهُ وتعالى في السورةِ نفسِها: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[2]. الآية، فإن هذهِ الآيةَ تعمُّهنِ وغيرَهن بالاجماع، ومثلُ قولِه - عزَّ وجلَّ - في سورة الأحزابِ أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾[3]. الآية، وأنزلَ اللهُ في ذلك أيضًا آيتين أُخْرَيَيْنِ في سورة النور وهما قولُه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[4]. الآية، والبُعُولةُ هم الأزواجُ والزينةُ هي المحاسنُ والمفاتنُ والوجهُ أعظمُهما. وقولُه سبحانَه: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ﴾ المرادُ به الملابسُ في أصحِّ قولَيْ العلماءِ كما قالَه الصحابيُّ الجليلُ عبدُالله بنُ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - بقولِهِ تعالى: ﴿وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.
(٤) سورة النور، الآيتان: ٣٠، ٣١.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ووجهُ الدلالةِ من هذهِ الآيةِ على وجوبِ تَحَجُّبِ النساءِ وهو سترُ الوجهِ وجميع البدنِ عَنِ الرِّجالِ غيرِ المَحَارم أَنَ اللهَ سُبحانَهُ رَفَع الجُناحَ عنِ القواعدِ اللاتي لا يرجُونَ نكاحًا وهن العَجائزُ إذا كُنَّ غيرَ متبرجاتٍ بزينةٍ فعُلِمَ بذلك أن الشَّابَّاتِ يجبُ عليهن الحجابُ وعليهن جناحٌ في تركِه، وهكذا العجائزُ المتبرجاتُ بالزينةِ عليهن أن يتحجَّبْنَ لأنهن فتنةٌ، ثم أنه سُبْحانَهُ أخبرَ في آخر الآيةِ أن استعفافَ القواعدِ غيرِ المتبرجاتِ خيرٌ لهن وما ذاك إلا لكونه أبعدَ لهنّ من الفتنةِ، وقد ثبتَ عن عائشةَ وأُختِها أسماءَ - رضي اللهُ عنهما - ما يدلُّ على وجوبِ سترِ المرأةِ وجهَها عن غيرِ المحارمِ ولو كانتْ في حالِ الإِحرام كما ثبتَ عن عائشةَ - رضي اللهُ عنها - في الصحيحينِ ما يدلُّ على أن كشفَ الوجهِ للمرأةِ كانَ في أولِ الإِسلامِ ثم نُسِخَ بآيةِ الحجابِ وبذلك تعلمُ أن حجابَ المرأةِ أمرٌ قديمٌ من عهدِ النبيِّ ﷺ قد فرضه اللهُ سبحانه وتعالى، وليسَ من عملِ الأتراكِ، أما مشاركةُ النساءِ للرجالِ في كثيرٍ من الأعمالِ على عهدِ النبيِّ ﷺ كَعَلاجِ الجَرْحَى وسَقيهم في حالِ الجهادِ ونحوِ ذلك فهو صحيحٌ مع التَّحَجُّبِ والعفةِ والبعدِ عن أسبابِ الريبةِ كما قالتْ أُمُّ سُلَيْم - رضي اللهُ عنها - كنَّا نَغْزُو مع النبيِّ ﷺ فَنُسقِي الجَرحَى ونَحْمِلُ الماءَ ونداوِي المرضَى،

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٠.

هكذا كانَ عملُهُن لا عملُ نساءِ اليومِ في كثيرٍ من الأقطارِ التي يَدَّعِي أهلُها الإِسلامَ واللاَّتى اختلَطْنَ بالرجالِ في مجالاتِ الأعمالِ وهنّ مُتبَرِّجَاتٌ مُبْتَذِلاتٌ فآلَ الأمرُ إلى تَفَشيِّ الرذيلةِ وتَفَكُّكِ الأُسرِ وفسادِ المجتمع ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم، ونسألُ اللهَ أن يهديَ الجميعَ صِراطَهُ المُسْتَقِيمَ وأن يُوَفقَنا وإياكَ وسائرَ إخوانِنا للعلمِ النافعِ والعملِ به إنه خيرُ مسئولٍ.

والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته[1]..

---

(١) مجموع الفتاوى ج/ ٣ ص ٣٥٤

حُكْمُ الحجاب[1]

سؤال: بحمدِ اللهِ تعالى اقتنعتُ بشرعيةِ الحجابِ الساترِ لكلِّ البدنِ وقد التزمتُ بِلُبْسِ ذلك الحجابِ منذُ سنواتٍ وللآن، وقد قرأتُ الكثيرَ من الكتبِ في الحجابِ وبخاصةٍ في كُتبِ التفسيرِ المختلفةِ وهي تتعرضُ لموضوعِ الحجابِ في أثناءِ تفسير بعضِ السورِ مثل سورةِ النورِ والأحزابِ ولكنني لا أدري كيفَ أُوَفِّقُ بين لُبْسِ المسلماتِ في عهدِ المصطفَى ﷺ وخلفائِه الراشدينَ وخلفاءِ بنِي أميةَ وأهميةِ الحجابِ الذي أكادُ أراهُ فرضًا على جميع النساءِ؟

الجواب: يجبُ أن نعلمَ أن عصرَ النبيِّ ﷺ ينقسمُ إلى قسمين:

أحدُهما: ما كانَ قبلَ الحجابِ والنساءُ فيه كاشفاتُ الوجوهِ ولا يجبُ عليهن التسترُ.

والثاني: ما كانَ بعدَ الحجابِ وهو بعدَ السَّنَةِ السادسةِ فهذا التزمَ فيه النساءُ - رضي اللهُ عنهن الحجابَ وصِرْنَ كما أمرَ اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يقولَ لبناتِه ونساءِ المؤمنين وأزواجِه يدنينَ عليهن من جلابيبهن فَصِرْنَ - رضي اللهُ عنهن - يلبَسْنَ أَكْسيةً سَوْداءَ ولا يُبْدِينَ إلا عَيْنًا واحدةً ينظُرْنَ بها الطريقَ وما زالَ الناسُ والحمدُ للهِ في بلادِنا هذه على الطريق. طريقِ الكتابِ والسنَّة، وأسألُ اللهَ تعالى أن يُبْقِيَ على نسائِنا ما مَنَّ به عليهن من هذا الحجابِ الساتِرِ الذي هو مقتضَى كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ والنظرِ الصحيحِ المطّرد.

محمد بن صالح العثيمين

---

(١) نور على الدرب ص ٤٤.

الباب السادس عشر

فضلُ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ والدعوةِ إلى اللهِ والصبرِ على ذَلِكَ

الحمدُ للهِ الهادي من استهدَاه الواقِي من اتقاه الكافي من تحرَّى رِضَاه وأشهدُ أن لاَّ إلَهَ إلا اللهُ شهادةً أَرجُو بِها الفوزَ يومَ أَلقَاهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابِه ومن اقتدى به واهتدى بهداه وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ فيا عبادَ اللهِ:

اتقوا اللهَ تعالى بفعلِ أوامرِه واجتنابِ نواهيهِ، واعلمُوا أن مما أَمَرَ اللهُ تعالى به الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. وبِالأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ اكتسبَتْ هذه الأمةُ الخيريةَ. قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[2].

والحاجةُ إلى الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ ضروريةٌ وباقيةٌ ما بقيتْ الحاجةُ إلى الحياةِ نَفْسِها وأَمْنِها وعافِيتِها وَبِتَرْكِهِ تفشو المنكراتُ وتتكدرُ الحياةُ وتَحِلُّ العقوباتُ.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

إخواني . . إن للمسلمِ حقوقًا على أخيه المسلم منها : أن يأمرَهُ بالمعروفِ وينهاه عن المنكر . قال تعالى : ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾[1] .

وعن ابنِ عمرَ ، رضي اللهُ عنهما ، أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : «**المسلمُ أخو المسلمِ لا يَظْلِمُهُ ولا يُسْلِمُه . .** » الحديث[2] . متفقٌ عليه . ومعنى لا يُسْلِمُهُ ، أي لا يترُكُهُ واقعًا في الإثم وَيَتَخلَّى عنه . ويقول : مالي ومالَه فهذه الكلمةُ غريبةٌ ، ودخيلةٌ على المجتمع المسلم يردُّها هذا الحديثُ ؛ فحقُّ الموالاةِ والأُخُوةِ والنُّصْرةِ يوجبُ على المسلم أن يَنصحَ لأخيهِ ويتدخلَ فيما يعنِيه وينفعُه فيقوِّمَ عِوَجَه ويُصْلِحَ مِنْ أَمْرِه ما وَسِعَه وذلك أَرْقَى دَرَجَاتِ الإيمان .

فعن أنس ، رضي اللهُ عنه ، عن النبيِّ ﷺ قالَ : «**لَا يُؤْمِنَ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[3] متفقٌ عليه .

عبادَ اللهِ : إن أجرَ الآمرِ بالمعروفِ والناهِي عن المنكرِ عظيمٌ وهو من المجاهدين . فعن عليٍ ، رضي اللهُ عنه ، قال : «للجهادِ أربعُ شُعَبٍ : الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ ، والصدقُ في المواطنِ ، وشَنَآنُ الفاسقين» .

فمن أمرَ بالمعروفِ شدَّ ظهرَ المؤمنِ ، ومن نهى عن المنكرِ أرغمَ

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ٧١ .

(٢) رياض الصالحين ، باب تعظيم حرمات المسلمين ، ص (١٢١) ،

(٣) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الإيمان - باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، (١/ ٥٦-٥٧) فتح . ورواه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١/ ٦٧) ، ح (٧١)

أنفَ المنافقين، ومن صَدقَ في المواطنِ قَضَى الذي عليه وأَحْرَزَ دينَه ومن شَنَأَ الفاسِقين غَضِبَ للهِ ومن غَضِبَ للهِ يغضبُ اللهُ له.

والناسُ في هذه الحياةِ أصنافٌ. فمنهم صنفٌ ضالٌ لا خيرَ فيه وهو شرٌ على غيره. ومنهم صنفٌ سلبيٌ لا خيرَ فيه ولا شرَّ منه، ومنهم صنفٌ صالحٌ في ذاتِه لكن لا خيرَ فيه لغيرِه، ومنهم صنفٌ صالحٌ في ذاتِه وفيه خيرٌ وإصلاحٌ لغيرِه.

ولا شكَّ أن أكملَ الناسِ نفسًا وأرفعَهم درجةً هو الذي صلحَ في ذاتِه، ثم امتد بالإصلاحِ إلى الآخرين وهؤلاءِ هم الآمرونَ بالمعروفِ والناهون عن المنكرِ، المتبرعونَ بفعلِ الخيرِ المتطوعونَ لإنقاذ الناس. قالَ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

عبادَ اللهِ: إن عاقبةَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ حميدةٌ فإذا أُمِرَ بالمعروفِ ونُهِيَ عن المنكرِ صَلَحَتِ الأَحْوَالُ وكثُرَتِ البركاتُ وأصبحَ المجتمعُ مجتمعًا خَيِّرًا متآلفاً مطمئنًا يهابُه الأعداءُ، وأصبحتِ المعاصي مُسْتَغْرَبَةً فيهِ وَإذَا تُرِكَ الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ فَشَتِ المعاصي والمنكراتُ حتى يَأْلَفَها الناسُ؛ ينشأُ عليها الصغيرُ، ويهرمُ عليها الكبيرُ.

عبادَ اللهِ: إن بعضَ الناسِ هداهم اللهُ شَبُّوا وشاخوا وليسَ لهم سهمٌ في الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ وهذا تثبيطٌ من

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

الشيطانِ. والنبيُّ ﷺ مثَّلَ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحمِهم وتعاطفِهم بالجسدِ الواحد. فعن النعمانِ بن بشيرٍ قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ والحُمَّى**»[1].

عبادَ اللهِ: فَلْنَتَسَاءَلْ هلْ أسدَى الواحدُ منا نصيحةً لذلك العضوِ من جسدِ الأمةِ الذي سَوَّلَ له الشيطانُ فافتتحَ محلاً لبيعِ ما حَرّمَ الله؟ والنبيُّ ﷺ قالَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»[2] هل بيّن الواحدُ منا لأُولَئكَ أن عملَهم هذا محرمٌ وهو إعانةٌ على الإثمِ والعدوانِ؟ هل بيّن لهم أنه أيُّما عبدٍ نبتَ لحمُه من سُحتٍ فالنارُ أولى به؟ هل بيّن له أنَّهُ يُطعِمُ أولادَه الحرامَ ابتداءً من اللَّبَنِ؟ هل بيّن له أنَّهُ لاَّ يُنفق من مالِه الذي اكتسبَه من الحرام فَيُبَارَكَ له فيه، وأنه إنْ تصدّقَ لم يُقْبَلْ منه وأَنَّه إن خَلَّفَهُ كَان زادَه إِلى النَّارِ عِيَاذًا بالله. إن البعضَ لم يَطْرُقْ بابَ النصيحةِ بل إنه بدأَ يلومُ ويتكلمُ في أعراضِ أولئك الناسِ وهو لم يناصِحْهُم. وقد يقولُ البعضُ إني أخشىَ عدمَ استجابتِهم فيقالُ له: ما عليكَ إلا النَّصِيحةُ والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ، وهدايةُ القلوبِ بيدِ علامِّ الغيوبِ، وإذا عَلِمَ اللهُ صِدْقَ النيَّةِ أَعَانَ. ولو لم يكن من النصيحةِ إلا إقامةُ الحجةِ ليهلِكَ من هَلَكَ عن بيِّنَةٍ،

(١) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الأدب - باب رحمة الناس والبهائم (١٠/ ٤٣٨) الفتح. ورواه مسلم في صحيحه - كتاب البر والصلة - باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم (٤/ ١٩٩٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الإيمان - باب قول النبي ﷺ: «الدين النصيحة» (١/ ١٣٧) الفتح. ورواه مسلم في صحيحه - كتاب الإيمان - باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن (١/ ٧٤).

قالَ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[1].

عبادَ اللهِ: وكلُّ مسلمٍ يُحِبُّ لإخوانِه المسلمينَ العزَّ والسعادةَ والطمأنينةَ فعليه أن يأمُرَ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ، لأن القيامَ به سببٌ لذلكَ، وعاقبةُ تركِ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ وخيمةٌ؛ فإذا سكتَ الآمرونَ بالمعروف الناهونَ عن المنكرِ، وتركُوا أهلَ المعاصِي يسرحُونَ ويمرحُونَ ويُعْلِنُونَ معاصِيهم على مشهدٍ من الملأ بحجةِ أنهم يتصرفُون في نصيبِهم من سفينةِ الحياةِ وهم أحرارٌ فإن العقوبةَ تعمُّ الصالحَ والطالحَ، وقد ضربَ النبيُّ ﷺ مثلاً بليغًا. فعنِ النعمانِ بنِ بشيرٍ، رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ والواقعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فكَانَ الذِين في أَسْفَلِهَا إذا اسْتَقَوْا من الماءِ مَرُّوا على مَنْ فَوقَهُم، فقالُوا: لو أَنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبِنَا خَرْقًا ولم نؤذِ مَنْ فَوقَنَا، فإن يَتْرُكُوهُم ومَا أَرادوا هَلَكُوا جَميعًا وإن أَخَذُوا على أيدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[2].

فقسّمَ النبيُّ ﷺ المجتمعَ بالنسبةِ للمحافظةِ على هذه الحدودِ إلى طبقتينِ:

الأولى: طبقةُ المحافظينَ عَلَيها والقائِمينَ على حِراستِها وهُمْ الطبقةُ العُلْيا الآمِرونَ بالمعروفِ والناهُونَ عن المنكرِ.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٤.

(٢) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الشركة - باب هل يقرع في القسمة؟ والاستفهام فيه (٥/ ١٣٢) فتح.

الثانية: طبقةُ المُنْتَهِكينَ لها الواقعينَ فيها وهم الطبقةُ السُّفْلى أهلُ المنكرِ والمعاصِي ثم وضَّحَ النبيُّ ﷺ أهميةَ الأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عن المنكرِ في حياةِ المجتمعِ، فذكر أن الطبقةَ السُّفْلَى شَرَعَتْ في ارتكابِ جَريمةِ إبادةٍ عامةٍ بغباوةٍ وحسنِ نيةٍ، وذلك بأن الطَّبقة السُّفْلى صَعُبَ عليها أن تَتَسبَّبَ في مضايقةِ العُلْيا بمرورِها بها صاعدَةً نازلةً كُلَّما أرادتْ الماءَ فَهدَاها تفكيرُها الأخرقُ إلى أن تَخْرقَ مكانَها في أسفلِ السفينةِ لتستَقِي منه ولا تُؤذِي جيرَانَها، وإنَّ أصغرَ خَرْقٍ هنا يُساوي أَوْسَعَ قَبْرٍ لهذا المجتمع كلِّه وإن السكوتَ على هذه الجريمةِ النكراءِ جريمةٌ أُخرى أشدُّ نُكْرًا وأعظمُ خطَرًا.

وبناءً على هذا يجب على المسلم أن يأمُرَ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ لتنهدمَ أركانُ الفسادِ وتسعدَ الأُمّةُ وتسلمَ من غضبِ الله.

عبادَ اللهِ: إن بعضَ الناسِ يتركُ الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ بسببِ تخويفِ الشَّيطَانِ له مما سيحصلُ له ممن يأمُرهم، والله تعالى نَبَّهَ على ذلك، وحذّرَ منه، قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. ومن ثَمَّ لِيَعْلَمَ الآمِرُ بالمعروفِ والناهي عن المنكرِ أنه قائمٌ بما أُرْسِلَ به الرسلُ كَمَا قَالَ تَعَالى فِي وَصْفِ خاتَمِهم وسيِّدِهم محمدٍ ﷺ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[2]. وعليه أن يقرأَ سيرةَ الرسلِ عليهم الصلاةُ والسلامُ ليعرفَ ما أصابَهم وهم أكرمُ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

الخلقِ على اللهِ ليهونَ في نفسه ما يلاقي. ولقد لاَقى الرُّسلُ والأنْبياءُ من أَقْوامِهم أشدَّ الأَذى وأعظمَهُ حتى بلغَ ذلك إلى حدِّ القَتل. قالَ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1]. فأولُ الرسلِ نوحٌ ﷺ لَبثَ في قومِه ألف سنةٍ إلا خمسينَ عامًا يدعوهم إلى عبادةِ اللهِ ويأمُرهم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكَر، فكانَ أشرافُهم يَسْخَرُون مِنْهُ ولكنَّه صَامدٌ في دعوتِه ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ۞ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾[2]. حتى قالوا مُتَحَدِّينَ له: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[3].

وقالوا مهدِّدين له: ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾[4]. أي: من المقتولين رجْمًا بالحجارةِ.

وإبراهيمُ ﷺ خليلُ الرحمنِ وإمامُ الحنفاءِ لبثَ في قَوْمِهِ ما شاءَ اللهُ يدعوهم إلى عبادةِ اللهِ ويأمُرهم بالمعروفِ وينهاهُم عن المنكرِ ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾[5]. فما ثنى

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢١.
(٢) سورة هــود، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة هــود، الآية: ٣٢.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ١١٦.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٢٤.

ذلك من عزمِه ولا أَوْهَنَه عن دعوتِه، بل مضى في سبيلِ دعوتِه إلى ربِّه بعزمٍ وثباتٍ وأزالَ مُنْكرَهم بيدِه حيثُ عَمِدَ إلى أصنامِهم فكسَّرها حتى جعلَها جُذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليهِ يرجعون. فلما رجعوا إلى أصنامِهم وعلِمُوا أن الذي كسَّرهَا إبراهيمُ طَلَبُوا أن يؤتى به ليُؤدبوه على أعْينِ الناس فيشهدَ الناسُ ما يقولُ. فلم يضعفْ عن قولِ كلمةِ الحقِّ بل قَال لَهُم مُوَبِّخًا: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]. فلما سمعوا جوابَه ازْدَادُوا حَنَقًا، وغيظًا وعزمُوا على تنفيذِ ما هدَّدوه ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾[2]. فأَضْرمُوا نارًا عظيمةً وألقَوْا إبراهيمَ فيها وهي أشدُّ ما تكونُ اتّقادًا - ولكن اللهَ تعالى يَنْصرُ أولياءَهُ فقال للنَّارِ كُونِي بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ - فكانت بَرْدًا لا حرَّ فيه وسلامًا لا أذى فيه.

وموسى، عليه الصلاةُ والسلامُ، قصَّ الله تعالى عَلَيْنا خَبَرَه وما حصلَ له مع فرعونَ المتكبرِ الجبّارِ وصبرَ مُوسى على ما لاَقاهُ مِنْ فرعونَ وقومِه حتى كانت العاقبةُ له وكانتْ نتيجةُ فرعونَ وقومِه ما ذكرَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۞ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۞ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء، الآيتان: ٦٦، ٦٧.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الدخان، الآيات: ٢٤-٢٨.

وعيسى ﷺ أُوذِيَ من جانبِ قومِه فكذبُوه ورمَوْا أُمَّهُ بالبِغَاء وعزمُوا على قَتْلِه واجتمعُوا عليه فأَلْقَى اللهُ شَبَهَهُ على رَجُلٍ فقَتَلوُا ذلك الرَّجلَ وصَلَبُوه، وقالوا: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾(1). فقال تعالى مُكذِّبًا لهم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۞ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(2).

وهذا خاتمُ الرسلِ وأفضَلُهُم محمدٌ ﷺ لم يسلمْ من الأَذَى في سَبيلِ دَعْوتِه إلى اللهِ وأمْرِه بِالْمَعْروفِ ونهيهِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَنَالَهُ مِنَ الأَذَىَ القوليِّ والفعليِّ ما لا يَصْبرُ عليهِ إلا مَنْ كَانَ مِثْلَه ولم يَثْنِهِ ذلك عن دعوتِه إلى الله. دعاهُم إلى عبادَةِ إلهٍ واحدٍ أحدٍ فردٍ صمدٍ ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾(3). وكانوا إذا رَأَوْا النبيَّ ﷺ اتخذُوه هُزُوًا وقالوا ساخرينَ به: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۞ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ﴾(4)، ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾(5)، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾(6). فآذوا النبيَّ ﷺ بكلِّ ألقابِ السوءِ والسخريةِ. ولم يَقْتَصِروا على ذلك فَحَسْبُ

---

(1) سورة النساء، الآية: ١٥٧.

(2) سورة النساء، الآيتان: ١٥٧، ١٥٨.

(3) سورة ص، الآيتان: ٤، ٥.

(4) سورة الفرقان، الآيتان: ٤١، ٤٢.

(5) سورة الحجر، الآية: ٦.

(6) سورة الفرقان، الآية: ٨.

بل آذَوْهُ بالأَذَى الفِعْليِّ فكان أبُو لهبٍ وهو عمُّه وجارُه يَرْمِي بالقَذَرِ على بَاب النبيِّ ﷺ فيخرجُ النبيُّ ﷺ فَيُزيلُه ويقولُ: **يا بني عبدِ مَنَافٍ: أيُّ جِوَارٍ هذا!!!** وعن عبدِالله بنِ مسعودٍ رضي اللهُ عنه قال: بينَما النبيُّ ﷺ قائمٌ يصلي عندَ الكَعْبَةِ وأبو جهلٍ وأصحابٌ له جلوسٌ إذ قال قائلٌ منهم: أَيُّكم يذهبُ إلى جَزُورِ آلِ فلانٍ - أي ناقتِهم - فيجيءُ بِسَلاَها ودَمِهَا وفَرْثِها فيضعُه على ظهرِ محمدٍ إذا سجدَ فذهبَ أشْقى القوم فجاءَ بِه فَلَمَّا سجدَ النبيُّ ﷺ وضعَه على ظهرِه بَيْنَ كَتِفَيْهِ. قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: وأنا أنظرُ لا أُغْنِي شيئًا فجعلَ أبو لهبٍ وَمْنَ مَعَه يضحَكُونَ حتى يميلَ بعضُهم إلى بعضٍ من الضَّحكِ ورسولُ الله ﷺ ساجدٌ لا يرفعُ رأسَه حتى جاءتْ ابنتُه فاطمةُ تَسْعَى وَهي جُوَيْرِيةٌ حَتَّى ألقَتْهُ عنه فلمَّا قَضَى النبيُّ ﷺ الصلاة قال: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثُمَّ سَمَّى فُلاَنًا وَفُلانًا**»[1]. ولما اشتدَّ الأذى من قومِه خرجَ إلى الطائفِ رجاءَ أن يُؤْوُوهُ ويمنَعُوه من قومِه، فَلَقِيَ منهم أشدَّ ما يَلْقَى من أذىً وأَغْرَوْا به سُفَهَاءَهُمْ يَرْمُونَه بالحِجَارةِ حتى أَدْمَوْا عَقِبَيْهِ فخرجَ منها مغمُومًا على وجهِه.

هذا مِمّا أصابَ رسولَ اللهِ ﷺ والأنبياءَ قبلَه من الأذى فصبرُوا واحتسبُوا حتى نصرَهم اللهُ وفي هذا أكبرُ عبرةٍ يَعْتَبِرُها الموقِنُون

(١) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الجزية - باب طرح جيف المشركين في البئر (٦/ ٢٨٢). ورواه مسلم في صحيحه - كتاب الجهاد - باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (٣/ ١٤١٨).

الآمِروُن بالمعروف والنَّاهُون عَن المُنْكرِ ليصْبروا ويحتَسِبُوا الأجرَ من اللهِ ويَعْلَمُوا أَنَّ للجنةِ ثمنًا. ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[1].

عبادَ اللهِ: ما أطيبَ عيشَ الآمرين، ما أعظمَ فوزَ الصالحينَ، ما أهدى طريقَ الطائِعين، ما أعظمَ مصيبةَ المفرطين، ما أَمَرَّ عيْشَ العاصين، ما أشدَّ ندامةَ الفاسقين، ما أسعدَ حظَّ القانِتين، ما أعظمَ جزاءَ الدعاة المخلصين.

اللهُمّ اجْعَلْنَا مَن الآمِرينَ بالمعرُوفِ النَّاهين عَنِ المنكرِ، اللهمَّ اجعلْ أعمالَنا خالصةً لوجهك صوابًا على سُنَّة رسولِك ﷺ.

اللهم تقبلْ يسيرَ أعمالِنا، اللهم إنا نسألُك خشيتَك في الغيبِ والشهادةِ وكلمةَ الحقِّ في الغضبِ والرضا والقصدِ في الفقرِ والغنى.

اللهم اهد ضالَّ المسلمين، اللهم رُدَّنا إليكَ ردًّا جميلاً.

اللَّهُمَّ أبرِمْ لهذه الأمَّةِ أمرًا رشيدًا يَعِزُّ فيه أهلُ طاعَتِك وَيَذِلُّ فيه أهلُ معصيتِك ويُؤمَرُ فيه بالمعرُوفِ ويُنْهى فيه عن المُنْكَرِ إنك سميعُ الدعاءِ.

اللهم إنا نعوذُ بك من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطن.

اللهم عليك بأعدائِك أعداءِ الدينِ من يهودٍ ونصارى وشيوعيينَ، ومجوس وسائرِ الطغاةِ والمفسدينِ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

اللهم أحصِهم عَدَدًا واقتُلْهُم بددًا ولا تُبْقِ منهم أحدًا .

اللهم إنا نَدْرَأُ بِك فِي نحورِ الظالمين ونعوذُ بك من شرورِهم .

اللهم وَمَن أرادَ الإِسلامَ والمسلمينَ بسوءٍ فأَشْغِلْهُ في نفسِه واجعَلْ كيدَه في نَحْره يا رَبَّ العالمين واغفر اللَّهمَّ لنا ولوالدِينا ولجميع المسلمينِ الأَحياءِ منهم والميِّتين يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين .

الباب السابع عشر

الدعـــاء

اطب مطعمك تجب دعوتك

الحمدُ لله الملكِ الأَعْلَى الكبيرِ، الواحدِ الأحدِ، الفردِ الصمدِ، السميعِ البصيرِ الخافضِ الرافعِ، المُعطِي المانعِ، الإلٰهِ المعزِّ المذلِّ القديرِ، أحاطَ علمًا بالجليلِ والحقيرِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[1]. فسبحانَه من آلٰهٍ تَعَالى عن النَّظيرِ، قدّرَ فَهَدَى، يعلمُ السرَّ وأَخْفَى، أحمدُه وأشكرُهُ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبْدُه ورسُولُه البَشِيرُ النَّذِيرُ، والسِّرَاجُ المُنير صلى الله عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه أهلَ الجدِّ والتشميرِ وسلمَ تسليمًا.

عبادَ اللهِ: يقولُ الحقُّ سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2].

فالدعاءُ عبادةٌ يُتَوجَّهُ بها إلى اللهِ، ولا يجوزُ أن يُتَوجَّهَ بها إلى غَيْرِه؛ لأنه هو النافعُ الضارُّ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾[3]. فالنبيُّ ﷺ وهو أشرفُ الخلقِ وأرفعُهم قدرًا عند اللهِ يوصِي أُمَّتَه أن تَتَوَجَّه إلى اللهِ وحدَه بالدعاءِ، فهو صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه يقولُ لابنِ عباسٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -:

---

(١) سورة الملك، الآية: ١٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٧.

«**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظ اللهَ يَحْفَظْكَ، اِحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّت الصُّحُفُ**». رواه الترمذيُّ وقالَ حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

فالاستعانةُ باللهِ والسؤالُ لله ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾[1].

ولا أحدَ مع الله مَهْمَا عَلاَ قدرُه من الأنْبياءِ والصَّالِحينَ، فَكَيفَ يليقُ بالعبدِ أن يُوَجِّهَ السؤالَ لعبدٍ، وقد نهانا عن ذَلِكَ رسولُ الله ﷺ فقال: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ فقولوا عبدالله وَرَسُولُهُ**». رواه البخاري. ولاشكَ أن توجيهَ الدعاءِ لرسولِ الله ﷺ من أعظم أنواع الإطراءِ التي نهى عنها بل هو شِرْكٌ، فالدعاءُ عبادةٌ، والعبادةُ يجبُ أنْ تكونَ للهِ وحدَه، قالَ رسولُ الله ﷺ: «**الدُّعاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**». رواه أبو داود والترمذي وصححه، وصححه الألباني.

عبادَ اللهِ: أَلِحُّوا على ربِّكم بالدعاءِ، ولا تستعجلوا الإجابَةَ، فعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ**، قيلَ: يا رسولَ الله ما الاستعجالُ؟ قال: **يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرَ يُسْتَجَابُ لِي فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدَعُ الدُّعَاءَ**». رواه مسلمٌ.

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.

واعلموا أن ربَّنا قريبٌ كريمٌ حَيِيٌ يَسْتَحْيِي منْ عَبْدِه إذا رَفع يَديه أَنْ يَرُدَّهُما خائِبَتَيْنِ قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1].

والدعاءُ من أقوى الأسبابِ في دفعِ المكروهِ وحصولِ المطلوبِ، ومن أنفعِ الأدويةِ وهو يُدافعُ البلاءَ ويُعَالِجُهُ ويمنعُ نزولهَ ويرفعُه أو يُخَفِّفُه إذَا نَزَلَ، والدُّعاءُ سِلاحُ المؤمنِ، والسِّلاحُ بِضَارِبِه، فمتى كانَ السلاحُ تامًّا لا آفةَ فيهِ والساعِدُ قويًّا والمانعُ مفقودًا حصلتْ النكايةُ في العدوِّ، ومتى تَخَلَّفَ واحدٌ من هذه الثلاثِ تَخَلَّفَ التأثيرُ.

إخواني: توبُوا إلى ربكم وأطيبُوا مطاعِمَكم، ومُرُوا بالمعروفِ، وانهُوا عن المنكرِ، تُسْتَجَبْ دعوتُكم، فعن حذيفةَ - رَضِيَ اللهُ عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

فهل أَمَرْنَا بالمعروفِ وَنَهَيْنا عن المنكرِ لعلَّ اللهَ أن يستجيبَ دعاءَنا؟

وفي صحيح مسلم أن رسولَ الله ﷺ قال: «**في الرَّجُلِ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، ومَشْرَبُهُ حَرامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ، فَأَنَّىٰ يُسْتَجَابُ لَهُ**»[2].

أيها الداعي المتوجِّهُ لِربِّه بالدعاءِ أطبْ مطعمَك تُجَبْ دعوتُك،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) مسلم: الزكاة ح (١٠١٥).

وسَلْ نفسَك من أين حَصَلتَ على هذهِ المبالغ التي اشتريْتَ بها الطَّعامَ والشَّرابَ واللِّبَاسَ؟ هل أخذتَ رِشْوَةً مهما سَمّيتَها، وأدْخلتَها على مالِكَ؟ وهل تاجَرْتَ بالحَرَام من دُخانٍ وأشرطةٍ وأفلامٍ ومجلاتٍ خليعةٍ وتغذَّيْتَ وغَذَّيْتَ أولادَك من رِبْحِها؟ هل أنْتَ تعمَلُ في البُنُوكِ الرِّبويةِ التي أَفْتَى العلماءُ بتحريم العمل بها ثَمَّ تُطعِمُ نفسَك وأولادَك من السُّحْتِ الذي تقاضَيْتَهُ منها؟ وهل غَشَشْتَ في بيعك، أو بَخَسْتَ من الوقت الذي التزمت العمل به بأجرٍ معلوم؟

عبدالله: رَبُّنا سبحانه إذا حرَّمَ شيئًا حَرَّمَ ثمنَه، وإن اللهَ قد لعنَ آكلَ الربا ومُوكِلَهُ وَكَاتبَه وشاهِدَيْه، وقد توعَّدَ رسولُ الله ﷺ الذين يظلِمُون الناسَ باغتصابِ أراضيهم فقال: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ من الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». رواه البخاري ومسلم.

وقد توعَّدَ اللهُ المطففينَ في الكيل والوزنِ فقال: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۞ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾[1].

وَوَرَدَ في الأَثرِ: «**مَا طَفَّفَ قَوْمٌ كَيْلاً وَلاَ بَخَسُوا مِيزَانًا إِلاَّ مَنَعَهُمُ اللهُ - عَزَّ وَجُلَّ - الْقَطْرَ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمٍ الزِّنَا إِلاَّ ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الرِّبَا إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجُنُونَ، وَلاَ ظَهَرَ فِي قَوْمٍ القَتْلُ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ، وَلاَ ظَهَرَ فِي قَوْمٍ عَمَلُ قَوْمِ لُوطٍ إِلاَّ ظَهَرَ فِيهِمُ الْخَسْفُ، وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ الأَمْرَ**

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ١-٣.

بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا لَمْ تُرْفَعْ أَعْمَالُهُمْ وَلَمْ يُسْمَعْ دُعَاؤُهُمْ» . رواه ابنُ أبي الدُّنيا والطبرانيُّ .

عبادَ اللهِ : وإذا كانَ لا يجوزُ للمسلم أنْ يأكُلَ الطعامَ الذي وصلَ إليهِ بِمَكْسَبٍ حرام فَكَذلِكَ لا يجوزُ أنَ يَطْعَمَ الخبائث وإن اشْتَرَاها بمالِه الذي وَصَلَ إليهِ بالطُّرِقِ الشرعيةِ الحلالِ؛ فهل المدخنُ وشاربُ الخمرِ ومُتَعاطِي المخَدِّراتِ أطابُوا المطعَمَ؟!

ولعلك تقولُ ليسَ الدخانُ كالمُخَدِّراتِ وهذا صحيحٌ ولكنها خبائثُ، وبعضُها سببٌ لبعضٍ فأولُها جليسُ السوءِ، ثم الدخانُ، ثم الخمرةُ، ثم المخدراتُ، وإنه حَرِيٌّ بكَ أيها المسلمُ أن تتوبَ إلى ربِّك في هذا الشهرِ عن الدخانِ حيث استطعتَ أن تمتنعَ عنه طُوَالَ النهارِ فإنك إن شاءَ اللهُ مع العزيمةِ الصادقةِ والدعاءِ قادرٌ على الامتناع عَنْهُ، وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . فيا من ابتُليتَ به عسى اللهُ أن يعصمَك منه طول عمرك .

عبدَاللهِ : إن الدخانَ مَضَرّةٌ في دينِك وبدنِك ومالِك ومجتمعِك، فهو يدعو متعاطِيه إلى مُخَالَطةِ الأراذلِ والسُّفَهَاءِ والابْتِعادِ عن الأَخْيارِ ومجالس العلم والمُكْثِ في المساجِدِ، وهو سببٌ لكثيرٍ من الأمراضِ الخَطِيرةِ التي ذكرَها الأطباءُ في تحذيرِهم منه، وبه تُنْفَقُ الأموالُ الطائلةُ التي سوفَ يُسْأَلُ المدخِّنُ فِيم أنفقَها يومَ القيامةِ؟ فماذا يكونُ الجوابُ؟ أهي في الخبائثِ أم الطيباتِ؟ فَكَمْ من فَقِيرٍ قد حَرمَ نفسَه وأولادَه الطيباتِ واستبدلَ بذلك التمتعَ

بالدخانِ؟ والمدخنُ يُسيءُ إلى كلِّ من جالسَه وصاحبَه برائحتِه الكريهةِ بل إن ذلك يؤذِي الملائكةَ الكرامَ، ففي الصحيحين عن جابرٍ - رضي الله عنه -: «**إنَّ الملائِكَةَ تتأذَّىٰ مِمَّا يَتأذَّىٰ مِنْهُ الناسُ**».

وهو سببٌ للحرائقِ المروِّعة التي تذهبُ بالأموالِ وتُخرِّبُ البيوتَ فكمْ حصلَ بسببِ أعقابِ السجائرِ من حرائقَ أتتْ على الأخضرِ واليابس، وأتلفَتْ أنفُسًا وأموالاً بغير حقٍّ، تولَّى كِبْرَها ذلكَ المُدَخِّنُ، فاتَّقوا الله عبادَ اللهِ وانصحُوا لأنفسِكم وأولادِكم.

وأنت أيها المدخنُ استفدِ من مدرسةِ الصيامِ وتُبْ إلى ربِّك واستعِنْ باللهِ ولا تعْجَزْ.

إخواني: إن اللهَ - سبحانه وتعالى - لمّا خَلَقَ هذا الإنسانَ أوجدَ لهُ ما يُغَذِّيهِ ويُقوِّيهِ ونَهى عما يضرُّهُ ويردِّيه فقال في وصفِ رسوله ﷺ: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾[1]. والخمرةُ من الخبائثِ التي حرَّمَها اللهُ ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2].

عبادَ اللهِ: انظروا كيفَ قرنَ الله تعالى الخمرَ مع الأنصابِ والأزلامِ التي هي شركٌ باللهِ، إن ذلك يدلُّ على عِظَمِ جريمةِ شاربِ الخمرِ، وكفاكَ أنها من عملِ الشيطانِ، وهل سيكونُ من عملِ

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) سورة المائدة، الآيتان: ٩٠، ٩١.

الشيطانِ ما فيهِ سعادتُكَ أيها المسلمُ؟ واللهُ - سبحانه وتعالى - بيَّن لنا أن اجتنابَه سعادةٌ وفلاحٌ فقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

والخمرةُ سلاحٌ للشيطانِ وأعوانِه من الإنس والجنِّ، يرمونَك به وعن طريقِها يحقِّقُونَ أهدافًا كبيرةً، ومنها أنكَ عن طريقِ الخمرةِ تدخُلُ في زمرةِ أصحابِ المخدراتِ، وبها يوقعُ الشيطانُ وجنودُه العداوةَ والبغضاءَ في الصفِّ المسلم الذي يحرصُ الكلُّ على تماسكِه وترابطِه، وبها صَدٌّ عن ذكرِ الله الذي به حياةُ القلوبِ، وطُمَأْنِينَتُهَا، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2].

وهي تصدُّ عن الصلاةِ التي بها يسعدُ المؤمنُ وتَصِلُه بربِّه وتُسَبِّبُ له دخولَ الجنةِ وتريحُه من عناءِ الدنيا، قال ﷺ لبلالٍ: «**أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ**». رواه أبو داود وصححه الألباني.

عبادَ اللهِ: إن شياطينَ الإنسِ من جلساءِ السوءِ يهوِّنونَ على جلسائِهِمْ هذهِ الخمرةَ ويُوحُونَ إليهِمْ أنها تُزيلُ الهموم وتَشْفِي الأجْسامَ، ومن تهوينِهم لها أنهم يُسمُّونَها بغير اسمِها كقولهم: مشروبٌ رُوحيٌّ، وهي واللهِ دمارٌ للروحِ والعقلِ والجسمِ، فقد رَوَى ابنُ حِبَّانَ في صحيحِه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «**يَشْرَبُ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَةَ يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا**». رواه النسائي وصححه الألباني.

إنه واللهِ من الغريبِ أن يقصِدَ المسلمُ الخمرةَ لإزالةِ همومِه وغمومِه كما يزعُمُ، واللهُ قد رزقَه الصلاةَ فكيفَ لو ذهبَ إلى محرابِه

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

وسجدَ للهِ واستعانَ به في تفريجِ مَا حَلَّ بِه من كُرْبَةٍ وقُدْوَتهُ في ذَلكَ رسولُ الله ﷺ فإنه كانَ إذا همّه أمرٌ وحَزَبَهُ ذهبَ إلى مُصَلَّاهُ ويقول: «**وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاَةِ**». رواه أحمد والنسائي وقال الألباني حسن، فإذا أحاطت بك الهموم فاذهبْ إلى الصَّلاةِ فإن اللهَ لم يجعلْ دواءَ هذه الأمَّةِ فيما حرَّمَ عليها وإن الخمرَ حرامٌ قد حرَّمَه اللهُ ورسولُه، قال ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ، وَكُلّ خَمْرٍ حَرَامٌ**». رواه مسلم.

وعن أُمِّ سلمةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - قالت: نَهَى رسول الله ﷺ: «**عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ**». رواه أحمد وأبو داود.

والخمرةُ مفتاحٌ لكلِّ شَرٍّ، ومن أعظم شرورها أنها تُضعِفُ الإيمانَ، قال ﷺ: «**وَلاَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**». متفقٌ عليه. ومن شرورِها أن رسولَ اللهِ ﷺ ثبتَ عنه في صحيح مسلم أنه لعنَ في الخمرِ عشرةً ومن شرورِها أنها سببٌ لدمارِ الأُمَّةِ، وما أسكرَ كثيرُه فقليلُه حرامٌ، والخمرُ ما خامرَ العقلَ، من مأكولٍ أو مَشروُبٍ أو مَشْمُومٍ.

فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ وارفعوا أنفسَكم عن مجالسةِ السُّكَارَى فإن المسلمَ الصادقَ لا يجلسُ مرتاحَ البالِ مطمئنَّ الضميرِ بين شاربيها.

قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَقْعُدْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدَارُ عَلَيْهَا الْخَمْرُ**». رواه الإمام أحمد وصححه الألباني.

عبادَ اللهِ: إن الذي يُحافِظُ على عَقْلِهِ لا يشربُ الخمرَ فهذا رجلٌ

عاشَ في الجاهليةِ قبلَ الإسلامِ وامتنعَ عن شُرْبها وهو العبّاسُ بنُ مِرْداس السُّلَميُّ فقيل له: مالك لا تشربُ الخمرَ؟ فقال: ما أنا بآخذٍ جَهْلي بيدِي فأُدْخِلُهُ في جَوْفي، ولا أرضَى أن أُصبحَ سيِّدَ قومي وأُمْسِي سفيهَهُمْ.

قال ابن الوردي:

وَاتْـرُكِ الْخَمْـرَةَ إِنْ كُنْـتَ فَتـىً   كَيْفَ يَسْعَى فِي جُنُونٍ مَنْ عَقَلْ

يا من أتبعَ نفسَه هواها اسمعْ لامتثالِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ لَمَّا نزلت: ﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]. قال رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَرَّمَ الْخَمْرَ فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ هَذِهِ الآيَةُ وَعِنْدَهُ مِنْهَا شَيْءٌ فَلاَ يَشْرَبْ وَلاَ يَبِعْ**». قال أبو سعيد الخدري: فاستقبلَ الناسُ بما كان عندَهم منها طُرقَ المدينةِ فَسَفَكُوها. رواه مسلم.

فاتقوا الله عبادَ اللهِ ولا تُدخِلُوا الحرامَ إلى بطونِكم فتُرَدَّ دعوتُكم واستجيبوا لأمرِ ربّكم كما فعلَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ حين اجتمعَ جماعةٌ مِنْ الأنصارِ في بيتِ أبي طَلْحةَ على شُربٍ فسمعوا صوتًا عَالِيًا فقَال أبو طَلْحة لأنس بنِ مالكٍ: انظر ما هذا الصوتُ فخرجَ ثم رجعَ فقال: هذا مُنادِي رسولِ اللهِ ﷺ ينادِي بتحريمِ الخَمْرِ، وكانتِ الكؤوسُ بأيدِيهم فأخذُوا يضربُون بها الحِيطانَ ويقولون: سمعًا وطاعةً للهِ ولرسولهِ، ثم خرجوا إلى السوقِ وبه صُرُوُف الخمرِ

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٩٠.

فجعلوا يضربونَها بالسَّكاكينِ حتى سَالَتْ بها الأزقَّةُ (أي الأسواق) فهُمْ رضي الله عنهم يأخذون الأمرَ بِجِدٍ ويعرفونَ أن هذا القرآنَ ليسَ للتلاوةِ فقط وإنما هو للتلاوةِ والتطبيقِ العمليِّ فهذا القرآنُ يُنَظِّمُ حياتَهم وسلوكَهُمْ.

عبادَ الله: إن الأمةَ الجاهليةَ كادَتْ تَعْبُدُ الخمرَ فأنقذَها الله بالإسلامِ وحرمَ عليها الخمرَ، ولكنه أخذَها بالتدريجِ لأَنَّها قد اعْتَادَت عليه، فلَّما رَسَخَتِ العقيدةُ في قلوبِهم تركُوا شربَ الخمرِ دونَ خوفٍ من سلطانٍ أو رقيبٍ إلا سُلْطَانَ اللهِ ورقابتَه الدائمةَ، ولهذا لم يأتِ الإسلامُ أولاً ليمنعَ الخمرَ ولكنه أولاً ثبَّت أركانَ العقيدةِ وغيَّر أساسَ البناءِ الهشِّ الذي يقومُ عليه المجتمعُ الجاهليُّ وأرسى دعائمَ المجتمع الإسلاميِّ بتثبيتِ شهادةِ أن لَّا إِلَهَ إلَّا اللهُ ولا معبودَ بحقٍّ سواهُ، ولاَ مشرِّعَ ولا حاكمَ في حياةِ الناس سواهُ... فلما خرجَ حضُّ أنفسِهم من أنفسِهم وانقادت النفوسُ الجامحةُ واستسلمتْ تلكَ الأرواحُ القلقَةُ لحكمِ اللهِ وارتضَتْهُ في الصغيرِ والكبيرِ، عندئذٍ نزلَتْ التشريعاتُ تِبَاعًا تمنعُ الخمرَ والميسرَ وتمنعُ الرِّبا والزِّنا، قالت عائشةُ - رضي الله عنها -: «إنَّمَا نَزَلَ أولَ ما نزلَ منه (أي القرآن) سورةٌ من المفصَّلِ فيها ذكرُ الجنةِ والنارِ حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلام نزلَ الحلالُ والحرامُ. ولو نزلَ أولَ شيءٍ لا تشربُوا الخَمْرَ لقالُوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أبدًا. ولو نزلَ لا تَزْنُوا لقالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أبدًا. لقد نزلَ بمكةَ على محمدٍ ﷺ وإني لجاريةٌ ألعبُ

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[1]. وَمَا نزلَتْ سورةُ البقرةِ والنساءِ (وفيها كثير من التشريعات) إلاَّ وَأَنَا عِنْدَهُ». رواه البخاريُّ[2]

ربنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ، ربنا اغفرْ لنا وتُبْ علينا إنك أنت التوابُ الغفور، ربنا أوزِعْنَا أن نَشْكُرَ نعمتَك التي أنعمتَ علينا وعلى والدِينا، ووفِقْنَا للعملِ الصالح الذي يُرضِيكَ عَنَّا، وأدخِلْنَا برحمتِكَ في عبادك الصالحين، وصلَّى الله وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٦.

(٢) انظر: كتاب الخمر للدكتور محمد علي البار.

فَتْوى لسماحةِ الشيخ عبدالعزيز ابن بازٍ حفظَهُ اللهُ عن حُكْمِ العَمَلِ فِي البُنُوكِ الرِّبَويَةِ أَوْ المُسَاهَمَةِ فِيهَا

السؤال: لي ابنُ عمٍّ يعملُ في بنكِ الجزيرةِ كاتبًا وأفتاه بعضُ العلماءِ أَلَّا يَبْقَى فِيهِ وأَنْ يَبْحثَ عن وَظِيفةٍ أخرى غيرَ البنكِ، أفيدُونا عن ذلك جَزَاكم الله خيرًا هل يجوزُ أم لا؟

الجواب: قد أحسنَ الذي أَفْتَاه بالفَتْوى المذكُورَةِ؛ لِأَن العملَ في البنوكِ الربويةِ لا يجوزُ لكونِ ذلك من إعانتِها على الإثم والعدوانِ والله سبحانه يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1].

وقد صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه لعنَ آكلَ الرِّبا وموكِلَهُ وكاتِبَهُ وشَاهِدَيْهِ، وقال: «هُمْ سَواءٌ». أخرجَهُ مسلمٌ في صحيحه[2]

السؤال: هل تجوزُ المساهمةُ في البنوكِ العاملةِ بالمملكةِ العربيةِ السعوديةِ أمثالِ البنكِ السعوديِّ الأمريكي، والبنكِ السعوديِّ التجاري المتحدِ التي مطروحةٌ أسهمُه الآن للاكتِتَابِ وغيرِهما من البنوك؟

الجواب: لا تَجُوزُ المساهمةُ في البنوكِ الربويةِ كما لا تجوزُ المعاملاتُ الربويةُ معَ البنوكِ وغيرها؛ لأنَّ ذلكَ من التعاونِ على الإثم والعدوان. واللهُ سبحانه يقولُ: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) كتاب الدعوة والفتاوى الجزء الأول ص ١٤٣.

(٣) كتاب الدعوة والفتاوى الجزء الأول ص ١٤٥ - سورة المائدة، الآية: ٢.

الباب الثامن عشر

بِـرُّ الْوَالِدَيْن

الحمدُ للهِ الذي وعدَ من أطاعَه بنعيمِ الجنانِ، وتوعَّدَ من جحدَه، وعصاهُ بجحيمِ النيرانِ، مُظهرِ الحقِ ومبدِيهِ، ومنجزِ الوعدِ وموفِيه.

قسَّم خَلْقَه إلى شقيٍّ وسعيدٍ، ومقبولٍ وطريدٍ، الغنيُّ عن خلقِه، فلا معاصِيهم تُنْقِصُ مُلْكَهُ، ولا طاعتُهم تَزِيد، فله الغِنَىٰ التامُّ من جميع الوجوه على توالي الأزمان.

أحمدُه على ما أولاه من الإِحسانِ، وأشكُره وقد تأذَّنَ بالزيادةِ لأهل الشُّكرانِ، وأشهدُ أن لآ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ الملكُ الديانُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الداعي إلى الجنات صلى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه أهلِ الفضلِ والكرامات وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فيا عبادَ الله اعلمُوا أنَّه سَبْحانَهُ وتعالى فَطَر الأَبَوَينِ على الشَّفقةِ على أبنائِهم والإِحسانِ إليهمْ، والتضحيةِ براحتهِمَا ومالِهِمَا في سبيلِ راحةِ الأبناءِ، وهذا الصنيعُ الجميلُ من الوالدينِ يجبُ أن يُقابَلَ بالإِحسانِ والشُّكْرِ من قِبَلِ الأبناءِ، وفي هذا رَدٌّ لبعضِ الجميلِ لمن أسداهُ، مع بقاءِ الفضلِ للمتقدم.

وبرُّ الوالدينِ دليلٌ على الترابطِ الاجتماعيِّ الذي حثَّ الإسلام عَلَى اتباعِهِ وميَّز به المُسْلِمينَ عن الأمم الكافرةِ.

فالأُسَرُ المسلمةُ تفخَرُ بوجودِ الآباءِ والأمهاتِ بينَهم خاصةً عندَ كِبَرِ السِّنِّ وكثرةِ الأبناءِ والأحفادِ، ويبقَى الأبُ المسلمُ بين أبنائه وأحفادِه كالملك في مملكتِه يتنقَّلُ بين هذه البيوتِ، والابنُ الذي يحظَى بوجودِ الأبِ أو الأمِّ، عندَه يفخرُ على إخوانِه الآخرينَ. والمجتمعُ من حولِه ينظرُ إليه نظرةَ إعزازٍ وإكبارٍ لِبرِّه بوالِدَيْه.

عبادَ اللهِ: إننا لا نسيرُ خلفَ الغربِ أو الشرقِ في سلوكِهم، فإن المنهجَ الإسلاميَّ مُتميِّزٌ عَنْ غيرِه من المناهِجِ، والله قد أمرنَا في كتابِه العزيزِ أن نقتدِيَ برُسلِه الكرامِ فقال سبحانَه: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1]، ورُسُلُ اللهِ بررةٌ بوالِديهم. يقول نوحٌ ﷺ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾[2].

ويقول إبراهيمُ ﷺ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۞ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾[3].

ويقولُ سبحانه عن إسماعيلَ ﷺ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٢) سورة نوح، الآية: ٢٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآيتان: ٤٠، ٤١.

(٤) سورة الصافات، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.

وقالَ سبحانَه عن يحيىٰ ﷺ: ﴿ يَـٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا ۞ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۞ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾[1].

وقال سبحانَه عن عيسىٰ ﷺ: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيًّا ۞ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[2].

واللهُ سبحانه وتعالى أمرَ المسلمينَ رُسُلاً وعامةً ببِرِّ الوالدين. ومن أهميةِ ذلك أن اللهَ سبحانه قرنَ الإحسانَ إليهم بعبادته، والشكرَ لهم بشكرِه فقال: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَـٰنًاۚ ﴾[3]، وقالَ: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[4].

وقد جَعَلَ اللهُ سبحانه وتعالى للوالدين حقوقًا عظيمةً نظرًا لفضلِهما العظيمِ على الأولادِ، فقد اعتنيا بهم وربَّاهُم على الأخلاقِ الفاضلةِ، وعلى طاعةِ الله وحُرِمَا كثيرًا من الراحةِ بسَبَبِهم، فعليكَ أخي المسلمَ أن تعملَ جاهدًا على بِرِّهما سواءً كانا من الأحياءِ أو الأمواتِ. وفي هذا تنفيذٌ لوصيةِ اللهِ بهما، وإرضاءٌ للهِ ولهما، وأَدَاءٌ لبعضِ الجميلِ الذي أَسْدَيَاهُ لكَ.

تذكَّرْ أخي المسلمَ أن فضلَ وَالِدَيْكَ عليك أعظمُ من كلِّ برٍّ تَبَرُّهما به. ولن تستطيعَ مهما بذلتَ أن تُجازِيَهُمَا على إحسانِهما.

---

(١) سورة مريم، الآيات: ١٢-١٤.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٣٠-٣٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

(٤) سورة لقمان، الآية: ١٤.

فعن أبي هريرةَ - رضي اللهُ عنه - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «لاَ يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلاَّ أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَه» رواه مسلمٌ.

وقد رأى ابنُ عُمَرَ رضي اللهُ عنهما رجلاً قد حَمَلَ أُمَّهُ على رقَبته وهو يطوفُ بها حولَ الكعبةِ. فقالَ: يا ابنَ عمرَ أَتُرانِي جَازَيْتُهَا؟ قالَ: «وَلاَ بطَلْقَةٍ واحِدَةٍ من طَلْقَاتِها، ولكن أحسنتَ واللهُ يثيبُك على القليل كثيرًا»[1].

فعليك أخي المسلمَ ببرِّ الوالدينِ والإحسانِ إليهما ممتثلاً لقولِ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۞ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[2].

تَعَلَّمْ أيها المسلمُ من كتابِ ربِّك كيفَ تتأَدَّبُ مع والِدَيْكَ فلا تتأَفَّفْ من شيءٍ تراهُ أَوْ تسمعُهُ أو تَشمُّهُ من أحدِ والِدَيْكَ، وعليكَ أن تصبرَ وتحتسبَ كما صَبَرا على ذلِكَ منكَ في صِغَرِك ممتثلاً لقولِ ربِّك: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾.

ولا ترفعْ الصوتَ عليهما بل احرصْ دائمًا أن يكونَ صوتُك أخفضَ من صوتِهما، وقلْ لهما قولاً كريمًا حَسَنًا طيبًا مقرونًا بالاحترام والتقديرِ استجابةً لأمرِ ربِّك ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

---

(١) الأدب المفرد ١/ ٦٢ مع فضل الله الصمد.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

وقال عطاءُ بنُ أبي رباحٍ في قوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي لا تنفُضْ يدَكَ عليهما.

وعليكَ بالتواضُعِ والتذلُّلِ لهما بالقولِ والفعلِ، وانظرْ إليهما نظرةَ رحمةٍ وعطفٍ، ولا تنظُرْ إِلَيْهِمَا نَظْرَةَ غضبٍ وتكبُّرٍ حتى ولو أغضَبَاكَ، فعن عُروةَ رحمهُ اللهُ قَالَ عِنْدَ قَوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾، إنْ أغضَبَاكَ، فلا تنظُرْ إليهما شَزَراً، فإن أَوَّلَ ما يُعرفُ به غضبُ المرءِ شدةُ نَظَرِهِ إلى مَن غَضِبَ عَلَيْهِ، كَمَا أَنَّ من حقِّهما عليكَ كثرةَ الدعاءِ لهما بالرحمةِ والغفرانِ، جزاءَ تربيتِهما لك، ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

عبادَ اللهِ: إن حقَّ الوالدينِ عظيمٌ ولذلكَ قدَّمَه رسولُ الله ﷺ على الجهادِ في سبيلِ اللهِ.

فعن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: «سألتُ رسولَ الله ﷺ أَيُّ العملِ أَحبُّ إلى اللهِ؟ قال: **الصَّلاةُ علَى وَقْتِهَا**. قلتُ: ثمَّ أَيُّ؟ قالَ: **برُّ الْوَالِدَيْنِ**. قلتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قالَ: **الْجِهادُ في سَبِيلِ اللهِ**» متفقٌ عليه.

ولِعِظَمِ حقِّهما أمرَ الله - سبحانه وتعالى - بالإِحسانِ إليهما، ومصاحبتِهما بالمعروفِ حتى مع كُفْرِهِما، بَلْ وهما يعملانِ لصدِّك عن الدينِ وإدخالك الكفرَ وارتكابَ المعصية، فإنَّ ذلك لا يُسْقِطُ حقَّهما من البرِّ. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾(1).

(1) سورة لقمان، الآية: 15.

وعن أسماءَ - رضي الله عنها - قالتْ: «قَدِمَتْ عَليَّ أُمِّي وهي مشركةٌ في عهدِ رسولِ الله ﷺ فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ قلت: قدمتْ أُمِّي وهي راغبةٌ أَفَأَصِلُ أُمِّي؟ قال: **نَعَمْ. صِلِي أُمَّكِ**» متفقٌ عليه.

عبادَ اللهِ: إذا كان كفرُ الوالدينِ أو أحدِهما لا يُسقِطُ حقَّهما من البِرِّ فمِنْ بابِ أولَى ما كانَ دونَ ذلكَ من المعاصي.

ولكن هذا لا يعني أن تفعلَ المعصيةَ طاعةً لوالدَيْكَ «إذ لا طاعةَ لمخْلُوقٍ في معصيةِ الخالقِ».

ذكر المَرْوَزِيُّ أن رجلاً من أهلِ حمصٍ سألَ أبا عبدِالله أن أباه له كرومٌ[1] يريدُ أن يعاونَه على بيعِها. قال: «إن علمتَ أنَّه يبيعُها مِمَّن يَعْصرُها خمرًا، فلا تعاونْهُ».

وهذا الصحابيُّ الجليلُ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ لماأَسْلَم غضِبَتْ عليه أُمُّهُ وأَمَرَتْهُ بتركِ دينِ الإسلامِ فرفضَ، فهددَتْ أن لا تأكُلَ ولا تشربَ حتى يرجعَ عن دينِه أو تموتَ، فتُعَيِّرَهُ العربُ أنه قتلَ أُمَّهُ، فمكثَتْ ثلاثًا، حتى غُشِيَ عليها من الجَهْدِ، فقام ابنٌ لها يقالُ له: عُمَارَةُ فسَقَاها فجعلتْ تدعو عَلى سَعْدٍ: فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[2]. رواه مسلمٌ وأحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ.

وبرُّ الوالدينِ سببٌ في تفريجِ الكربِ، وذهابِ الهمومِ والأحزانِ، فقد قال رسولُ اللهِ ﷺ: «بينما ثلاثةُ نفرٍ يمشون أَخَذَهُمَ

(١) الكروم: العِنَبُ.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٥.

المطرُ فمالُوا إلى غارٍ في الجبلِ فانحطَّتْ على فمِ غارِهم صخرةٌ من الجبلِ فأطبَقَتْ عليهم، فقال بعضُهمْ لبعضٍ: انظروا أعمالاً عملتمُوها للهِ صالحةً فادعُوا اللهَ بها لعلَّهُ يَفْرِجُها فقال أحدُهم: اللهم إنهُ كانَ لِي والدانِ شيخانِ كبيرانِ، ولِي صِبيةٌ صغارٌ كنتُ أَرعَى عليهِمْ، فإذا رُحْتُ عليهم فحلبتُ بدأتُ بوالديَّ أَسْقيهِمَا قبلَ وَلَدِي، وإنَّهُ نَأى بِيَ الشجَرُ فما أَتيتُ حتى أَمْسَيْتُ، فوجدتُّهما قَدْ نَامَا، فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ، فجِئْتُ بالحِلَابِ فقمتُ عند رُؤوسِهما أكرهُ أن أوقِظَهما من نومِهما، وأكرَهُ أن أبدأَ بالصبيةِ قبلَهما، والصبيةُ يتضاغَوْنَ عندَ قَدَمَيَّ، فلم يَزَلْ ذلك دَأَبِي ودأَبَهم، حتى طلعَ الفَجْرُ، فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك فافرُجْ لنا فرجَةً نرى منها السماءَ، ففرَّجَ اللهُ فرجةً فرأَوْا منها السماءَ.

وقال الثاني: اللهم إنَّهُ كان لِي ابنةُ عمٍّ أُحِبُّها كأشدِّ ما يحبُّ الرجالُ النساءَ فطلبتُ إليها نفسَها فأَبَتْ حتى آتيها بمائةِ دينارٍ. فسعيتُ حتى جمعتُ مائةَ دينارٍ فَلَقَيْتُهَا بها، فلما قعدتُ بين رجْلَيْها قالت: يا عبدَالله اتقِ اللهَ ولا تَفْتَحِ الخاتمَ، فقمتُ عنها. اللهمْ فإن كنتَ تعلمُ أني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك فافرُجْ لنا منها، ففرَّجَ لهم فُرجَةً.

وقال الآخر: اللهم إني كنتُ استأجرتُ أجيرًا بفرقِ أُرْزٍ، فلما قضىٰ عملَه قال: اعْطِني حقِّي فعرضْتُ عليه حقَّه فتركَه ورَغِب عنه، فلم أزلْ أزرعُهُ حتى جمعتُ منه بقرًا وراعِيها. فجاءَنِي فقال: اتقِ

اللهَ ولا تظلِمْني وأَعطِني حقِّي فقلتُ: اذهَبْ إلى ذلكَ البقرِ وراعِيها. فقال: اتقِ اللهَ ولا تهزأْ بي. فقلت: إني لا أَهزأُ بك فخُذْ ذلك البقرَ وراعِيهَا فأخذهَا فانطلَقَ بها. فإن كنت تعلمُ أَني فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك فافرُجْ ما بقَى. ففرَّجَ اللهُ عنهم» رواه البخاريُّ.

بهذه القصةِ الحقيقيَّةِ الواقعيةِ يَعتَبِرُ المؤمنُ العاقلُ، ويوقنُ أن إرضاءَ والديهِ سببٌ في حلولِ الفَرَجِ إذا بلغتِ الشدةُ غايتَها، وتسهيلِ العسيرِ إذا استحكمتْ عُقَدُهَا، فإذا رضيَ الوالدانِ رضيَ اللهُ وانحلَّتِ العقد، ولانَ القاسِي، وسَهُلَ العسيرُ، وتحقَّقَتِ الأمانيُّ.

عباد الله: اعلموا أنَّ مِنْ برِّ الوالِدَين دعوتَهم إلى الإسْلاَمِ والخروجَ بهم من الكفرِ، ودعوتَهم إلى الطاعةِ والخروجِ من المعصيةِ، بل إن هذا من أعظمِ البرِّ لأن فيه النجاة من نارٍ حرُّها شديدٌ وقعرُها بعيدٌ، وطعامُ أهلِها الزَّقومُ والصَّديدُ، ولكن يجبُ أن تُوجَّهَ لهم الدعوةُ برفقٍ ولينٍ كما ذكرَ اللهُ ذلك عن رسولِه إبراهيم ﷺ بقوله عزَّ وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۞ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ۞ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ۞ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾[١].

وعن أبي هريرةَ - رضي اللهُ عنه - قالَ: «كنتُ أدعو أُمِّي إلى

(١) سورة مريم، الآيات: ٤١-٤٥.

الإسلام، وهي مشركةٌ فدعوتُها يومًا فأسمعَتْنِي في رسولِ اللهِ ﷺ ما أكرَهُ، فأتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ وأنا أَبْكِي، قلتُ: يا رسولَ اللهِ إني كنت أدعُو أُمِّي إلى الإسلام، فتأبَى عليَّ، فدعوتُها اليومَ، فأسمَعَتْنِي فيك ما أَكْرَهُ، فادعُ الله أن يهدِيَ أُمَّ أبي هُريرةَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ**» فخرجتُ مستبشِرًا بدعوةِ نبيِّ الله ﷺ، فلما جئتُ فصرتُ إلى البابِ فإذا هو مجافٍ [أي مغلق] فَسَمِعَتْ أُمّي خَشَفَ قَدَمَيَّ، فقالتْ: مكانَك يا أبا هريرةَ، وسمعتُ خَضْخَضَةَ الماءِ، قال: فاغتسلَتْ ولبسَت درعَهَا، وعجلَتْ عن خِمارِها، ففتحَتِ البابَ، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهدُ أن لَّا إلهَ إلا اللهُ، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله، قال: فرجعتُ إلى رسولِ الله ﷺ فأتيتُه وأنا أبكِي من الفرحِ، قال: قلت: يا رسول الله أبشِرْ، قد استجابَ اللهُ دعوتَك وهدَى أُمَّ أبي هريرةَ فحمدَ اللهَ وأَثنَى عليه، وقال خيرًا. قال: قلتُ: يا رسول الله: ادْعُ الله أن يُحَبِّبَنِي أنا وأُمي إلى عبادِه المؤمنينَ ويُحَبِّبَهُمْ إلينا. قال: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا - يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ -، وَأُمَّهُ إِلَى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ**» فما خُلِقَ مؤمنٌ يسمعُ بي ولا يَرانِي إلا أحبَّنِي». رواه مسلم[1].

إخواني: إن المولى - جل وعلا - قد سَّهلَ لنا طرقَ الخيرِ ويسَّرَها فمن ماتَ والدَاه أو أحدُهما، فقد بقيَ من برِّ والدَيْه الخيرُ

(١) مسلم: فضائل الصحابة: ح ٢٤٩١.

الكثيرُ، فعن مالكِ بنِ ربيعةَ الساعديِّ - رضي الله عنه - قالَ: بينما أنا جالسٌ عند رسولِ اللهِ ﷺ إذ جاءه رجلٌ من الأنصارِ قالَ: «يا رسولَ اللهِ هل بَقِيَ عليَّ من برِّ أَبَوَيَّ شيءٌ بعدَ موتِهما أَبَرُّهُما به؟ قال: **نَعَمْ خِصَالٌ أَرْبَعٌ: الصَّلاَةُ عَلَيْهِمَا، والاِسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَإِنْفَاذُ عَهْدِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِما، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لاَ رَحِم لَك إلاَّ مِنْ قِبَلِهِمَا، فَهُوَ الَّذِي بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْ بِرِّهِمَا بَعْدَ مَوْتِهِمَا**» رواه أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجةَ وهو حديثٌ حسنٌ.

فالصلةُ إذًا مازالتْ قائمةً بين الولدِ وأبويْه، يطلبُ الرحمةَ والمغفرةَ لهما من اللهِ تعالى، ويُنْفِذُ عهدَهما، ويُكْرِمُ صديقَهما، ويصلُ رحمَهُ التي هي من قِبَلِهِمَا، فينالُ بذلك رضَىٰ الله ورضاهما.

ومن الوفاءِ ألا ينسَى الإِنسانُ المعروفَ، ولا يجحدُ الفضلَ، ومن كافأَ على معروفٍ أُسْدِيَ إليه، وهو لايزالُ يَعدُّ نفسَه مقصِّرًا تُجاهَ صاحِبِه، كان أكثرَ الناسِ وفاءً ومروءةً، والولدُ المغمورُ بأفضالِ والدَيْه حَرِيٌّ أن يَرَىٰ نفسَه عاجزًا ومُقَصِّرًا ومَدِينًا، ولو بلغَ في البرِّ أقصاه.

فهذا عبدُاللهِ بنُ عمرَ بنُ الخطابِ - رضي اللهُ عنهما - يَضْرِبُ لنا المثلَ في الولدِ الصالِح، قال عبدُاللهِ بنُ دينارٍ: إن عبدَاللهِ بنَ عُمَرَ لقيه رَجُلٌ بطريقِ مكَّةَ فسلَّمَ عليه عبدُالله، وحملَه على حمارٍ كان يركبُه، وأعطاهُ عمامةً كانتْ على رأسِه. قال ابنُ دينارٍ: فقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللهُ! إِنَّهُمُ الأَعْرَابُ، وإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ باليَسِيرِ. فقال عبدُالله:

إن أبَا هذا كانَ وُدًّا لعُمَرَ بنِ الخطابِ، وإني سمعتُ الرسول ﷺ يقول: «**إنَّ مِنْ أَبَرِّ الْبِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَن يُوَلِّيَ**» رواه مسلم(١).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إِذَا مَاتَ الإنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَثَةٍ أشياء، إلاَّ مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**». رواه مسلم(٢).

ولذلك يرفعُ الله المسلمَ الدرجاتِ في الجنةِ بسببِ استغفارِ ولدِه.

فعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّىٰ لِي هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**»(٣). رواه الإمام أحمدُ والبيهقيُّ وصححهُ الألبانيُّ.

وليسَ برُّ الوالدينِ مقصورًا بعد موتهِمَا على الدعاءِ لهما فَحَسْبُ، فإذَا عَلِمَ أحدُنا أن على والدَيْه أو أحدِهما دَيْنًا من صيامٍ قضاهُ عنهما، وإذا لم يَحُجَّا حجّ عنهما ولو لم يوصِيَا بذلِكَ، وقيامُ الولدِ بأداءِ هذين الفرضَيْنِ عنهما يُزِيلُ مسؤولِيَّتَهُمَا أمامَ الله تعالى بعد موتهما ويزيدُ في حسناتِهما ولا يَنْقُصُ من أجره شيءٌ، فعن بريدةَ - رضي الله عنه - قالَ: بينما أنا جالسٌ عند رسولِ اللهِ ﷺ إذ أَتَتْهُ امرأةٌ فقالت: إني تصدقتُ على أُمِّي بجاريةٍ، وإنَّها مَاتتْ، قالَ: فقالَ: «**وَجَبَ أَجْرُكِ وَرَدَّهَا عَلَيْكِ الْمِيرَاثُ**». قالت: يا رسولَ اللهِ

(١) مسلم: البر والصلة ح/ ٢٥٥٢.
(٢) مسلم: الوصية ح/ ١٦٣١.
(٣) أحمد والبيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع جـ١ ص ٣٣٤.

أنه كان عليها صومُ شهرٍ أفأصومُ عنها؟ قال: «**صُومِي عَنْهَا**»، قالتْ: إنها لم تَحجْ قطُّ، أفاحجُّ عنها؟ قال: «**حُجِّي عَنْها**». رواه مسلم.

إخواني: لقد بذلَ الآباءُ المال في حالِ صِغرِكُم لراحتِكم، فأدخِلُوا السرورَ عليهم في القبورِ ببذلِ المالِ صدقةً عنهم، فإن ذلك ينفعُهم في قبورِهم.

فعن ابنِ عباسٍ - رضي اللهُ عنه - أن سَعْدَ بنَ عُبَادةَ توفيَتْ أُمُّه وهُو غائبٌ عنها، فقال: يا رسولَ الله إنَّ أُمي تُوفِّيَتْ، وأنا غائبٌ عنها، فهل ينفعُها إن تصدقْتُ بشيءٍ عنها؟ قال: **نعم**. قال: فإني أُشْهِدُكَ أنَّ حائطَ المِخْرَافِ «أي المثمر» صدقةٌ عليها. رواه البخاري.

عبادَ اللهِ: كما أن الْمَوْلى - جل وعلا - قَرَنَ الإحسانَ إلى الوالدينِ بعبادتِه وقَرَنَ شُكْرَهما بشكرِه، فقد قرن رسولُ الله ﷺ عقوقَ الوالدينِ بالشِّرْكِ باللهِ.

فَعَنْ أبي بكرةَ - رضي اللهُ عنه - قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟** قُلْنَا: بلى يا رسولَ الله. قالَ: **الْإِشْرَاكُ باللهِ وَعُقُوقُ الْوالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ**» متفقٌ عليه.

وعن عبدِالله بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ - رضي اللهُ عنهما - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ**» رواه الترمذيُّ[1] وصححه الألبانيُّ.

---

(١) الترمذي: البر والصلة ح ١٨٨٩.

يا عبادَ اللهِ: استَجيبُوا لأَمرِ ربِّكم، وَقَدِّمُوا رضَا الوالِدَين على كُلِّ شيءٍ، على أنفسِكم وأبنائِكُم وزوجاتِكُم، وبَرُّوا آباءكم تبَرُّكُم أبناؤُكم.

اللهم يا كريمُ يا جوادُ، يا رؤوفٌ بالعبادِ يا مَنْ إذا وعدَ وفَّى، وإذا أوْعَدَ عفَا وجادَ، نسألُك الجنةَ وما قرَّبَ إليها من الأعمالِ والأقوالِ، وأن تعيذَنا من النارِ وما يقرِّبُ إليها من الأعمالِ والأقوالِ.

اللهمَّ يا ذا الكرمِ العميمِ نسألُك أن تُدْخِلَنا في جناتِ النعيمِ، وتُمتعَنا بالنظرِ إلى وجهِك الكريمِ، وأَجْزِلْ من رضوانِك حظَّنَا، وعافِنَا واعْفُ عنا، واغفرْ لنا ولوالِدِينا ولجميع المسلمين الأحياءِ منهم والميتين برحمتِك يا أرحم الراحمين.

الباب التاسع عشر

الجهادُ في سبيلِ اللهِ فَضْلُهُ وحَقِيقَتُه

الحمدُ للهِ الذي أمرَ بالجهادِ لتطهيرِ الأرضِ من الكفرِ والفسادِ، ووعدَ المجاهدينَ بعظيم الأجرِ والثوابِ. وأشهدُ أن لاَّ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبْدُه ورسولُه جاهَدَ في اللهِ بالقَلْبِ واللسانِ والدعوةِ والبيانِ، والسَّيفِ والسنانِ، فكانَ كلُّ عُمُرِهِ في الجهاد صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه.

أما بعدُ:

فقد واجَهَ الإِسلامُ في مسيرتهِ الخالدةِ عبرَ العصورِ تحدياتٍ عنيفةً منذُ أنْ شعَّ نُورهُ الوَضَّاءُ الذي غَمَرَ الكونَ، وبدَّد ظلامَ الضَّلالةِ والكفرِ والجهلِ، وأَحَلَّ محلهَا الهدايةَ، والاستقامةَ على نهجِ الشريعةِ السمحاءِ، التي ارْتَضاها اللهُ لعبادِه.

فمنذ أن صَدَعَ الرسولُ ﷺ بالحقِّ اشْرَأَبَّتْ أعناقُ الكفرِ والضلالِ تسخرُ بالمؤمنينَ، وتؤذيهم ظلمًا وعدوانًا، وتسعى جاهدةً إلى إطفاءِ نورِ الإِسلام بكل ألوان العُنْفِ والقسوةِ، والتعذيبِ، وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ.

فلم يَزِدْ هذا التعذيبُ رسولَه ﷺ وأصحابَه الصادقين الصابرين إلا ثباتًا ورسوخًا في دين الله.

وهذا هو ديدَنُ المؤمنينَ المخلصين الذين يَبْذُلونَ أرواحَهم رخيصةً لله لا يرجُون إلا ثوابَهَ ورضوانَه بعيدًا عن كل عَرَضٍ من أعراضِ الدنيا الفانيةِ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

وحِيْنَما بَغَى المشركون وأسرفُوا في غَيِّهم وعِنادِهم، وتطاوَلُوا على الرسولِ ﷺ وهمُّوا بقتلِه، وضيَّقوا الخناقَ على أصحابِهِ هاجَر عليه الصلاةُ والسلامُ، وأصحابُهُ - رَضِيَ اللهُ عنهم - فارِّين بدينهم إلى المدينةِ، بعد أنْ عزَّزَ اللهُ رَسُولَه بالعُصْبَةِ المؤمنَةِ من الأنصارِ، وصارَ للمؤمنين كيانٌ في المدينةِ، فمنعَتْهُ أنصارُ اللهِ، وكتيبةُ الإسلامِ من الأَسْوَدِ، والأَحْمَرِ، وبذلُوا نفوسَهُمْ دونَه، وقدَّمُوا محبتَهُ على محبّةِ الآباءِ والأبناءِ والأَزواجِ، وكانَ أولَى بهمْ من أنفسِهِمْ.

فرمتْهُمُ العربُ واليهودُ عن قوسٍ واحدةٍ، وشمّروا لهم عن ساقِ العداوةِ والمحاربةِ، وصاحُوا بهم من كلِّ جانبٍ.

حينئذٍ أَذنَ اللهُ لهمْ في القتالِ، ولم يُفْرَضْ عليهم، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾[2].

ثم فُرِضَ عليهم القِتَالُ لِمَنْ قاتَلَهم دُونَ مَنْ لم يقاتِلْهُم. قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾[3].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

(٢) سورة الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

ثم أنزلَ اللهُ سورةَ «براءة» وأمرَ بقتالِ المشركين كافةً، وقتالِ أهلِ الكتابِ إذا لم يُسلمُوا حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ولم يُبَحْ لهم تركُ قِتالِهم وإنْ سَالَمُوهُم، وهادَنُوهُم هُدْنَةً مطلقةً مع إمكانِ جهادِهم.

فأوجَبَ اللهُ على المسلمينَ القتالَ، وعظَّم أمرَ الجهاد، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقد تظاهَرتْ آياتُ الكتابِ، وتواترتْ نصوصُ السُّنةِ على الترغيبِ في الجهادِ والحضِّ عليهِ، ومَدْحِ أهلِه، والإخبارِ عمّا لهم عندَ ربِّهم من أنواعِ الكراماتِ، لأنَّهم جُندُ اللهِ الذين يُقيمُ بهم دينَهُ، ويدفعُ بِهِمْ بأسَ أعدائِه، ويحفظُ بهم بيْضَةَ الإسلامِ، ويحمي بِهِمْ حَوزَةَ الدينِ.

فأيُّ أجرٍ وثوابٍ أعظَمُ مما جاءَ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤١.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2].

فانظُرْ إلى المُشترِي لهذه النفسِ مَنْ هُوَ؟ وانظُر إلى الثمنِ المبذولِ فيها ما هو؟ وانظُر إلى من جَرى على يدِه عقدُ التَّبايُع؟

فالسلعةُ النفسُ، والله سبحانه المُشترِي، والثمنُ لها جناتُ النعيمِ، والسفيرُ في هذا العقد خيرُ خلقِهِ من الملائكةِ، وخيرهُمُ من البَشَرِ، وأكرمُهُم عليه.

وقد عاتبَ اللهُ المتخلفينَ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوكَ المُتَثَاقِلينَ إلى نَعيمِ الأرضِ، المُتَقَاعِدِينَ عن المُبادرةِ إلى الخروجِ، وتوعَّدهم بعذابِهِ الأليمِ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[3].

والنبي ﷺ رغَّب في الجهادِ بسيرتِهِ وثباتِهِ، وشجَاعتِهِ وصَبْرِهِ.

---

(١) سورة الصف، الآيات: ١٠-١٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١١١.

(٣) سورة التوبة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة: «تضمَّنَ اللهُ لمن خرجَ في سبيلِه لا يُخرجُهُ إلا جهادٌ في سَبِيلِي، وإيمانٌ بي، وتصديقٌ برُسُلي، فَهو عَليَّ ضامنٌ أن أُدخِلَه الجنةَ، أو أُرجعَهُ إلى منزلِهِ الذي خرجَ منه بما نالَ من أجرٍ، أو غنيمةٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سبيلِ اللهِ إلاَّ جاءَ يَوْمَ القِيَامَة كهيئتِه يومَ كُلِمَ، لونُهُ لونُ الدَّمِ، وريحُهُ رِيحُ مِسكٍ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لولا أن يُشَقَّ على المسلمين ما قعدْتُ خِلافَ سَرِيَّةٍ تغزُو فِي سبيلِ اللهِ أبدًا، ولكن لا أجِدُ سَعَةً فأحملَهم، ولا يجدون سَعَةً، ويَشُقُّ عليهم أن يتخلفُوا عَنيِّ، والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لوَدِدْتُ أن أَغْزُوَ في سبيلِ الله فأُقْتَلَ، ثم أَغْزُوَ فأُقْتَلَ، ثم أَغْزُوَ فَأُقْتَلَ»(١). رواه مسلم

وعن أبي هريرةَ - رضي اللهُ عنهُ - قيلَ: يا رسولَ الله ما يعدلُ الجهادَ في سبيلِ الله؟ قال: لا تستطيعُونَه، فأعادُوا عليه مرَّتَيْنِ، أو ثلاثًا كلُّ ذلك يقولُ: لا تستطيعُونَه، ثم قالَ: «مَثَلُ المُجاهِدِ في سبيلِ اللهِ كمَثَلِ الصائمِ القائمِ القانتِ بآياتِ اللهِ لا يَفْتُرُ من صلاةٍ، ولا صيامٍ حتى يرجعَ المجاهدُ»(٢). رواه مسلم

وعن سْهلِ بنِ سعيدٍ - رضي اللهُ عنه - أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «رباطُ يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضِعُ سوطِ أحدِكم في الجنةِ خيرٌ من الدنيا وما عليها، والرَّوْحةُ يرُوحُها العبدُ في سبيلِ الله تعالى أو الغدوةُ خيرٌ من الدُّنيا وما عليها»(٣). متفق عليه

---

(١) مسلم.
(٢) مسلم.
(٣) متفق عليه.

وعن سلمانَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**رباطُ يوم وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِهِ، وإنْ ماتَ فيه أُجرِيَ عليه عَمَلُهُ الذي كانَ يعملُ، وأُجرِيَ عليه رزقُهُ، وأُمِنَ الفتَّانُ**»[١]. رواه مسلم

وعن أبي هُريرة - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنّ في الجنّةِ مائةَ دَرَجةٍ أَعَدَّهَا اللهُ للمجَاهِدينَ فِي سَبيلِ اللهِ ما بينَ الدرجَتَيْنِ كما بينَ السماءِ والأرضِ**»[٢]. رواه البخاري

وحذَّر ﷺ من التَّخاذُلِ عن الجهادِ فقال: «**من ماتَ ولم يغزُ ولم يحدِّثْ نفسَه بالغزوِ ماتَ على شُعبةٍ من النفاقِ**»[٣]. رواه مسلم

وحياةُ الصحابةِ - رضوانُ اللهِ عليهم - تحفلُ بصورٍ حيَّةٍ للبطولةِ والفِداءِ، والتعطُّشِ للشهادةِ، وخوضِ غِمارِ المعاركِ في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ ودَحْرِ الكُفرِ والباطلِ.

فمِن ذلك ما رواه أنسٌ - رضي اللهُ عنه - قال: «غاب عمِّي أنسُ بنُ النَّضْرِ عن قتال بدرٍ فقال: يا رسولَ اللهِ غِبتُ عنْ أوَّلِ قتالٍ قاتَلْتَ المشركينَ لئنِ اللهُ أشهدَني قتالَ المشركينَ ليَرينَّ اللهُ ما أصنَعُ، فلما كان يومُ أُحُدٍ انكشفَ المسلمونَ، فقالَ: اللهم إني اعتذرُ إليكَ مما صَنعَ هؤلاءِ، يعني أصحابَهُ، وأبرأُ إلَيْك مما صَنَعَ هؤلاءِ يعني المُشْرِكين، ثم تقدَّمَ، فاستقبلَهُ سعدُ بن مُعاذٍ فقالَ: يا سعدَ بنَ معاذٍ

---

(١) مسلم.

(٢) البخاري.

(٣) مسلم.

الجَنَّةَ! وربِّ النَّضْر إني أَجِدُ ريحَها من دونِ أُحُدٍ فقال سعدُ: فما استطعتُ يا رسولَ الله ما صنعَ؟ قال أنسُ: فَوَجَدْنَا به بضعةً وثمانين ضَرْبَةً بالسَّيْفِ، أو طَعْنةً بِرُمحٍ، أو رَمْيةً بسَهْمٍ، ووجدناهُ قد قُتِلَ، ومثَّل به المشركون، فما عرفَهُ أحدٌ إلا أختُه ببَنَانِه، قال أنسُ: كنَّا نَرى، أو نَظُنُّ أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهِه: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾[1]. متفق عليه

ومن الصورِ الحيَّةِ أيضًا تنافُسُ صِبْيانِ الصحابةِ لخوضِ غِمارِ ساحاتِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ، فقد كانَ الواحدُ منهم يَتَطَلَّعُ إلى الشهادةِ، كما صنعَ الفتى عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: «عُرضتُ على النبي ﷺ يوم أحد وأنا ابن اربعَ عشرةَ سنةً فلم يُجْزني وعرضتُ عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرةَ سنةً فأجازني» متفق عليه.

وعن أنس - رضي اللهُ عنه - قال: جاء ناسٌ إلى النبي ﷺ أَنِ ابعثْ معنا رِجالاً يُعَلِّمونا القرآنَ والسُّنَّةَ، فبعثَ إليهم سَبْعينَ رجلاً من الأَنْصارِ يُقال لهم القُرَّاءُ فيهم خالي حَرَامٌ يقرأون القرآنَ، ويتدارسونَهُ بالليلِ، يتعلمونَ، وكانوا بالنهارِ يجيئون بالماءِ فيضعونَهُ في المسجدِ، ويَحْتَطِبونَ فيبيعونَهُ، ويشترونَ به الطعامَ لأهلِ الصُّفَّةِ، فبعثهم النبيُ ﷺ فَعَرَضُوا لهم، فَقَتَلُوهُم قبلَ أن يبلُغوا المكانَ، فقالوا: اللهم بلِّغ عنا نَبِيَّنا، أنَّا قد لَقِيْنَاكَ فَرَضِينا عَنْكَ، وَرَضِيت

---

(١) متفق عليه.

عنًّا، وأتى رجلٌ حرامًا خالَ أنس من خلفِه فطعَنَهُ برُمح حتى أنفذَهُ، فقال حرامٌ: فُزتُ وربِّ الكعبةِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إن إخوتكم قد قُتلوا وإنهم قالوا: اللَّهُمَّ بَلِّغْ عنا نبيّنا أنَّا قد لَقِينَاك فَرَضِينا عَنْكَ، وَرَضِيتَ عنا**»[1]. متفق عليه واللفظ لمسلم

عبادَ اللهِ: ونحنُ في شهرِ رمضانَ فإن هناك ترابطًا وثيقًا بين الجهادِ والصيامِ، فالصومُ مُغالَبَةٌ لشهوةِ الطعامِ والشرابِ، والجهادُ مُغالَبَةٌ لِنزعةِ الحرصِ على الحياةِ، وإذا كان الجهادُ لأجلِ الانتصارِ على العدوِّ فإن الصيامَ انتصارٌ على النفسِ، ومعاني التضحيةِ والفداءِ في الجهادِ مُسْتَوْحَاةٌ من الصيامِ، ولشهرِ رمضانَ منزلةٌ عاليةٌ ينفردُ بها دونَ سواه بينَ عامّةِ الشهورِ، وكانت الأُمّةُ الإسلاميةُ على موعدٍ مع النصرِ في شهرِ رمضانَ المباركِ، ففي هذا الشهرِ حدثت أكبرُ المعارِكِ الإسلاميةِ التي غيَّرت وجهَ التاريخ وَوَجَّهَتْهُ وِجْهَةً جديدةً.

وسوفَ أوردُ فيما يلي على سبيلِ المثالِ لا على سبيلِ الحصرِ سِجلًّا لأبْرَزِ تلك المعارِكِ التي حدثتْ في هذا الشهر الكريم:

ففي صبيحةِ يومِ الجُمُعةِ الموافق للسابعِ عشرَ من شهرِ رمضانَ المباركِ من السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ كانتْ غزوةُ بدرٍ الكبرى، تلك الغزوةُ التي تُعَدُّ أولَ انتصارٍ تُحْرِزُهُ الدولةُ الإسلاميةُ الناشئةَةُ على جَحافِلِ الكُفرِ والباطلِ، ومن هنا كان انتصارُ المسلمين في هذه

---

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

الموقعةِ بشيرًا بانتشارِ دينِ الحقِّ ونذيرًا للكافِرين والمنافِقين.

وفي اليومِ الحادي والعشرينَ من شهرِ رمضانَ من السنةِ الثامنةِ من الهجرةِ حدثَ فتحُ مكةَ الذي كان فيه انكسارُ الباطلِ وأهلِهِ في الجزيرةِ العربيةِ وانتصارُ الحقِّ وعلوِّ شأنِهِ بعدَ صراعٍ مريرٍ بين الحقِّ والباطلِ دامَ أكثرَ من عشرِين عامًا.

وفي السنةِ التاسعةِ شهد شهرُ رمضانَ بعضَ أحداثِ غزوةِ تبوكٍ وهي آخرُ غزواتِ النبي ﷺ التي غزاها وأولُ مواجهةٍ بين المسلمين والروم.

وفي السنةِ الرابعةَ عشْرةَ من الهِجْرَةِ، وفي شهرِ رمضانَ حدثتْ موقعةُ القادسيَّةِ بقيادةِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ - رضي اللهُ عنهُ - وفيها انتصرَ المسلمونَ على الفُرسِ.

وفي السنةِ الثالثةِ والخمسين مِنَ الهِجْرَةِ وفِي شِهْرِ رَمَضانَ مَنَّ اللهُ - جلْ شأنُهُ - على المُسلمينَ بفتحِ جزيرةِ «رودس».

وفي رمضانَ من سنةِ إحدى وتسعينَ من الهجرةِ نزلَ المسلمونَ إلى الشاطِيء الجنوبِيِّ لبلادِ الأندلس وغَزَوْا بعضَ الثغُور الجنوبيةِ.

وفي رمضانَ سنةَ اثنتينِ وَتِسْعِينَ من الهجرةِ انتصرَ المُسْلِمُونَ في الأندلسِ على القُوطِ بقيادةِ طارقِ بنِ زيادٍ، وكان ذلك بمثابةِ تمهيدٍ لفتحِ بلادِ الأندلسِ الذي تمّ في السنةِ الثالثةِ والتسعين من الهجرةِ.

وفي رمضانَ مِنْ سنة ٥٨٤ من الهجرةِ كان البَطَلُ صلاحُ الدينِ الأيُّوبيُّ قد أحرز انتصاراتٍ كثيرةً ومتعددةً حتى استخلصَ من

النصارى مُعظمَ البلادِ التي كانوا قد استَوْلُوا عليها .

وفي رمضانَ من سنة ٦٥٨ من الهجرةِ هَزَم المسلمونَ التتارَ في موقعةِ «عَيْنِ جالوتَ» .

هذه بعضُ الانتصاراتِ التي وقعتْ في شهرِ رمضانَ المباركِ .

والإِسلامُ حينما رغَّب في الجهادِ كمَا سبقَ فِي الآياتِ والأحاديثِ، وأجزلَ الثواب للشهداءِ بالخُلودِ في جناتِ النعيم، فإنَّ ذلك كلَّه لم يكن. لكي يَتَّخِذَ المسلمونَ في الجهادِ وسيلةً للعُدوانِ، ورغبةً في تحقيقِ المآربِ الشخصيَّةِ، وإنَّما كَانَ ذَلِكَ استنهاضًا لِهِمَمِ المسلمينَ لحمايةِ الدعوةِ الإِسلاميةِ من أعداءِ الله، والعملِ على نشرِ رسالةِ الإِسلام الكبرى، رسالةِ الهدايةِ والحقِّ، والعدلِ، التي أخرجَ اللهُ بها الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ، ومن عُبودِيَّةِ العبادِ إلى عُبودِيَّة ربِّ العبادِ وحدَه، لا شريكَ له، وهذا ما طَبَّقَهُ المسلمون في الصدرِ الأَوَّلِ، فاتسعَتْ دولتُهم حتى شَمِلتْ أعظمَ دولتينِ حينئذٍ الفُرْسِ والروم .

لكن حينما طالَ الأمدُ على المسلمين، وقست قلوبُهم، ونسُوا وتَنَاسَوْا ما لأجلِه خُلِقوا على كثرةٍ من الناس، وتوافُرٍ من بينِ الأُمم، وَصَارُوا يَعِيشُونَ حياةً لاهيةً دنيئَةً، وَتَركوُا الجهَادَ، هانوا إذًا على الله، وظهرَ فيهم معنى قولِ النبي ﷺ: «**يُوشَكُ أن تَدَاعَىٰ عَلَيكمْ الأُمَمُ كما تَدَاعىٰ الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا**، قالوا: أَوَمن قلةٍ نحنُ يومئذٍ؟ قالَ: **بَلْ أَنْتُمْ كثيرٌ، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السيلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ**

صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمهَابةَ مِنْكُمْ وليَقْذِفنَّ في قلوبِكم الوَهْنَ. قالوا: يا رسولَ الله وما الوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الدنيا. وكراهيَةُ الموتِ»[1].

وما أحرانا نحنُ المسلمينَ في هذا الوقت أن نَتَشَبَّع بِرُوحِ الجِهَادِ، وَأَنْ نَتَعَرَّفَ على حقيقَتِهِ التي تستهدفُ إرساءَ المنهجِ الربَّانيِّ في الأَرْضِ الذي يُنقِذُ البشريةَ من براثِنِ الضلالِ، والكفرِ إلى نورِ الإسلامِ وعدلِه بحيثُ لا يُسيطِرُ على الأرضِ منهجٌ سواهُ.

ولا شكَّ أن قوةَ الأمَّةِ الإسْلاَميةِ وَعِزَّتهَا إنما تَنبثِقُ من إدراكِ أبنائِها لهذه الحقِيقةِ، والتشبُّع بِروحِ الجهادِ، ولا يكونُ ذلك إلا بعدَ أن يتسلَّحُوا بالإيمانِ في ظِلالِ الكتابِ والسنَّةِ، حِينَئِذٍ يكونُوا مصدرَ خيرٍ لدينِ الإسلامِ، وإسعادِ البشريةِ، والله المستعانُ وعليه التكلانُ.

نسأل الله أن يُعليَ كلمتَه وأن يَنْصُرَ دينَه، وصلى اللهُ وسلمَ وباركَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعين.

---

(١) أخرجه أبو داود وأحمد.

الباب العشرون

في فضل ليالي العشر الأواخر(*) من رمضانَ وليلةِ القدرِ والاعتكَافِ

الحمدُ للهِ الذي خلقَ الإنسان من تُرابٍ، وفَاوَتَ بين الناسِ في الأخلاق والآدابِ، كما فضَّلَ بعضَ الأزمنةِ على بعضٍ بحكَمتِهِ، ووَفَّقَ من شاءَ لطاعتِهِ برحمته.

أحمدُهُ سُبْحَانَه على كُلِّ حالٍ، وأشكُرُه دومًا على الإنعامِ والإِفْضَالِ، وأشهدُ أن لَّا إِلٰهَ إلَّا اللهُ المتفرِّدُ بالجلالِ والكمالِ، له الأسماءُ الحُسْنَى والصفاتُ العُلىٰ، يعلمُ ما في السمواتِ وما في الأرضِ وما بَيْنَهُمَا وما تحتَ الثَرىٰ.

وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ المبعوثُ رحمةً للعالمينَ، بلّغَ البلاغَ المبينَ، صلى اللهُ عليه وعلى خلفائِهِ الراشدينَ، وآلِ بيتِهِ الطيِّبينَ، وصحابتِهِ الكرام المَيَامِين، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ: فإن اللهَ - عزَّ وجلَّ - بحكمتهِ فَضَّلَ بعضَ الأزمنةِ على بعضٍ، وجعلَ منها مواسمَ للتجارةِ الرابحةِ معه سبحانَهُ، فكما فضّلَ شهرَ رمضانَ على الشهورِ، فقد جَعلَ العشْرَ الأواخِرَ منهُ أفضلَ لياليهِ وأيامَها أكملَ أيَّامِه، وخصَّها بخصائِصَ عن بقيةِ أيَّام وليالي الشهرِ.

(*) علماً ان العشر تبدأ في الليلة القابلة ليلة الحادي والعشرين.

ومن أظهرِ فضائلِ هذه العشرِ وخصائِصها:

أَولًا: اجتهادُ النبيِّ ﷺ فيها فوقَ ما كانَ يجتهدُ في غيرِها، كما روى مسلمٌ من حديثِ عائشةَ - رضي اللهُ عنها - قالتْ: «وكانَ رسولُ الله ﷺ يجتهدُ في العشرِ الأواخرِ ما لا يجتهدُ في غيرِه»[1].

ومن ذلكَ أنه كانَ يُحيِي اللَّيلَ فيها - كما في حديثِ عائشةَ - رضي اللهُ عنها - قالتْ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا دَخلَ العشرُ أَحْيَا الليلَ، وأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ، وشدَّ المِئزرَ»[2]. متفقٌ عليه. وهذا لفظُ مُسلمٍ.

ومن مُبالغتهِ ﷺ في الاجتهادِ أنه كانَ يشُدُّ مِئزرَهُ، يعني يعتزلُ النساءَ اشتغالاً بالعبادةِ وتفرُّغًا لها. أو بمعنى «يجدُّ في العبادةِ».

ومن ذلك أنه كانَ يوقِظُ أهلَه فيها - كما دلّ عليه هذا الحديثُ -.

فكلُّ ما سمعتم من فعله ﷺ يدلُّ على اهتمامهِ بطاعةِ رَبِّه، ومبادرتهِ الأوقاتَ، واغتنامهِ الأَزمنةَ الفاضلةَ.

ألا فاقتدُوا رحَمكم الله بِنَبِيِّكم ﷺ فإنَّهُ هَوَ الأُسوةُ والقُدوةُ، وجِدّوا واجتهدوا في عبادةِ ربكم، ولا تُضيّعوا ساعاتِ هذه الأيامِ والليالي، فإن المرءَ لا يدري لعله لا يُدركُها مرةً أخرى باختطافِ هادمِ اللذاتِ ومفرِّقِ الجماعاتِ، الموتِ الذي هو نازلٌ بكُلّ امرئٍ إذا جَاء أجلُهُ، وانتهى عُمُرُهُ، فحينئذٍ يندمُ حيثُ لا ينفعُ الندمُ.

---

(١) صحيح مسلم ٢/ ٣٢/ح ١٧٥.

(٢) البخاري ٤/ ٢٦٩/ح ٢٠٢٤، مسلم ٢/ ٨٣٢/ح ١١٧٤

ثانيًا: ومن فضائلِ هذهِ العشرِ وخصائِصِها ومزايَاهَا أن فِيها ليلةَ القدرِ، وقد خص اللهُ تعالى هذه الليلة بخصائِصَ:

١ - منها أنه نزلَ فيها القرآنُ، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾(١). وقال تعالى: ﴿حمٓ ۞ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾(٢).

قالَ ابنُ عباسٍ وغيرُه: «أنزلَ الله القرآنَ جُملةً واحدةً من اللوحِ المحفوظِ إلى بيتِ العزةِ من السماءِ الدنيا، ثم نَزلَ مُفَصَّلاً بِحَسَبِ الوقائعِ في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً على رسولِ الله ﷺ»(٣).

٢ - وَصْفُها بأنها خيرٌ من ألفِ شهرٍ في قولِه: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾(٤).

٣ - وَوصْفُها بأنها مباركةٌ في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ﴾(٥).

٤ - أنها تنزلُ فيها الملائكةُ، والروحُ، «أي يكثرُ تَنزُّلُ الملائكةِ في هذهِ الليلةِ لكثرةِ بركتِها، والملائكةُ يتنزّلُونَ مع تنزُّلِ البركةِ والرحمةِ، كما يتنزَّلُونَ عند تلاوةِ القرآنِ، وَيُحيطُونَ بِحِلَقِ الذكرِ، ويَضعونَ أجنحتَهُم لطالبِ العلمِ بصدقٍ تعظيمًا لهُ»(٦).

والروحُ هو جبريلُ عليهِ السلامُ خصهُ بالذكرِ لشرفِهِ.

---

(١) سورة القدر، الآية: ١.

(٢) سورة الدخان، الآيتان: ١، ٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٢٩.

(٤) سورة القدر، الآية: ٣.

(٥) سورة الدخان، الآية: ٣.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٣١.

٥ - ووصفُها بأنَّها سلامٌ، أي سالمةٌ لا يستطيعُ الشيطانُ أن يعملَ فيها سُوءًا أو يعملَ فيها أذىً كما قاله مجاهدٌ[١]. ويَكْثُرُ فيها السلامةُ من العقابِ والعذابِ بما يقومُ بهِ العبدُ من طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٦ - ﴿ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴾[٣] أي يُفْصَلُ من اللوحِ المحفوظِ إلى الكَتَبَةِ أمرُ السَّنَةِ وما يكونُ فيها من الآجالِ والأرزاقِ، وما يكونُ فيها إلى آخرِها. كلُّ أمرٍ محكمٌ لا يُبدّلُ ولا يُغيَّرُ[٤]، وكلُّ ذلك مما سبقَ عِلْمُ اللهِ تعالى به وكتابتُهُ لهُ، ولكن يُظهِرُ للملائكةِ ما سيكونُ فيها ويأمرُهُم بِفعْلِ ما هو مِنْ وظيفتِهم»[٥].

٧ - أن اللهَ تعالى يغفرُ لمن قامها إيمانًا واحتسابًا ما تَقَدَّمَ من ذنْبِهِ، كما جاء في حديثِ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ قال: «**من صَامَ رَمضانَ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبِهِ، ومن قام ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنْبِهِ**». متفقٌ عليه[٦].

وقوله: «**إيمانًا واحتسابًا**» أي تصديقًا بوعدِ اللهِ بالثوابِ عليه، وطلبًا للأجرِ لا لقصدٍ آخرَ من رياءٍ أو نحوه[٧].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ٥٣١.

(٢) انظر: مجالس شهر رمضان/ ١٠٥.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٤.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٣٧، ١٣٨.

(٥) سورة: شرح صحيح مسلم للنووي ٨/ ٥٧.

(٦) البخاري ٤/ ٢٥٥/ ح ٢٠١٤، ومسلم ١/ ٥٢٤/ ح ٦٧٠.

(٧) فتح الباري ٤/ ٢٥١.

وهذا ترغيبٌ للمسلم وحثٌّ له على قيامها وابتغاءِ وجهِ اللهِ بذلك، ولذا كانَ النبيُّ ﷺ يلتمسُ هذهِ الليلةَ ويَتَحرَّاها مسابقةً منه إلى الخيْرِ، وهو القُدوةُ للأُمَّةِ. فقد جاءَ في صحيح مسلم[1] مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخُدريّ - رضي اللهُ عنه - قال: «أن رسولَ الله ﷺ اعتكف العشرَ الأُوَلَ من رمضانَ، ثم اعتكفَ العشرَ الأَوْسَطَ في قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ على سدَّتِها حصيرٌ، قال: فأخذ الحصيرَ بيدِه فنحَّاها في ناحية القُبةِ، ثم أطلعَ رأسَهُ فكَلّمَ الناسَ، فدنوا منهُ فقال **إني أعتكفُ العشْرَ الأَوَّل ألتمسُ هذه الليلةَ، ثم أعتكف العشرَ الأوسطَ، ثم أُتيتُ فقيل لي: إنها في العشرِ الأواخرِ، فمن أحبَّ مِنكم أن يعتكفَ فليعتكفْ**». الحديث.

ومعنى القَدْرِ التعظيمُ، أي أنها ليلةٌ ذاتُ قدرٍ، لهذِه الخصائصِ التي اخْتُصَّتْ بِهَا، أَوْ أَنَّ الذِي يُحييها يصيرُ ذا قَدْرٍ.

وقيلَ: القدرُ التضييقُ، ومعنى التضييقِ فِيها إخفاؤُها عن العِلْمِ بتعيينِها، أَو لِأَن الأَرضَ تضيقُ فيها مِن الملائكةِ.

وقيل: القَدْرُ بمعنى القدَرْ - بفتح الدال - وذلك أنه يُقدَّرُ فيها أحكامُ السَّنَةِ، كما قال تعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ - وتقدمَ معناه -.

وقد أنزل اللهُ تعالى في شأنِها سورةً تُتلى إلى يوم القيامةِ، وذكرَ فيها شرفَ هذهِ الليلةِ وعِظَمَ قَدرِها، وهي قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ

---

(١) ٢/ ٨٢٥/ ح ٢١٥، والحديث في البخاري، ومسلم أيضًا بنحوه، وليس فيه ذكر العشر الأول وسيأتي ذكر بعض ألفاظه في تحديد ليلة القدر.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[1].

وليلةُ القدرِ في العشرِ الأواخرِ كما في حديثِ أبي سعيدٍ السابقِ، وكما في حديثِ عائشةَ وحديثِ ابن عُمَرَ أن النبي ﷺ قالَ: «**تحرّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ مِنْ رَمَضانَ**»[2]. وهذا لفظُ حديث عائشة.

وفي أَوْتَارِ العَشرِ آكد، لحديث عائشةَ أن رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**تحرّوْا ليلةَ القدرِ في الوِترِ من العشرِ الأواخرِ**». رواه البخاري[3].

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: «لكن الوترُ يكونُ باعتبار الماضي، فتُطلبُ ليلةُ إحدى وعشرينَ وليلةُ ثلاثٍ وعشرينَ، وليلةُ سبعٍ وعشرين، وليلةُ تسعٍ وعشرينَ، ويكُونُ باعتبارِ ما بقي كما قال النبيُّ ﷺ: «**لتاسعةٍ تبقى، لسابعةٍ تبقى، لخامسةٍ تبقى، لثالثةٍ تَبْقى**». فَعَلَى هَذا إذا كَان الشهرُ ثلاثينَ يكونُ ذلك ليالىَ الأشفاع وتكونُ الاثنانِ والعشرون تاسعةٌ تبقى، وليلةُ أربعٍ وعشرين سابعةً تبقَى، وهكذا فسّرهُ أبو سعيدٍ الخُدري في الحديث الصحيح. وهكذا أقامَ النبيُّ ﷺ في الشهرِ، وإذا كانَ الأمرُ هكذا فينبغي أن يَتَحَرَّاهَا المؤمنُ في العشرِ الأواخرِ جميعِهِ». انتهى المقصودُ من كلامِهِ - رحمه الله -[4].

وأرجاها السبعُ الأواخرُ كما جاءَ في حديثِ ابنِ عُمَرَ: أن رجالاً

---

(١) سورة القدر، الآيات: ١-٥.

(٢) حديث عائشة عند البخاري ٤/ ٢٥٩، وحديث ابن عمر عند مسلم ٢/ ٨٢٣.

(٣) ٤/ ٢٥٩.

(٤) الفتاوى ٢٥/ ٢٨٤، ٢٨٥.

من أصحاب النبيِّ ﷺ: أُرُوا لَيْلَةَ القَدرِ في المنَامِ في السَّبْعِ الأَواخِرِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **أَرَى رُؤْيَاكُم قَدْ تَوَاطَأَتْ فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ، فَمَنْ كَانَ مُتَحرِّيَها فلْيَتَحَرَّهَا فِي السَّبْعِ الأَوَاخِرِ** ». متفق عليه[1].

ولمسلم: «**الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ، فَإِنْ ضعُفَ أحدُكُم أو عَجزَ فلا يُغْلَبَنَّ عَلَى السبْعِ البَوَاقِي**».

وقد اختلفَ العلماءُ في تَعْيِينِها أَيُّ ليلةٍ من ليالي العشرِ، بناءً على اختلافِ الأدلةِ فيها. وقد جاء في حديث أبي سعيدٍ السابقِ أن النبيَّ ﷺ قال: «**وقد رَأَيْتُ هذه اللَّيْلَةَ فأُنسيتُها، وقد رَأَيْتُنِي أَسْجُدُ في ماءٍ وطينٍ**». ولمسلم: «**وإني أُريتُها لَيْلَةَ وِتْرٍ، وأَنِّي أَسْجُدُ صبحيتَها في ماءٍ وطينٍ**». قال أبو سعيدٍ: «مُطِرْنَا ليلةَ إحدى وعشرينَ، فوكف المسجدُ في مُصَلَّى رسولِ اللهِ ﷺ، فنظرتُ إليهِ، وقد انصرفَ من صلاةِ الصبحُ، ووجههُ مُبتَلٌّ طينًا وماءً»[2].

وروى مسلمٌ من حديثِ عبدالله بن أُنيس - رضي اللهُ عنه - نحوَ حديثِ أبي سعيدٍ لكنه قال: «فمُطرنا ليلةَ ثلاثٍ وعشرينَ» وذكرَ باقيَهُ[4].

وفي حديث ابنِ عباس - رضي الله عنهما - أن النبي ﷺ قال: «**التمسوها في العشرِ الأواخرِ من رمضانَ في تاسعةٍ تبقى، في سابعةٍ تبقى، في خامسةٍ تبقى**». رواه البخاريُّ[4].

---

(١) البخاري ٤/ ٢٥٦، ومسلم ٢/ ٨٢٢.

(٢) الحديث متفق عليه.

(٣) ٢/ ٨٢٧.

(٤) ٤/ ٢٦٠.

وأَرْجَى ليالي الأوتارِ ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، حَلفَ على ذلك أُبَيُّ بُن كعبٍ لا يَسْتَثْنِي، قال زَرُّ بنُ حُبيشٍ: فقلتُ: بأَيِّ شيءٍ تقولُ ذلك يا أبا المُنذرِ؟ قال: بالعلامةِ، أو بالآيةِ التي أخبرنا رسولُ اللهِ ﷺ أنها تطلُعُ يومئذٍ لا شُعاعَ لها. رواه مسلمٌ[1].

ورُويَ في تعيينها بهذهِ الليلةِ أحاديثُ مرفوعةٌ كثيرةٌ[2].

ورجّحَ بعضُ العُلماءِ أنها تنتقل وليست في ليلةٍ معينةٍ كلَّ عام، قال النوويُ - رحمهُ اللهُ -: «وهذا هو الظاهرُ المختارُ لتعارضِ الأحاديثِ الصحيحةِ في ذلكَ، ولا طريقَ إلى الجمعِ بين الأحاديثِ إلا بانتقالِها»[3].

وإنما أَخْفَى اللهُ تعالى هذه الليلةَ ليَجْتَهِدَ العبادُ في طَلَبِهَا، ويَجِدُّوا في العبادةِ، كما أَخْفَىٰ ساعةَ الجُمُعَةِ، وغيرَهَا.

فينبغي للمؤمنِ أن يَجْتَهِدَ في أيامِ وليالي هذهِ العشرِ طلبًا لليلةِ القدرِ، اقتداءً بنبيِّنا ﷺ، وأَن يجتهدَ في الدعاءِ والتضرُّعِ إلى الله.

عن عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قلْتُ: يا رسولَ اللهِ أرأيتَ إن وافقتُ ليلَةَ القدرِ ما أقولُ؟ قال: قولي: «**اللَّهُمَّ إنَّكَ عفُوٌّ كَرِيمٌ تُحبُّ العَفْوَ فاعْفُ عَنِّي**». رواه الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ، وابنُ ماجهَ[4].

---

(١) ٢/ ٢٦٨.

(٢) انظر: فتح الباري ٤/ ٢٦٤، ٢٦٥، وشرح الصدر بذكر ليلة القدر، لولي الدين العراقي ص ٤٣.

(٣) المجموع ٦/ ٤٥٠، وذكر أنه رجحه المزني وابن خزيمة، وكذا رجحه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٤/ ٢٦٦.

(٤) المسند ٦/ ١٧١، ١٨٢، ١٨٣، ٢٠٨، ٢٥٨، والترمذي ٥/ ٥٣٤، واللفظ له وابن ماجه ٢/ ١٢٦٥، وقال الترمذي: حسن صحيح.

ثالثًا: اختصاصُ الاعتكافِ فيها بزيادَةِ الفضلِ علَى غيرِهَا مِنْ أيَّامِ السَّنةِ، والاعتكافُ لزومُ المسجدِ لطاعةِ اللهِ تعالى. وقد كان النبيُ ﷺ يعتكفُ هذه العشر كما جاء في حديثِ أبي سعيدٍ السابقِ أنه اعتكفَ العشر الأَوَّل ثم الأَوْسَطَ، ثم أخبرهم أنه كان يلتمسُ ليلةَ القدرِ، وأنه أُريها في العشر الأواخرِ، وقال: «**من كان اعتكفَ معيَ فليعتكفِ العشرَ الأواخرَ**». وعن عائشةَ - رضي الله عنها - أن النبيَّ ﷺ كان يعتكفُ العَشرَ الأواخِرَ من رمضانَ حتى توفاهُ اللهُ تعالى، ثم اعتكفَ أزواجُهُ من بعدِهِ، مُتَفَقٌ عليه[1]. ولهما مثلُهُ عن ابن عُمرَ[2].

وكان ﷺ إذا أرادَ أن يعتكفَ صلَّى الفجَر ثم دَخَلَ مُعتكَفَهُ كما جاء في الصَّحِّيحَين من حديثِ عائشةَ[3].

وقال الأَئمَّةُ الأَرْبعَةُ وغيرُهم - رحمهمُ اللهُ - يدخُلُ قبلَ غروبِ الشمسِ، وأوَّلوا الحديثَ على أن المرادَ أنه دخلَ المُعتكَفَ وانقطعَ وخلَى بنفسهِ بعد صلاةِ الصبحِ، لا أنّ ذلك وقتُ ابتداءِ الاعتكاف[4].

ويُسنّ للمُعتكفِ الاشتغالُ بالطاعاتِ.

ويحرُمُ عليه الجماعُ ومقدماتُهُ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾[5].

ولا يخرجُ من المسجدِ إلا لحاجةٍ لابدَّ منها، ولا يمكنُ فعلُها في

---

(١) البخاري ٤/ ٢٧١، ومسلم ٢/ ٨٣١.
(٢) البخاري ٤/ ٢٧١، ومسلم ٢/ ٨٣٠.
(٣) البخاري ٤/ ٢٧٥، ٢٨٣، ومسلم ٢/ ٨٣١.
(٤) انظر: شرح مسلم للنووي ٨/ ٦٨، ٦٩، وفتح الباري ٤/ ٢٧٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

المسجدِ لقولِ عائشةَ - رضي الله عنها -: «كانَ النبيُّ ﷺ إذا اعتكفَ يُدني إليَّ رأسَهُ فأُرَجِّلُهُ، وكان لا يَدْخُلُ البيتَ إلا لحاجةِ الإنسانِ». متفق عليه[1]. واللفظُ لمسلم.

وللمعتكفِ أن يَجْلِسَ مع أهلِهِ أو غيرِهم ممن يَأنسُ به ويتحدثُ معه في مباحٍ، قليلاً من وقتِهِ؛ لأن النبيَّ ﷺ زارتهُ زوجُه صفيةُ في مُعتكَفِهِ فتَحَدَّثَتْ عندَه ساعةً ثم قامتْ. أخرجَ الحديثَ بطولِهِ الشيخانِ[2]، وفي رواياتٍ أن نساءَه اجتمَعْنَ إليه[3].

وإنِ اشْتَرطَ الخروجَ لعيادةِ مريضٍ أو شهودِ جنازةٍ فله الخروجُ ولا يخرجُ لذلك بلا شَرطٍ. قالتْ عائشةُ - رضي اللهُ عنها - «إن كنتُ لأَدخلُ البيتَ للحاجةِ وَالمريضُ فيه، فما أسألُ إلا وأنا مارةٌ...» رواه مسلم[4].

اللهم إنا نسألُك بأسمائِك الحُسْنَىٰ أن تجعلَنا من المسابقينَ إلى الخيراتِ، المُتَبَاعِدِينَ عن المنكراتِ، اللهمَّ أرزُقْنا الفقهَ في دينكِ والعملَ به، وثَبِّتْنَا عليه إلى أن نَلْقَاكَ وأنت راضٍ عنَّا يا كريمُ. وصلى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّمَ.

---

(١) البخاري ٤/ ٢٧٣، ومسلم ١/ ٢٤٤.
(٢) البخاري ٤/ ٢٧٨، ومسلم ٤/ ١٧١٢.
(٣) انظر: فتح الباري ٤/ ٢٧٨، ٢٧٩.
(٤) ١/ ٢٤٤.

الباب الحادي والعشرون

سبعة يظلهم الله في ظله يوم القيامة

الحمدُ للهِ الكريمِ الجوادِ، اللطيفِ بالعبادِ، الذي من اعتزَّ به سادَ. الملكِ الذي تفردَ بالخلقِ والإيجادِ، وتوحّدَ في تدبيرِ أُمورِ العبادِ، أحمدُهُ على نِعمه وأشكرُه وقد وعد بالمزيدِ للشاكرِ، أشهدُ أن لا إله إلاَّ هو، وأشهد أن محمدًا عبدُهُ ورسولُه صلى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابه وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ: فعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُم اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَ إلا ظِلُّه: الإمامُ العادلُ، وشابٌ نَشَأَ في عِبَادَةِ ربِّهِ، وَرَجُلٌ قلبُهُ معلَّقٌ فِي الْمَساجِد، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاها حتى لا تَعلمَ شِمالُهُ ما تُنفقُ يَمينُه، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**». رواه البخاريُ ومسلمٌ[1].

كرمُ اللهِ واسعٌ، وفضلُهُ عظيمٌ، والآخرةُ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]. ورسولُ الله ﷺ يبشِّر سبعةً من الناسِ بالاستظلالِ في ظلِ العرشِ يومَ القيامةِ، والشمسُ تلفحُ جلودَ

---

(١) البخاري ٢/ ١٤٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

الآخرين ويُلجِمُهم العرقُ، ولا يَدْرُونَ مَا اللهُ صانعٌ بهم عند الحسابِ، ولا أين يُساقون بعدُ؟ إلى الجنةِ أم إلى النارِ؟ إلاَّ السبعةُ الذين يُظِلهم اللهُ في ظله يوم لا ظلَّ إلاَّ ظِلُّهُ وَهُمْ:

أولاً: الإمامُ العادلُ الذي لا يحكمُ إلا بالحقِّ، ولا يظلمُ أحدًا لأحدٍ، ولوْ كَان من أعزِّ الخلقِ عَليهِ، وأَحبهِّم إليهِ، يَرَى القويَّ ضعيفًا حتى يَأخذَ منه الحقَّ لِغيرهِ، والضَّعيفَ قويًّا حتى يأْخذَ حقَّهُ من ظالِمهِ كائنًا مَن كَان، لا يُفرِّقُ بين قريبٍ وبعيدٍ، وسيِّدٍ ومَسُودٍ، في مُعَامَلتِهم بالحُسنى، والرِّفقِ بهم والإحسانِ إليهم. قال أبو بكرٍ الصديقُ - رضي الله عنه - في إِحْدى خُطبهِ المنبريَّةِ: «أيها الناسُ: قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخَيْركم، فإنْ أحسنتُ فأَعِينُوني وإنْ أسأتُ فقوِّمُوني، الصدقُ أمانةٌ، والكذبُ خيانةٌ، والضعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى آخذَ له حقَّهُ، والقويُّ ضعيفٌ عندي حتى آخذَ منه الحقَّ إن شاءَ الله تعالى، لا يدع أحدٌ منكم الجهادَ، فإنه لا يدعُه قومٌ إلا ضَرَبَهم اللهُ بالذُّلِّ، أطِيعونِي ما أَطعتُ اللهَ ورسولَه، فإذا عصيتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعةَ لي عَلَيكُم، قوُمُوا إلى صَلاتِكم رحمكمُ اللهُ»[1].

والإمامُ العادلُ يَعتبرُ رعيَّتَهُ كأبنائهِ فيمَا لَهم مِنَ العطفِ والحنانِ، والتَّربيةِ الصَّالحةِ، فَيُعَلِّمُ جاهِلَهم، ويُواسِي فقيرَهم، وَيُرَبِّي صغيرَهم، ويعالجُ مريضَهم، ويكرمُ حاضرَهُم، ويحفظُ غائِبهَم في أهلِه ومالِه متمثلاً قولَ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ

(١) رواه ابن إسحاق وسنده صحيح وصححه ابن كثير في البداية والنهاية.

﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾[1].

ثانيًا: شابٌ نشأ في عبادةِ الله واستعملَ جسمَه ورُوحَهُ ومالَهُ وما أنعم اللهُ به عليهِ في مرضاتِه، استحقَّ على ذلك من اللهِ خيرَ الجزاءِ، وكان محبوبًا في أهلِه، وقومِه، وعشيرتِه، لأنه يدعو إلى اللهِ بقولِه وفعلِه، وإن عرَضَتْ له المعصيةُ وزيَّنها له الشيطانُ لم يَمْنَعْه مِنها إلا دينُهُ وخوفُ اللهِ، بَرٌّ بوالديه، يرحمُ الصغيرَ، ويحترمُ الكبير، وسيلةٌ قويةٌ لأَمْنِ المجتمعِ، لا يسرقُ، ولا يزني، ولا يشربُ الخمرَ، ولا يتعاطى المخدِّرات، ينشرُ الفضيلةَ، وينهى عَنِ الرذيلَةِ، والتاريخُ أصدقُ شاهدٍ بفضلِ الشبابِ الناشئينَ في طاعةِ اللهِ، واللهُ تعالى يقولُ في أصحابِ الكهفِ: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾[2].

فهنيئًا لشابٍ تقيٍّ تَعلَّقَ قلبُه بالمساجِدِ، ومجالِسِ الخيرِ، وعَملِ الصالحاتِ، واغتنم شبابَه قبلَ هرمِهِ، وصِحّتَه قبل سقمِهِ، وغناهُ قبلَ فَقْرِهِ، وفراغَهُ قبلَ شُغلِه، وحياته قبلَ موتِه.

شيئان لو بكتِ الدماءَ عليهما عيناكَ حتى يأذنا بذهابِ
لم يبلغا المعشارَ من حَقّيهما فَقْدُ الشبابِ وفُرقَةُ الأَحبابِ

ومن عَلِمَ أن الشبابَ ضَيفٌ لا يعود وفرحةٌ إذا مرت لا رجوع لها شغلهُ بطاعةِ اللهِ، واستعانَ بهِ على الصالحِ لدينِهِ ودنياهُ، ومن أتبعَ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٣.

نفسَهُ هواها، وقاده الشيطانُ بزمامِ الشبابِ إلى الذُّنوبِ والمهَالِكِ، ندِمَ حين يشيخُ ولاتَ ساعةَ مندمٍ وحُقَّ له التمثيلُ بقولِ الشاعرِ:

تبَسُّم الشَّيْبِ بوجهِ الفتى ... يوجبُ سَحَّ الدَّمعِ من جفنِه
وكيف لا يبكي على نفسِه ... مَنْ ضَحِكَ الشَّيْبُ على ذَقْنِهِ

وأكرمُ الناس نَفْسًا، وأنداهم كفًّا، وأطيبُهُم قلبًا، وأرقُّهم عاطفةً، وأصدقُهم عزمًا، هو الشابُ المؤمنُ التقيُّ، لا تسمعُهُ إلا مُهَنِّئًا، أو معزيًا، أو مُشجعًا أو مسلِّيًا، أو مسلِّماً، ولا تراهُ إلا هاشًّا باشًّا، طلْقَ الوجهِ مبتسمًا يُحَلِّيه إيمانهُ بمكارمِ الأخلاقِ، ويُبعِدُهُ دينُهُ عن طيشِ الصِّغَرِ، وإصرارِ الكِبرَ، وجديرٌ بشابٍ هَذا شَأْنه أن يُظِلَّهُ الله بِظِلِّ عرشهِ وأن يكونَ آمنًا إذا فَزِع الناسُ أجمعون.

ثالثًا: رجلٌ قلبُه معلقٌ بالمساجدِ وإذَا تَعَلَّقَ قلبُ المرءِ بالمساجد وعمارتِها بذكرِ الله فيها وكثرةِ التردد إليها للصلاةِ والاعتكافِ كان من أَهلِ قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۝ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[1].

والمؤمنونَ باللهِ واليوم الآخر إذا أَعْطَوْا المساجدَ ما تستحقُّ من العنايةِ بها، وعَمَرُوها وتعلقَتْ بها قلوبُهم فإنَّما ذلكَ لِفضْلِهَا، وعَظِيم شَأَنِها عِنْدَ اللهِ، وعندَ المسلمينَ الَّذينَ ما كانتْ لَهُمْ مِنْ معاهدَ ولا مَدارسَ وَلا أنْدِيَةٍ إلا المساجدَ، وفيها يقومون واقفينَ بين يدي

(١) سورة النور، الآيات: ٣٦-٣٨.

اللهِ، مُذعنينَ له بالعبوديةِ كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ، وقد ألصقَ الشريفُ منهم كَتِفَه بالضَّعيفِ، واحتَكَّ جسمُهُ بِجسمِهِ قيامًا ورُكوعًا وسُجُودًا.

عباد الله: إن سلفنا الأوائلَ ما كانوا يُبايعونَ الأئمةَ إلا في المسَاجدِ ولا يُخرجونَ الجيُوشَ للجهادِ إلا مِنْها، ولا يطلبُون العِلْمَ إلا بين جُدرانِها، فكَانوا إذا حَزَبَهم الأَمرُ، اجتمعوا له في المسجدِ وتشاورُوا فِيهِ، ولِلعلماءِ فيهِ مجالسُ عامرةٌ بكلِّ العلوم، وأين كان الحسنُ البصريُّ وأبو حَنيفةَ ومالكُ بنُ أنسٍ والشافِعيُّ وأحمدُ بنُ حنبلٍ ونظراؤهم يتصلونَ بالناسِ، ويُلقونَ عليهم الدروسَ في الوعظِ والإرشادِ والتوحيدِ والأحكَامِ إلا في المسجدِ.

ولبيوتِ اللهِ حرُمةٌ تجبُ مراعاتُها، فهي لا تحِلُّ لِجُنُبٍ ولا حائضٍ، ولا تُرفع فيها الأصواتُ، ولا تُنشد فيها الضالةُ، ولا تُقَامُ فيها الأسواقُ، ولا تَجوُز زخرفتُها بما يُشغِلُ المُصَلِّي، ولا يجوزُ السكوتُ على ما يُحْدِثُه أصحابُ الطُرُقِ الصوفية من الرقصِ والتواجدِ وضربِ الدفوفِ في المساجدِ، ولا يجوز ان يقبر الأموات في المساجد مهما علت منزلتهم ولا ان تقام المساجد على القبور وإن وجد شيء من ذلك فالحكم للأول من مسجد أو قبر ويزال المحدث الأخير وينقل رفات الميت إلى مقبرة إن كان الأخير، ومَنْ أَكَلَ البَصَلَ أو الثُّومَ، أو مَا لَهُ رائحةٌ كريهةٌ يتأذّى بها الملائكةُ والمصلون فلا يقربَنَّ المسجدَ، ولا بأسَ بالأكلِ والشُّربِ والنَّوم فِيها، والاعتكافُ في المساجدِ للمسلمِ مشروعٌ في رمضانَ وفي غيرِه، ولكنه في رمضانَ

أفضلُ، ولا يَظُنُّ أحدٌ أن تَعَلُّقَ القلبِ بالمساجدِ لإقامةِ الصلاةِ فحسبُ، وَلكنَّه لِذَلِكَ ولِمَا ذُكر مِنَ الاعْتِكافِ والتعلم والتعليم، وذكرِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - واللهُ تعالى يقولُ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾(1).

رابعًا: رجلان تحابَّا في اللهِ اجتمعا عليهِ وتفرَّقا عليهِ جمعَهُم الحبُّ في الله. ولاشكَ أن الحبَّ في اللهِ والبغضَ في اللهِ من أوثقِ عُرى الإيمانِ، وبه تقعُ الأُلفةُ، ويحصلُ الاتحادُ المأمورُ به في كتابِ اللهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ ويشعرُ المجرمُ بكراهةِ الناسِ له، وَبُغْضِهِمْ لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ معصيةِ اللهِ، فَيُقلعُ ويتوبُ.

قال ﷺ: «**إن مِن عبادِ اللهِ أُناسًا ما هم بأنبياءَ ولا شهداءَ، يَغْبطُهُمُ الأنْبياءُ والشهداءُ بمكانِهم منَ اللهِ**. قالوا: يارسولَ اللهِ فتخبرُنا من هم؟ قال: **هم قومٌ تَحَابُّوا بروحِ اللهِ على غيرِ أرحامٍ بينهم، ولا أموالٍ يتعَاطَونها، فواللهِ إن وُجوهَهُمْ لنورٌ وإنهم لعلى نورٍ، ولا يخافون إذا خافَ الناسُ**». وقرأ هذه الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(2) رواه أبو داود.

خامسًا: ورجلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمالٍ فقال إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين، يخافُ اللهَ سِرًّا وعلنًا فيتركُ الحرامَ، وهو قادرٌ عليه، ومشتاقٌ إليه، تَهَيَّأَتْ له أسبابُ المعصيةِ، ونفسُه توّاقةٌ،

---

(1) سورة التوبة، الآية: ١٨.

(2) سورة يونس، الآية: ٦٢.

وجسمهُ صحيحٌ، وجيبهُ ملآنٌ، ولا رقيبَ ولا شيءَ غيرَ اللهِ، الذي لا تَخْفَى عَلَيْه خَافِيَةٌ، تتعرَّضُ له ذاتُ المنصِب الرفيع، والبيتِ الواسعِ، والوجهِ الجميلِ، والثوبِ الأنيقِ، وتدعُوه إلى نفَسِها وتهمُّ به ويهِمُّ بها، فيتركُ هذا كلَّه. ويقولُ كما قال يوسفُ نبيُّ اللهِ لربِّه تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1]. فيحفظُه الله من عَبَثِ الشياطِين وينتصِرُ على جِماحِ النفس الأمَّارةِ بالسوءِ فيقولُ: إني أخافُ اللهَ ربَّ العالمين وبذلك ينتصرُ على النفسِ والهوى والشيْطانِ ويَكسَبُ هذه المعركةَ ويصدقُ فيه قولُ الشاعر:

ليس الشجاعُ الذي يحمي فريستَه عندَ النِّزَالِ ونارُ الحربِ تشتعلُ
لكنَّ من غضَّ طرفًا أو ثنى قدمًا عن الحرامِ فذاك الدَّارِعُ البطلُ

وفي الحديث عن النبي ﷺ: «**مَنْ يَضْمَنْ لي ما بَيْنَ لَحيَيْهِ ورِجْلَيْهِ أَضْمَنْ له الجنَّةَ**». متفق عليه. والله يقولُ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾[2].

سادسًا: ورجلٌ تصدقَ بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمالُه ما تنفقُ يمينُه، وإنفاقُ المال في سبيلِ اللهِ والتصدقُ به على المستحقينَ من أفضلِ ما يَتَقَرَّبُ به العبدُ إلى ربِّه سِرًّا كَان ذلك أو جَهْرًا. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَا منكم من أَحَدٍ إلا سَيكلِّمُه اللهُ ليسَ بينَه وبينَه ترجُمان، فينظرُ أَيمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إلَّا ما قَدَّم منْ عمله وينظرُ أَشْأَمَ منه فَلَا يَرَى إلَّا**

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.
(٢) سورة المعارج، الآيات: ٢٩-٣١.

مَا قَـدَّمَ، وينظرُ بين يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إلَّا النَّارَ تِلقـاءَ وجهِهِ فاتقوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ». رواه البخاري ومسلم(١).

فإنْ أرادَ المُتَصَدِّقُ فتحَ أبوابِ الخيرِ للغيرِ وتشجيعَ المشروعاتِ الخَيْرِيَّةِ وتجهيزَ الغُزَاةِ والإنفاقَ عَلَى الجِهَادِ أعلنَ بِصَدَقَتِه وَأَبْدَاهَا، فيقتَدِي بِهِ النَّاسُ ويعمَلونَ مِثْلَهُ، والدَّالُ عَلَى الخَيْرِ كَفَاعِلِه، وإنْ أرادَ إخفاءَ صَدَقَتِه والبُعدَ عَنِ الرِّياءِ والسُّمعةِ، أَسَرَّ صدقتَه وأَخْفَاهَا حتى لا تَعْلمَ شِمالُه ما تُنفِقُ يمينهُ.

وجاءَ قومٌ إلى رسولِ الله ﷺ باديةً عليهم الحاجةُ، وظاهرةً عليهم المسكنةُ، فجمعَ الناسَ وطلبَ مِنهم الصدقةَ، فوضعَ أحدُ الأنصارِ بين يديهِ ﷺ مالاً كثيرًا وتَبِعَهُ الناسُ فقال: **«مَن سَنَّ في الإسْلامِ سُنَةً حسنةً كان له أَجرُها وأَجرُ من عَمِلَ بها إِلَى يَومِ القِيَامة، من غيرِ أن ينقُصَ من أجورِهم شيئًا»**. رواه مسلم. والله سبحانه يقول: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢).

وللشيطانِ مداخلُ على العبادِ في صدِّهم عن الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ فَهُوَ يُوحِي لبعضِ الأغنياءِ أن لاَّ فُقَراءَ في المجتمعِ، وإذا دُعيَ لمساعدةِ المسلمين في العالمِ الإسْلاَمِيِّ أَوحَى إليه أنَّهَا قد لا تَصِلُ إِلَيْهِمْ وإنْ وَصَلت فَهَلْ تَصِلُ إلى مستحقِها؟ وهكذا يوسوسُ الشيطانُ لصدِّ المُسلِمِ عن الإنفاقِ في مشروعاتِ الخيرِ. ومن سُبلِ الإنفاقِ في

---

(١) البخاري ١٣/ ٤٧٤، ومسلم: الزكاة، ح ١٠١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

مجالِ الدعوةِ إلى اللهِ فتحُ المدارسِ لأبناءِ المسلمينَ في العالمِ حتى لا يقعُوا فريسةً لليَهودِ والنَّصارى والمشركينَ، وكذلك نشرُ الشريط الإِسلامي والكتابِ الإِسلاميِّ بِعِدَّةِ لغاتٍ حتى يتمكنَ المسلمُ من مَعْرِفةِ دينهِ.

سابعًا: ورجلٌ ذكرَ الله خاليًا ففاضَتْ عَيْنَاه، وأَصدقُ البكاءِ ما كانَ في الخُفْيَةِ، إذا ذَكَرَ المرءُ تقصيرَه في طاعةِ اللهِ، وارتكابَه لشيءٍ من معصيةِ اللهِ، وقد رأى عمرُ بنُ الخطابِ - رضي الله عنه - رَجُلاً يَبكي في المسجدِ. فقال: ما أحسنَ هذا لَوْ كان في البيتِ. فاتقِ الله ياعبدَاللهِ ولا تخشعْ بالبكاءِ إلا إذا خشعَ قلبُك فإن اللهَ يَسألُ من أَظهرَ البُكاءَ من إمام ومأموم وهو غيرُ صادقٍ ومتأثرٍ مِنْ قَلْبِه، وَمِنَ النَّاس من لا يلينُ قلبُه ولا تَبْكِي عَيْنُهُ، يطربُ لأصواتِ المظلومِينَ وأنّاتِ المنْكوبين، قد نزعَ اللهُ من قلبه الرحمةَ، وجرَّده من الخوفِ، والرجاءِ، فهو لا يطمعُ إلا بالدنيا واكتسابِها، ويأمنُ من الآخِرة وعذَابها، فاللَّهُمَّ ارزُقْنَا خَشْيَتَك ووَفِّقْنَا للْجَمْعِ بين رجاءِ رحمتِك وخَوْفِ عَذَابك، واجعَلنا من الَّذِين يقولُ اللهُ فيهم: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾(١). (٢) وارزُقْنَا العدلَ في حُكْمِنا وَقِنا شُحَّ أَنْفُسِنا واجعلْنا ممن خَافَك في الغيبِ والشهادةِ واغفرْ لنا ولوالدِينا وللمسلمين أجمعين، وصلِّى اللهم وسلم على نبيِّنا محمدٍ وآلهِ وأصحابِه أجمعين.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٣.

(٢) انظر اصلاح المجتمع ص ٤٦ للشيخ محمد بن سالم البيحاني.

فصل في قيام الليل

الحمدُ للهِ المُطَّلعِ على ظاهرِ الأمرِ ومكنونهِ، العالمِ بِسرِّ العبدِ وجهرِهِ وظُنُونه أحسنَ كلَّ شيءٍ خَلقَ، وخلقَ الإنسانَ من علقٍ، وأشهدُ أن لا إلٰه إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولهُ المؤيَّدُ بِبُرهانهِ. صلى اللهُ عليه وعلى آلهِ وأصحابِه وسلَّم تسليمًا.

إخواني: قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[1].

قال ابنُ جَريرٍ الطبري - رحمه الله - هي الصلاةُ بالليلِ من أي وقتٍ صلى.

وعَندَ قَوْله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾[2].

قال القاسميُّ - رحمه اللهُ - ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ بالتهجدِ فيه ﴿وَسَبِّحۡهُ لَيۡلًا طَوِيلًا﴾ أي مقدارًا طويلاً؛ نصفَه أو زيادةً عليه وفي هذه الأوامرِ مع الأمرِ في أول ﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ وأمثالِها ما يدلُّ على العِنايةِ بقيامِ الليلِ والحرصِ عليه. والقصدُ حثُّه ﷺ على أن يستعينَ في دعوة قومه والصّدع بما أُمِرَ به، بالصَّبرِ على أَذَاهم والصلاةِ والتَّسبِيح كَقولِه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[3] وقولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ

(١) سورة ق، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٦.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾[1] وأمثالهما .

وقال تعالى : ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾[2] .

قال القاسِميُّ : أي اذْكُرْهُ واعبُدْهُ بالتلاوةِ والصلاةِ بالليلِ .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[3] قال القُرطبيُّ ، قال ابنُ مسعودٍ : إذا فرغتَ من الفرايضِ فانصَبْ في قيامِ الليل .

وعن أمِّ سلمةَ - رضي الله عنها - أن النبيَّ ﷺ استيقظَ ليلةً فقال : **«سبحانَ الله ، ماذا أُنزلَ الليلةَ من الفِتَنِ ، ماذا أُنزِلَ من الخزائِنِ ، من يوقظُ صواحبَ الحُجُراتِ؟ يارُبَّ كاسيةٍ في الدُّنيا عَاريةٍ في الآخِرَةِ»** رواه البخاري[4] .

وعن عائشةَ أمِّ المؤمنين - رضيَ اللهُ عنها - أن رسولَ اللهِ ﷺ صلى ذاتَ ليلةٍ في المسجدِ فصلى بصلاته ناسٌ ، ثم صلَّى من القابلةِ فكثُر الناسُ ، ثم اجتمعوا من الليلةِ الثالثةِ أو الرابعةِ فلم يخرجْ إليهم رسولُ اللهِ ﷺ فلما أصبحَ قال : **«رأيتُ الذي صنعتمُ ، ولم يمْنَعْنِي من الخُروجِ إلَيكمْ إلا أني خشيتُ أن تُفرضَ عليكم ، وذلك في رمضانَ»** رواه البخاري[5] .

---

(١) سورة ق ، الآيتان : ٣٩-٤٠ .
(٢) سورة الطور ، الآيتان : ٤٨-٤٩ .
(٣) سورة الشرح ، الآيتان : ٧-٨ .
(٤) فتح الباري ج ٣ ص ١٠ .
(٥) فتح الباري ج ٣ ص ١٠ .

وعن أبي مالكٍ الأشعريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن في الجنةِ غُرفًا يُرى ظاهرُها من باطِنها وباطِنُها من ظاهِرِها، أعدَّها اللهُ لِمَنْ أطْعَمَ الطَّعَامَ، وأَفْشَى السَّلاَمَ وصلَّى باللَّيلِ والنَّاسُ نيامٌ**» رواه ابنُ حبانَ في صحيحه وصحَّحَه الألبانيُّ[1].

وعن وهبِ بنِ الوردِ قال: بلغنا أن إبليسَ تَبدّى لِيَحْيى بنِ زكريا فقال له: إنِّي أريدُ أن أنصحَك قال: كذبتَ أنت لا تنصحُنِي ولكن أَخْبِرني عَنْ بنِي آدَم، قال: هُم عنْدنَا عَلى ثَلاثةِ أصناف: **أما صنفٌ** منهم فهم أشدُّ الأصنافِ علينا نُقبلُ عليه حتى نَفْتِنَهُ ونستمكِنَ منه ثم يفزعُ إلى الاستِغْفارِ والتَّوْبَةِ فَيُفسِدُ عَلينا كلَّ شيءٍ أدركْنا منه، ثم نعودُ له فيعود فلا نحن نيأسُ منه ولا نحنُ ندركُ منه حاجتَنا. **وأما الصنفُ الآخرُ** فهم في أيدينا بمنزلة الأَكرَّةِ [جمع كُرَةٍ] في أيدي صبيانِكم نَتَلَقَّفُهُمْ كيف شِئنا قد كَفَوْنا أَنفُسَهُم **وأما الصِّنفُ الآخرُ** فهم مثلُك معصومُون لا نَقدِر مِنهم علَى شيءٍ فقال له يَحْيى عَلَى ذَلِكَ هَلْ قَدَرْت مني على شَيْء؟ قال: لا إلا مرةً واحدةً فإنك قدّمت طعامًا تأكلُه فلم أزل أُشَهِّيهِ إليكَ حتَّى أكلتَ منهُ أكثرَ ممَّا تريدُ فنمتَ تلك الليلةَ فلم تَقُمْ إلى الصلاةِ كما كنتَ تقومُ إلَيْها فقَال لهُ يَحْيَى: لا جرَمَ لا شَبِعتُ من الطَّعامِ أبدًا حتى أموتَ. فقال له الخبيثُ: لا جرمَ لا نصحتُ آدميًّا بعدَكَ[2].

أمامَك يانَوْمَانُ دارُ سعادةٍ … يطولُ الثَّوى فيها ودارُ شقاءِ

---

(١) صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٤.

(٢) ذكره المروزي في مختصر قيام الليل ص ٤٦.

خُلقتَ لإحدى الغايتينِ فلا تَنَمْ وكنْ بينَ خوفٍ منهما ورجاءِ

عن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قال: «ذُكِرَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ رجلٌ، فقيل: مَازَالَ نائمًا حتَّى أَصْبَحَ، ما قَامَ إلى الصَّلاةِ، فقال: ذاكَ رجلٌ بالَ الشيطانُ في أُذُنِه - أو قال في أُذُنيهِ» أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ[1].

عبادَ اللهِ: إنَّ رَبَّنَا ينزلُ إلى السَّمَاءِ الدُّنيا كلَّ ليلةٍ حِينَ يبقى ثُلُثُ اللَّيلِ فيُجيبُ دعوةَ الدَّاعي ويعطي السائلَ ويغفرُ ذنبَ العاصي.

فعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: **«ينزلُ اللهُ إلى السماءِ الدنيا كلَّ ليلةٍ حين يَمْضِي ثُلُثُ الليلِ الأَوَّلُ فيقولُ: أنا الملكُ، أنا الملكُ، مَنْ ذَا الَّذي يدْعُونِي فأستجيبَ له؟ مَنْ ذَا الَّذِي يسألُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يسْتَغْفِرُنِي فأغفرَ له فَلاَ يَزَال كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ»** متفق عليه واللفظ لمسلمٌ[2].

أَمَّـا عَنْ قِيـامِ النبيِّ ﷺ وقد غَفَرَ اللهُ له ما تقدمَ من ذَنْبِهِ وما تأَخَّرَ فيقولُ المُغِيرَةُ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - **«إنْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ ليقومُ - أو لَيُصَلِّي - حتى تَرِمَ قدماه - أو ساقَاه - فيُقال له، فيقولُ: أفلا أكونُ عبدًا شكورًا»** رواه البخاري[3].

ويقولُ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - صلَّيتُ مع النبيِّ ﷺ ليلةً فلم يزلْ قائمًا حتى هممتُ بأمرِ سوءٍ. قلنا: ومَا هَمَمْتَ؟ قال:

---

(١) البخاري ٦/ ٣٣٥، مسلم ١/ ٥٣٧.

(٢) مسلم: صلاة المسافرين ح ٧٥٨.

(٣) فتح الباري ج ٣ ص ١٤.

همتُ أن أقعدَ وأذرَ النبيَّ ﷺ»[1]. رواه البخاري ومسلم

وتصفُ عائشةُ - رَضِيَ اللهُ عنها - صلاةَ النبيِّ ﷺ في تهجُّدِه فتقولُ: «كان يصلي إحْدى عَشْرةَ ركعةً، كانت تِلك صلاتُهُ، يسجُدُ السجدةَ من ذلك قدرَ ما يقرأُ أحدُكم خمسينَ آيةً قبلَ أن يرفعَ رأسَه، ويركعُ رَكْعَتَيْن قبلَ صلاةِ الفجرِ. ثمَّ يضطجِعُ على شِقّه الأيمنِ حتى يأتِيَه المنادي للصلاة» رواه البخاري[2].

يا خاطِبَ الحوراء في خُدْرها ... وطالبًا ذاكَ على قدرِها
انهضْ بجدٍّ لا تكنْ وانيًا ... وجاهِدِ النفسَ على صبرِها
وقُمْ إذا الليلُ بدا وجهُهُ ... وصُمْ نهارًا فَهْوَ مِنْ مهرِها

عن أبِي العباس قال: سَمِعْتُ عبدَالله بنَ عمرَو - رَضِيَ اللهُ عنهُما - قال: قال لِيَ النبيُّ ﷺ: «ألم أُخبَرْ أنك تقومُ الليلَ وتَصُومُ النهارَ؟ قلتُ: إنِّي أفعلُ ذلكَ. قالَ: فإنَّكَ إذا فَعلتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُك ونَقَهتْ نفسُك، وإن لنفسِك حقًّا ولأهلِكَ حقًّا، فصُمْ وأفطِرْ وقُمْ ونَمْ»[3].

قال الحسن البصري رحمه الله: «قُرّاءُ القرآنِ ثلاثةُ أصناف: صِنفُ اتخذوه بضاعة، وصنفُ أقاموا حروفَه وضيّعوا حدودَه، واستطالوا به على أهل بلادهم، واستدروا به الولاةَ، وقد كثر هذا الضربُ من حملةِ القرآن لا كثرهم اللهُ، وصنف عمدوا إلى دواءِ

(١) فتح الباري ج ٣ ص ١٩، مسلم ١/ ٥٣٧.
(٢) فتح الباري ج ٣ ص ٧.
(٣) فتح الباري ج ٣ ص ٣٨.

القرآن فوضعوه على داءِ قلوبهم فاستشعروا الخوف وركدوا في محاربهم، وخَبَوْا في برانسهم فأولئك اللهُ ينصر بهم على الأعداء، ويسقي بهم الغيثَ، فوالله لهذا النصف من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر»[١].

قالَ أبوُ سليمانَ الدَّارَانِيُّ - رحمهُ اللهُ - «لولاَ الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنْيَا».

وقال شيخٌ من بني تَيْم اللهِ لفتيانِ الحيِّ ونُسَّاكِه: «يا إخْوَتَاهُ قومُوا قيامَ قومٍ قد يَئِسُوا من المُعَاوَدَةِ لِمَجْلِسِهِمْ خوفًا من خَطَفَاتِ الموكَّلِ بالنفوس فيَبْكِي ويُبْكِي».

وقالَ عاصمُ بنُ أَبِي النُّجُودِ: أدركتُ أقوامًا كانوا يتخِذُونَ هذَا اللَّيلَ جَمَلاً.

إخواني: تذكروا هذا اليومَ ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[٢].

يا لها من لحظاتٍ سعيدةٍ.

إنها لحظةُ الفوزِ العظيمِ بعدَ الخلاصِ من هولِ الحسابِ، وشدةِ الموقفِ، وقسوةِ العَرْضِ وطولِ الوقوفِ في عرصاتِ القيامةِ.

إِنَّهَا لحظَاتٌ تستحِقُّ أن يُقدِّمَ لها العاقلُ عُمُرَه عاكِفًا في محاريبِ العبادَةِ قانتًا للهِ تعالى قائمًا على قَدَم وساقٍ يمجِّدُ رَبَّه، ويمشي حثيثًا

---

(١) رهبان الليل ج ١ ص ٣٤٩.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

إلى هذه اللحظاتِ التي تلوِي الأعناقَ شوقًا إِلَيْهَا .

إنها لحظاتُ فتح الأبوابِ ، وقد انْتَشَرَتْ مَلائكةُ الرحمنِ فِي أَبْهىٰ زِيْنَتِها عليها سِيماءُ الوقارِ والإِجلالِ ، تتلألأُ وجوهُهُمْ كأَنَّها الكواكِبُ الدرَارِي وقد ارتسمتْ على شفاهِهم ابتساماتٌ تملأُ النفسَ سرُورًا وحُبُورًا تتلقى أهلَ الجنةِ بالسلامِ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ .

ما أَحلاهَا من كلماتٍ ! إنها تقشعُ عن النفسِ ملامِحَ الخوفِ والفزعِ والهولِ وتُزِيلُ - إلى الأبدِ - شبحَ الاضْطِرابِ والقلقِ .

﴿ طِبۡتُمۡ ﴾ إنها كلمةٌ تُلقي بكلِّ ظلالِ الحبوُرِ على تلكَ الأَنْفُس الكريمَةِ التي أتعبتْ نفسَها في سُوَيْعَاتِ الدُّنيَا فأورثَتْ طيبًا وكرامةً لا أمدَ لها ولا نِهايةَ .

﴿ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ يا لها من بُشْرَى تَتطَامَنُ إليها النفوس .

إنه الخلدُ الأبديُّ في جنةِ الفردوسِ ، دارِ الكرامةِ والنعيمِ المقيم .

لقد بُشِّرُوا مِنْ أولِ وَهْلَةٍ بالدخولِ إلى المقاعدِ والمنازلِ والخلودِ فيها ، فَطُوبَى لقومٍ تلك بُشراهم وهذه دارهُمْ[1] .

اللَّهُمَّ اجعلنا مِن المعظِّمين لحُرُمَاتك ، الفائزينَ بهباتِكَ الوارثين لجناتِك ، واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمين برحمتِك يا أرحمَ الراحمين ، وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين .

---

(١) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ٧ .

الباب الثاني والعشرون

القلـوبُ وأمْراضُـها

الحمدُ للهِ الذي هدانا للإسلامِ وَعَلَّمَنا القرآنَ خيرَ الكلامِ وجعلَه نورًا وحياةً للقلوبِ وشِفاءً لما في الصدورِ.

أحمدُهُ تعالى على جَزيلِ إنعامهِ وأشكرُهُ على جليلِ إحسانهِ وله الحمدُ على أسمائهِ الحسنَى وصفاتهِ العُليا.

وأشهدُ أن لآَّ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ وخِيرتُه من خلقِهِ وأمينُهُ على وحيِهِ.

هدى اللهُ به من الضلالةِ وعلَّمَ به مِنَ الجهالةِ وفتحَ برسالتهِ أعينًا عُميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا. صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومن اقْتَفَى أثرَه وسارَ على نهجهِ إلى يومِ الدينِ وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ:

فاعلَمُوا أَيُّها الأحبابُ أَنَّ مِنْ أهمِّ ما يَنْبَغِي أن تُبذلَ له الأوقاتُ وتُنفقَ له الجهودُ والمجهوداتُ هو علاجَ القلوبِ والسعيَ لصحتِها وسلامتِها من الأمراضِ والآفاتِ وسائرِ الذنوبِ، وذلك لما للقلبِ من مكانةٍ في الإسلامِ عظيمةٍ ومنزلةٍ عاليةٍ رفيعةٍ، فهو مَحلُّ نظرِ الربِّ ومستودعُ التوحيدِ والإيمانِ والإخلاصِ.

عن أبي هريرةَ، رَضِيَ اللهُ عنه، قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إن اللهَ لا ينظرُ إلى صُوَرِكم وأَمْوالِكم ولكن ينظُرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم**» رواهُ مسلمٌ.

قالَ ابنُ القيم رحمهُ اللهُ تعالى: «الأعمالُ تتفاضلُ عندَ اللهِ بتفاضلِ ما في القلوبِ لا بكَثْرَتِهَا وصُوَرِها بل بقْوَّةِ الدَّاعي وصِدْقِ الفاعِلِ وإخلاصهِ وإيثارِهِ اللهَ على نفسِهِ».

وقالَ شيخُ الإسلامِ: «والقلبُ هو الأصلُ كما قال أبو هريرةَ: القلبُ مَلِكُ الأعضاءِ والأعضاءُ جنودُهُ، فإذا طابَ الملِكُ طابَتْ جنودُه وإذا خَبُثَ الملكُ خَبُثَت جُنودُه».

كما في حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ المتفقِ عليه أن النبيَّ ﷺ قال: «**أَلَا وإنَّ فِي الجسدِ مُضغةً إذا صَلَحَتْ صلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كُلُّه ألا وهي القلبُ**».

فصلاحُهُ وفسادُهُ يستلزمُ صلاحَ الجَسدِ وفسادَه. فيكونُ هذا ممَّا أبداهُ لا ممَّا أخفاهُ [يعني أنَّ صَلاحَ القلبِ يستلزمُ قيامَ الجوارحِ بطاعةِ اللهِ].

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رحمهُ اللهُ تعالى: «وخُصَّ القَلبُ بذَلِكَ لِأَنَّه أَميرُ البدنِ، وبصلاحِ الأميرِ تصلُحُ الرعيةُ، وبفسادهِ تفسدُ، وفيه تنبيهٌ على تعظيمِ قَدْرِ القلبِ والحثِّ على صلاحهِ والإشارةِ إلى أنّ لطيبِ الكسبِ أثرًا فيه والمرادُ المتعلِّقُ به من الفهمِ الذي رُكِّبَ فيه».

واعلمُوا، رحمكمُ اللهُ، أن القلوبَ ثلاثةٌ: قلبٌ سليمٌ، وقلبٌ ميتٌ، وقلبٌ مريضٌ.

أولاً: القلبُ السليمُ:

وهو المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

قال الحافظُ بنُ كثيرٍ، رحمه اللهُ: أي سالمٌ من الدَّنَس والشِّرْكِ.

وقال القاسميُّ: بِقلبٍ سليمٍ: من مرضِ الكفرِ والنفاقِ والخصالِ المذمومةِ والملكاتِ المشئُومَةِ.

وقال العلامةُ ابنُ القيمِ، رحمهُ اللهُ: القلبُ السليمُ: هو الذي سَلِمَ أن يكونَ لغيرِ اللهِ فيه شِرْكٌ بوَجْهٍ ما، بل قد خَلُصَت عبودِيَّتُهُ للهِ تعالى إرادةً ومحبةً وَتَوكُّلاً وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخَلُصَ عملُهُ للهِ، فإن أحبَّ أحَبَّ في اللهِ، وإن ابغض ابغَضَ في اللهِ، وإنْ أَعْطى أعطَى للهِ، وإن مَنَعَ منعَ للهِ، ولا يكفيهِ هذا حتَّى يَسْلَمَ من الانْقِيادِ والتَّحْكِيم لكلِّ مَنْ عَدَا رسُولِ اللهِ ﷺ. والقلبُ السليمُ أيضًا هو الذي سَلِمَ من الشركِ والغِلِّ والحِقدِ والحَسَدِ والشُّحِّ والكِبْرِ وحُبِ الدنيا والرِّئاسةِ، فسَلِمَ من كلِ آفةٍ تبعِدُهُ من اللهِ، وسلمَ من كلِّ قاطعٍ يقطعُ عن اللهِ، فهذا القلبُ السليمُ في جنةٍ مُعجَّلةٍ في الدنيا، وفي جَنَّةٍ في البرزَخِ، وفي جنةٍ يومِ المعادِ. ولا تَتِمُّ له سَلامَتُهُ مُطلقًا حتى يَسْلَمَ من خمسةِ أشياءٍ:

من شركٍ يناقضُ التوحيدَ، وَبِدْعةٍ تخالفُ السُّنةَ، وشهوةٍ تُخالفُ الأمَر، وغفلةٍ تُناقضُ الذِّكَر، وهوىً يناقضُ التَّجَرُّدَ والإِخْلاصَ.

واعلموا، أيها الإخوان أن لسلامة القلب وصحته آثارا حميدة

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٨٧-٨٩.

وفوائد جليلة منها :

أولاً : راحةُ البالِ وطمأنينةُ النفسِ واجتماعُ القَلبِ :

قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1] .

قالَ ابنُ قيِّم الجوزيةِ، عليه رحمةُ اللهِ : «وقد جعلَ اللهُ الحياةَ الطيِّبَةَ لأهلِ معرفتهِ ومحبتهِ فقالَ تعالي : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

ونظيرُ هذا قولهُ تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[3] . ففازَ المتقونَ المُحْسِنونَ بنَعيم الدُّنيا والآخرةِ وحَصَلُوا على الحياةِ الطيِّبةِ في الدَّارَيْنِ فإنَّ طِيبَ النفسِ وسرورَ القلبِ وَفَرَحَهُ ولَذَّتَهُ وابتهاجَهُ وَطُمَأْنينتَهُ وانشراحَهُ ونورَهُ وسعتَهُ وعافيتَهُ حَاصِلٌ بتركِ الشَّهواتِ المحرَّمةِ والشُّبهاتِ الباطلَةِ - الذي هو أساسُ سَلامةِ القلبِ - وهو النعيمُ على الحقيقةِ ولا نِسْبَةَ لنعيم البدنِ إليه .

فقد كانَ يقولُ من ذاقَ بعضَ هذه اللَّذَّةِ : لو علمَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ عليهِ لجَالَدُونا عَلَيْهِ بالسُّيوفِ ، ولا تظنَّ أنَّ قولَهُ

(١) سورة الزمر، الآية : ٢٩ .
(٢) سورة النحل، الآية : ٩٧ .
(٣) سورة النحل، الآية : ٣٠ .

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1]. مختصٌ بيومِ المعادِ فقط؛ بل هؤلاءِ في نعيمٍ في دُورِهِمُ الثَّلاثةِ وهؤلاءِ في جحيمٍ في دورِهمُ الثلاثةِ.

وأيُّ لذةٍ ونعيمٍ في الدُّنيا أَطْيَبُ من بَرْدِ القلبِ وسلامَةِ الصدرِ وَمَعْرِفةِ الرَّبِّ تبارك وتعالى والعملِ على موافقتهِ، وهل العيشُ في الحقيقةِ إلا عيشُ القلبِ السليم؟!

ثانيًا: استنارةُ القلبِ وانشراحُهُ:

قال الله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

قالَ ابنُ القيمِ رحمه اللهُ تعالى: «قال أُبيُّ بنُ كعبٍ: مثلُ نورِه في قلبِ المسلمِ: وهذا هو النورُ الذي أَوْدَعَهُ اللهُ في قلبِ عَبْدِه مِنْ مَعْرِفَتِهِ ومحبَّتِه والإيمانِ به وذكرِه، وهو نورُهُ الذي أنزلَهُ إليهم فأحياهمْ بِهِ وجعلَهمْ يَمشونَ به بين النَّاسِ وَأَصَّلَه في قلوبِهمْ.

وإذا استنارَ القلبُ أقبلتْ وفودُ الخيراتِ إليه منْ كلِّ ناحيةٍ كمَا أنَّهُ إِذَا أظلم أَقْبَلَتْ سحائبُ البلاءِ والشرِّ عليه من كلِّ مكانٍ فما شِئْتَ مِنْ

(١) سورة الأنفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

بِدَعٍ وضلالةٍ واتباعِ هَوىً واجتنابِ هُدًى وإعراضٍ عَنْ أسبابِ السَّعَادةِ واشتغالٍ بأسبابِ الشقاوةِ، فإنَّ ذَلِكَ إنما يَكْشِفُه لَهُ النورُ الذي في القَلْبِ فإذَا نفدَ ذلك النورُ بَقِيَ صَاحِبُهُ كالأَعْمَى الذي يَجوُسُ في حنادِسِ الظَّلام».

وقال شيخُ الإِسلام ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ: «وأصل صَلاح القلبِ حياتهُ واستنارتُه. قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1] وفي الدعاء المأثور: «**اجعلِ القرآن ربيعَ قلوبِنا ونورَ صدورِنا**».

ثالثًا: إدراكُ الحقِّ والتمييزُ بينَه وبينَ الباطلِ ورؤيةُ الآياتِ والاتعاظُ بالأحداثِ:

وهذه الفائدةُ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بالفائدةِ السابقةِ وذَلِكَ لأن التَّفريقَ بين الحقِّ والباطلِ ورؤيةَ الآياتِ والاتعاظَ بالأحداثِ يُعتبرُ نتيجةً لحياةِ القلبِ واستنارتِه بالإِيمانِ والقرآنِ. قال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

قال العلامةُ محمدُ أمينُ الشنقيطي رحمه اللهُ عندَ قولِه تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾: «يعني عِلمًا وهدى تُفرِّقُون به بين الحقِّ والباطلِ».

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٨.

وقال جمالُ الدينِ القاسمي رحمه الله: «والنورُ هو ما يُبَصِّرُ من عَمَى الجهالةِ والضلالةِ ويكشفُ الحقَّ لقاصدِه».

وقد جرَتْ سُنَّتُهُ تعالى بألَّا يَتَّعِظَ بالعلمِ ولا يَتَأَثَّرَ به تأثرًا يبعثُ على العملِ إلا أصحابُ العقولِ السليمةِ من الشوائبِ والقلوبِ السليمةِ من المعايبِ».

عبادَ اللهِ: اعلموا أن لسلامةِ القلبِ علاماتٍ ودلالاتٍ تُبيِّن مَدَىٰ صحَّتِه وسلامتِه وعافيتِه بحسب تحقُّقِها فيه ومِنْها: الاستسلامُ التَّامُ للهِ والانقيادُ لأمرِه وحُكْمِهِ والتحكيمُ لرسولِه ﷺ في كلِّ شيءٍ مع الرضا بذلك وانشراحِ الصدرِ له وانتفاءِ الضيقِ والحرجِ.

ومن علاماتِ صحةِ القلبِ: إتقانُ العمَلِ مع الشعورِ بالتقصيرِ واستعظامِ الذنوبِ والخوفِ من زَيْغِ القلوبِ، ومن الوقوفِ بين يَدَيْ عَلَّامِ الغيوبِ.

وقد وصَفَ اللهُ المؤمنينَ بما يَدلُّ على ذلك فقالَ تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾[2].

عن عائشةَ قالتْ: قلتُ: يا رسولَ الله ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ أهو الرجلُ يزني ويسرقُ ويشربُ الخمرَ؟ قال: «لا يا بنت

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات: ٥٧-٦١.

أبي بكرٍ أو لا يا بنتَ الصدِّيقِ ولكنَّهُ الرجلُ يصومُ ويُصلِّي ويتصدقُ وهو يخافُ أن لاَّ يُقبلَ منه» رواه أحمدُ في المسند[(١)].

قال البخاريُ رحمه اللهُ في صحيحه: «بابُ خوفِ المؤمنِ أن يَحبَطَ عَمَلُه وهو لا يشعرُ، قالَ إبراهيمُ التَّيْميُّ: ما عرضتُ قوْلِي على عَملِي إلاَّ خشيتُ أن أكونَ مُكَذِّبًا، وقال ابنُ أبي مُلَيْكَة أدركتُ ثَلاَثِينَ من أصحابِ النبي ﷺ كلهمْ يخافُ النفاقَ على نفسهِ مَا مِنْهم أحدٌ يقولُ إنه عَلَى إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ»[(٢)].

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عنهُ قال: «إنَّكُم لَتَعْمَلُونَ أعمالاً هي في أَعْيُنِكُمْ أدقُّ من الشَّعْرِ إنْ كُنا لَنَعُدُّها على عهدِ رسولِ الله ﷺ من الموبقاتِ»[(٣)].

ومن علاماتِ صحةِ القلبِ: اطمئنانُ القلبِ والخشوعُ عندَ قراءةِ القرآنِ والتأثُّرُ بهِ والتخلقُ بأخلاقه. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[(٤)].

قال الشوكانِيُّ رحمهُ اللهُ قوله: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي تسكنُ وتستأنِسُ بذكرِ اللهِ سبحانهِ بألسنتِهم كتلاوةِ القرآنِ والتسبيحِ والتحميدِ والتكبيرِ والتوحيدِ أو بسماعِ ذَلِكَ من غيرِهم[(٥)].

ومن علاماتِ صحةِ القلبِ: الصبرُ على الضراءِ والشكرُ على

(١) رواه أحمد في المسند (٦/ ٢٠٥) وصححه الألباني (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١٦٢).
(٢) فتح الباري (١/ ١٠٩).
(٣) رواه البخاري في فتح الباري (١١/ ٣٢٩).
(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٨.
(٥) فتح القدير/ محمد بن علي الشوكاني (٣/ ٨١).

السراءِ وذلك لأن صاحبَ القلبِ السليمِ يعلمُ ان اختيارَ اللهِ له خيرٌ من اختيارِه لِنَفْسِهِ.

قال ابنُ قَيِّم الجوزيةِ عليه رحمةُ الله: «ومن علاماتِ صحتهِ أيضًا: أن يَرْتَحِلَ عنِ الدُّنَيا حتَّى يَنْزِلَ بالآخرةِ ويَحِلَّ فيها حتَّى يَبْقَىٰ كأَنَّهُ منْ أهلِها وأبنائِها جَاءَ إلى هذه الدارِ غريبًا يأخذُ منها حاجتَهُ ويعودُ إلى وطنهِ، كما قال عليه السلامُ لعبدِاللهِ بنِ عُمرَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[1].

ومن علاماتِ صحةِ القلبِ: أن لا يَفْتُرَ عن ذكرِ ربِّه ولا يَأْنَسَ بغيرِه إلا بِمَنْ يَدُلُّه عليه ويذكِّرُ به ويذاكِرُه بهذا الأَمْرِ.

ومن علاماتِ صحَّتِهِ: أنه إذا دَخلَ في الصَّلاةِ ذهبَ عنه همُّهُ وغمُّه في الدنيا واشتدَّ عَلَيْهِ خُروجُهُ مِنها ووجدَ فيها راحتَهُ ونعيمَهُ وقُرَّةَ عَيْنِهِ وسرورَ قَلبِهِ.

ومن علاماتِ صحَّتِهِ: أن يكونَ همُّه واحدًا وأن يكونَ في اللهِ.

ومن علاماتِ صحتهِ: أن يكونَ أشحَّ بوقتهِ أن يذهبَ ضائعًا من أشدِّ الناس شُحًّا بمالِهِ.

ومنها: أن يكونَ أهتمامُهُ بتصحيحِ العملِ أعظمَ منه بالعملِ فيحرصَ على الإخلاصِ فيه والنصيحةِ والمتابعةِ والإحسانِ، ويشهدَ مع ذلك منَّةَ الله عليهِ فيه، وتقصيرَهُ في حقِ اللهِ.

وبالجُمْلَةِ: فالقلبُ الصحيحُ هو الذي همُّه كُلُّهُ في اللهِ، وحبُّهُ كلُّهُ

---

(١) البخاري في الرقاق (١١/ ٢٣٣) ح (٦٤١٦).

له وقصدُه له، وبَدنُهُ، وأعمالُه لَهُ، ونومُهُ لهُ، ويقظتُه لهُ، وحديثهُ والحديثُ عنهُ أَشْهَىٰ إليهِ من كلِ حديثٍ، وأفكارهُ تحومُ علَى مراضيهِ ومَحَابِّهِ.

ثانيًا: القلبُ الميتُ:

وهُوَ الَّذي لا حياةَ به فهو لاَ يعرفُ ربَّه ولا يعبدُه بأمرِه وما يُحبُّه ويرضَاه بل هو واقفٌ مع شهواتِه ولذَّاته وَلْو كانَ فِيهَا سَخَطُ ربِّهِ وغضبُهُ؛ فهو لا يُبالي إذا فازَ بشهوتهِ وحظِّه رَضِي ربُّه أم سَخِطَ، فهو مُتَعبِّدٌ لغيرِ الله حُبًّا وخوْفًا ورَجاءً وسخطًا وتعظيمًا وذُلًّا، إنْ أحبَّ أحَبَّ لهواهُ، وإن أبغضَ أبغَضَ لهواه، وإن أعطى أعْطَى لهواهُ، وإن منعَ مَنَعَ لهواهُ، فهواهُ آثرُ عندَه وأحبُّ إليهِ مِنْ رِضَا مَوْلاَهُ.

فالهوَى إمامهُ والشهوةُ قائدهُ والجهلُ سائقُهُ والغفلةُ مركبُهُ.

لا يستجيبُ للناصحِ، ويتّبِعُ كلَّ شيطانٍ مريدٍ. الدُّنيا تُسخطُهُ وتُرْضِيهِ والهوى يَصمُّه عما سوى الباطلِ ويُعميهِ. قال أحد الصالحين يا عجباً من الناس يبكون على من مات جسده ولا يبكون على من مات قلبه وهو أشد.

فمخالطةُ صاحبِ هذا القلبِ سُقْمٌ ومعاشرتُهُ سُمٌّ ومجالستُهُ هَلاكٌ.

ثالثًا: القلبُ المريضُ:

وهو قلبٌ له حياةٌ وبه عِلةٌ. فله مادَّتان: تُمدُّهُ هذه مَرَّةً وهَذِه أُخرىَ، وهو لِمَا غلبَ مِنْهُمَا؛ فَفِيهِ من محبةِ اللهِ تعالى والإِيمانِ بِهِ

والإخلاصِ له والتوكلِ عليه ما هو مادةُ حياتِه، وفيهِ مِنْ محبَّةِ الشهواتِ وإيثارِها والحرصِ على تحصيلِهَا والحسدِ والعُجْبِ وحُبِّ العُلُوِّ والفسادِ في الأرضِ بالرِّياسَةِ ما هو مادةُ هلاكِه وَعَطبِهِ.

وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ الله: «ومرضُ القلبِ نوعُ فسادٍ يحصلُ له، يَفْسُدُ به تصوُّرُهُ وإرادَتُهُ. فتصوُّرُهُ يَفسُدُ بالشُّبُهاتِ التي تعرضُ له حتى لا يرى الحقَّ أو يراهُ على خلافِ ما هو عليه. وتَفْسُدُ إرادتُهُ بحيثُ يُبغِضُ الحقَّ النافعَ ويحبُّ الباطلَ الضارَّ، فلهذا يُفَسَّرُ المرضُ تارةً بالشَكِّ والرَّيْبِ كما فَسَّرَ مجاهدٌ وقتادةُ قولَه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1]، أي: شكٌّ. وتارةً يُفَسَّرُ بشهوةِ الزنا كما فُسِّرَ به قولُه تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[2]، أي: مرضُ الشَّهْوَةِ.

ومن علاماتِ مرضِ القلبِ: أن يَتَعَذَّرَ عليه فِعْلُه الخاصُّ به الذي خُلِقَ لأجلِه وهو العِلمُ والحِكْمَةُ والمعرفةُ وحُبُّ اللهِ تعالى وإيثارُ ذلك على كلِّ شهوةٍ.

ومنها أيضًا: أن مريضَ القلبِ لا تُؤْلِمُهُ جِرَاحَاتُ القبائِحِ ولا يُوجِعُهُ جَهْلُهُ بالحَقِّ وعقائدِهِ، فإنَّ القلبَ إذا كانَ فيه حياةٌ تَأَلَّمَ بِوُرُودِ القَبِيحِ عليه وتَأَلَّمَ بجهلِهِ بالحقِّ بِحَسَبِ حَيَاتِه.

وقد يَمْرَضُ القلبُ ويَشْتَدُّ مرضُه ولا يَشْعُرُ به صاحِبُهُ لاشتغالِهِ وانصرافِهِ عن معرفةِ صحتِهِ وأَسْبابِهَا، بل قد يَمُوتُ وصاحبُهُ لا يشعُرُ بموتِهِ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٢.

وقد يشعرُ بمرضِه ولكن يشتدُّ عليه تَحَمُّلُ مرارةِ الدواءِ والصبرِ عليها فَيُؤْثِرُ بَقَاءَ أَلَمِهِ على مَشَقَّةِ الدَّواءِ. فإنَّ دَوَاءَه في مخالفَةِ الهوى وذلك أصعبُ شيءٍ على النفسِ وليسَ له أنفعُ منه.

اللهُمَّ آتِ نفوسَنا تقواها، وزكِّها أنتَ خيرُ من زكَّاها، أنتَ وليُّها ومولاها. اللهُمَّ طهِّرْ قلوبَنا من النفاقِ وعيونَنا من الخيانَةِ وأَلسنتَنَا من الكَذِبِ.

اللهم أجعل القرآن العظيمَ لقلوبِنا ضياءً، ولأبصارِنا جلاءً، واجعلنا من العاملين به الداعينَ إليه. اللهم اغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميع المسلمين. وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

فصـــل

الحمدُ للهِ الذي أرشدَ الخلقَ إلى أكملِ الآدابِ، وفتحَ لهمْ مِنْ خزائنِ رحمتِهِ وجُودِهِ كلَّ بابٍ، أنارَ بصائِرَ المؤمنينَ فأَدركُوا الحقائقَ وطلبُوا الثوابَ وأَعْمى بصائرَ المعرضينَ عن طاعتهِ فصارَ بينهَم وبينَ نورِه حجابٌ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ له، له الملكُ العزيزُ الوهابُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بأجلِّ العباداتِ وأكملِ الآدابِ صلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ: قال ابنُ قيِّمِ الجوزِيَّةِ - رحمهُ اللهُ -: القلوب ثلاثةٌ:

قلبٌ خالٍ من الإيمانِ وجميع الخيرِ فذَلِكَ قلبٌ مظلمٌ قد استراحَ الشيطانُ من إلقـاءِ الوساوس إليه؛ لأَنَّهُ قَدِ اتَّخذَهُ بيتًا ووطنًا وتَحَكَّمَ فيه بما يريدُ وتمكنَ منهُ غايةَ التَّمَكُّنِ.

القلبُ الثاني: قلبٌ قد استنارَ بنورِ الإيمانِ وأوقدَ فيه صاحبُهُ مصبَاحَهَ لَكِنْ عَليهِ ظُلمةُ الشهواتِ وعواصفُ الأَهْوِيَةِ فلِلشيطانِ هناك إقبالٌ وإدبارٌ ومجالاتٌ ومطامعٌ فالحربُ دُوَلٌ وَسِجَالٌ.

وتختلفُ أحوالُ هذا الصنفِ بالقِلَّةِ والكثرةِ فمنهم مَنْ أوقاتُ غلبتِهِ لعدوِّهِ أكثرُ، ومنهم من أوقاتُ غلبةِ عدوِّه له أكثرُ، ومنهم مَنْ هو تارةٌ وتارةٌ.

القلبُ الثالثُ: قلبٌ محشوٌ بالإيمانِ قد استَنَار بِنُورِ الإيمانِ وانْقَشَعَتْ عنه حُجُبُ الشهواتِ وأقلعتْ عنهُ تلكَ الظُّلماتُ فلِنُورِهِ في قلبِهِ إشراقٌ ولِذَلِكَ الإشراقِ اتِّقَادٌ لَوْ دَنَا منه الوَسْواسُ احترقَ به فهو كالسَّماءِ التي حُرِسَتْ بالنجوم، فلوْ دَنا منها الشيطانُ يَتَخَطَّاهَا رُجِمَ فاحترقَ، وليستِ السماءُ بأعظَمَ حرمةً من المؤْمِنِ.

ومن أمراض القلوبِ: الكِبْرُ:

وهو من أخبثِ أمراضِها وأشدِّها فَتْكًا وأَسْوَئِها عاقِبةً. وهو حِجابٌ كَثِيفٌ على القَلْبِ يَحَولُ بينه وبَيْنَ الإيمانِ ومانعٌ قويٌ يمنعُ الإنسانَ من قبولِ الحقِ.

وحقيقتهُ الارتفاعُ على الناسِ واحتقارُهُم ودفعُ الحقِّ.

وهُوَ يأْتِي مِنْ إعجابِ المرءِ بنفسهِ وذَلِكَ أن يَرَى نفسَهُ أكبَرَ من

غيرِه. وأعظمُ من ذَلِكَ أن يتكبرَ على ربِّهِ بأن يمتنعَ عن قبولِ الحقِّ والإذعانِ له بالتوحيدِ والطاعةِ.

والكبرُ أولُ معصيةٍ عُصِيَ اللهُ بها مِنْ قِبَلِ إبليسَ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[2].

بيَّنَ - تعالى - في هذه الآيةِ الكريمةِ أنه عَامَلَ إبليسَ اللعينَ بنقيضِ قصدِه، حيث كان قصدُهُ التعاظُمُ والتكبُّرُ. فأخرجَهُ اللهُ صَاغرًا حقيرًا ذليلاً متَّصفًا بنقيضِ ما كان يحاولُهُ من العُلوِّ والعَظمةِ وذلك قولهُ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾. والصَّغارُ: أشدُّ الذُّلِّ والهوانِ.

وقولُه: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾[3]. ونحوُ ذلكَ من الآياتِ. ويُفهمُ من الآيةِ أن المُتكَبِّرَ لا ينالُ ما أرادَ من العظمةِ والرفعةِ وإنما يَحْصُلُ له نقيضُ ذلك وذكر - تعالى - هذا المعنى في قَوْلِهِ: ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾[4]. وبيَّنَ في مواضعَ أخرى كثيرًا من العواقب السيئة التي تنشأُ عن الكِبْرِ - أعاذنا اللهُ وإياكمْ منه - فمن ذلك أنه سببٌ لصرف أصحابه عن فهمِ آياتِ اللهِ والاهتداءِ بها كَما فِي قولِهِ تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨.

(٤) سورة غافر، الآية: ٥٦.

بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1]. ومن ذلك أنه من أسبابِ الثوَّاءِ في النارِ كما في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2].

وعن عبدِالله بن مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنةَ من كان في قلبهِ مِثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ**، قالَ رجلٌ: إن الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكون ثَوْبُهُ حسنًا ونعلُهُ حسنًا قال: إن اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ» رواه مسلمٌ.

قال النَوَوِيُّ - رحمهُ اللهُ - («**بطرُ الحقِّ**» أي: دفعُهُ وإنكارهُ ترفعًا وتجبرًا، و«**غمطُ الناسِ**» أي: احتقارُهُم).

ومن أمراضِ القلوبِ: العُجبُ:

فلا شيء أفسدُ للأعمالِ من العُجْبِ ورؤيةِ النَّفْس. فهو يدعو إلى نسيانِ الذنوبِ وإهمالِها، فبعضُ ذنوبهِ لا يذكرها لظَنه أنهُ مستغنٍ عن تفقُّدِها، وما يتذكرُهُ منها فيَسْتَصْغِرُهُ فلا يَجْتَهِدُ في إزالتهِ بل يظن أنه يُغفرُ له. وأما العباداتُ والأعمالُ فإنه يستعظِمُها ويمُنُّ علَى اللهِ بِفِعلِها وينْسَى نعمةَ اللهِ عليهِ بالتَّوفيقِ والتَّمكُّنِ منها ثم إذا أُعجبَ بها عَمِيَ عَن آفاتِها وذلك أن المعُجَبَ يغترُّ بنفسهِ ورأيِهِ ويأمنُ مكرَ اللهِ وعذابَه ويظنُّ أنَّهُ عندَ اللهِ بمكانٍ وأن لَهُ عندَ الله منَّةً وحقًّا بأعمالِه التي هي نعمةٌ مِن نِعَمِهِ. ويخرجُهُ العُجْبُ إلى أن يُثْنِيَ على نَفْسِهِ ويحمدَها ويزكِّيَها، وإنْ أعْجِبَ برأيه وعقلِه منعَ ذلك من الاستفادةِ ومن الاستشارةِ والسؤالِ ولا يسمعُ

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

نُصْحَ ناصح ولا وَعْظَ وَاعظٍ بل ينظُرُ إلى غيره بعينِ الاستهجانِ ويُصِرُّ على خطاياهُ، فلذلك كانَتْ من المهلكاتِ.

ومن أمراضِ القلوبِ: الخُيَلَاءُ:

وقد وردَ الوعيدُ الشديدُ في حقِّ من اتصفَ به.

عن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**لا ينظرُ اللهُ يومَ القِيامَةِ إلى مَنْ جرَّ إزارَهُ بطَرًا**» رواه البخاريُ وأحمدُ.

وعن عبدِالله بن عُمَر - رَضِيَ اللهُ عنهما - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: **بينَما رجلٌ مِمَّنْ كانَ قبلَكم يجُرُّ إزارَهَ من الخُيلاءِ خُسفِ بِهِ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**» أخرجَهُ البُخَارِيُّ والنَّسَائِيُّ.

واعلمْ أن القلبَ بأصلِ فطرتِهِ قابلٌ للهُدى وبما وُضِعَ فيه من الشهوةِ والهوى مائلٌ عن ذلِكَ؛ والتطارُدُ فيه بينَ جُنْدَيْ الملائكةِ والشياطينِ دائمٌ إلى أَنْ ينفتحَ لِأحدهِما فيتمكنَ ويستوطنَ، ويكونَ اجتيازُ الثاني اختلاسًا كما قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾[1]. وهو الذي إذا ذُكِرَ اللهُ خَنَسَ وإذا وَقَعَتِ الغَفْلَةُ انبسطَ ولا يَطرُدُ جُندَ الشياطِينِ من القلبِ إلا ذكرُ اللهِ - تعالى - فإنَّهُ لا قَرارَ لَهُ مَعَ الذِّكْرِ.

واعلموا يا عبادَ اللهِ: أن أكثرَ القلوبِ قد فتحَهَا جنودُ الشياطينِ وتملّكَتْهَا فامْتَلَأَتْ بالوَسَاوِس الدَّاعِيةِ إلَى إيثَارِ العَاجِلَةِ واطِّراحِ الآخِرَةِ ومبدأُ استيلائِها اتباعُ الشَهواتِ والْهَوَى.

ولا يمكن فتحُهَا بعد ذلِكَ إلا بِتَخْلِيةِ القلبِ عن قُوتِ الشيطانِ

(١) سورة الناس، الآية: ٤.

وهو الْهوَى والشَّهَواتُ وعمارتُهُ بذكرِ الله تعالى.

قال جابرُ بنُ عُبيدةَ العَدَويُّ: «شكوتُ إلى العلاءِ بن زيادٍ ما أجدُ في صدري من الوَسْوَسَةِ فقالَ: إنما مثلُ ذَلكَ البيتُ الذي يمرُّ به اللصوصُ فإن كَانَ فِيهِ شيءُ عَالَجُوهُ وإلاَّ مَضَوْا وَتَرُكُوهُ». يعني أنَّ القلبَ الخَالِي عَنِ الْهَوى لاَ يدخُلُهُ الشيطانُ ولِذَلِكَ قالَ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾(١).

دواءُ القلبِ وعلاجُه:

إذا أردتَ يا عبدَاللهِ شفاءَ قلبِكَ وعافِيَتَكَ فعليكَ بصدقِ اللُّجوءِ والإكْثارِ من النوافِلِ وبِسَحِّ الدموعِ والصلاةِ بالليلِ والناسُ هجوعٌ؛ وداوِ قلبَكَ أيضًا بملازمَةِ الأذكارِ وصُحبَةِ الأخْيارِ فإنَّهُم خيرُ مُعينٍ بعدَ اللهِ على شفاءِ القلبِ السقيم، وسلوكِ الصراطِ المستقيم. قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٢).

واحرِسْ قلبَكَ - أخي المسلمَ - من أن يتسلَّلَ إليه الشَّيْطَانُ بشبْهةٍ خَبيثةٍ أو شهَوةٍ مُحرمةٍ أو آفةٍ مُفسدةٍ واحذر الغفلةَ والغافلينَ، فإن الغفلةَ مُضادةٌ للعلم مُنافيةٌ له وقد ذمَّ الله سبحانه أهلهَا ونهَى عَنِ الْكَوْنِ مِنهُمْ وعَنْ طَاعتهِم والقبولِ منهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ

(١) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2]. وسُئل بعضُ العُلماءِ عن عِشقِ الصُّورِ فقالَ: «قلوبٌ غفلتْ عن ذكرِ اللهِ فابتلاها اللهُ بعبوديةِ غيرِه». فالقلبُ الغافلُ مأوى الشيطانِ فإنه وَسْوَاسٌ خناسٌ، قدِ الْتَقَمَ قلبَ الغافلِ يقرأُ عليهِ أنواعَ الوساوسِ والخَيَالاَتِ الباطلةِ، فإذا تَذَكَّرَ العبد وذكرَ اللهَ انضمَّ الشيطان وخنسَ وتضاءلَ لذكرِ اللهِ فهو دائمًا بين الوَسْوَسَةِ والخَنْسِ. دائمًا - أيضًا - يترقبُ غَفلةَ العبدِ فيبذُرُ في قَلْبِهِ الأمانيَّ والشهواتِ والخيالاتِ الباطلةِ فيثمرُ كُلَّ حنظلٍ وكلَّ شوكٍ وكل بلاءٍ، ولا يزالُ يُمِدُّهُ بسَقْيِهِ حتى يُغَطِّيَ القلبَ ويُعْمِيَه.

اللهم إنَّا نسألكَ الثباتَ في الأمرِ والعزيمةَ على الرشدِ، ونسألُك قلوبًا سليمةً وألسُنًا صادقةً ونسألُك شكرَ نعِمتِكَ وحسنَ عبادتِك.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا أَصْلِحْ لنا آخرتَنَا التي إليها معادُنا واجعلِ الحياةَ زيادةً لنا في كلِ خيرٍ واجعل الموتَ راحةً لنا من كلِّ شرٍّ، واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمين الأَحْياءِ منهم والأمواتِ برحمتك يا أرحمَ الراحمين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

الباب الثالث والعشرون

في ذِكرِ شَيءٍ مِنَ الفِتَنِ

الحمدُ للهِ الواحدِ القهّارِ، العزيزِ الغفّارِ، مُكَوِّرِ الليلِ على النهارِ، تذكرةً لأُولي القلوبِ والأَبصْارِ، وتبصرةً لذوي الألبابِ والاعتبار، أيقظَ من خَلْقِهِ من اصطفاهُمْ فزهّدَهم في هذه الدَّارِ، وفقَّهَهُم للسعي في طاعتهِ والاستعدادِ ليوم المعادِ، أَحْمدُه أبلغَ حمدٍ وأزكاهُ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ هُو البرُّ الكريمُ الغفورُ الودودُ، وأشهدُ أن محمدًا عْبدُه ورسولُه وخليلُه وكليمُه صلى الله عليه وعلَى آلِهِ وأصحَابِهِ وسلمَّ تسليمًا كثيرًا.

أما بعدُ:

اعلموا عبادَ اللهِ أنّ المُسْلِمَ يُفَتنُ في هَذهِ الدُّنيا بأنواع من الفتنِ، يُفْتَنُ في السرَّاءِ ويُفْتَنُ بالضَّراءِ، هل يشكرُ بالأُولى وهل يَصْبرُ بالثانيةِ؛ يُفتن بالغِنَىٰ والفقرِ، يُفَتنُ بالصِّحَّةِ والمرضِ، يُفَتنُ بالأولادِ والعُقْم.

قال الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾(١).

قال شيخُ الإِسلام - رحمهُ اللهُ -: فالناسُ إذا أُرسلَ إليهمُ الرسلُ بينَ أمرينِ إما أن يقولَ أحدُهم: آمنّا، وإما ألا يقولَ آمنّا، بل يستمرُّ

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.

على عمل السيئاتِ، فَمَنْ قال آمنّا امتحنَه الربُّ - عزَّ وجلَّ - وابتلاهُ وألبَسهُ الابتلاء والاختبارَ لِيُبَيِّنَ الصادِقَ من الكاذِبِ.

وقال غيرُه: فلا يكفي أن يقُولَ الناسُ: آمنّا.. ويُتركون لهذهِ الدّعْوىٰ حتى يتعرضُوا لِلفتنِ فَيثْبُتُوا عليها ويخرجُوا منها صافيةً عناصِرُهم خالصةً قُلُوبُهُمْ. كما تَفْتِنُ النارُ الذهبَ لتُخَلِّصَه مما عَلِق به.

وعندما سُئِلَ الشافعيُّ - رحمهُ اللهُ - فقيل له: يا أبا عبدِالله أيُّهما أفضلُ للرَّجل أن يُمَكَّن أو يُبتلى؟ قال: لا يُمكَّنُ حتى يُبتلىٰ.

عبادَ الله: إن المُسْلِمَ في هذه الدُّنيا لابُدَّ لَهُ مِنْ فِتنةٍ يبتليهِ اللهُ بها.. فَمِنْهَا ما هو كبيرٌ ومنها ما هُو صغيرٌ، ومنها ما يتفجَّرُ من داخلِ الأمَّة ويثورُ بين صفوفِها بِسَببِ الأهواءِ التي تَؤولُ بها إلى الفرقةِ والخصامِ.. ومنها ما يغشاها من خارجِها بسببِ عدوٍ يستبيحُ بَيضتَها ويستَذِلُّها. ولِعظَمِ هذا الأمرِ وشدةِ خطورته فَقَدَ أكثرَ الرسولُ ﷺ من الكلامِ فيه، وأطالَ الحديثَ عنهُ، وحذَّرَ أُمَّتَهُ أشدَّ التحذيرِ. فَفِي الحديثِ الذي رواه أبو هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ قال: «**بادِرُوا بالأَعْمالِ فِتنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِم، يُصبِحُ المرءُ مؤمنًا ويُمِسي كافرًا ويُمسي مؤمنًا ويُصبحُ كافرًا، يَبيعُ أحدُكم دينَه بِعَرَضٍ قليلٍ من الدنيا**» رواه أحمدُ ومسلمٌ والترمذيُّ.

فأَخْبَرَنا ﷺ عن هذه الفتنِ وفصَّلَها تفصيلاً دقيقًا، وَبيَّنَ عليه الصلاةُ والسلامِ المخرجَ منها، وأرشدَ إلى عَدَمِ الوقوع فيها عندَ حُلُولِها، وكثرتِها، وابتلاءِ الخلقِ بهَا، كما بَيَّنَ الأَسبابَ الدَّاعيةَ إلى

الخوضِ فيها لاجتنَابِها فَمِنْ هذِهِ الأسبابِ :

- قِلةُ العلمِ وكثرةُ الجهلِ .
- تركُ الإِسلامِ .
- ارتكابُ الذنوبِ والمعاصِي .
- انتهاكُ الحرُمَاتِ .

فعن عبدِالله بنِ مسعودٍ وأبي موسى الأشعرِيِّ - رضِي اللهُ عنهمَا - قَالاَ : قَال رسولُ اللهِ ﷺ : «**إنّ بَينَ يدَيِ الساعةِ أياماً ينزِلُ فيها الجهلُ ويُرفَعُ العلمُ ويكثُرُ الهَرْجُ ؛ والهَرْجُ : القتلُ**» رواه البخاريُ ومسلمٌ .

وتَبْلُغُ الفتنُ مدَاها حينَما يتمنّىٰ المسلمُ الموتَ على الحياةِ المليئةِ بالبلاءِ ، ففي ذلك يُخبرُ الرسولُ ﷺ في الحديثِ الذي يرويُه عنه أبو هُريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - بقولِه : «**لا تقومُ الساعةُ حتى يَمُرَّ الرَّجلُ بقبرِ الرَّجلِ فيقولُ: يا ليتَنِي كنتُ مكانَهُ**» رواه البخاريُّ ومسلمٌ . وذلك أنّ الناسَ في هذه الحالةِ تُسلَبُ عقولُهم وتَستَحكِمُ فيهم الفتنُ ، ويَختَلِطُ الصالحُ بالفاسدِ حتى لا يَدْري القاتلُ في أي شيءٍ قَتَلَ ، ولا يدري المقتولُ على أيِّ شيءٍ قُتِلِ ؛ كما وردَ في ذلك الحديثُ عنه ﷺ عندَ مسلم من حديثِ أبي هريَرة قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : «**والَّذي نَفْسِي بِيَدِه لاَ تَذْهَبُ الدُّنيا حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاس يِومٌ لاَ يَدْرِي القَاتِلُ فِيمَ قَتَل وَلاَّ المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ**»[1] .

---

(١) مسلم : الفتن ح ٢٩٠٨ .

الفتنُ نوعان:

والفتنُ إما أن تكون شُبهاتٍ أو تكونَ شهواتٍ . . فالشبهاتُ تأتي عن طريقِ الاعتقادِ والعباداتِ التي تُورثُ الحيرَةَ والاضطرابَ، ثمَّ تؤولُ بصاحِبِها إلى البدَعَ في الدين والتي تقودهُ إلى سُوءِ الخاتمةِ والْعياذُ باللهِ .

أما الشهواتُ فتأْتِي عَنْ طَريقِ المالِ والشُّهْرَةِ والجَسَدِ وغيرِها مِنْ الأمورِ المحسوسةِ التي يُتَوَصَّلُ إليها عن طريقٍ غيرِ شرعيٍّ . . فالشهوةُ فتنةٌ وأشدُّ منها ما تُوجِبُهُ تلكَ الشهوةُ . . وفي ذلك يقولُ ابنُ القيم - رحمه اللهُ -: «الصبرُ عن الشهوةِ أسهلُ من الصبرِ على ما تُوجِبُهُ الشهوةُ فإنَّها إما أن تُوْجِبَ ألمًا وعقوبةً، وإما أن تَقْطَعَ لذةً أكملَ منها، وإما أن تُضَيِّعَ وقتًا إضاعتُهُ حَسْرةٌ وندامةٌ، وإما أن تَثْلِمَ عِرْضًا تَوْفيرُه أنفعُ للعبدِ من ثَلْمِهِ، وإما أن تُذهِبَ مالاً بقاؤه خيرٌ له من ذَهابِه، وإما أن تَضَعَ قَدْرًا أو جاهًا قِيامُه خيرٌ مِن وضْعِه، وإما أن تَسْلُبَ نِعْمةً بقاؤها ألذُّ وأطيبُ من قضاءِ الشهوةِ، وإما أن تَطْرُقَ لوضيعٍ إليكَ طريقًا لم يكنْ يجدُها قبلَ ذلك، وإما أن تجلِبَ همًّا وغمًّا وَحَزَنًا وخوفًا لا يقارِبُ لذَّةَ الشهوةِ، وإما أن تُنسِيَ عِلْمًا ذِكْرُه ألذُّ من نَيلِ الشهوةِ، وإما أن تُشْمِتَ عدوًّا أو تُحْزِنَ وليًّا، وإما أن تقطعَ الطريقَ على نِعمةٍ مقبلةٍ، وإما أن تُحْدِثَ عَيْبًا يُبْقِي صِفةً لا تزول . . فإن الأعمالَ تُورِثُ الصفاتِ والأخلاق» انتهى[1] .

نسأل اللهَ - عزَّ وجلَّ - أن يُجَنِّبَنَا الشُّبُهاتِ والشَّهواتِ وأن يُعيذَنا

---

(١) الفوائد لابن القيم .

مِن الفِتَنِ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، كما نسألُه أن يُثَبِّتَنا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ.

ولما كانتِ الفتنُ تَرجِعُ كلُّها إلى فِتْنةِ الشُّبهاتِ المعارِضةِ للعَقيدَةِ والشَّهواتِ المعارِضةِ للإِرادَةِ.. فالناسُ في ذلك قِسمان:

القسم الأول: هو مَنْ كانَ إيمانُه يَثْبتُ عندَ ورودِ الشُّبهاتِ ولا يتزلزلُ ويَدْفَعُها بما معَه من الحقِّ، وعندَ ورودِ الشهواتِ الموجبةِ والداعيةِ إلى المعاصي والذنوبِ أو الصارفةِ عما أمرَ اللهُ به ورسولُه يعملُ بِمُقتَضىٰ الإِيمانِ ويجاهدُ شهوتَه فَدلّ ذلك على صدقِ إيمانِه وصحَّتِه.

القسم الثاني: هُوَ مَنْ كانتْ الشبهاتُ تؤثِّرُ في قلبِه شَكًّا وريْبةً وعندَ اعتراضِ الشَّهواتِ تصرِفُه إلى المعاصِي أو تصرِفُه عن الواجباتِ فَدَلَّ ذَلكَ على ضَعفِ إيمانِه، والناسُ في هذا المقام دَرَجاتٌ لا يُحصيها إلا اللهُ فَمُسْتَقِلٌ ومُسْتَكْثِرٌ.. نسألُ اللهَ السلامةَ وحُسنَ الخِتام.

ويُفتَنُ المسلمُ ويُمتَحَنُ بالمالِ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۞ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[2].

نَعْمْ. يفتنُ الإنسانُ بمالِه فَيَقُولُ كَما قالَ قارونُ: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٧٥، ٧٦.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٥.

عِلْمٍ﴾[1]. فبالغٌ بِهِ الشحُ مَبْلَغهُ حَتَّى بَخِلَ بالزكاةِ. وآخرُ باذلٌ للزكاةِ كريمٌ في الصدقاتِ مُقْتَدٍ بعثمانَ - رضي اللهُ عنهُ - الذي قالَ لهُ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما ضرَّ عثمانَ ما فعلَ بعدَ اليومِ**» رواه أحمدُ والترمذيُّ وقال حسنٌ غريبٌ.

ويُفْتَنُ المسلمُ بالجاهِ فربَّما طَلَبَهُ ولو ضَرَّ بدينهِ واللهُ يقولُ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2].

وعنْ خُطُورَةِ الفتنتينِ السابِقتَينِ قالَ ﷺ: «**ما ذِئبانِ جائعانِ أُرْسِلا في غَنمٍ بأفسدَ لها منْ حِرْصِ المرءِ عَلى المالِ والشَّرفِ لدينِهِ**»[3]. رواهُ الإمامُ أحمدُ. والمعنىٰ أَنَّ حِرْصَ المرءِ على الشرفِ والمالِ أشدُّ فسادًا للدينِ من الذئبينِ الجائعينِ إذا أُرْسِلا في غنمٍ.

ويُفتنُ المسلمُ ويمتحنُ بالزوجةِ والأولادِ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[4]. وقالَ ﷺ: «**الولدُ مَجْبَنَةٌ مَبْخَلةٌ مَحْزنةٌ**»[5]. رواهُ أبو يَعلى. إي وَربّي يُمْتَحنُ المسلمُ بزوجِهِ وأولادِهِ هَلْ يأمُرهُمْ بطاعةِ اللهِ؟ هلْ يَسعىٰ لوقايتِهِمْ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ٣/ ٤٦٠ وهو في صحيح الجامع ٥٤٩٦ عن وسائل الثبات للمنجد ويحسن أن يراجع طالب العلم هذا الحديث في شرح ابن رجب له.

(٤) سورة التغابن، الآية: ١٤.

(٥) رواه أبو يعلى ٢/ ٣٠٥ وله شواهد وهو في صحيح الجامع ٧٠٣٧.

منَ النارِ؟ هلْ يأمُرهُمْ بالصلاةِ في أوقاتِهَا ويهيِّىءُ لَهُمُ الجُلساءَ الصالحينَ ويكونُ عونًا لَهُمْ في البيتِ على طاعةِ اللهِ ويُخْرِجُ منْ بيتِهِ آلاتِ اللهْوِ التي تصُدُّ عنْ ذِكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ والتي تَسْعَى جادَّةً لإزالةِ الحياءِ من قلوبِ شبابِ وفتياتِ الإسلامِ حتى تَغْرِسَ الرذيلَةَ بدلَ الفَضيلةِ.

وصدقَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا لَمْ تَسْتَح فَاصْنَعْ مَا شئت**» رواه البخاريُّ. وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**وَالحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ**» متفق عليه.

نعمْ يُمتَحَنُ المسلمُ بزوجِهِ وبناتِهِ هلْ يُلزمُهنَّ باللباسِ الشرعيِّ أو يَتركُهُنَّ سُدًى؟ وقدْ يُقَدَّرُ لرجُلٍ أنْ يَتزوجَ بامرأةٍ لا تُصَلِّي أو يُقَدَّرُ لامْرأةٍ أنْ تَتزوجَ برجلٍ لا يُصَلِّي ومَنْ لا يُصَلي يكْفُرُ، فقد صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «**العهدُ الذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهمُ الصَّلاةُ فَمنْ تركَها فقدْ كفرَ**» رواهُ الإمامُ أحمدُ. ولا شكَّ أنَّ الرجلَ أو المرأةَ في هَذه الحَالَةِ في امتحانٍ صعبٍ. يقولُ الرجلُ كيف أفارقُ زوجي وَليَ مِنْها أَولادٌ؟ وتقولُ الزوجةُ: كيفَ أفارقُ زَوجي وَلِي مِنْهُ أَولادٌ؟ وفي هذا الأمرِ تتصارعُ العاطفةُ والدينُ، وقد أفتى العلماءُ بأنَّهُ لا يجوزُ لِلْمرْأَةِ المسلمةِ أَنْ تَبقى معَ رجلٍ لا يُصلِّي ومنْ تركَ شيئًا للهِ عَوَّضَهُ اللهُ خيرًا مِنْهُ، ولكِ أُخْتِي المسلمةُ أسوةٌ وقدوةٌ بأمِّ حبيبةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - فإنَّها لمّا هاجرتْ إلى الحَبَشَةِ وتنصرَّ زوجُهَا هُناكَ خَيَّرَهَا بينَ أن تَتَنصرَ أو الطلاقِ فاختارتْ الحفاظَ على دِينِها والطلاقَ فَتزوجَها بعدَ

ذلكَ رسولُ اللهِ ﷺ فكانتْ من أمهاتِ المؤمنينَ.

وَيُفتنُ المسلمُ ويُمتحنُ مِنْ قِبَلِ الطُّغاةِ، وكلَّمَا قَويَ إيمانُهُ أشتدَّ عَذَابُهُ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۞ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۞ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۞ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

وممن عُذِّبَ وَامْتُحِنُ وفُتِنَ فَصبرَ بِلالٌ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - وكانَ أبوُ جَهْلٍ يبطحُهُ على وجهِهِ في الشَّمْسِ ويضعُ الرّحى عَليهِ حَتَّى تَصْهَرَهُ الشمسُ ويقولُ: اكْفُرْ بربِّ محمدٍ فيقولُ: أَحدٌ أَحدٌ. قالَ مجاهدٌ: أَولُ منْ أظهرَ الإِسلامَ بمكةَ سبعةٌ: رسولُ اللهِ ﷺ، وَأبو بكرٍ، وخبَّابٌ، وصُهَيبٌ، وَبلالٌ، وسُمّيةُ، وعّمارٌ، فأمّا بلالٌ فهَانتْ عَليهِ نَفْسهُ في اللهِ - عزَّ وجلَّ - وهانَ على قومِهِ فأخذُوهُ فَكَتَّفُوهُ ثُمْ جعلُوا في عُنُقِهِ حَبْلاً مِنْ لِيفٍ فَدفعُوهُ إلى صِبْيانِهِمْ فجعلُوا يَلعبونَ بِهِ بينَ أَخْشَبَيْ مَكَّةَ، فإذَا ملّوا تركُوهُ.

ولقَدْ امْتُحِنَ خَبَّابٌ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - امتحانًا شديدًا فَصَبرَ. قالَ الشعبيُ: إنَّ خبابًا صَبرَ ولم يُعْطِ الكفَّارَ مَا سَأَلوا فَجَعلوا يُلصِقُونَ ظَهرهُ بالرَّضَفِ حَتَّى ذهبَ لحمُ مَتْنِهِ.

وكانتْ مولاتُهُ تأخذُ الحديدَ المحمّاةَ فتضعُهَا على رأسِهِ فَشَكا ذَلِكَ إلى رسول اللهِ ﷺ، فَقالَ: «**اللهمَّ انصرْ خبّابًا**» فاشتكتْ مَولاتُهُ

---

(١) سورة البروج، الآيات: ٤-٩.

أمُّ أَنْمارٍ رأسَهَا فَكانتْ تَعوِي مِثلَ الكلابِ، فَقِيلَ لَها: اكْتَوِي. فكانَ خَبَّابُ يَأْخذُ الحديدةَ المحمَّاةَ فَيكوي بِها رَأسَهَا. قَالَ الشعبيُ: سَأَلَ عمرُ بنُ الخطابِ خبابًا - رَضِيَ اللهُ عَنْهما - عمَّا لقيَ مِنَ المشركينَ فقَال: يا أميرَ المؤمنينَ، انظرْ إلى ظهريَ، فنَظرَ فقالَ: ما رأيتُ كاليوم ظهرَ رجلٍ.

أمَّا عَمَّارُ بنُ ياسرٍ فأَخذهُ المشركونَ فَعذَّبُوهُ فلم يَتْرُكُوهُ حتى سبَّ النبيَ ﷺ، وذكرَ آلهتهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَركُوهُ، فلمَّا أَتَى رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**ما وراءكَ**»؟ قال: شرٌ يا رسولَ اللهِ ما تُرِكْتُ حتى نِلْتُ منك وذكرتُ آلهتَهُمْ بِخيرٍ. قالَ: **كَيف تَجدُ قَلبَكَ**؟ قَالَ: مُطمئنًّا بَالإِيمانِ. قالَ: «**فإنْ عَادوا لكَ فعُدْ لهمْ**» رواه ابن جريرٍ والبيهقيُّ.

ومرّ رسولُ اللهِ ﷺ بعمارٍ وأمِّهِ وأَبيهِ وهمْ يُعذَّبونَ بالأبطحِ في رَمْضاءِ مكةَ فقالَ: «**صبرًا آلَ ياسرٍ موعدكُمْ الجنَّةَ**» رواه الطبراني والحاكمُ وصححهُ ووافقهُ الذهبيُّ والألبانيُّ[1].

عنْ سَعِيدِ بنِ جبيرٍ قالَ: قُلتُ لابنِ عباسٍ: أكانَ المشركونَ يَبلُغُونَ من المسلمينَ في العذابِ ما يُعْذَرُونَ بهِ في تركِ دينِهِمْ؟ فَقَالَ: نَعمْ واللهِ إنْ كانُوا ليَضربُونَ أَحَدَهُمْ ويُجيعُونَهُ ويُعَطِّشُونَهُ حتى ما يقدرُ عَلى أَنْ يَستَوىَ جَالسًا مِنْ شدّةِ الضُّرِّ الذي بهِ حتى إنهُ ليُعطِيهِمْ ما سألوهُ مِنَ الفتنةِ وحتى يَقولوا له: اللاتُ والعزَّى إلٰهُكَ مِنْ دونِ اللهِ فيقولُ: نَعَمْ وحتى إنَّ الجُعْلَ ليَمُرُّ بِهمْ فيقولونَ له هذا

(١) انظر فقه السيرة ص ١٠٧.

الجُعْلُ إلٰهُكَ منْ دونِ اللهِ فيقولُ: نَعَمْ افتداءًا لِما يَبلغُونَ مِنْ جُهدِهِ.

عِبادَ اللهِ: هذا هو موقفُ الطغاةِ من الدعاةِ في كلِّ عَصْرٍ إلى قيامِ الساعةِ وإلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عَليْهَا وصدقَ اللهُ العظيم: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[1].

ومِنَ الفتنِ مَا يَحصلُ في القبرِ. فعنْ عائشةَ - رضي اللهُ عَنْهَا - قالتْ: دَخلتْ عليَّ عَجوزانِ من عُجُزِ يهودِ المدينةِ فقالتَا: إنَّ أهلَ القبورِ يعَذَّبُونَ في قبورِهِمْ. فكذَّبْتُهُمَا ولَمْ أُنْعِمْ أَنْ أُصَدِّقَهُما، فخَرَجَتا، ودَخَلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ، فقلتُ لهُ يا رسولَ اللهِ: «إنَّ عجوزينِ مِنْ عُجُزِ يهودَ دَخَلتَا عليَّ فزَعَمتَا أنَّ أهلَ القبورِ يُعذَّبونَ في قبورِهِمْ فقالَ: **صَدقتَا، إنَّهم يُعذبونَ عذابًا تَسمعهُ البهائمُ كلُّها**، فَما رأيتُهُ بَعَد صلاةٍ إلاَّ يتعوَّذُ مِنْ عذابِ القبرِ» رواه البخاري.

ولِعِظَمِ هذا الأمرِ فقد كان الرسولُ ﷺ يُعَلِّمُه لأصْحَابه، وَخَطَب فيهم مَرَّةً به فَفِي صحيح البُخاريِّ عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصديقِ - رَضِيَ اللهُ عنهُما - قالَتْ: قامَ رسولُ اللهِ ﷺ خطيبًا فذكر فتنةَ القبرِ التي يُفْتَنُ فيها المرءُ، فلما ذكرَ ذلك ضجَّ المسلمون ضجَّةً. رواهُ البخاريُّ والنَّسائيُّ وزاد النسائيُّ: حالتْ بينِي وبيَن أنْ أَفْهَمَ كلامَ رسولِ اللهِ ﷺ فلمَّا سكنَتْ ضجَّتُهم قلتُ لرجلٍ قريبٍ منيِّ: أيْ باركَ اللهُ لكَ ماذا قال رسول الله ﷺ آخرَ قولِه؟ قال: قد أُوحِي إلَيَّ أنَّكم

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٢، ٥٣.

تُفْتنَونَ فِي القُبورِ قريبًا من فتنةِ الدجّال».

ولما كانَتْ فِتنةُ القبرِ وعذابهُ مِنَ الأَهْوالِ العِظام والكُرُباتِ الشِّدادِ وجَبَ الاستعاذَةُ منهما كما كان يفعل نبيُّنا ﷺ ويأمرُ أصحابَه بذلكَ بعد التشهدِ أن يقولوا: «**اللَّهّمُ إني أعوذُ بك من عذابِ جَهنّمَ، ومن عذابِ القبرِ، ومن فتنةِ الْمَحْيَا والمَماتِ، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ**» رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ.

والموتُ أَعظمُ واعظٍ والقبرُ أولُ منازلِ الآخرةِ ويكونُ المرءُ فيه في حياةٍ برزخيةٍ.

قالَ القُرْطُبيُ في وَصْفِ الموتِ: «اعلمْ أنَّ الموتَ هو الخطْبُ الأفَظَعُ والأمرُ الأَشنعُ والكَأْسُ التي طعمُها أكرهُ وأبشعُ وأَنه الأهْدمُ لِلَّذاتِ، والأقطعُ للراحاتِ، والأجلبُ للكَريهاتِ».

موعظة: قَال بعضُ العلماءِ: «تفكرْ يا مغرورُ في الموتِ وسكرتهِ وصعوبةِ كأسهِ ومرارتهِ فيا للموتِ من وَعْدٍ ما أصدَقه! ومِنْ حاكمٍ ما أعْدَلَهُ! كفىٰ به مُفزعًا للقلوبِ، ومبكيًا للعيونِ، ومفرِّقًا للجماعاتِ، وهادِمًا للَّذَّاتِ، وقاطعًا للأُمْنياتِ».

وقدْ منَّ اللهُ عَلَى قَوْمٍ بأنْ عَصَمَهمْ مِنْ فتنةِ القبرِ ومِنْهُمُ الشهيدُ، والذي ماتَ مُرابطًا، والذي يموتُ يومَ الجُمُعَةِ، والذي يموتُ بداءِ البطنِ، وردتْ بذلك الأحاديثُ الصحاحُ والحسانُ نسأَل اللهَ أن يعصِمَنَا من فتنةِ القبرِ، ومن كلِّ فتنةٍ.

عن شدّادِ بنِ سَعْدٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أصحابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أنّ رجلاً

قال: يا رسولَ اللهِ: ما بالُ المؤمنين يُفتَنون في قبورِهم إلاَّ الشهيدَ؟ قال: «**كفى ببارقةِ السيوفِ على رأسه فتنةٌ**» رواه النسائي وقال الألبانيُّ إسنادهُ صحيحٌ.

وعن فَضالةَ بنِ عُبيدٍ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**كُلُّ ميّتٍ يُخْتَمُ علَى عَمَلِه إلاَ الذي مَاتَ مُرابطًا في سبيلِ اللهِ فإنهُ يُنْمَىٰ لَهُ عَمَلهُ يومَ القِيامَةِ ويأمنُ فتنةَ القبرِ**» رواهُ الترمذيُّ وأبو داودَ وصححهُ الألبانيُّ.

وعَنْ عبْدِاللهِ بنِ عَمْر عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ يموتُ يومَ الجمعةِ أو ليلة الجمعة إلاَّ وقاه الله فتنةَ القبرِ**» رواه أحمدُ والترمذيُّ، وقال الألبانيُّ حسن أو صحيحٌ[1].

وعَنْ عبدِاللهِ بن يسارٍ قال: كنتُ جالسًا وسليمانُ بنُ صُرَدَ وخالدُ ابنُ عُرْفَطَةَ فذكروا أن رجُلاً توُفِّيَ. مات ببطنه فإذا هُما يشتهيان أن يكونا شَهدا جنازتَهُ فقال أحَدُهُما للآخرِ: ألَمْ يَقُلْ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يقتلُه بَطْنُه فلن يُعَذَّبَ في قَبْرِهِ**»؟ فقال الآخرُ: بلى وفي رواية «صدقت». رواه النَّسائيُّ والترمذيُ وصححه الألبانيُّ[2].

صَحّ عن حذيفةَ بنِ اليمانِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أنه قالَ: «إني لأعلمُ الناس بكلِّ فتنةٍ هي كائنةٌ فيما بيني وبين الساعةِ» رواه مسلم[3].

وكان - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يقولُ: «كان الناسُ يسألُون رسولَ اللهِ ﷺ عن الخيرِ وكنتُ أسألُه عن الشرِّ مخافةَ أنْ يُدْرِكَني» رواه البخاريُّ[4].

---

(١) ذكره الألبانيُّ في الجنائز ص ٣٥.

(٢) القيامة الصغرى، لعمر الأشقر ص ٧٢.

(٣) مسلم، كتاب الفتن.

(٤) البخاري، كتاب الفتن.

فقدْ كان الصحابةُ حريصينَ على معرفةِ ما يَنْفَعهُم واتقاءِ شَرِّ ما سيُصيبُهم بأيامِهمُ المُقْبلاتِ. ومما يَعْصِمُ من الفتنِ بَحَول اللهِ وقوَّتِهِ:

١ - تقويةُ الإيمانِ في النفوسِ والعملُ على زيادتِه.
٢ - التسلحُ بالعلمِ النافعِ وكَثرةُ الذكرِ والمداومةُ عليهِ.
٣ - المبادرةُ إلى الأعمالِ الصالحةِ.
٤ - معرفةُ سبيلِ المؤمنين واتباعُهُ ومعرفةُ سبيلِ المجرمين واجتنابهُ.
٥ - الاعتصامُ بالكتابِ والسنةِ.
٦ - الإخلاصُ في ذلك.
٧ - التعاونُ على البرِّ والتقوى.
٨ - نبذُ الفُرْقَةِ والاختلافِ.
٩ - شكرُ النعم بالقولِ والفعلِ والتعوذُ مِنَ الفتنِ.
١٠ - محاربةُ الأَهواءِ والبدعِ.. واتقاءُ الشبهاتِ.
١١ - مدافعةُ الشهواتِ والحذرُ الشديدُ منها والبعدُ عن مواطِنِها.
١٢ - مصاحبةُ الأخيارِ وتركُ الأشرارِ.

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

اللَّهُمِّ إنّا نعوذُ بكَ من عذابِ جهنَّم ونعوذُ بكَ من عَذابِ القَبرِ ونعوذُ بكَ من فتنةِ المسيحِ الدجّالِ، ونعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا والمماتِ.

اللَّهُمَّ أَجرْنَا مَنَ النّارِ، ومِنْ غَضَبِ الجبّارِ، وباعْد بيننَا وبينَ الأشرارِ، يا عزيزُ يا غفّارُ، واغفر اللهمّ لنَا ولوالدِينا ولجميعِ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٥.

المسلمينَ آمينَ، وصلى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

فصلٌ في قيامِ الليل

الحمدُ للهِ الذي يمحو الزّللَ ويصفحُ، ويغفرُ الخَطَلَ ويسمحُ، كُلُّ مَنْ لاذَ بهِ أَفْلحَ، وكَلُّ مَنْ عَاملهُ يَرْبحُ، أغنى وأفقرَ، وربما كان الفقرُ أصلحَ. فكمْ من غنيٍّ طرحهُ الأَشَرُ، والبطَرُ أقبحُ مَطْرَحٍ، وأشهدُ أن لاَّ إلٰهَ إلاَّ اللهُ الغنيُّ الجوادُ مَنَّ بالعطاءِ الواسعِ وأفْسَحَ.

وأشهدُ أنّ مُحمدًا عبدهُ ورسولُه الذي جادَ بنفسِه ومالِه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه والتابعينَ لهمْ بإحسانٍ وسلم تسليمًا.

إخواني:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۞ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۞ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۞ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۞ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾[1].

قالَ ابنُ جريرٍ الطبريُّ في تفسيره. وقولهُ: ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يقول تعالى لنبيِّه ﷺ: قم الليلَ يا محمدُ كُلَّه إلا قليلاً منه ﴿ نِّصْفَهُۥٓ ﴾ يقول: قم نصفَ الليلِ ﴿ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ﴾ يقول: أو زدْ عليه. خَيَّرَهُ اللهُ - تعالى ذِكرُهُ - حينَ فرضَ عليه قيامَ الليلِ بينَ هذه

(١) سورة المزمل، الآيات: ١-٨.

المنازلِ أيَّ ذلك شاءَ فعلَ، فكانَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ فيما ذُكِرَ يقومونَ الليلَ نحوَ قيامِهم في شهرِ رمضانَ، حتى خفَّفَ ذلكَ عنهم.

قالَ المرْوَزِيُّ: قالَ ابنُ عباسٍ: لما نزلتْ أَوَّلُ المزملِ، كانوا يقومونَ نحوًا من قيامِهم في شهرٍ رمضانَ حتى نزل آخرُها، وكان بينَ أوَّلِها وآخِرِها سنةٌ».

وعن أبي عبدِالرحمنِ السُّلَمِيِّ قالَ: لما نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قامَ رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ حَوْلاً حتى انتفخَتْ أقدامُهم وسوقُهم حتى نزلتْ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[1] حتى بلغَ ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾[2].

عنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «**يَنْزِلُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلى سَماءِ الدُّنيا كلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَمْضِي ثُلُثُ اللَّيلِ الأَوَّلُ فَيقُولُ: أنَا المَلِكُ أنَا المَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَه مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ، فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الفجرُ**» رواه البخاري ومسلمٌ واللفظ له وهوَ يدلُّ عَلَى تَرغِيبِ قيامِ ثُلُثَي اللَّيلِ ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ قالَ القرطبيُّ - رحمهُ اللهُ - في هذهِ الآيةِ: أَيْ لا تَعْجَلْ بِقراءَةِ القرآنِ بلِ اقرأْهُ في مَهَلٍ وبيانٍ مع تَدَبُّرِ المعانِي.

قال مجاهدٌ: أَحَبُّ الناس في القراءَةِ إلَى اللهِ أَعْقَلُهُم عَنْهُ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ: «لا تَهُذُّوا القرآنَ هذَّ الشِّعرِ، ولا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ

---

(١) سورة المزمل، الآية: ١٩.

(٢) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

الدَّقْلِ[1]؛ قِفُوا عندَ عَجَائِبِهِ، وحَرِّكُوا بِهِ الْقُلَوبَ، ولا يَكُنْ هَمُّ أحدِكُمْ آخرَ السُّورَةِ».

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ قالَ الحسنُ: العملُ بِه، وفي روايةٍ قالَ: ثقيلاً في الميزانِ يومَ القيامةِ[2].

إخواني: إنَّ قيامَ الليلِ من صفاتِ المتقينَ وبه الأجرُ العظيمُ مِن اللهِ في كلِّ وقتٍ فكيفَ بهذهِ الليلةِ الَّتِي يَتَحَرَّىٰ المسلمُ أنْ تكونَ هِيَ ليلةَ القَدْرِ التي قالَ اللهُ فيها: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾[3] وهي في رمضانَ، بلْ في العَشْرِ الأواخرِ منه في أوتارِها. يدلُّ لذلكَ ما روتْهُ عائشةُ - رَضِيَ اللهُ عنها - قالتْ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**تَحَرَّوْا ليلةَ القَدرِ في العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضَان . . .**» متفقٌ عليه.

وما روتْه أيضًا: «**تَحَرَّوْا ليلةَ القدْرِ في الوِترِ من العَشْرِ الأَواخِرِ**» متفقٌ عليه. ويُستَحبُّ قِيامُها وكثرةُ الدعاءِ والاستغفارِ والصدقةِ لأَنَّها موسمٌ عظيمٌ يدلُّ لذلك ما رواه أبو هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**منْ قَامَ لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنْبِهِ**» رواه البخاريُّ ومسلم.

وقد أخفَى اللهُ سبحانَه عِلْمَها على العِبادِ رحمةً بهِمْ ليَكْثُرَ عَمَلُهُم

---

(١) الدقل: رديء التمر ويابسه.

(٢) انظر: رهبان الليل.

(٣) سورة القدر، الآيات: ١-٥.

في طلبِهَا في تلكَ اللَّيالِي الفَاضِلةِ بالصَّلاةِ والذِّكرِ والدُّعاءِ فيزدادُوا قُرْبًا مِنَ اللهِ وثَوَابًا، وأَخْفَاها اختبَارًا لَهم أيضًا لِيَتبَيَّنَ بذلكَ منْ كانَ جادًّا في طَلَبِها حرِيصًا عليهَا ممنْ كانَ كَسْلاَنَ متهاوِنًا. فإنَّ منْ حَرَصَ على شيءٍ جدّ في طَلَبِهِ وَهَان عليهِ كلُّ شيءٍ في سبيلِهِ.

وقدْ يُطْلِعُ اللهُ عليهَا بعضَ عبادِه بأَماراتٍ يَعرِفُونَها بِها كما رأى الرسولُ ﷺ أنَّهُ يسجدُ صَبيحتَهَا في ماءٍ وطينٍ[١].

عبادَ اللهِ:

إنَّ قيامَ الليلِ وطولَ التَّهَجدِ فضلٌ منَ اللهِ يَمُنُّ به على مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ وقدْ مَنَّ اللهُ به على عبدِاللهِ بنِ عُمَرَ فكانَ لا ينامُ من الليلِ إلا قليلاً.

فَعَنْ سالمٍ عنْ أبيهِ عبدِاللهِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: «كانَ الرجلُ في حياةِ النبيِّ ﷺ إذا رأىَ رُؤْيَا قصَّهَا على رسولِ اللهِ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرى رُؤْيَا فأَقُصُّهَا على رسولِ اللهِ ﷺ وكنتُ غُلامًا شَابًّا وكنتُ أنامُ في المسجدِ على عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ فرأيتُ في النومِ كأنَّ مَلَكَيْنِ أخذَانِي فذهَبا بي إلى النارِ، فإذا هيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ البِئْرِ. وإذَا لَهَا قَرْنَانِ وإذَا فِيهَا أُنَاسٌ قدْ عَرَفْتُهُمْ، فجعلتُ أقولُ: أعوذُ باللهِ منَ النَّارِ. قالَ: فلقِيَنَا مَلكٌ آخرُ فقالَ: لم تُرَعْ، فَقَصَصْتُها على حفصةَ، فقصَّتْهَا حفصةُ على رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: **نِعْمَ الرجلُ عبدُاللهِ لو كانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ. فكانَ بعدُ لا ينامُ من اللَّيلِ إلا قليلاً**» رواه البخاريُّ[٢].

---

(١) الصيام للشيخ عبدالله الطيار ص ١٤٥.

(٢) فتح الباري ج ٣ ص ٦.

وعن جابرٍ - رَضِيَ اللهُ عنه - قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ فِي الدُّنْيَا لَسَاعةً لا يُوافِقُها رجلٌ مسلمٌ يَسْأَلُ اللهَ خيرًا من أمرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ إلا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ وذلكَ كلَّ ليلةٍ**» رواه مسلمٌ.

وعن عبدِاللهِ بنِ قيس أنه سمعَ عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - وذُكِرَ عندَها قومٌ يزعُمُونَ أنهم إذا أَدَّوُا الفرائضَ لا يُبَالُونَ أن يَنْزَوُوا. فقالتْ: لَعَمْرِي لا يسألُهم اللهُ إلا عما افترضَ عليهِم ولكنَّهُم قومٌ يُخْطِئُونَ بالنَّهارِ. وإنمَا أنتُمْ مِنْ نبيِّكُم ونبيُّكُم منكُم فما رأيتُ النبيَّ ﷺ تركَ قيامَ الليلِ إلا أن يَمْرَضَ فيُصَلِّيَ وهو جَالِسٌ ثم نَزَعَتْ [أي جَاءَتْ] بِكُلِّ آيةٍ في القرآنِ يُذْكَرُ فيها قيامُ الليلِ» رواهُ المْروَزِيُّ في قيام الليلِ.

وقالَ ﷺ: «**أَحَبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ، وأَحَبُّ الصيام إلى اللهِ صيامُ داودَ، كانَ ينامُ نِصفَ الليل، ويقومُ ثُلُثَهُ، وينامُ سُدُسَهُ ويصومُ يومًا ويفطرُ يومًا**» متفقٌ عليه.

قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1] قالَ الحافظُ ابنُ كثيرٍ عن هذه الآيةِ «كانَ لا يمضي ساعةٌ منْ آناءِ الليلِ وأطرافِ النهارِ إلاّ وأهلُ بيتِهِ في عبادةٍ ليلاً أو نهارًا، وكانَ داودُ عليه السلامُ هو المُقْتَدَىٰ بِهِ في ذلك الوقتِ في العَدلِ وكثرةِ العبادةِ وأنواعِ القُرباتِ».

إخواني: اعلمُوا أنَّ قيامَ الليلِ دَأْبُ الصالحينَ قَبْلَكُم ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[2] وكانوا يكرهونَ الحديثَ بعدَ العِشَاءِ حتى

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٧.

يَسْتَطِيعُوا أنْ يقومُوا الليلَ. ويكونُ القيامُ أدعَى للخشوعِ إذا كانَ بعدَ نومٍ، فعنْ هِشَامِ بنِ عُروةَ قال: سمعتُ أَبِي يقولُ انصرفتُ بعدَ العشاءِ الآخرةِ فسمِعَتْ كلامِي عائشةُ خَالَتِي ونحنُ في حُجْرَةٍ بينَنَا وبينَها سقفٌ. فقالتْ: يا عروةُ أو يا عُرَيَّةُ ما هذَا السَّمَرُ؟ إني ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ نائمًا قبلَ هذهِ الصلاةِ ولا متحدِّثًا بعدَها إما نائمًا فَيَسْلَمُ أو مُصَلِّيًا فيَغْنَمُ[1].

وعن أبي رافعٍ قالَ كان عُمَرُ ينُشُّ الناسَ بِدِرَّتهِ بعدَ العَتَمَةِ يقولُ: قومُوا لعلَّ اللهَ يرزقُكُم صَلاَةً[2].

وعَنْ خِراشَةَ بنِ الحَرِّ قالَ: رأيتُ عمرَ بنَ الخطابِ يضربُ الناسَ بالدِّرَّةِ بعدَ صلاةِ العشاءِ ويقولُ: «أَسَمَرٌ أولَ الليلِ ونومٌ آخرَهُ»[3].

هـذي الجِنانُ تَزيَّنَتْ فتفتَّحتْ ... أبــوابُهــا فَعَجِبــتُ لِلْعُشَّــاق
أينامُ مَن عَشِقَ الجِنانَ وحورَها؟ ... وكـــرائمُ الجـــناتِ للسَّبَّاق
بل كيفَ يَغفُلُ موقِنٌ بعظيمِ سِلـ ... ـعةِ ربه وَبِذَا النعيمِ الباقي[4]

إخــواني:

ليلةُ القدرِ يُفتَحُ فيها البابُ، ويُقَرَّبُ فيها الأحبابُ، ويُسمعُ الخِطابُ ويُردُّ الجوابُ، ويُكتَبُ للعاملينَ فيها عظيمُ الأجرِ. ليلةُ القدرِ خيرٌ من ألفِ شهرٍ فاجتَهِدوا رَحِمَكُمُ اللهُ في طَلَبِها فهذا أوانُ الطلَبِ. واحذروا من الغَفلَةِ ففي الغفلةِ العَطَبُ.

---

(١) مختصر قيام الليل ص ١٠٠.
(٢) مختصر قيام الليل ص ١٠٠.
(٣) مختصر قيام الليل ص ١٠٠.
(٤) نزهة المشتاق ص ٣٢.

قال المغيرةُ بنُ حَبيبٍ: لما بَرزَ العدوُّ قال عبدُاللهِ بنُ غالبٍ عَلَامَ آسَى مِن الدنيا؟ فواللهِ ما فِيها اللبيبُ جَذِلٌ. وواللهِ لولا مَحبَّتي لِمُبَاشَرَةِ السّهرِ بِصَفحَةِ وَجْهي وافتراشِ الْجَبهَةِ لك يا سيدي والمراوَحَةِ بينَ الأعضاءِ والكراديس في ظُلَم الليلِ رجاءَ ثوابكَ وحلولِ رضوانك لقد كنتُ مُتَمنّيًا لِفراقِ الدنيا وأهلِها ثم كَسَرَ جَفْنَ سيفهِ وتقدَّم فقاتَلَ حتى قُتِلَ. فلما دُفِنَ أصابوا من قَبرِهِ رائِحةَ المسكِ. فرآه رجلٌ فيما يَرى النائمُ فقال: يا أبا فِراسٍ ماذا صنعتَ؟ قالَ خيرَ الصنيع. قال: إلامَ صرتَ؟

قالَ: إلى الجنَّةِ. قال بمَ؟ قال: بِحُسنِ اليقينِ وطولِ التهجُّدِ وظمأِ الهواجِرِ.

قال: فما هذه الرائحةُ الطيبةُ التي تُوجَدُ من قبرِك؟ قال: تِلك رائحةُ التلاوةِ والظمأِ. قالَ: أوصِني. قال: بِكُلِّ خيرٍ أُوصيك. قال: أوصِني. قال: اكسَبْ لِنَفْسِكَ خيرًا لا تخرُجْ عنك الليالي والأيامُ عُطْلاً فإني رأيتُ الأبرارَ نالوا البِرَّ بالبرِّ»[١].

إخواني: سلوا أنفسَكم عن هذه الأجيالِ ولماذا جاهَدَتْ ولماذا أنفقتْ ولماذا صَدَعَتْ بكلمةِ الحقِّ وأمرتْ بالمعروفِ ونهتْ عن المنكرِ؟ إنها ترجو الجنَّةَ. جعلني اللهُ وإياكم من أهلِها فكيفَ بكَ ياعبدَالله إذا دَخلْتَ مع أبوابِ الجنة واجتمعتَ بحورِها ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾[٢]،

---

(١) مختصر قيام الليل ص ٥٦.

(٢) سورة ص، الآيتان: ٥٠، ٥١.

فالجنةُ إذا فُتِحَتْ أبوابُها واستقبلهم بالسرورِ خزنتُهَا، لا تُغلَقُ بعد ذلكَ أبدًا وَتَتَنَزَّلُ عليهم بركاتُ ربِّهم وفيضُ بِرِّه - سبحانَه - في كل آنٍ وَأَوَانٍ، فشُدَّ المئزرَ واستَعِدَّ لدارِ الكرامةِ علّك تَحْظَى بِدُخُولِها[1].

اللهم إنا نَسْأَلُكَ الجنةَ وما قَرَّبَ إليها من قولٍ أو عملٍ، ونعوذُ بك من النارِ وما قَرَّبَ إليها من قولٍ أو عملٍ.

اللهم ارزقْنا تلاوةَ كتابِك حقَّ تلاوتِهِ ووفِّقنا للعملِ بما فِيهِ واجعلْنا مِمَّنْ نالَ به الفلاحَ والسعادةَ.

اللهم اجعلْنا مِن الراسِخينَ في العلمِ المؤمنينَ بكتابك بِمُحْكَمِهِ ومُتشابِهِهِ واغفرْ لنا ولوالِدينا ولجميعِ المسلمين برحمتِك يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

---

(١) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ٨.

الباب الرابع والعشرون

كلمةُ الإخلاص (لا إلٰه إلا الله) ونواقِضُهَا

الحمدُ للهِ الذي أوجبَ على عبادِهِ توحيدَه والشكرَ له، الذي وعدَ مَن وَحَّده الجَنَّة وَيَزيدُه مِنْ فَضْلِه، وأشهدُ أن لَّا إلٰه إلَّا اللهُ مالكُ الخلقِ وَكُلُّهم عبيدُه، وأشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسُوله أعظمُ الموَحِّدينَ وقامعُ المشركينَ وعلى آلِهِ وصحبِه أجمعينَ.

أمَّا بعدُ:

فاعلموا عبادَ اللهِ أنَّ مِنْ أهمِّ ما يجبُ على المسْلم معرفتهُ معنى التوحيدِ ومعنى لا إلٰه إلا اللهُ معرفةً جيدَةً وأنْ يعرفَ ما يناقضُ هذهِ الكلمةَ العظيمةَ التي من أجلِها خلقَ اللهُ الخلقَ وقامتِ السماواتُ والأرضُ وقامَ الجهادُ لإقرارِها وقتالِ الناس حتَّى يقولوها.

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يقولوا: لا إلٰه إلَّا اللهُ**» متفقٌ عليه.

فما معنى لَا إلٰه إلَّا اللهُ إذًا؟ إنَّ معناها - أخي المسلمَ - وفَقَّنا اللهُ وإيَّاك: هُوَ إفرادُ اللهِ بالعبادةِ والكفرُ بالطاغوتِ كما قالَ إمامُ الموَحِّدينَ ﷺ. ففي حديثِ أبي مالكٍ الأشجعيِّ عن أبيه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قالَ لا إلٰه إلَّا اللهُ وكفرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ حَرُمَ مالُهُ ودمُهُ، وحسابُهُ على اللهِ عَزَّ وجَلَّ**» رواهُ مسلمٌ. وقالَ تعالى قبلَ

ذلكَ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[2].

ولابُدَّ - أخي المسلمَ - مِنْ هذينِ المعنيينِ في الشهادةِ:

الأول: إفرادُ اللهِ بالعبادةِ.

الثاني: الكفرُ بالطاغوتِ.

ولا يصحُ أحدُهُما دونَ الآخرِ، فَمَنْ وحَّدَ اللهَ ولم يكْفُرْ بالطاغوتِ فليسَ بموحِّدٍ، ومَنْ كَفَر بالطاغوتِ وَلَمْ يُفرِدِ اللهَ بالعبادةِ فما وحَّدَ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾[3].

فهَلْ مَنْ ذَبحَ لِلجنِّ أو أصحابِ القبورِ يريدُ التقربَ إليهم بذلكَ، هَلْ يكونُ أفردَ اللهَ بالعبادةِ أَمْ أشركَ معهُ غيرَهُ؟

وهَلْ مَنْ نَذَرَ للقبرِ الفلانَيِّ أو استغاثَ بغيرِ اللهِ فيما لا يقدرُ عليه إلا اللهُ كقولِ قائِلهم: المددَ يا عبدَالقادرِ، أو يا بدويُّ أو يا عيدروسُ أو يا رسولَ اللهِ أو يا أبا بكرٍ هل يكُونُ ممَّنْ أفردَ اللهَ بالعبادةِ. وَهلْ مَنْ أحبَّ أحدًا كحُبِّ اللهِ وهو الذلُّ والخضوعُ لهُ أو خَشِيَهُ كما يَخشى اللهَ، أو خَافَ أحدًا كما يخافُ اللهَ - وهو خوفُ السرِّ، أنْ تخافَ أن يصيبَك ما لا يقدرُ عليه إلاّ اللهُ - هل يُعدُّ مِمَّنْ أفردَ الله بالعبادةِ؟

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣١.

(٢) سورة البينة، الآية: ٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

لا واللهِ إنَّ مَنْ فَعَلَ شيئًا من ذلك فما وحَّد اللهَ ولا أفردَه بالعِبادَةِ بل بينَهُ وبينَ التوحيدِ الذي يَدَّعيه أبعدُ مما بينَ المشْرِقِ والمغْرِبِ.

نعم أخي المسلمَ إذا كانتْ نفسُك عليكَ عزيزةً، وتخافُ الوقوفَ بين يدي اللهِ فحاسبْ نفسَكَ في توحيدِكَ فهُنالكَ قبرٌ وظلمةٌ فيه، والقبرُ أولُ منازلِ الآخرةِ فإمَّا روضَةٌ مِنْ رياضِ الجنَّةِ وإمَّا حفرةٌ مِنْ حُفرِ النّارِ. أنسيتَ النارَ وعذابَها أَمْ نسيتَ غضبَ الجبَّارِ وشدَّتَهُ، فاللهَ اللهَ ! أفرِدِ اللهَ بالعبادةِ أخي المسلمَ؛ فإذا استغثْتَ فاستغِثْ باللهِ، وإذا سألتَ فاسألِ اللهَ فالعبادةُ للهِ وحدَهُ.

ثم اعلمْ أخي المسلم أنه لا يَكْفِي إفرادهُ بِالعبادةِ حتى تَضُم لذلك الكفرَ بالطاغوتِ.

وقد يسألُ سائلٌ وما هو الطاغوتُ؟ وكيف الكفرُ به؟

فالطاغوتُ كما قال العلامةُ ابنُ القيم: «هو كلُّ معبودٍ أو متبوُعٍ أو مُطاعٍ في غيرِ طاعةِ الله» أ.هـ. (الصَّنمُ طاغوتٌ، والقوانينُ الوَضْعِيَّةُ طاغوتٌ، ومن دعا إلى القَوْمِيَّةِ العربيةِ طاغوتٌ، أو دعا إلِى الشُّيوعِيَّةِ أو الرأسُمَالِيَّةِ طاغوتٌ، وكُلُّ مَنْ دعا إلى عِبَادةِ نَفْسِهِ أو طاعةِ نفسِه كالزُّعماءِ الذي يَدْعُونَ الناسَ إلى طاعَتِهم فِي مَعْصِيةِ اللهِ ويُشَرِّعُون لهم ما لم يأذنْ به اللهُ فهم طَواغيتُ، ومن دَعَا إلى محبَّةِ الوَطَنِ وترتَّبَ على ذَلكَ كفرٌ أو شركٌ فهوَ طاغوتٌ، وغيرهُم وغيرهُم. فكل هؤلاءِ وأمثالُهم طواغيتُ).

فَمِنَ التوحِيدِ: الكفرُ بِهم بالقلْبِ: وهُو بُغضُهُم وكَرَاهِيَتُهم

وتمنِّي زوالِهم ومقتِهم، وباللسانِ: التصريحُ مع الاستطاعةِ بتَقْبيحِهم والبراءةِ منهم والتحذيرِ منهم، وبالجوارحِ: مجاهدتُهُم ومنابذتُهم ما استطاعَ إلى ذَلِك سبيلاً.

لكنْ انتبه أخي المسلم: فإنَّ مَقْتَ القلبِ وبغضَه للطاغوتِ لابدَّ منهُ إذ لا يجتمعُ التوحيدُ مع عدمِ وجودِه كما لا يجتمعُ الماءُ مع النارِ أو الليلُ مع النهارِ.

فقلْ لي أخِي المسلمَ أين القبوريونَ مِنْ هَذَا التوحيدِ؟ وأين دعاةُ تحرير المرأةِ من توحيدِ اللهِ وأين المنادوُن لتطبيقِ القوانينِ الوضعيةِ وإلغاءِ حدِّ السرقةِ ورجم الزاني وزعمهم أن هذا تَخَلُّفٌ ورجعيةٌ؟ وأين دعاةُ التغريب والسَّيْرِ في ركابِ أوروبا والغربِ جميعِهِ؟ يتضحُ لك أخي المسلمَ غربةُ التوحيدِ إلا ما شاء اللهُ.

وبعدُ، فإنَّ لَا إلٰه إلاَّ اللهُ لا تنفعُ قائلَها إلاَّ إذَا عَرفَها وعَمِلَ بِمُقْتَضَاها ولم يأْتِ بما ينَافِيها فإنْ حَقَّقَ ذلك كان شرعًا قائلاً لا إلٰه إلاَّ اللهُ، فكلُّ ما جاء عن اللهِ ورسولِه أنَّ مَن قال لَا إله إلاَّ اللهُ فله كَذَا، أو حَرُمَ على النارِ أو دخلَ الجنةَ، أوْ صَلُّوا على من قالَ لا إلٰه إلاَّ اللهُ. فالمرادُ ليسَ قولَ اللسانِ فقط، بل قولُ اللسانِ وعملُ القلبِ والجوارحِ ولم يأتِ بما يناقضُها.

ونواقضُ كلمةِ التوحيدِ عشرةٌ:

أولاً: الشركُ باللهِ تعالى - أعاذنا اللهُ وإيَّاكم وأولادنَا وأولادَكُم

منه وجميعَ المسلمين -قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ ﴾[2].

سواءٌ أشركَ باللهِ في ربُوبيَّتِه أو أُلوهِيَّته أو أسمائِه وصفاتِه. وقد مرّ في أولِ الفصلِ معنى التوحيدِ وبه يتبينُ معنى الشركِ لأنه بضدهِا تَتَبَيَّنُ الأشياءُ.

وهنا تنبيهاتٌ: فإنَّ بعضَ الناسِ يَفهمُ عن الشركِ فهمًا خاطئًا، ويظنُّ أن الشركَ هو السجودُ أو الركوعُ للصنم خاصةً، أو الشركُ هو اعتقادُ رَبٍّ غيرِ اللهِ وخالقٍ معهُ ويكتفونَ بذلكَ، فإنَّ الموحدَ عنْدَهم من اعتقدَ أنَّ اللهَ هو الربُّ الخالقُ فقطْ. وهذا موجودٌ في كفارِ قريشٍ فهم يعتقدونَ أنَّ اللهَ هو الخالقُ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[3]. فعلى هذا الرأي أنَّ قُريشًا مَوَحِّدُون وأنَّ أبا جهل- أخْزاه الله - من الموحدينَ. بلِ الشِّركُ أعمُّ من هذا.

فالشركُ أنْ تَجعلَ للهِ نِدًّا كما قالَ ﷺ: «**أنْ تجعلَ لله ندًّا وهو خلقَكَ**». أنْ تجعلَ له مثيلاً وشريكًا إمَّا في الخَلقِ والإيجادِ أو العبادةِ، أو فيما يختصُّ بِهِ من أسماءٍ أو صفاتٍ.

ثانيًا: أنَّ مَن جعلَ بينَه وبينَ اللهِ وسائطَ يدعوُهم ويسألُهم الشفاعةَ ويتوكَّلُ عليهم فقد كفرَ إجماعًا.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٧٢.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٧.

ثالثًا: من لم يُكفِّرِ المشركينَ أو شكَّ في كُفْرِهم أو صَحَّحَ مَذهبهَم كَفَر.

قالَ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[1].

واالذي لا يُكفِّرُ المشركينَ غَيرُ مُصَدِّق بالقرآنِ، فلابدَّ من تكفيرِ النصارى واليهودِ والشُّيوعِيينَ ومَنْ يَعْبُدُ الأولياءَ والقبورَ.

ومعنى (صَحَّحَ مَذْهَبَهُم) أي قالَ بأنهم على حقٍّ أو معذُورينَ، ومِنْ هذَا المَعْنَى فَلاَ يَجوزُ الدعوةُ إلى الحِوَارِ بين الإسلامِ والنصرَانِيَّةِ وأينَ التوحيدُ من الشركِ حتى يَتَحَاوَرَا؟!

رابعًا: من اعتقَدَ أنَّ هدْيَ غيرِ النبيِّ ﷺ أكملُ من هديهِ أو أنَّ حُكْمَ غيرِ الإسلامِ أحسنُ من الإسلامِ كالذي يُفَضّلُ القوانينَ الوضعيَّةَ على الأحكامِ الشرعيَّةِ. فإنَّ مِن الكفرِ المستبينِ تنزيلَ القانونِ والدستورِ اللعينِ منزلةَ الشرعِ. وجعلَ محاكمَ مَرْجِعُها القانونُ الملفَّقُ مِن زُبالاتٍ شَتَّى. فَهذه المحاكمُ الآنَ في كثيرٍ من أمصارِ الإسلامِ مهيأةٌ مكملةٌ مفتوحةُ الأبوابِ والناسُ إليها أسرابٌ إثرَ أسرابٍ، يحكمُ حُكَّامُها بما يخالفُ الشرعَ، وتُلْزِمُهُمْ بِهِ وتُقرُّهم عليه فأيُّ كفرٍ فوقَ هذا الكفرِ؟! وأيُّ مناقضةٍ فوقَ هذهِ المُنَاقَضَةِ؟! ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٦٠.

ومِن أمثلةِ ذلك أيضًا: اعتقادُ أنَّ نظامَ الإسلامِ وأَحكَامهُ لا يصلُحُ تطبيقُها في القرنِ العشرينَ؛ إذ إنَّ الإسلامَ بزعْمِهِمْ سببُ التَّخَلُّفِ، أو إنَّه يُحصَرُ في عَلاقةِ المرءِ بربهِ دون أنْ يتدخلَ في شؤونِ الحياةِ كما يقولُ العِلمانيونَ قاتلَهُمُ اللهُ أنَّى يؤفكون. أو أنَّ قطعَ يدِ السارقِ أو رجمَ الزاني المحصنِ لا يناسبُ العصرَ الحاضرَ وهُو تَشْويهٌ للإنسانِ. **فلا تذهبْ أخي المسلمَ إلا لِلْمَحاكِمِ الشرعيَّةِ** وَتَذَكَّرِ الموتَ وهادِمَ اللَّذَاتِ فَعن قَرِيبٍ تفُارقُ الدنيا. فماذا تَقُولُ للمَلكِ العلاَّمِ سُبْحَانهُ إذا سألكَ لماذا ذهبتَ إلى غيرِ حُكْمِي وشَرْعِي فأعِدَّ للسؤالِ جوابًا.

خامسًا: مَن أبغضَ شيئًا مما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ كفرَ ولو عَمِلَ بِهِ ظاهرًا كالذي يُبغِضُ الحِجابَ أو يُبغضُ إقامةَ الحدودِ أو أيَّ أمرٍ جاءَ في القرآنِ وعن رسولِ اللهِ، فيكرهُهُ بقلبِه ويبغضُهُ حتى ولو عَمِلَ بِهِ لأنَّ العبرةَ بما في القلبِ قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[1].

سادسًا: مَن استهزَأَ بشَيْءٍ من دينِ الرسول ﷺ أو ثوابِ اللهِ أو عقابِه كفرَ. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[2]. كالذي يستهزىءُ بإقامةِ الحدودِ أو باللِّحيةِ أو بالحجِّ وغيرِه.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٩.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥، ٦٦.

وقالتِ اللجنة الدائمةُ للإفتاءِ بالفتوى رقم (٤١٣٧)، وتاريخ (١١/١١/١٤٠٦هـ): «من يستهزىءُ بالمُسْلِمَةِ أَو الْمُسْلِم من أَجلِ تَمَسُّكِه بالشريعةِ الإسلاميةِ فهو كافرٌ سواءً كان ذلك في احتجابِ المسلمةِ احتجابًا شرعيًّا أم غَيْرِه» انتهى.

قال بعضُ العلماءِ: «ومثلُ ذلك من يكونُ دَيدَنهُ السُّخريةُ بأهلِ الدينِ وكُلَّمَا سمعَ بُمَتدينٍ سَخرَ منه».

سابعًا: مُمارسةُ السِّحرِ. فمَن فعلَه أو رضيَ به كفرَ. قال تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾[١]. وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[٤]. قالَ عمرُ بنُ الخطابِ، رَضِيَ اللهُ عنه: «الجبْتُ السّحرُ».

وقد ابتُليَ بعضُ الناسِ اليومَ بالعلاجِ عندَ السَّحَرةِ فإذا ابتُلي أحدُهم بمرضٍ في نفسهِ أو قريبهِ يذهبُ إلى السحَرَةِ والكهّانِ والمُشَعْوِذِينَ لِلْعلاجِ، والعياذُ باللهِ. قال الشيخُ العلامةُ عبدُالعزيزِ بنُ بازٍ لمّا سُئل عن علاجِ المسحورِ عندَ المشعوِذِينَ أو المجهولِينَ[٥].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥١.

(٥) في مجلة الدعوة عدد (٩٩٧).

قالَ: (علاجُ المسحورِ والمصروعِ يكونُ بالآياتِ القرآنيةِ أما العلاجُ عندَ الذين يدَّعونَ الغيبَ أو يَستحضِرُونَ الجنَّ وأشباهِهِم مِنْ المشعوذِينَ أو المجْهُولينَ الذين لا تُعرفُ حالُهم ولا كيفيَّةُ عِلاجِهم فلا يجوزُ إتيانهُم لقولِ الرسولِ ﷺ: «**من أتى عرّافًا أو كاهِنًا فصدّقَهُ بما يقَوْلُ فقدَ كَفرَ بما أُنزلَ على محمدٍ**» ﷺ[1]، ومَنْ كان يعملُ في علاجِهِ أنه يسألُك مثلاً عن اسمِك واسمِ والدتِك ثم راجِعْنَا غدًا يقولُ بعد مُراجَعَتِه إنك مُصابٌ بكذا وكذا هذا دليلٌ أنه يستخدمُ الجنَّ فالواجِبُ[2] الإنكارُ على هؤلاءِ والرفعُ عنهم لوُلاَةِ الأمرِ حتى يُعاقَبوا بما يستحقُّون.

وهذه مسألةٌ في هذا البابِ يجب التَّنَبُّهُ لهَا وهي وجودُ أَناس يموِّهُونَ على الناسِ باسمِ الأَلْعابِ البَهْلَوَانِيَّةِ وهي من أَنْواعِ السحْرِ يُسمُّونَها بِغيرِ اسمِها ويقولونَ هذه رِياضَةٌ أو خِفَّةُ حركَةٍ، ومجردُ تسليةٍ للسُّياحِ.

قال الشيخُ ابنُ بازٍ[3]: (وأَمَّا ما يقعُ من التصرُّفاتِ المنكرةِ من طَعنِ الإنسانِ نفسَه بالخِنْجرِ، وقطعِ لِسانِهِ وأَمثالِه كلُّ هذا تَمويهٌ على الناسِ وكلُّه من أنواعِ السحرِ وهُوَ من جِنسِ ما قالَ اللهُ تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾[4]. فهؤلاء جَمعوا بين السِّحْرِ والشَّعْوَذةِ) ا. هـ.

---

(١) في مجلة الدعوة عدد (٩٤٨).
(٢) في مجلة الدعوة عدد (٩٩٩).
(٣) المجلة العربية.
(٤) سورة طه، الآية: ٦٦.

فتنبه أخي المسلمَ: لا تَحضُرْ مثلَ هذهِ الألعابِ القذرةِ المصادِمةِ للعقِيدةِ بدعوى التفرجِ والنزُّهةِ فَمتى كانَ الشِّركُ والإلحادُ نُزْهةً للقلبِ أو انبساطًا للفؤادِ؟! بل الواجبُ بُغضُهُم وبغضُ أَعْمَالِهم ومحاربتُهُم وهذا من معاني الكفرِ بالطاغوتِ كما سَبَقَ ذكرُهُ أولَ الفصلِ.

ثامنًا: مظاهرةُ المشركينَ ومعاونتُهُم على المسلمين كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

كالذي يُناصرُ ويُظاهرُ اليَهودَ والنَّصارَىَ والْمشركينَ وأَذنابَهُمْ من قَوْمِيِّينَ وشُيُوعِيِّينَ وعلمانِيِّين عَلَى المُسْلِمينَ.

تاسعًا: الاعتقادُ أنَّه بالإِمكانِ الخروجُ عن الشريعةِ فلا يجوزُ شرعًا أن يكونَ هناكَ مَنْ هُو خَارجٌ عن الشريعةِ. قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[2]. وهذا يحصلُ عندَ بعضِ مشايخِ الطُّرُقِ الصوفيةِ والدَّجَّالينَ، ويَرَوْنَ أنَّ لهم أن يَتركوا بعضَ الشرائعِ وأنَّها خَاصَّةٌ بالعامةِ كما خرجَ الخَضِرُ عن شريعةِ موسى، عليه السلامُ، ولم يأخذْ بها، وهناكَ فرقٌ بينَ الأَمرين فإنَّ موسى، عليه السلامُ، كانَ رسولاً لبني إسرائيلَ فقط ولم تكنْ شريعةُ موسى لازمةً لجميعِ الناسِ في زمانِه بخلافِ رسالةِ محمدٍ ﷺ فهي لازمةٌ لجميعِ البشرِ ولا يسعُ أحدًا الخروجُ عنها وتركُها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

عاشرًا: الإعراضُ عن دينِ اللهِ لا يتعلمُّه ولا يعملُ به. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[1]. والمقصودُ الإعراضُ الكليُّ عن دينِ اللهِ أو عمَّا لا يصلُحُ الإسلامُ إلا به لا يتعلّمُه ولا يعملُ به.

اللهم يا رافعَ السماواتِ وباسط الأرضِ، اللهم إنا نستغيثُ بكَ من الوقوعِ في الشركِ أو في شيءٍ من نواقضِ الدينِ فإنَّه لا فرقَ في هذه النواقضِ بين الجادِّ أو الهازلِ.

اللهم لا تُخيِّب رجاءَنا وأبْعدْنا عن الشركِ واجعلنا مُوَحِّدينَ لك مؤمنينَ بكَ وجميعَ المسلمين.

اللهم اغفرْ للمسلمين والمسلماتِ ووفِّقِ الموحدينَ لهُدَاك وصَلى اللهُ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِه وصحبِه أجمعينَ.

العملُ بالقرآنِ

الحمدُ للهِ الذي هدانَا للإسلامِ، وعلَّمنا القرآنَ خيرَ الكلامِ، وجعلهُ نورًا وحياةً للقلوبِ، وشفاءً لما في الصدورِ، أخرجَ به من الظلماتِ إلى النورِ، فبَصَّرَ بِهِ من العَمى، وهدى بهِ من الضَّلالةِ، أحمدُه تعالى على جزيلِ إنعامِهِ، وأشكرُهُ على جليلِ إحسانِهِ، وأشهدُ أن لآ إله إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٢.

ورسولُه وخِيرتُهُ من خلقِهِ، وأمينُهُ على وحيِهِ، صلى اللهُ عليه وعلى آله وصحبِهِ ومَنِ اقتفى أثرَهُمْ وسارَ على نهجِهِم إلى يومِ الدينِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: فيقولُ الحقُ - سبحانه -: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]. هَذَا القرآنُ يهدي لأقومِ الطُّرُقِ وأيسرِ السُّبل، من أخذَ به سَعِدَ في الدُّنيا والآخرَةِ، ومن أعرضَ عنه فإنَّ له معيشةً ضنكًا.

عبادَ اللهِ: لقد كانتْ البشرِيَّةُ قبلَ أنْ ينزلَ عليها كتابُ اللهِ تعيشُ في ظلامٍ دامسٍ، وليلٍ بَهِيمٍ، لعبتْ بعقولِها الخُرَافَاتُ والأَساطيرُ، ففي كلِّ جانبٍ من جوانبِ الحياةِ وكلِّ ناحيةٍ من نواحِيها جاهليةٌ وتخبُّطٌ، فأكرمَ اللهُ - تعالى - البشَريَّةَ، وأنزلَ عليها القرآنَ ليُخرجَهم به من الظُّلماتِ إلى النُّورِ، ومِن الخضوعِ للأصنامِ والأوثانِ والأشخاصِ إلى الخضوعِ للواحدِ الديّانِ، فلمّا تمسكتْ به الأُمَّةُ وجعلَتْهُ منهَجًا لها لا تَحِيدُ عنه صارتْ خيرَ أمةٍ أُخرجتْ للناسِ، وأصبحَ مَجْدُها يطاوِلُ السحابَ، وقادوا الأممَ إلى الهُدَى والخيرِ.

إخواني: كتابُ اللهِ بين أيدِينَا محفوظٌ بحفظِ اللهِ له ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]. ولقد أُنْزِلَ ليكونَ كتابًا للبشريةِ إلى قيامِ الساعةِ يقودُها إلى الخيرِ في حربِها وفي سلمِها، وفي شئونِ الدنيا

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

والآخرةِ، وإنَّ هذا القرآنَ الذي رفعَ الأُمَّةَ الإسلاميةَ في أولِ عهدِهَا قادرٌ على رفْعِهَا إلى سماءِ المجدِ ثانيةً؟، ولكنْ متى؟ يوم أن نأخذَ وَنَتَلَقَّى هذا القرآنَ كما تَلَقَّوْهُ بشعورِ التَّلَقِّي للتَّنْفيذِ مَهْما عارضَ أهواءَنَا وشَهَوَاتِنَا وصَدَق اللهُ العظيمُ ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]. ونصرُ اللهِ هو بامتثالِ أمْرِه واجْتِنابِ نَهْيِه.

عبادَ اللهِ: ونحنُ نَقرأُ في هَذِه الأيَّامِ هل نقفُ عند الآياتِ ونعلمُ أنَّها رسائلُ من رَبِّنا إليْنا هلْ وَقفْنا عِنْدَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2]. هل وقفنا عِندَ هذه الآيةِ وحاسبْنا أنفُسَنَا؟ هل أطَعْنَا اللهَ في اتقاءِ النارِ؟ هل أَخرجْنا ما في بُيوتِنا من منكراتٍ تدعو إلى الرذيلةِ؟ هل أمرْنا أهلَنا وأولادَنا بإقامةِ الصلاةِ في وقتِها؟ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[3]. وقال ﷺ: «**مُرُوا أولادَكم بالصَّلاة لِسبْعٍ واضْرِبُوهم عليها لِعشْرٍ وفرِّقوا بينهم في المضاجعِ**» رواه أبو داودَ والترمذيُّ وقال حسنٌ صحيحٌ[4]. هل كنا عونًا لأبنائِنا وبناتِنا إلى الخيرِ وإبعادِهم عن الشرِّ وأسبابِه؟ هل أعنَّاهم على غضِّ أبصارِهم وحفظِ فروجِهم بالزواجِ المُبكِّرِ، وإبعادِ الأسبابِ التي تدعو إلى الرَّذيلةِ من صورةٍ فاتنةٍ أو أُغْنِيَةٍ ماجنةٍ؟ وهل في الغناءِ إلا المجونُ والدعوةُ إلى التحللِ من القيمِ والأخلاقِ

(١) سورة محمد، الآية: ٧.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٣) سورة طـه، الآية: ١٣٢.
(٤) أبو داود في الصلاة ١/ ٣٣٢/ ح ٤٩٤-٤٩٥ والترمذي في الصلاة ٢/ ٢٥٩/ ح ٤٠٧.

الفاضلةِ؟ ماذا استفدْنَا من تلاوتِنَا لهذه الآيةِ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾[1]. إذا كانَ الأبُ القارئُ لهذه الآيةِ لا يغضُّ طرفَهُ عن الحرامِ بل ويُعينُ أبناءَه وبناتِهُ على النَّظرِ إلى الحَرامِ.

عبادَ الله: إننا نقرأُ قولَ اللهِ سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]. ونشاهدُ في واقعِنا بعضَ المسلمينَ يمارسُ هذه الجريمةَ: جريمةَ الربا وكأنَّ اللهَ لم يُحرِّمْها، فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ، واعلموا أنَّ هذا القرآنَ لم يُنَزَّلْ للتِّلاوةِ وحدَها، إنما أُنْزِلَ لجميعِ ذَلكَ، فهو منهجُ حياةٍ في الإقتصادِ والإعلامِ والتعليمِ والعَلاقاتِ الدَّوْليةِ والأُسَرِيَّةِ والفرْدِيَّةِ، ولَيْس لَنَا الخِيارُ في ذلك ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾[3]. والقرآنُ يحفظُ الفردَ المسلمَ من الشياطينِ، فعليكَ أخي المسلمَ بالمواظبةِ على وِرْدِكَ اليَوْمِيِّ حتى يكونَ عليكَ من اللهِ حافظٌ.

فعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنه قال: «وكَّلني رسولُ اللهِ ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضانَ. فأتاني آتٍ فجعلَ يحثُو من الطعامِ. فأخذتُهُ وقلتُ: لأَرْفعَنَّك إلى رسولِ اللهِ ﷺ، قال: إني محتاجٌ، وعليَّ عيالٌ، ولي حاجةٌ شديدةٌ. قال: فخلَّيتُ عنه. فأصبحتُ فقالَ النبيُّ

(١) سورة النور، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٨.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٦.

ﷺ: «**يا أبا هريرةَ. ما فعل أسيرُك البارحةَ**»؟ قلتُ: يا رسولَ اللهِ شكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحِمتُهُ، فخلَّيتُ سبيلَهُ. قال: «**أمَا إنَّهُ قد كَذَبَكَ وسيَعودُ**». فعرفتُ أنه سيعودُ لقولِ رسولِ اللهِ ﷺ إنه سيعودُ فرَصَدْتُه فجاءَ يحثُو من الطعامِ فأخذْتُهُ، فقلتُ لأرفعنَّكَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: دعني فإني محتاجٌ وعليَّ عيالٌ. لا أعود، فرحمتُهُ فخلَّيتُ سبيلَهُ، فأصبحتُ، فقال ليَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا أبا هُريرةَ ما فعل أسيرُك**»؟ قلتُ: يا رسول اللهِ شَكا حاجةً شديدةً وعيالاً، فرحمتُهُ فخلَّيتُ سَبيلَهُ، فقال: «**أما إنهُ كَذَبك وسيعودُ**» فرَصَدْتُه فجاءَ يَحثُو من الطعامِ فأَخذتُهُ، فقلتُ لأرفعنَّك إلى رسولِ اللهِ ﷺ وهذا آخرُ ثلاثِ مراتٍ: إنك تزعُمُ لا تعودُ ثم تعودُ. قال: دعني أُعَلِّمْكَ كلماتٍ ينفعُك اللهُ بها. إذا أويتَ إلى فِراشِكَ فأقرأ آيةَ الكرسيِّ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾[1]. حتى تختم الآيةَ، فإنَّكَ لَنْ يزالَ عليكَ من اللهِ حافظٌ ولا يقربُك شيطانٌ حتى تَصبحَ، فخلَّيتُ سَبيلَهُ، فأصبَحْتُ، فقال ليَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما فعلَ أسيرُك**»؟ قلتُ: زعمَ أنَّه يُعلِّمُني كلماتٍ ينفعُني اللهُ بها. قال: «**أما إنه صَدَقَك وهَو كَذوبٌ وَتَعْلَمُ مَنْ تخاطبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ**»؟ قلتُ: لا. قال: «**ذاكَ الشيطانُ**» رواهُ البخاريُّ معلقاً ووصله النسائي بسند صحيح.

وتِلاوةُ القرآنِ مُستَحبةٌ في كلِّ وقتٍ ولكنَّها في هذا الشهرِ أفضلُ وآكدُ لاختصاصِهِ بمضاعفةِ الحسناتِ. كما أنَّ اللهَ- سبحانه وتعالى -

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

ذكرَ فضلَ تِلاوةِ القرآنِ في زمنِ السَّحَرِ فقالَ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[1].

إخواني: إنَّ من يَطَّلِعُ على أحوالِ السلفِ يرى عجبًا من العجبِ أقوامًا يُقْبِلُونَ على القرآنِ إقبالَ الظمآنِ على الماءِ البارِدِ. يتلونَ آياتِه ويتَدَبَّرُونَها ويُنفِّذون أحكامَهُ ويُؤْمِنُونَ بمتشابِهِهِ ويعمَلونَ بمُحكَمِه ويتأثرونَ بما فيه مِنَ الوعدِ والوعيدِ والثوابِ والعقابِ فيَخِرُّونَ للأذقانِ يبكونَ ويزيدُهُم خشوعًا. وكان الواحدُ منهم إذا قرأَ كتابَ اللهِ لا يشغَلُهُ عنه شاغلٌ ولا يجذبُهُ عنه جاذبٌ وقد رُوِي في ذلك عنهم الأعاجيبُ.

أمَّا تطبيقُهُمْ لآياتِ القرآن وسرعةُ استجابتهم للهِ وتَغَلْغُلُها في قلوبِهِمْ. فيشهدُ لذلك كثيرٌ من الحوادثِ التي جَرَتْ لهم. . لمّا رَمى المنافقونَ عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - بالإفكِ اغترَّ بقولهم نفرٌ من المسلمينَ مِنهم مِسطَحُ بنُ أُثاثَهَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - وكان فقيرًا لا مالَ له إلا ما يُنْفِقُ عليه أبو بكرٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - فحلفَ أبو بكرٍ أنْ يقطعَ عنه ما كان يصلُهُ بِهِ. فنزل قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾[2]. قالَ أبو بكرٍ: بلى واللهِ إنَّا نحبُّ أن تَغفِرَ لنا يا ربَّنا. ثُمَّ أَرْجَعَ إلى مِسطَحٍ صِلَتَهُ وقالَ:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٢٢.

واللهِ لا أنزِعُها منه أبدًا[1].

ولمّا نزلَ قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٌ كَرِيمٌ﴾[2]. قالَ أبو الدَّحداحِ الأنصاريُّ: يا رسولَ الله، وإن الله ليريدُ منا القَرضَ؟ قال: نعم يا أَبا الدَّحْدَاحِ. قالَ: أَرِني يدَكَ يا رسولَ اللهِ. فناولَهُ يَدَهُ. قال: فإني قد أقرضتُ ربي حائِطِي - وَلَهُ حائطٌ فيه ستُّمائةِ نخْلَةٍ - وأمُّ الدَّحْدَاحِ فيهِ وَعِيالُهَا. فجاء أبو الدَّحْدَاحِ فناداها: يا أُمَّ الدَّحْداحِ. قالت: لَبّيك. قال: اخرُجي فقدْ أقرضْتُهُ ربِّي - عزَّ وجلَّ - قالتْ: رَبِحَ بيعُك يا أبا الدَّحْدَاحِ. ونَقَلتْ منه متاعَها وصِبيانَها؛ وأن رسولَ الله ﷺ قال: «**كَمْ من عِذقٍ رَدَاحٍ في الجنَّةِ لأبي الدَّحْدَاحِ**»[3]. رواهُ الإمام أحمدُ وابنُ أبي حاتم.

وقرأ أبو طلحة سورةَ براءةٍ فأتى على هذه الآيةِ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4]. فقال: أرى ربَّنا استنفَرَنا شُيوخًا وشُبَّانًا جهِّزوني يا بَنِيَّ. فقال بنُوهُ: يرحمُك اللهُ! قد غزوتَ مع رسولِ الله ﷺ حتى ماتَ. ومع أبي بكرٍ حتى ماتَ ومع عمرَ حتى ماتَ. ونحنُ نغزُو عنكَ فأَبَى فرَكِبَ البحرَ (غازيًا) فماتَ فلم يجدُوا لهُ جزيرَةً يدْفِنُونَهُ فيهَا إلا بعدَ تسعةِ أيَّامْ فلم يتغَيَّرْ فَدَفنُوهُ فيها[5].

وحتَّى النِّساءُ في تِلكَ القرونِ المُفَضَّلَةِ كُنَّ سَرِيعاتِ الاستجابةِ

---

(١) تيسير العلي القدير (٣/ ٢٧٠).
(٢) سورة الحديد، الآية: ١١.
(٣) رواه أحمد ٣/ ٣٤٦.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤١.
(٥) تيسير العلي القدير (٢/ ٣٣٩-٣٤٠).

لأوامرِ اللهِ، قالَتْ أمُّ سَلَمَةَ: لما نَزَلَتْ هَذِه الآيَةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[1]. خرجَ نساءُ الأنصارِ كأنَّ على رؤوسِهِنَّ الغِربانُ من السَّكِينةِ. وعَلَيهِنَّ أَكْسِيةٌ سودٌ يَلْبِسْنَها[2] رواه ابن أبي حاتم.

أما نحنُ فواقعُنا مَشينٌ، وَوَضعُنا مَهينٌ، قلوبُنا قاسيةٌ فليسَتْ تلينُ، وأبصارُنا تَعَامَتْ عنِ الحقِ المبين، ليت شِعْري كيفَ سَنَقدُمُ على اللهِ يومَ يُبْعَثُ مَنْ في القُبُورِ، ويُحصَّلُ ما في الصدورِ، ويُكشَفُ كلُّ مَستورٍ. نَقرأُ آياتِ اللهِ بُكرةً ونُخالفُهَا عَشيًّا، ونَسمعُ وَعْدَها وَوَعِيدَها ثم نَطْرَحُ ذَلِكَ خَلْفَ ظُهورِنَا نَسيًا مَنْسِيًّا.

نزلَ رسولُ اللهِ ﷺ في سفرٍ له مكانًا قريبًا من العدوِّ حينَمَا أدركَهُ الليلُ. فقال: من **يكْلَؤُنا ليلتَنَا هذِهِ**؟ أي يحرسُنُا. فقامَ عمَّارُ بنُ ياسرٍ وعبّادُ بنُ بشرٍ فقالا: نحن يارسول الله. قال: فَكُونا في فمِ الشِّعبِ وكان رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُهُ قد نزلوا إلى شِعبٍ من الوَادِي. فلما خَرجَ الرَّجُلانِ إلى فَمِ الشِّعبِ قال عبّادٌ لعمَّارٍ: أيُّ الليلِ تحبُّ أن أَكْفِيَكَهُ؟ أولَهُ أم آخرَهُ؟ قالَ: بل اكفِنِي أولَهُ: فاضطجعَ عمارٌ فنامَ. وقام عبّادٌ يصُلِّي. فأتى رجُلٌ من العدوِّ فلما رأى شخصَ عبّادٍ عرفَ أنه يحرُسُ القومَ فَرَماهُ بسهمٍ فأثبتهَ في جِسْمِهِ، فانتزعَهُ عبّادٌ فَرمَاهُ، وظلَّ في صلاتِهِ، فرماهُ بسهْمٍ آخرَ فأثبتَهُ في جسمِهِ، فانتزعَهَ عبّادٌ ورماهُ، ثم عادَ بالثالثِ فأثبتهُ في جسمِ عبّادٍ، فانتزعَهُ عبّادٌ وأَلقاهُ،

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.

(٢) تيسير العلي القدير (٣/ ٥١٨).

وركعَ وسجدَ، وأتمَّ صلاتَهُ ثم أيقظَ عمارًا وقال: اْثبُتْ مكانِي فقدْ أُصِبْتُ، فوثبَ عمارٌ فلما رَآهُما الرجلُ عرفَ أنهمْ قد عَلِمُوا بهِ فهربَ. فلما رَأى عمارٌ ما أصابَ عبّادًا وما بِهِ من الدمِ قالَ: سبحانَ الله. أفلا أيقظْتَنِي أولَ ما رماكَ؟ قال عبّادٌ: كنتُ في سورةٍ أقرأُهَا فلمْ أحْبِبْ أن أقطعَهَا حتى أُنهِيَهَا. فلما تابعَ عليَّ الرمْيَ ركعتُ فأيقظتُكَ وواللهِ لولا أن أُضيِّعَ ثغرًا أمرنِي رسولُ الله ﷺ بحفظِهِ لقَطعَ نَفَسي قبل أن أقطَعَها أو أُنفِذَها[1].

اللهم إنَّا نسألُك بكلِ اسمٍ هو لك سمَّيْتَ به نفسَكَ أو أَنْزَلتَهُ في كتابِكَ أو عَلَّمْتَهُ أحدًا من خَلْقِكَ أو استأثْرتَ به في عِلْمِ الغيبِ عندَكَ أن تجعلَ القرآنَ العظيمَ ربيعَ قلوبِنا ونورَ صدورِنا وجلاءَ أحزانِنا وذهابَ همومِنا وغمومِنا.

اللهمَّ ذَكِّرنا منه ما نُسِّينا، وعلِّمنا منهُ ما جهِلْنَا، وارزقْنَا تلاوتَهُ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ على الوجه الذي يُرْضيكَ عنا.

اللهم اجعلِ القرآن لَنَا في الدنيا قرينًا، وفي القبر مُؤَنِّسًا، وفي القيامةِ شفيعًا، وعلى الصِراطِ نورًا، وإلى الجنةِ رفيقًا، ومن النارِ سِترًا وحجابًا، وإلى الخيراتِ كلِّها دَليلاً، وإمامًا بفضلِك وجودِك وكرمِكَ يا أكرمَ الأكرمينَ وأَرحمَ الرَّاحمينَ.

اللهم اهدنا بهدايةِ القرآنِ، ونَجِّنَا من النيرانِ بكرامةِ القرآنِ، وارفَعْ درجاتِنَا بفضيلةِ القرآنِ، وكفِّر عنا سيئاتِنَا بتلاوةِ القرآنِ

---

(١) أصل القصة في مختصر قيام الليل ص (١٣٦).

يا ذا الفضلِ والإِحسانِ.

اللهم ارحمنَا بتركِ المعاصِي أبدًا ما أبقيتَنا، وارحمنَا بتركِ ما لا يعنِينا وارزُقْنَا حُسْنَ النظرِ فيما يُرضيك عنا، وألزِمْ قلوبنَا حِفظَ كتابِكَ كما علَّمتَنا، ونوِّرْ بهِ بصائِرنَا، واشرحْ به صدورَنَا، واجعلنَا نتلوهُ كما يُرضيكَ عنَّا، وافتحْ بهِ قلوبنَا وأَطلقْ بهِ ألسنَتنَا، واخْتِمْ بالصالحاتِ أَعمالَنا، واغفرْ لَنا ولجميعِ المسلمينَ برحمَتِك يا أرحمَ الراحمينَ.

وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

الباب الخامس والعشرون

فضـل الصحابة

الحمدُ للهِ الواحدِ القهّارِ، العزيزِ الغفّارِ مُكوِّرِ الليلِ على النَّهارِ، تذكرةً لأُولِي القلوبِ والأبصارِ، وتبصرةً لذوي الألبابِ والاعتبارِ، الذي أيقظَ مِن خَلقِهِ مَن اصْطفاهُمْ فزهَّدَهم في هذِه الدارِ، وفقّهَهُم للدَّأْبِ في طاعتِهِ والتأهُّبِ لَدارِ القرارِ، والحذرِ مما يُسْخِطُهُ ويُوجِبُ دارَ البوارِ. أحمدُهُ أبلغَ حمدٍ وَأزْكَاهُ وأشمَلَهُ وأنماه.

وأشهدُ أن لاَّ إلٰه إلاَّ اللهُ البَرُّ الكريم، الرؤوفُ الرحيمُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، وحبيبُه وخليلُه، الهادي إلى صراطٍ مستقيمٍ، والداعِي إلى دينٍ قويمٍ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليه وعلى سائرِ النبيينَ وصحابتِهِ أجمعينَ.

أمَّا بعدُ: فاعلموا - رحمكُمُ اللهُ تعالى - أَنَّ أَفْضَلَ الخلقِ هو نبيُّنا محمدٌ ﷺ ثم بقيةُ أُولي العزم ثم الرسُلُ ثم الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ ثم بعدَ الأنبياءِ أفضلُ البشرِ صحابةُ الرسولِ ﷺ.

وإنما فُضِّلُوا على غيرِهم لحقِّ صُحْبَتِهم للرَّسُولِ ﷺ ولِمَا أَظْهَرُوهُ، رضوانُ اللهِ عليهمْ، من الأُمورِ العظيمةِ والتي كانت سَبَبًا رئيساً- بعد توفيقِ اللهِ - لِنُصْرةِ هذا الدينِ ونشرِهِ في سائرِ المعمورةِ. . فقد بَذَلُوا، رَضِيَ اللهُ عنهمْ، النفْسَ والنفيسَ والمُهَجَ والأَرْوَاحَ

والأَمْوالَ؛ لنشرِ هذا الدينِ والدفاعِ عن رسالةِ محمدٍ ﷺ.

فيجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يعرفَ قدرَهُمْ والمنزلةَ التي بوأَهُمُ اللهُ إياهَا مِمَّا دلَّتْ عليهِ نصوصُ القرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ النبويةِ المطهَّرةِ.

ويجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يكونَ سليمَ القَلْبِ واللّسانِ لأصحابِ الرسولِ ﷺ سليمَ القلبِ من الحِقدِ والبُغضِ والاحتِقارِ والعَداوةِ والحسَدِ والكراهيةِ. سليمَ اللّسانِ من الطَّعنِ والسَّبِّ واللَّعنِ والشَّتمِ والوَقيعةِ فيهم، يعتقِدُ فضْلَهُمْ، ويَعْرِفُ سابقتَهُمْ، ومَحَاسِنَهُمْ، ويتَرَحَّمُ عَلَيْهِمْ ويستغفرُ لَهُمْ.

قال اللهُ تعالى واصفًا لهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[2]. وقال عنهمْ أيضًا: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا

(١) سورة الحشر، الآية: ١٠.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

عَظِيمًا ﴾[١]. وأخبرَ، سبحانه وتعالى، عن رضاهُ عنهمْ كمَا قالَ تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[٢].

والأحاديثُ الدالةُ على فضلِ الصّحابةِ وعُلوِّ منزلَتهمْ كَثيرةٌ جدًّا مِنْها ما رواهُ البخاريُّ وغيرهُ عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنهُ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا أَصْحَابي فَوَالَّذي نَفْسي بيَدِهِ لَوْ أنَّ أحدَكم أنفقَ مِثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بلغَ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصِيفَه**». ومعناه: لا ينالُ أحدُكم بإنفاقِ مثلِ أُحدٍ ذهبًا من الفضلِ والأجرِ ما ينالُ أَحدُهُم بإنفاقِ مُدِّ طعامِه أو نصيفِهِ. وفي حديثِ عِمرانَ بنِ الحُصَينِ رضي الله عنهمَا قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**خيرُ أُمَّتي قَرْني ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهم ثُمَّ الَّذينَ يلونَهم**». قال عِمرانُ: فَلاَ أَدْري أَذكرَ بعد قرنِه مرَّتينِ أو ثلاثًا. «**ثم إن بَعْدَكُمْ قَوْمًا يشْهدُونَ ولا يُستَشْهَدُون، ويخونُونَ ولا يؤتمنُونَ وَيَنْذُرُونَ ولا يُوَفُّون ويَظْهرُ فيهم السِمنُ**». رواه البخاريُّ ومسلمٌ[٣]. وما استَحَقُّوا هذهِ الفضيلةَ بكونِهم خيرَ الناسِ إلا لأَنهم أقربُ الناسِ مِنْ رسولِ الله ﷺ وأَلصَقُهُمْ بِهِ لِتَمَسُّكِهِمْ بِشريعتِهِ وبِمَكَارم أَخلاقِهِمْ الَّتِي كَانَتْ تصُونُهُمْ عَنِ الرَّذَائِلِ وتُجَنِّبُهُم النقائِصَ والدَّنَايَا.

والصَّحَابةُ رَضِي اللهُ عَنْهُمْ جَمَعُوا الصِّفَاتِ الشريفةَ والسجَايا

---

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٢) سورة الفتح، الآية: ١٨.

(٣) البخاري في فضائل الصحابة ٧/ ٣/ح ٣٥٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤/ ١٩٦٤/ح ٢١٤.

الكَريمةَ. جادُوا بالنفْسِ والنَّفيسِ يأمرونَ بالمعروفِ وينْهونَ عَنِ المُنكَرِ غَيرَ هيّابينَ ولا وَجلينَ. كَيْفَ لاَ وَقَدْ اختارَهُم اللهُ لصُحْبةِ نبيِّه وتحمُّلِ شرائِعِه، فهُم الَّذِينَ اشْتَرِي اللهُ مِنْهم أَنْفُسَهم وأَمْوالَهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنَّةَ يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ فيَقتُلُون ويُقتَلون، فجاهَدوا في اللهِ حقَّ جهادِهِ ونشَرُوا على ربوعِ العالمِ راياتِ الإِسلامِ الخفَّاقةِ.

فكَانُوا سبَّاقِينَ للنَّاسِ في كلِّ خيرٍ، في مَيْدَانِ الجهَادِ ومَيْدَانِ الدَّعْوَةِ، وفي مَيْدَانِ البذلِ والعَطاءِ لِلإِسْلامِ، وكَثْرةِ النِّوافلِ والعبادَةِ، فَرَضِي اللهُ عنهمْ.

وخُذْ من أخبارِهم لِيكونَ لكَ اقتداءٌ بهم:

فأما الجهادُ: فقد نصَروا رسولَ اللهِ ﷺ في غَزَواته وحُروبه وبايَعُوْهُ عَلَى بَذْلِ أنفُسِهم فِي سبيلِ الله. أخرج البخاريُّ عَنْ أَنس رَضِيَ اللهُ عنهُ قال: خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ إلى الخندقِ فإِذَا الْمُهَاجِرُونَ والأَنْصارُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يحفرُونَ فِي غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عبيدٌ يَعْملونَ ذَلِكَ لَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى ما بِهِمْ مِنَ التَّعَبِ والجوُعِ قال ﷺ: **«اللّهمَّ إِنَّ العَيْشَ عَيشُ الآخِرَةِ فاغفرْ لِلْأَنْصارِ والمُهَاجِرَةِ»**.

فقالوا: (رضِيَ اللهُ عَنْهمَ) مجِيبينَ لُه:

نَحْنُ الذينَ بايَعُوا محمدًا على الجهادِ ما بَقِينا أبدًا

وفي غزوةِ بدرٍ الكبرى لمّا علمَ الرسولُ ﷺ عن مسيرةِ قريشٍ ليمنعُوا عِيرَهُم، فقامَ أبو بكرٍ فقالَ وَأحسنَ؛ ثم قامُ عمرُ فقالَ وأَحسنَ؛ ثم قامَ المِقدادُ بنُ عَمرٍو فقال: يا رسولَ اللهِ امضِ لما أمركَ

اللهُ بهِ فنحنُ معكَ، واللهِ لا نقولُ لكَ كما قال بنوُ إسرائيلَ لمُوسَى: اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا هاهنا قاعِدوُن. ولكن نقولُ اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتِلا إنَّا معَكُمَا مقاتِلون. فوالذي بعثكَ بالحقِّ لو سِرتَ بنا إلى بَرْكِ الغِمادِ لجالدْنا مَعَكَ مِنْ دونِها حتَّى نَبْلُغَهُ. فقال له الرسولُ ﷺ خيرًا ودعا له. ثم قالَ الرسولُ ﷺ: «**أشِيرُوا عليَّ أيُّها النَّاسُ**».

فوقفَ سعدُ بنُ معاذٍ وقالَ: والله لكأنَكَ تَعْنينَا يا رسولَ الله؟ قال: أجلْ، فقالَ سعدُ: آمنا بكَ وصَدَّقنَاكَ وشهِدْنَا أنَّ ما جئْتَ به هو الحقُّ وأعْطَيْناكَ عَلَى ذَلِكَ عهودَنا ومواثيقَنا فامضِ يا رسولَ اللهِ لما أرَدْتَ فنحنُ معك فَوالذي بعَثكَ بالحقِّ لو استعرضتَ بنا هذا البَحْرَ فخُضتَهُ لخُضْنَاه مَعَكَ ما تخَلَّفَ مِنَّا أحدٌ وما نكْرَهُ أن تلْقَى بنا عدُوَّنا إنا لصُبَّرٌ في الحْربِ صُدَّقٌ في اللقاءِ، لعلَ اللهَ يُريكَ منَّا ما تقرُّ به عينُك فسِرْ بنا على بركةِ الله.

هَكَذا كَانُوا، رضوانُ اللهِ عليهِمْ، أصحابُ عزائمَ تُحفِّزُهُم إلَى المعالِي لطلبِ الأمورِ العَوَالِي نصرٌ أو شهادةٌ، لا يهابونَ ولا يَخافونَ، يُقدِمونَ إلى الجهادِ في سبيلِ اللهِ والذبِّ عن حياضِ الدينِ بكلِ ما أُوتُوا من قوَّةٍ فَيُرْخِصُونَ الحياةَ للموتِ شُهداءَ وَيَسعَونَ له حَثِيثًا تصديقًا لعهدِهِمُ الذي عاهدُوا عليهِ الله. كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾[1].

روى مسلمٌ في صحيحِه أن النبيَّ ﷺ قالَ في غزوةِ بدرٍ لما دنا

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

المشركونَ من المسلمينَ: «**قوموا إلى جنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ**». فقال عميرُ بنُ الحُمامِ: يا رسولَ اللهِ جنةٌ عرضُها السماواتُ والأرضُ؟! قال: «**نعم**». قال: بَخٍ بَخٍ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما يحملُكَ على قولِك بخٍ بخٍ؟**» قال: لا واللهِ يا رسولَ الله إلاَّ رجاءَ أن أكونَ من أهلِها. قال: «**فإنك من أَهْلِها**». فأخرج تمراتٍ من قَرْنِه فجعلَ يأكلُ منهنَّ ثم قال: «لئن أنا حييتُ حتَّى آكلَ تَمراتِي هذه إنَّها لحياةٌ طويلةٌ». قالَ: فرمَى بمَا كانَ معهُ من التمرِ. ثمَّ قاتلَهمْ حتى قُتلَ، رضي اللهُ عنهُ».

إنه أنموذجٌ حيٌّ وصادقٌ لما كانَ عليهِ الصحابةُ، رَضِيَ اللهُ عنهمْ، منَ البلاءِ الحسنِ في الذودِ عن الإسلامِ والتصديقِ لخبرِ اللهِ ورسولهِ والطّمعِ فيما عند اللهِ من الثوابِ للمجاهدينَ وإنَّ لنَا فيهمْ - رحِمَكُم اللهُ - أُسوةً. وهم لنا قدوةٌ.

امّا بذلُهمُ الأموال لخدمةِ دينِ اللهِ واستغلالُها في مرضاةِ اللهِ للجهادِ في سبيلِ اللهِ والتصدُّقُ على إخوانِهم وجعْلُ أموالِهم مُسخَّرةً لأهدافِ الخيرِ والإصلاحِ فأشهرُ مِن أنْ يُذكرَ إذ هُم أهلُ اليدِ الطُّولَى في ذَلِكَ ولَمْ ولنْ يسبقَهم أحدٌ إلى ذَلِكَ.

أخرجَ الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجةَ بسندٍ صحيح عن أبي هريرةَ، رَضِيَ اللهُ عنهُ قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما نفعني مالٌ قط ما نفعني مالُ أبي بكرٍ**». فبكَى أبو بكرٍ وقال: هلْ أنَا ومالِي إلاَّ لكَ يا رسولَ اللهِ[1].

---

(١) المسند ٢/ ٢٥٣، سنن ابن ماجه ١/ ٣٦/ ح ٩٤.

وعَنْ عبدِالرحمنِ بنِ سَمُرةَ قال: «جاء عثمانُ بنُ عفانَ إلى النبيِّ ﷺ بألْفِ دينارٍ في ثوبهِ حينَ جهَّزَ النبيُّ ﷺ جيشَ العُسْرةِ قال: فصَبّها في حِجْرِ النبي ﷺ فجعلَ النبيُّ ﷺ يُقَلِّبُهَا ويقولُ: **ما ضرَّ ابنَ عفانَ ما عمِلَ بعدَ اليومِ يردِّدُ ذلكَ مِرَاراً**» رواه أحمدُ[1] والترمذيُّ وقال حسن غريب.

وعن ابنِ عمرَ، رَضِيَ اللهُ عنْهما قال: أصابَ عمَرُ بخيبرَ أرضًا فأتَى النبيَّ ﷺ فقال: أصبتُ أرضًا لم أُصِبْ مالاً قطُّ أنفسَ منه فكيفَ تأمرني به؟ قال: «**إن شئتَ حبستَ أصلَها وتصدَّقتَ بها**». فتصدَّقَ عمرُ رضي الله عنهُ، أنه لا تُباعُ أَصْلُها، ولا توهبُ ولا تُورثُ. في الفقراءِ والقُربى والرقابِ وفي سبيلِ الله والضيفِ لا جناحَ على من ولِيَها أن يأكُلَ منها بالمعروفِ أو يُطعِمَ صديقًا غيرَ مُتَمَوِّلٍ فيه. رواه البخاري ومسلم[2].

وأخرج الشيخانِ عن أنسٍ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، قال: كانَ أبوُ طلحَةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ، أكثرَ الأنصارِ بالمدينةِ مالاً من نخلٍ وكان أحبُّ أموالِهِ إليهِ بَيرُحَاءَ وكانت مستقبلةً المسجدَ، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يدخُلُها ويشربُ من ماءٍ فيها طيِّبٍ قالَ أنسٌ: فلّما نزلت هذه الآيةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[3]، قام أبو طلحةَ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ اللهِ: إن الله تباركَ وتعالَى يقولُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ

---

(١) أحمد ٥/ ٦٣، والترمذي ٥/ ٦٢٦/ح ٣٧٠١، وقال حسن غريب من هذا الوجه وحسنه الألباني في تخريج المشكاة ٣/ ١٧١٣/ح ٦٠٦٤.

(٢) البخاري في الشروط ٥/ ٣٥٤/ح ٢٧٣٧ وفي مواضع أخرى، ومسلم في الوصية ٣٤/ ١٢٥٥/ح ١٦٣٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٩٢.

تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾، وان أحبَّ إموالي إليَّ بيرُحاءُ وإنها صدقةٌ لله أرجوُ بِرَّها وذُخرَها عندَ اللهِ فضعْها يا رسولَ اللهِ حيثُ أراكَ اللهُ! قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**بخٍ! ذاك مالٌ رابحٌ، ذاك مالٌ رابحٌ**» رواه البخاريُّ ومسلمٌ[1] وزاد البخاريُّ قولَه: «**وقد سمعتُ ما قلتَ وإني أَرى أنْ تجْعَلَها في الأقْربينَ**»، فقال أبو طلْحَةَ: أفعلُ يا رسولَ اللهِ. فقسَّمها أبو طلحةَ في أقاربِهِ وبَنِي عمِّه.

هكَذا كانَ الصحابةُ رضي الله عنهمْ باذلينَ أموالهم في أوجُهِ الخَيرِ والنفعِ، من الجِهادِ في سبيلِ اللهِ والتصدُّقِ على الفقراءِ والمساكينِ والعَطْفِ على المُحْتَاجِينَ والأَقاربِ.

أمّا سبْقُهُم في المسابَقَةِ إلى الطاعاتِ، وحِرْصُهُم على الإِكثارِ من العبادةِ فهم كما أخبر اللهُ عنهم. يقولُ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾[2] فقد وصفهم بكثرةِ العملِ وكثرةِ الصلاةِ وهي خيرُ الأعمالِ، ووصفَهم بالإِخلاصِ فيها للهِ عزَّ وجلَّ، والاحتسابِ عندَ الله جزيلَ الثوابِ وهي الجنةُ المشتملةُ على فضلِ اللهِ وهوَ سعَةُ الرزقِ عليهمْ ورضاهُ تعالى عنهم ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم﴾ قال السُّدِّيُّ: «الصلاةُ تحسِّنُ وجوهَهَم».

ولذا فالحسنةُ نورٌ في القلبِ، وضياءٌ في الوجهِ، وسَعَةٌ في الرزقِ، ومحبةٌ في قلوبِ الناسِ. فهم رهبانٌ بالليلِ يحيُونَه بالطاعةِ

---

(١) البخاري في الزكاة ٣/ ٣٢٥/ ح ١٤٦١، ومسلم في الزكاة ٢/ ٦٩٣/ ح ٩٩٨.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

والصلاةِ والذكرِ والدعاءِ وقراءةِ القرآنِ، أُسودٌ بالنهار وسيوفٌ على أعداءِ الله تعالى.

فها همُ الصحابةُ، رضي الله عنهم، أهلُ الخيرِ والفضلِ والصُّحبةِ، خيرُ الأمةِ بعدَ نبيِّها، رضي اللهُ عنهم، يجب علينا أن نترضَّى عنهمْ ونعرفَ قدرَهم ونَذكرَهم بخيرٍ ونحبَّهُم، فإن حُبَّهم دليلٌ على إيمان القلبِ، وهو دليلُ خيْرٍ فإنَّ الإنسانَ يُحشرُ مع من أحَبَّ ولذلكَ حبُّهم دِينٌ، يُحشَرُ مُحِبُّهم معهمْ، وحسبُك أن تُحشرَ في زمرةِ صَحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ. روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي موسى الأشعريِّ، رَضِيَ اللهُ عنهُ، أن النبيَّ ﷺ قالَ: «**المرءُ معَ من أحبَّ**» متفقٌ عليه. وفي روايةٍ قال: قيل للنبي ﷺ: الرجلُ يحبُ القومَ ولمّا يلحقْ بهم؟ قال: «**المرءُ معَ منْ أحبَّ**».

عبادَ اللهِ: لِيكن في الصَّحابةِ، رضوانُ اللهِ عليهمْ، أسوةٌ وقدوةٌ لنا في تدبير شؤونِنَا وجميعِ أمورِنا في العبادةِ والجهادِ والسلوكِ، والأخلاقِ فإن ذلك فلاحٌ، وصلاحٌ، وخيرٌ لنا في الدنيَا والآخِرَةِ.

وليس في الأمَّةِ كالصحابةِ ... في الفضلِ والمعروفِ والإصابةِ
فإنهم قد شاهدوا المختارا ... وعاينوا الأسرارَ والأنوارا
وجاهدوا في الله حتى بَانا ... دينُ الهدى وقد سما الأديانا
وقد أتى في محكمِ التنزيلِ ... في فضلِهِمْ ما يَشفي للغليلِ
وفي الأحاديثِ وفي الآثارِ ... وفي كلامِ القومِ والأشعارِ

وهَذِه طائفةٌ منْ أقْوالِ العلماءِ فِيمَنْ يتعرضُ للصحابَةِ - رضوانُ

الله عليهم - بِسُوءٍ :

قَالَ أبو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ - رحمهُ اللهُ - : إذا رأيتَ الرَّجلَ يَنْتَقِصُ مِنْ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ فاعلمْ أَنَّهُ زِنديقٌ؛ وذلكَ أنَّ الرسولَ عندنَا حقٌّ والقرآنَ حقٌّ، وإنَّمَا أَدَّى إلينا هذَا القُرآنَ والسُّنَّةَ أَصْحَابُ رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّمَا أَرادُوا أَنْ يَجرَحُوا شهودَنَا ليُبْطِلُوا الكتابَ والسنَّةَ، والجَرْحُ بهمْ أَوْلَى وهُمْ زَنَادقةٌ»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ - رحمهُ الله: «لا يجوزُ لأحَدٍ أَنْ يذكرَ شيئًا منْ مساوِئِهمْ، ولا يطعنَ عَلَى أحَدٍ منهمْ بعيبٍ ولا بِنَقْصٍ، فَمنْ فعلَ ذلكَ فقدْ وجبَ عَلَى السلطانِ تأدِيْبُهُ وعقوبتُهُ، ليسَ لهُ أنْ يعفُوَ عنهُ، بلْ يُعاقِبُهُ ويستَتِيبُهُ، فإن تابَ قُبِلَ منهُ، وإنْ ثبتَ عادَ عليهِ بالعقُوبَةِ، وخَلَّدهُ في الحَبْسِ حتى يَموُتَ أَوْ يُرَاجِعَ»[2].

وقال عبدُالملِكِ بنُ حبيبٍ: «من غَلاَ مِنَ الشِّيعةِ إلى بُغْضِ عثمانَ والبراءةِ منهُ أُدِّبَ أدبًا شديدًا؛ وإن زادَ إلى بُغضِ أبي بكرٍ وعمرَ فالعقوبةُ عليه أشدُّ، ويُكَرَّرُ ضَرْبُهُ، ويطالُ سِجْنُهُ حتَّى يَمُوتَ»[3].

وقال الإمامُ أبو نعيمٍ - رحمه الله: «فلا يتتبَّعُ هفوَاتِ أصْحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وزلَلَهُمْ، ويحفظُ عليهمْ ما يكونُ منهمْ في حالِ الغَضَبِ والموجِدَةِ إلا مفتونُ القلبِ في دينِه، ويقول أيضًا: ولا يَبسطُ لسانَهُ فيهم إلاَّ مِنْ سوءِ طَوِيَّتِهِ فِي النبيِّ ﷺ وصحابتِهِ والإِسلامِ

(١) اعتقاد أهل السنة في الصحابة لمحمد الوهيبي ص ٦٧ نقلاً عن الكفاية للخطيب البغداي ص ٩٧.

(٢) المرجع السابق ص ٤٩ نقلاً عن الصواعق المحرقة ص ٣٨٧.

(٣) المرجع السابق ص ٤٨ نقلاً عن الشفاء ٢/ ١١٠٨ والصارم المسلول ص ٥٦٩.

والمسلمين»[1].

اللهمَّ إنَّا نسأَلكَ بأسمائكَ الحسنىَ، وصفاتِك العليا أَنْ ترزُقَنا حُبَّ نبيِّكَ ﷺ وحُبَّ صَحَابَتِهِ، وترزُقَنَا اتباعَ سيرتِهم، ونهجَ طَريقَتِهِمْ، كَمَا نسأَلُكَ أنْ تحشُرَنَا في زُمْرَتِهِمْ، وأنْ تَغْفِرَ لنَا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ.

وصلَّى اللهُ علي نبيِّنا محمدٍ وعَلَى آلِهِ وصحبِه أجمعينَ.

(١) نفس المرجع ص ٦٨ نقلاً عن الامامة لأبي نعيم ص ٣٣٤، ٣٧٦.

فصلٌ في قيام الليل

الحمدُ للهِ الذي لا رَافعَ لمَا وضعَ، ولا مُعطيَ لما منعَ، ولا واصلَ لما قَطعَ فسبحانَه من إلٰهٍ حكيمٍ أحمدُهُ وأشكرُهُ، وأشهدُ أن لَّا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأشهدُ أن محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ أرسلهُ والكفرُ قد علا وارتفعَ، فاهبطَه من عليائهِ وقمعَ، صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه ما سجدَ مصلٍّ وركع، وسلم تسليمًا كثيرًا.

إخواني:

قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

قَال الأحنفُ بنُ قيسٍ: «كانوا لا ينامون إلا قليلاً - لستُ من أهلِ هذه الآية.

وقال أيضًا - رحمه الله - «عَرضتُ عَمَلي علَى أعمالِ أهلِ الجنَّةِ فإذا قومٌ قد باينُونا بونًا بعيدًا لا نبلغُ أعمالَهُم ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

وعن الحسنِ قالَ: لا ينامونَ مَن الليلِ إلا أقلَّه كابدُوا قيامَ اللَّيلِ.

قال عبدُالرحمنِ بنُ زيد بنِ أسلمَ: قال رجلٌ من بني تميم لأُبَيٍّ: «يا أبا أُسامةَ صفةٌ لا أجدُهَا فينَا، ذكرَ اللهُ قومًا فقالَ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحنُ واللهِ قليلاً من الليل ما نقومُ».

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ١٧، ١٨.

فقال لهُ أُبَيٌّ: طُوبَى لمن رَقَدَ إذا نعَسَ واتقى الله إذا استيقَظَ.

كيف تنامُ العينُ وهي قريرةٌ ولم تدرِ في أيِّ المجالِس تنزلُ؟

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ قال ابنُ زيدٍ: السَّحرُ هو السُّدُسُ الأخيرُ من الليلِ، وقالَ بعضُ أهلِ العلمِ: إن يعقوبَ أخَّرَ الاستغفارَ لِبَنِيهِ إِلَى وقتِ السَّحَرِ.

وقالَ أبو السعودِ: أيْ هُمْ معَ قِلَّةِ هجوعِهم وكثْرةِ تهجُّدهِم يُداوِمُون على الاستغفارِ في الأسحَارِ كأنَّهم أَسْلَفُوا ليلَهم باقترافِ الجرائِم.

امنع جفونكَ أن تذوقَ مناما وذر الدموعَ على الخدودِ سجاماً

واعلم بأنك ميِّتٌ ومحاسَبٌ يا مَنْ على سُخْطِ الجليلِ أقاما

للهِ قومٌ أخلصوا في حُبهِ فنهارهم فيه، عبادةً وصياماً

قومٌ إذا جنَّ الظلامُ عليهِمُ باتوُا هنالِك سُجَّدًا وقياما

خُمْصُ البطونِ من التعففِ خُمَّرًا لا يعرفون سوى الحلالِ طعاما

روى الإمامُ أحمدُ في الزهدِ أن داودَ عليه الصلاةُ والسلامُ سألَ جبريلَ فقال: «يا جبريلُ: أيُّ الليلِ أفضلُ، قال: يا داودُ ما أدرِي إلَّا أنَّ العرشَ يهتزُ بالسَّحرِ»[١].

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن رسولَ الله ﷺ قال: «**يَعْقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدِكُمْ إذا هُو نامَ ثلاثَ عُقدٍ، يَضربُ على مكانِ كلِّ عقدةٍ: عليكَ ليلٌ طويلٌ فارقد. فإن استيقظَ فذكرَ الله**

(١) رهبان الليل ج ١.

انحلّت عقدةٌ، فإن توضَّأ انحلّتْ عقدةٌ، فإنْ صلَّى انحّلتْ عقدةٌ، فأَصْبَحَ نشيطًا طيِّبَ النفسِ، وإلا أَصْبَحَ خبيثَ النَفسِ كسلانَ» رواه البخاريُّ[1].

وعن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«أفضلُ الصيامِ بعدَ رمضانَ شهرُ اللهِ المحَّرمُ وأفضلُ الصلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللَّيْلِ»** رواه مسلم[2]

ولكن اعلم وفقَكَ اللهُ لطاعتِهِ أنَّ لقيامِ الليلِ أَسبابًا ومنها قِلَّةُ الأَكْلِ؛ رأى مَعْقِلُ بنُ حَبِيْبٍ قومًا يأكلونَ كثيرًا فقال: «ما نرى أصحابَنَا يريدونَ يُصَلُّونَ الليلةَ»[3].

عبادَ اللهِ:

إن قيامَ الليلِ عزٌ في الدنيا والآخِرَةِ وعونٌ على الأعداءِ في الجهادِ، سألَ عظيمُ الرومِ رَجُلاً من أَتباعِه كَان قدْ أُسِرَ مَعَ المسلمين، فقالَ أخْبِرْني عن هؤلاءِ القومِ. قال: أُخبرُكَ كأَنَّكَ تنظرُ إليهِمْ، هُمْ فرسانٌ بالنَّهارِ رُهبانٌ باللَّيلِ، لا يَأكلونَ في ذِمَّتهم إلا بثَمنٍ، ولا يدخُلونَ إلا بسلامٍ، يقفُونَ على من حارَبُوه حتَّى يأْتوا عليه، فقال: لئنْ صدَقْتَ ليملِكُنَّ موضعَ قدمَيَّ هاتين[4].

وصدقَ فقد تقدَّمَتِ الأُمَّةُ يومَ أن صامَتْ وقَامتْ وحكَمتْ بأمرِ ربها فلمَّا ضيّعتْ أمرَ اللهِ ضاعتْ، ولما نسيتْ أمرَ اللهِ نَسِيَها اللهُ.

---

(١) فتح الباري ج ٣ ص ٢٤.
(٢) صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٣.
(٣) مختصر قيام الليل ص ٤٦.
(٤) رهبان الليل ج ١ ص ٢٢٩.

لما حضرَ معاذَ بنَ جبلٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - الموتُ قال: «أعوذُ باللهِ من ليلةٍ صباحُهَا إلى النارِ. مرحبًا بالموت مرحبًا. زائرًا مُغَيِّبَ حبيبٍ جاء على فاقةٍ - اللَّهُمَّ إني قَدْ كنتُ أخافُك فأنَا اليومَ أرجُوك، اللهم إنك تعلمُ أنِّي لم أَكنْ أُحِبُّ الدنْيَا وطولَ البقاءِ فيها لِكَرْيِ الأَنْهارِ، ولا لَغْرس الشجرِ، ولكنْ لِظَمأِ الهوَاجِرِ، وُمكابَدَة السَّاعاتِ ومُزاحمةِ العلماءِ بالرُّكَبِ عِنْدَ حِلَقَ الذِّكرِ»[1].

ستنـدمُ إن رحلـتَ بغيـرِ زادٍ ... وتشقـى إذ يُنـاديـك المنـادي
فما لَك ليسَ يعملُ فيك وعظٌ ... ولا زجرٌ كـأنـك مـن جَمـادِ؟
فلا تأمنْ لِذِي الدنيا صَلاحًا ... فـإنّ صـلاحَهـا عيـنُ الفسـادِ
ولا تفـرحْ بمـالٍ تقتنيـه ... فـإنـك فيـه معكـوسُ المُـرادِ
وتُـب عمّـا جنيـتَ وأنـت حيٌ ... وكـن متيقظًـا قبـلَ الـرُقـادِ
أتـرضـى أن تكـونَ رفيـقَ قـومٍ ... لهـم زادٌ وأنت بغـيـرِ زادِ[2]

عن ثورِ بنِ زيدٍ قال: كان معاذُ بنُ جبلٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - إذا تهجَّدَ من الليل قالَ: «اللهُمَّ قد نامَتِ العيوُنُ، وغارتِ النُّجُومُ، وأَنْتَ حَيٌّ قيُّومٌ. اللهُمَّ طَلَبي لِلْجَنَّةِ بَطيءٌ، وهَرَبي مِنَ النَّار ضَعِيفٌ. اللهمَّ اجْعلْ لِيَ عِندَكَ هُدىً تَرُدُّهُ إلَيَّ يومَ القيامَةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الميعادَ»[3].

وعن أبي عثمان النَّهدِيِّ قال: «تَضيَّفتُ أبا هريرةَ سبعًا، فكانَ هُو

---

(١) رهبان الليل ج ١ ص ٣٠٨.
(٢) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١٦.
(٣) رهبان الليل ص ٣٠٨.

وامرأتُهُ وخادِمُهُ يُقَسِّمُونَ الليلَ ثلاثًا يُصلِّي هذا ثُمَّ يُوقِظُ هَذَا»[١].

عبادَ اللهِ: اَكْثِرُوا مِنْ قِراءةِ القرآنِ ومِنْ سَمَاعِهِ مِنْ إخوانِكم، فإنهُ يذكِّرُ باللهِ ويرغِّبُ في الجنةِ ويخوّفُ من النَّارِ وَلَقَدْ كانَ عُمرُ - رَضِيَ اللهُ عنه - إذا رَأَى أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قال: «ذكِّرْنَا رَبَّنا يا أَبَا موسُى» وفي روايةٍ «شوِّقْنا إِلَى ربِّنَا فيقرأُ عندَه»[٢].

عبادَ اللهِ: إن قيامَ الليلِ للصغيرِ والكبيرِ، ولقد قامَ عبدُاللهِ بنُ عباسٍ معَ رسولِ اللهِ ﷺ وهو ابنُ عشْرِ سنينَ فعنهُ قال: «صلَّيْتُ مع النَّبيِّ ﷺ فقُمتُ إلى جَنْبِهِ عن يسَارِهِ، فأخذَنِي فأقَامَني عَنْ يَمينهِ، وقال ابنُ عباسٍ: وأنا يومَئذٍ ابنُ عشْرِ سِنينَ» رواه الإمامُ أحمدُ[٣].

يقول يحيى بنُ معاذٍ - رحمه الله - عن هؤلاءِ: طينٌ عُجِنَ بماءِ الوَحْيِ، وغُرِسَ بماءِ الرِّسالةِ فهلْ يفوحُ منها إلا مِسْكُ الهُدَى وعَنْبرُ التُّقَى»[٤].

عن أنسٍ - رضي الله عنه - قال: دخل رسولُ اللهِ ﷺ وحبلٌ ممدودٌ بينَ ساريتينِ. فقال: «مَا هَذَا»؟ قالوُا: لِزَينبَ تُصلِّي. فإذا كَسِلَتْ أو فَتَرت أَمْسكتْ به. فقال «**حُلّوهُ. ليصلِّ أحدُكُم نشاطَهُ، فإذا كَسِل أَو فتَر فلْيَقعُدْ**» رواه مسلم.

---

(١) رهبان الليل ص ٣٠٩.

(٢) رهبان الليل ج ١ ص ٣١٠.

(٣) رهبان الليل ج ١ ص ٣١١ وذكر أن أحمد شاكر صححه في المسند برقم ٣٤٣٧. وأصل الحديث في الصحيحين دون ذكر السن.

(٤) رهبان الليل في ص ٣٢١.

(٥) مسلم ج ١ ص ٥٤٢.

عبادَ اللهِ: اعلَمُوا أن صلاةَ النافلةِ من التهجُّدِ أو غَيْرِهِ يجوزُ للمسلم أن يصلِّيَها وهو قاعدٌ فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ إذا مَرِضَ أو كَسِلَ صلَّى قَاعِدًا، والإِكثارُ من النوافلِ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ لا حَرَمَنا اللهُ وإِيَّاكُمْ منها.

عن معاذِ بنِ جبلٍ قال: أَقْبَلْنَا مع النبيِّ ﷺ من غزوةِ تَبوكٍ فلما رأيتُهُ خاليًا قُلتُ: يا رسولَ الله أخْبِرْنِي بعملٍ يُدخِلُني الجنَّةَ. قال: «**بَخٍ بَخٍ لقد سألتَ عن عظيمٍ وإنه ليسيرٌ على منَ يسّره اللهُ عليه؛ تقيمُ الصلاةَ المكتوبةَ وتُؤْتِي الزكاةَ المفروضةَ، وتَلقى اللهَ لا تشركُ به شيئًا. أَوَلا أَدلُّك على أبوابِ الجنةِ: الصومُ جُنَّةٌ، والصدقةُ برهانٌ، وقيامُ الرَّجُلِ في جوفِ الليلِ يُكفِّر الخطيئَةَ**» وتلا هذِهِ الآيةَ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] رواه الترمذيُّ وابنُ ماجةَ والنَّسائي[2].

إخواني: كونُوا عَوْنًا لأَهلكمْ وأولادِكم على طاعةِ اللهِ وعَلَى قيامِ الليلِ، قالَ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[3]. قالت عائشةُ - رضي الله عنها-: كان رسولُ اللهِ ﷺ يُصلِّي من اللَّيلِ. فإذَا أوترَ قالَ: «**قُومِي، فَأَوْتِري يا عَائِشَةُ**» رواه مسلم[4].

عبادَ اللهِ: إن لكلِّ دارٍ مفتاحاً ولكلِّ مفتاحٍ أسناناً، ومفتاحُ الجنةِ: لا إله إلاَّ اللهُ، قيل لوهبِ بنِ مُنبِّهٍ: «أليسَ مِفتاحُ الجنةِ لا إله إلاَّ اللهُ؟

(١) سورة السجدة، الآية: ١٦.
(٢) مختصر قيام الليل ص ٢١.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣٢.
(٤) مسلم ج ١ ص ٥١١.

قالَ: بلى، ولكن ليس مفتاحٌ إلاَّ وله أسنانٌ. فإن أتيتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فُتِحَ لكَ وإلا لَمْ يُفْتَحْ»[١]. رواه البخاري

فيا عاشقَ الجنَّةِ أكِثْر من ذكرِ (لا إله إلاَّ اللهُ) فإنها مفتاحُ سعادتِكَ، ومفتاحُ دارِكَ، وميراثُ كَنْزِكَ، ورِفعَةُ درجَتِكَ، ونضَارةُ وجهِكَ، وسرُّ سُؤدَدِكَ.

عن أبي هريرةَ - رضي الله عنه - أن رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَنْ قالَ لا إله إلاَّ اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ في يوم مِائةَ مرةٍ، كانت له عَدْلَ عشرِ رقابٍ، وكُتبَتْ له مِائةُ حسنةٍ، ومُحيتْ عنه مِائةُ سيِّئةٍ، وكانت له حِرزًا من الشيطانِ يومَهُ ذلكَ حتَّى يُمسِي، ولَمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاء بهِ إلاَّ رجلٌ عمِلَ أكثرَ منهُ**»[٢]. رواه البخاري ومسلم

هذا مفتاحُ دَارِكَ يا عبدَاللهِ فَلاَ تغفلْ عن مِفْتاحِ بيتِك حتى لا يظَلَّ موصَدًا دون أملِك ورجائِك»[٣].

إخواني: عندَ بابِ الجنَّةِ نِهايةُ السِّباقِ، وجائزةُ التنافُسِ، وتحقُّقُ الآمالِ ومحطُّ الرِّحالِ، ونهايةُ الجَهْدِ والتَّعبِ.

عن سهلِ بنِ سعدٍ - رضي الله عنه - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**في الجنةِ ثَمانيةُ أبوابٍ، بابٌ يُسمَّى الرَّيانُ لا يَدْخلُهُ إلاَّ الصائِمُونَ فإِذَا دخلوُه أُغلقَ فَلَمْ يدخُلْ غيرُهمْ**». رواه البخاري ومسلم

---

(١) البخاري ٣/ ١٠١ كتاب الجنائز.

(٢) الباري (التجريد الصريح) ٢/ ٢٧٨ برقم ٢٠٨٦.

(٣) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ٩.

وعن أبي هريرةَ وسهلِ بنِ سعدٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**من أنفقَ زوجَيْنِ في سبيلِ اللهِ من مَالِهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوابِ الجنَّةِ يا عبدَاللهِ هذا خيرٌ، فمن كَان مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعيَ من بابِ الصَّلاةِ، ومن كانَ مِنْ أهْلِ الجهادِ دُعيَ منْ بابِ الجهادِ، ومنْ كانَ منْ أَهلِ الصيامِ دُعيَ من بابِ الريّانِ، ومنْ كانَ منْ أهلِ الصَّدقَةِ دُعيَ من بابِ الصدقَةِ**. فقال أبو بكـرٍ - رضي الله عنه -: بِأَبي وأمِّي يا رسولَ اللهِ ما علَى منْ دُعيَ من تلْكَ الأَبوابِ من ضَرورةٍ، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبْوابِ كلِّها؟ قال: **نعم وأرجُو أن تكونَ منهمْ**»[1]. رواه البخاري ومسلم

وفي صحيح مسلمٍ عن عمرَ بنِ الخطابِ - رضي اللهُ عنه - قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من توضأَ فأحسنَ الوضوءَ ثم رفعَ بصرَه إلى السماءِ فقالَ: أشهدُ أن لاَّ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدهُ ورسولُه فُتِحتْ لهُ أبوابُ الجنَّةِ الثمانيةُ يدخلُ من أيِّهَا شاءَ**».

اللهمَّ إنَّا نسأَلُكَ قلبًا شاكرًا ولِسانًا ذاكرًا. اللهمَّ اجعلْ خيرَ أعمالِنا خواتِمَها وخيرَ أيامِنا يومَ نلقاكَ وتوفَّنَا وأنتَ راضٍ عنَّا واحشرْنَا مع الذينَ أنعمتَ عليهمْ من النَّبِيِّين والصدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحينَ برَحْمَتِكَ يا أَرْحَمَ الرَّاحِمين واغفرْ لنَا ولوالدِينَا وجميعِ المسلمينَ إنَّكَ علَى كلِّ شيْءٍ قديرٌ. وصلى اللهُ وسلَّم على نبيِّنَا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

---

(١) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١١.

الباب السادس والعشرون

وصفُ النارِ وأهلِها

الحمدُ للهِ خالقِ الأرضِ والسماواتِ وعالم السرِّ والخفيَّاتِ، خلقَ الإنسانَ منْ صلْصالٍ كالفخَّارِ، وخلقَ الجانَّ منْ مارجٍ منْ نارٍ، أخرجَ إبليسَ منْ جنَّتِه مذمومًا مدحورًا وأنظرهُ إلى يوم الدينِ فتنةً للعالمينَ. فأقسمَ إبليسُ - لعنهُ اللهُ - ليَتَّخِذَنَّ منْ عبادِ اللهِ نصيبًا مفروضًا . قال تعالى: ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۞ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾(1).

وقال اللهُ عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۞ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(2). وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾(3).

أحمدُهُ أنْ جعلَ لنَا وِقايةً منَ الشيطانِ ووسوسَتِهِ ولمْ يجعلْ لَهُ سلْطانًا على الذينَ آمنوا وعلى ربهمْ يتوكلونَ، فهمْ في كَنَفِ اللهِ ورعايتِهِ آمنينَ يحوطهمْ بعنايتِهِ ويرعاهُم برعايتِهِ ما استقامُوا على

---

(1) سورة الإسراء، الآيتان: ٦٣، ٦٤.

(2) سورة ص، الآيات: ٨٢، ٨٥.

(3) سورة الحجر، الآيتان: ٤٣، ٤٤.

هُدَاهُ واستمسكُوا بحبلِهِ المتينِ،

وأُصلِّي وأُسلِّمُ على نبيِّنا محمدٍ الأُميِّ الكريمِ الذي اصطفاهُ ربُّهُ واجتباهُ وحرسَهُ منَ الشيطانِ وحماهُ، القائلِ: «**ما منكمْ منْ أحدٍ إلا قدْ وُكِلَ بِهِ قرينُهُ من الجنِّ**» قالوا وإياكَ يا رسولَ اللهِ قال: «**وإيَّايَ إلا أنَّ اللهَ أعانَنِي عَلَيْهِ فأَسْلَمَ فلا يأمُرُني إلا بخيرٍ**»[1].

صلى اللهُ عليهِ وعلى أصحابِه المُصْطَفَيْنَ الأخيارِ، صلاةً وسلامًا دائِمَينِ كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى..

أمَّا بعدُ:

فاعلموا إخوانِي وفقني اللهُ وإياكُمْ أنَّ اللهَ تعالى خلقَ الجنَّةَ والنارَ ووعدَهُما أنَّ « لكلِ واحدةٍ منكُما عليّ ملؤُها ». وأَمْهَلَ إبليسَ لعنهُ اللهُ طيلةَ الحياةِ الدُّنيا ابتلاءً وامتحانًا للعبادِ.. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2]، وجعلَ لَهُ منْ السلطانِ والقدرةِ ما يَنفُذُ بهِ إلى قلوبِ بني آدمَ، ويَجْرِي منهمْ مجرى الدَّمِ، وسخَّر لَهُ شياطِينَ يأتَمرُونَ بأمرِهِ سَلّطهمْ إبليسُ عليكُمْ ليُغْوُوكمْ، وليردُّوكمْ عن دينكمْ وفطرةِ اللهِ التي فطركُمْ عليها. قالَ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ عياضِ بنِ حمارٍ عندَ مسلم وغيرهِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال ذاتَ يومٍ وهُوَ يخطُبُ: «**أَلا إنَّ ربِّي أمرني أنْ أُعلِمَكُمْ ما جهلتُمْ مما علَّمَنِي يوْمِي هذَا**».. إلى أنْ قال: «**وإنِّي خَلقتُ عبادي كلَّهُمْ حُنَفَاءَ وإنَّهُمْ أتتهُمُ الشياطينُ فاجتالتهمْ عنْ دينِهم وحرَّمَتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهمْ وأمَرَتْهُمْ أنْ**

---

(١) مسلم ح (٢٨١٤).

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

يُشرِكُوا بِي ما لم أُنَزِّلْ بهِ سلطَانًا» .

ثم قالَ في آخر الحديثِ : «**وأهلُ النارِ خمسةٌ: الضعيفُ الذي لا زَبْرَ لهُ[1] الذينَ همْ فيكمْ تبعًا لا يَتْبَعُونَ أهلاً ولا مالاً ، والخائنُ الذي لا يَخْفَىٰ له طمعٌ ، وإنْ دقَّ إلا خانَهُ ورجلٌ لا يُصبحُ ولا يُمْسِي إلا وهوَ يخادعُكَ عن أهلِكَ ومالِكَ وذكرَ البُخْلَ أو الكذِبَ والشِّنْظِيرُ الفَحَّاش**» يعني سيِّىء الخُلقِ[2] .

وكلامُنا اليومَ عن صِفَةِ النَّارِ وما أعدَّهُ اللهُ فيها لأهلِها من العذَابِ الشَّدِيدِ ، قال اللهُ تعالى في صفةِ النارِ وأهلِها : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ۞ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۞ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ۞ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾[3] . وصَحَّ عنْ رسولِ الله ﷺ : «**إنها لا تَزَالُ تطلبُ المزِيدَ حتَّى يضَع فيها الجبارُ قدَمَهُ فتقولُ: قَطٍ قَطٍ**»[4] . ومعنى قط أي يكفي .

وقال تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾[5] . روى مسلمٌ والتِّرمِذيُّ وغيرُهما عن ابن مسعودٍ قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ : «**يؤتَى بِجَهَنَّم يومئذٍ لها سبعونَ ألفَ زمامٍ معَ كلِّ زمامٍ سبْعُونَ ألفَ مَلَكٍ يَجرُّونَها**»[6] ، وروى أبو هريَرةَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ : «**نارُكُمْ هذِه التي يُوقِدُ ابنُ آدمَ**

(١) يعني لا عقل له يمنعه مما ينبغي .
(٢) مسلم ح (٢٨٦٥) .
(٣) سورة ق ، الآيات : ٢٣-٣٠ .
(٤) مسلم (٢٨٤٦) .
(٥) سورة الشعراء ، الآية : ٩١ .
(٦) مسلم ح (٢٨٤٢) .

جزءٌ مِنْ سبعِينَ جزءاً من حرِّ جهنَّمَ كلُّهُن مثلُ حرِّها». قالوا: واللهِ إنْ كانتْ لكافيةً يا رسولَ الله. قال: «فإنَّها فُضِّلتْ عليها بتسعةٍ وستِّينَ جزءًا كلُّها مثلُ حرِّها» رواه مسلم[1].

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قال: كنا معَ رسولِ اللهِ ﷺ إذ سَمعَ وَجْبةً - أيْ سَقْطَةً - فقال النبيُّ ﷺ: «تدرونَ ما هذا»؟ قالَ: قلنا اللهُ ورسولُه أعلمُ. قال: «هذا حجرٌ رُمِيَ بهِ في النارِ منذُ سبعينَ خريفًا فهو يهوي في النارِ الآن حتى انتهى إلى قَعْرِها»[2].

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن النبيَّ ﷺ قال: «لما خَلقَ اللهُ الجنَّةَ والنَّارَ أَرسلَ جِبْرِيلَ إلى الجَنَّة فقالَ: انظرْ إليها وإلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فيها. قال: فجاءَ فنظرَ إليهَا وإلَى ما أعدَّ اللهُ لأهلِها فيها. قالَ: فرجَعَ إليهِ قالَ: وعزَّتِكَ لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلَها، فأمَر بها فحُفَّتْ بالمكارِهِ فقال: ارجعْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ إِلَيْهَا فقالَ: وعزَّتِكَ لقدْ خشيتُ ألَّا يَدْخُلَهَا أحدٌ. وقال اذهبْ إِلَى النَّارِ فانظرْ إِلَيْهَا وإِلَى ما أَعْدَدْتُ لأَهْلِها فِيهَا. قال: فذهبَ فنظرَ إِلَيْهَا فإذَا هِيَ يركبُ بعضُها بعضًا فرجَعَ إليهِ فقالَ: وعزَّتِك لا يَسمعُ بها أحدٌ فيدخلَها، فأمَر بها فحُفَّتْ بالشَّهواتِ فقالَ: ارجعْ إليها فرجعَ إليهَا فقال: وعزَّتِك لقدْ خشيتُ ألَّا ينجوَ منها أحدٌ إلا دخلَها» رواهُ أهلُ السُّنن[3].

(١) مسلم ح (٣٨٤٣).
(٢) أخرجه مسلم ح (٢٨٤٤).
(٣) أخرجه أبو داود ح (٤٧٤٤) والترمذي ٤/ ٦٩٣ ح (٢٥٦٠) وقال حسن صحيح.

وقدْ وصفَ اللهُ سُبْحانَهُ ما أعدَّهُ في النارِ نُزُلاً لأهلِها منْ أنواعِ العذابِ ما ينخَلِعُ لهُ قلبُ المُؤْمِن المصدِّقِ بقولِ اللهِ تعالىَ رهَبةً وخَشْيَةً مِنْ أنْ يكونَ مِنْ أَهلِها. وقدْ أطالَ القرآنُ الكريمُ في وصفِ أهْوَالِها وعذابِها لتقريبِ الصورةِ للسامعينَ فيرتدِعُونَ عنْ كلِّ ما يقرِّبُهُمْ منها ويعمَلونَ ما بِوُسْعِهِمْ للفِرارِ منها.

عَن الحسنِ البصريِّ - رحمهُ اللهُ - قال: كانَ عمرُ - رضي اللهُ عنهُ - يقولُ: «أكثِروا ذكرَ النارِ فإنَّ حرَّها شديدٌ، وإن قَعْرَها بعيدٌ، وإن مقامِعَها الحديدُ». قالَ الحسنُ البصريُّ - رحمهُ اللهُ -: «واللهِ ما صَدَّقَ عبدٌ بالنَّارِ إلاَّ ضاقتْ عليْهِ الأرضُ بما رحُبتْ، وإن المُنَافقَ لو كانتْ النارُ خَلفَ هذا الحائطِ لم يُصَدِّقْ بها حتى يَتجهَّمَ عليها»[1].

قالَ اللهُ - سبحانَه وتعالى - حاكيًا موقفَ الكفارِ حينَ يعاينُونَ العذابَ مصورًا مفاجأةَ الموقفِ لهمْ، تلكَ المفاجأةُ المُؤْلِمَةُ ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۞ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[2] إنَّ أيَّ إنسانٍ مهما أُوتِيَ منْ فصاحةٍ وبيانٍ لا يمكنُ أن يُصَوِّرَ ذُهولَ الظالمينَ ومفاجأتَهم من هذَا الموقفِ العصيبِ بما صوَّرَهُ القرآنُ بهذهِ الكلماتِ المعدوداتِ، ولكَ أن تَتَصورَ عَظَمَةَ هذا التَّهديدِ الملْفُوفِ . . . ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾، ما الشيءُ

(١) الزهد لأحمد (٣٢٤).

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٤٧، ٤٨.

الذي بدَا لهم؟ إنهُ شيءٌ لمْ تُفْصِحْ عنهُ الآياتُ، ولكنهُ أمرٌ عظيمٌ شديدٌ. هلْ هو البعثُ؟ هلْ هوَ الحسابُ؟ ودِقّتُهُ؟ هل هوَ المِيزانُ؟ هل هوَ الجنةُ؟ هل هوَ النّار؟ هلْ... هلْ... هلْ. كلَّما زِدتَ من هذهِ الأَسئلةِ كلما زِدتَ الأمرَ هولاً وشدةً ويبقى الأمرُ غيبًا عندَ الله هكذا... ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾. ما لم يكنْ في حسابِهم ولا تقديرِهم، ولم يَدُرْ في بالِهم أو خَلَدِهمْ... إنهُ تعبيرُ القرآنِ الكريم.

ثم استمعْ إلى قولِ اللهِ تعالى في صفةِ جهنم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۞ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۞ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ۞ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾[1]، استحضرْ هذا مع قولِ الله تعالى عن الكافرِ إذا نُوقشَ الحسابَ يومَ القيامةِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۞ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۞ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۞ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۞﴾[2].

وقوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾[3].

قالَ ابنُ عباس -رَضِيَ اللهُ عنهما-: «إنَّ الرجلَ ليُجرُّ إلى النَّارِ فَتَنْزَوي وتنْقَبضُ بعضُها إلى بعضٍ فيقولُ لها الرحمنُ مالَكِ؟ قالتْ: إنهُ

(١) سورة الفرقان، الآيات: ١١-١٤.
(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٣٠-٣٧.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٤.

يستجيرُ مِنيِّ، فيقولُ: أرسِلوا عبدِي. وإنَّ الرجلَ ليُجَرُّ إلى النَّارِ فيقولُ يا ربِّ ما كانَ هذا الظَّنُّ بكَ فيقولُ: فما كانَ ظنُّكَ. فيقولُ أن تسعَنِي رحمتُكَ. فيقولُ: أرسِلُو عَبْدِي، وإنَّ الرَّجلَ ليُجرُّ إلى النَّارِ فتشهَقُ النارُ شهقةَ البَغْلَةِ إلى الشَّعيرِ وتزفرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خافَ»[(١)].

وقال تعالى: ﴿ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[(٢)]. أي: يكادُ ينفصِلُ بعضُها عنْ بعضٍ منْ شدَّةِ غيظِها على مَنْ كفَرَ باللهِ.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[(٣)].

وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ﴾[(٤)].

قالَ الحسنُ: تُنضِجُهمْ في اليومِ سبعينَ ألفَ مرةٍ.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عنْ أبِي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ما بين مَنْكِبَي الكافرِ مسيرةُ ثلاثةِ أيامٍ للراكبِ المسرِعِ**»[(٥)].

وروى مسلمٌ عنهُ عن النبي ﷺ قالَ: «**ضِرْسُ الكافرِ مثلُ أُحُدٍ**

---

(١) قال ابن كثير سنده صحيح عن ابن عباس.

(٢) سورة الملك، الآيتان: ٧، ٨.

(٣) سورة فاطر، الآيتان: ٣٦، ٣٧.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٥) البخاري: ١١/ ٤١٥ ح (٦٥٥١) ومسلم (٢٨٥٢).

وغِلَظُ جِلْدِهِ مسيرةُ ثلاثٍ»[1] .

وروى الترمذيُّ عنْ أبي هريرةَ عنِ النبي ﷺ قالَ : «إنَّ مجلسَ الكافرِ من جهنمَ ما بينَ مكةَ والمدينةَ»[2] .

ولعلَّ القصدَ من هذا التعظيم أن ينالَهُ أكبرُ قِسْطٍ من العذابِ لأنَّ العذابَ يَعُمُّ جميعَ أَجزاءِ الجسدِ فكلَّما كانَ الجسدُ أكبرَ كلَّما كانَ العذابُ أقوى . . . ثم اعلمْ أنَّ عذابَ الكافرِ الظالِمِ في الآخرةِ يَعْظُمُ ويشتدُّ حتى إنهُ يَتَّقِي العذابَ بوجهِه . قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[3] .

الوجهُ الذي في العادةِ يقيهِ الإنسانُ بيدَيْهِ أو رجْلَيهِ ، أو بأيِّ جُزءٍ منْ أجزاءِ جسمهِ إذا عايَن عذابَ النارِ - أعاذنا اللهُ وإياكمْ منها - لشدَّةِ ذهولهِ واضطرابِهِ يتَّقِي عذابَ النارِ بوجهِهِ ، فكأنَّهُ يقدِّمُ وجهَهُ إلى النارِ وهو يريدُ أن يتقيَ عذابَها . أَلاَ ما أشدَّ خِزيَ الكافرينَ وآلَمَ عذابَهم . وفي هذا الموقفِ العصيبِ الذي يَتَّقِي الإنسانُ النارَ بوجههِ يقالُ له تقريعًا وتوبيخًا : ﴿ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ إنهُ عذابٌ آخرُ فوقَ العذابِ الحسِّيِّ إنه التأنيبُ من اللهِ لهمْ ويالهُ من موقفٍ ، ويالهُ من خِزْيٍ ليسَ بعدَه خزيٌ . . هَلْ لأَحَدٍ منا أيها الإخوةُ طاقةٌ بهذا العذابِ الشديدِ؟ كلا واللهِ . . بلْ إنَّ الواحَد منا لا يتحملُ جمرةً من جمرِ نارِ الدُّنيا يطؤُها بدونِ عِلمٍ فيقومُ أَلَمُهَا برجلِهِ أو بيدِهِ اليومَ واليومين ،

---

(١) مسلم ح (٢٨٥١) .

(٢) الترمذي ٤/ ٧٠٣ ح (٢٥٧٧) وقال حسن صحيح غريب .

(٣) سورة الزمر ، الآية : ٢٤ .

ويُحِسُّ أَن أَلَمَها يصلُ إلى دمَاغِهِ، بل لوْ طارتْ شرارةٌ منْ جمرةٍ فوقعتْ على يدِكَ أو خدِّكَ أو فَخِذِكَ صُعِقْتَ وصِحْتَ وكأنَّ النارَ كلَّها أُلقيتْ في حِجْرِك.

إنكَ لترى الواحَد منا يغفُلُ ويلهُو ويَعْصِي ويُعرِضُ وكأنَّ الجنةَ قد ضُمنتْ لهُ ضمانًا، وكأنَّ معهُ يقينًا أنهُ لنْ يمرَّ على النارِ. اعلموا أيها الإخوةُ أنه لا يأمنُ مكرَ اللهِ إلا القومُ الخاسرونَ. خطبَ عتبةُ بنُ غزوانَ الصحابِيُّ - رضِيَ اللهُ عنهُ - فقالَ: «إنهُ ذُكِرَ لنا أن الحجرَ يُلقى مِنْ شفيرِ جهنمَ فيهوِي فيها سبعينَ عامًا ما يُدرِكُ لها قعرًا واللهِ لتُملأَنَّهْ، أَفَعَجِبْتُمْ» رواه الترمذيُّ[1].

وقد حكى القرآنُ الكريمُ والسنةُ النبويةُ عنْ طعامِ أهلِ النارِ وشرابِهم ما تقشعرُّ لِهَوْلِه الجلودُ. قال الله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾[4]، وقال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾[5].

قال ابنُ عباسٍ ومجاهدُ والحسنُ: «يعني قَدْ انتهى حرُّها وغَلَيانُها

---

(1) ٤/٧٠٢ ح(٢٥٧٥).
(2) سورة الحج، الآيتان: ١٩، ٢٠.
(3) سورة محمد، الآية: ١٥.
(4) سورة النبأ، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(5) سورة الغاشية، الآية: ٥.

أيْ وصَلَ غايتَهُ ومنتهاهُ» .

وقال تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾[1] .

والآياتُ في وصفِ شَرابِ أهلِ النَّارِ كَثِيرةٌ، وكذلك الأحَادِيثُ[2] .

فَعَنْ أبِي هريرةَ عن النبي ﷺ قال : «**إنَّ الحميمَ ليُصبُّ على رؤوسِهم فينفُذُ الحميمُ حتى يَخلُصَ إلى جوفِهِ فيسلِتَ ما في جوفِهِ حتى يَمْرُقَ من قدَمَيْهِ وهو الصَّهْرُ، ثم يُعادُ كما كان**» رواه أحمدُ والترمذيُّ وقال حسنٌ صحيحٌ غريبٌ[3] .

أما طعامُهم فالضريعُ والزقومُ. قال تعالى : ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾[5] .

وقالَ عن شجرةِ الزقوم : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴾[6] .

قال قتادةُ في الضريعِ : «من شرِّ الطعامِ وأبشعِهِ وأخبَثِهِ»، أما

---

(١) سورة إبراهيم، الآيتان : ١٦، ١٧ .

(٢) الترمذي ٤/ ٦٠٧ ح (٢٥٨١).

(٣) الترمذي ٤/ ٧٠٥ ح (٢٥٨٢) وأحمد ٢/ ٣٧٤ .

(٤) سورة الغاشية، الآيتان : ٦، ٧ .

(٥) سورة الدخان، الآيات : ٤٣-٤٦

(٦) سورة الصافات، الآيات : ٦٣-٦٦ .

الزَّقُّوْمُ: فقدْ قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لو أن قَطْرَةً من الزقومِ قَطرتْ في الدنيا لأفسدتْ على أهلِ الدُّنيا مَعايِشَهم**»[1]، فكيفَ بمنْ يكونُ طَعَامَه ومعَ كلِّ هذا العذابِ الشديدِ. وأعظمُ من هذا كلِّه أن رجاءَ أهلِ النارِ في الخرُوجِ منها ينقطعُ إذا قالَ لهم مَالِكٌ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[2]، فينقطعُ أملُهُم في تخفيفِ العذابِ ولو يَوْمًا واحدًا فضلاً عن الخروجِ منها، فإذا يَئِسُوا من ذلكَ طَلبُوا أن يَمُوتُوا فلا يُمَكَّنونَ من ذلِكَ، وهنا تَنْقَطِعُ بهمْ الآمالُ وينْقَطِعُونَ للْبكاءِ والنَّحِيبِ والتلاوُمِ فِيما بينهم، والعذابُ في ازديادٍ والأملُ قد انقطعَ من كلِّ شَيْءٍ... ياله منْ عذابٍ أكيدٍ وَحُزنٍ طويلٍ.

قال ابنُ عباس: «يجيبهمْ مالكٌ بعَدَ ألفِ سنةٍ منْ سؤالهم».

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إن أهلَ النارِ ليبكونَ حتَّى لوْ أُجريتِ السفُنُ في دموعِهمْ لجرتْ، وإنهم ليبكونَ الدَّمَ - يَعْنِي مكانَ الدَّمعِ -**» رواه الحاكمُ وصححهُ ووافقهُ الذهبيُّ وصححهُ الألبانيُّ[3].

والآنَ نعرضُ بعضَ الأعمالِ التي تُوصلُ الإنسانَ إلى النَّارِ لعلَّ في ذلِكَ ما يُنَفِّرُ من تلكَ الأعمالِ:

١ - روى مسلمٌ عن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**صِنْفَانِ من أهلِ النَّارِ لَمْ أَرهُما: قومٌ مَعَهُمْ سِياطٌ كأَذْنَابِ البقرِ يضرِبونَ بها النَّاسَ، ونساءٌ كاسِياتٌ عارِياتٌ مُميلاتٌ مائِلاتٌ رؤوسهُنَّ كأسنِمةِ**

---

(١) الترمذي ٤/ ٧٠٦ ح (٢٥٨٥) وقال حسن صحيح.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.

(٣) المستدرك ٤/ ٦٠٥.

البُخْتِ المَائِلةِ لا يدخُلْنَ الجنَّةَ ولا يجدْنَ رِيحَها وإنَّ رِيحَها ليُوجَدُ مِنْ مسيرةِ كذا وكذا»[1].

قال النَّوَوِيُّ - رحمهُ اللهُ -: «أَمَّا أصحابُ السياطِ في الحديثِ فغِلمانُ والي الشُّرْطَةِ، أما الكاسياتُ ففيهِ أوجهٌ، ثم ذكَر منها: من تكشفُ شيئًا من بدَنِها إظهارًا لجمالِها، ومن تلبسُ ثيابًا رِقاقًا تَصفُ ما تَحتَها. وقولُه مميلاتٌ مائلاتٌ: يعني زائِغاتٌ عَنْ طاعةِ اللهِ تعالى وما يَلْزَمُهُنَّ من حفظِ الفرُوجِ وغيرِها، مُميلاتٌ يُعلِّمْنَ غيرَهُن مِثلَ فِعْلِهِنَّ. أما قولهُ رؤوسُهنَّ كأسنمةِ البُختِ المائلةِ: فمعنَاهُ يعظِّمْنَ رؤوسَهنَّ ويجمَعْنَ ضفائرَهنَّ فوقَ رؤوسِهنَّ ويجمعنَهُنَّ في وسَطِ الرأْس فتصيرُ كأسنِمَةِ الإبلِ.

وقَال بعضُ العلماءِ: يطمَحْنَ إلى الرجالِ، ولا يغْضُضنَ عنهم، ولا يُنكِّسْنَ رؤوسَهنَّ. انتهى.

فَتَفكَّرِي يا أختي المسلِمةَ أليسَ كثيرٌ مِنَ النِّسَاءِ قد وقعنَ في كثيرٍ مِنْ هذهِ الأفعالِ؟ أَلَسْنَا نرىَ المرأَةَ التي تلبسُ الثيابَ الرقيقةَ اللافِتَةَ للنَّظَرِ وتخفِّفُ غطِاءَ وَجْهِها جدًا وتقصِّرُهُ حتى يبينَ عنُقُها، بل حتى يبينَ أسفلُ وجهِها، ثم تتعطرُ وتتبخْتَرُ وتخرُجُ إلى السُّوقِ فاتنةً مفتونةً تكلِّمُ الرجالَ بكلامٍ ناعمٍ رقيقٍ فتُميلُ قلوبَهم لا تَغُضُّ صوتَها ولا تحـترمُ أُنوثَتَها ورجولَةَ الرِّجالِ؟ بلى واللهِ إنهنَّ كثيرٌ. فاحذَرِي يا أختِي أنْ تكونِي منْ هؤلاءِ النِّسوةِ اللاتِي يمشينَ في غَضَبِ اللهِ

---

(١) مسلم ح (٢١٢٨).

ولعنَتِه ويؤذِينَ عبادَ اللهِ المؤمنينَ. . احذري وحذِّري غيرَكِ ممن يسلكْنَ هذا المسلكَ، فما أَحْرَى هذهِ النِّساءَ المفتوناتِ الفاتناتِ بالعقوبةِ وما أحراكِ يا أختي المعتصمةَ بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه بالثوابِ لا سيَّما إذا أَمَرْتِ بالمعروفِ ونَهيتِ عن المنكرِ. باركَ اللهُ فيكِ.

٢ - روى البخاريُّ عن عِمرانَ بن حُصينٍ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اطَّلَعتُ في النارِ فرأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ**»[١].

قالَ القُرْطِبيُّ: «إنما كانَ النِّساءُ أقلَّ ساكني الجنَّةِ لِما يغلِبُ عليهنَّ منَ الهوى والميلِ إلى عاجلِ زينةِ الدُّنيا والإعراضِ عنِ الآخرةِ لِنَقْصِ عقُولِهنَّ وسرُعَةِ انخداعِهنَّ».

وقد رَوى ابنُ عباسٍ كما في البخاريِّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «**أُرِيتُ النارَ فإذا أكْثرُ أهلِها النِّساءُ يكْفُرنَ**، قيلَ: أَيَكْفُرْنَ باللهِ؟ قال: **يكفرْنَ العشيرَ ويكفرنَ الإِحسانَ لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهرَ، ثم رأتْ منكَ شيئًا قالتْ: ما رأيتُ منكَ خيرًا قطُّ**»[٢].

فلتحذرِ المسلمةُ من أنْ تكونَ من هذهِ الكثرةِ التي تدخلُ النارَ.

ففي هذا الحديثِ حثٌّ للمسلمةِ على التزامِ أَوامرِ اللهِ والبعدِ عن نواهيهِ ومن أهمِّها بالنسبةِ للمرأةِ طاعةُ الزوجِ ومعرفةُ معروفِهِ وإحسانهِ، وعدمُ التنكرِ لما يَبْذُلهُ.

٣ - روى مسلمٌ عن أبي هريرةَ حديثَ مُحاجَّةِ الجنةِ والنارِ وفيهِ

---

(١) البخاري: ١١/ ٤١٥ ح (٦٥٤٦).

(٢) البخاري: ١/ ٨٣ ح (٢٩).

قولُه . . «فقالتِ النارُ أُوثِرْتُ بالمتكبرينَ والمتجبرينَ»[1]، وروى مسلمٌ أيضًا عنْ حارِثةَ بنَ وهبٍ أنه سمَع رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «**ألا أخبرُكم بأهلِ النَّارِ؟** قالوا بلى. قالَ: **كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبرٍ**» . . وفي رواية: «**كلُّ جوّاظٍ زَنيم متكبرٍ**»[2] . . أما العُتلُّ فهو الجافي الفَظُّ الغليظُ، والجوّاظُ: الجَمُوْعُ المَنُوْعُ، والمستكبرُ هو المتكبرُ، والكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناس.

فليحذرِ المسلمُ من أن يكونَ جافيًا غليظًا على عبادِ اللهِ المؤمنينَ بلْ يكونُ متواضعًا لإخوانهِ متحببًا إليهم، وليحذرْ ثانيًا: من أن يكونَ جمَّاعًا للمالِ، بخيلاً لا ينفقُ في مشاريع الخيرِ، ولا يتصدقُ على إخوانِه المسلمينَ، المحتاجينَ، ولْيعلَمْ أن المالَ مالُ اللهِ استخْلَفهُ فيهِ فلْيُحسِنْ فيه الخلاَفةَ.

وليحذرْ ثالثًا: من الكِبْر الذي هو رَدُّ الحَقِّ والاعتداءُ على النّاسِ في حقوقِهم، لعلّهُ يكونُ من المفلحينَ.

٤ - روى مسلمٌ عن أبي ذرٍّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يكلِّمُهُمُ اللهُ يومَ القيامةِ ولا ينظرُ إليهمْ ولا يُزكِّيهمْ ولهمْ عذابٌ أليمٌ**». قال فقرأها رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مراتٍ. قالَ أبو ذرٍّ: خابوُا وخسرُوا منْ هُم يا رسولَ اللهِ؟ قال: «**المسبلُ، والمنَّانُ، والمُنفِّقُ سِلْعَتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ**».

---

(١) مسلم: ح (٢٨٤٦).

(٢) مسلم: ح (٢٨٥٣).

وفي رواية: «**المنَّانُ الذي لا يُعطي شيئًا إلا مِنّةً، والمُنَفِّقُ سِلعتَهُ بالحَلِفِ الفاجرِ، والمسبِلُ إزارَهُ**»[1]. ورواهُ أبو هريرةَ بلفظِ: «**رجلٌ على فَضْلِ ماءٍ بالفلاةِ يمنعُهُ مِنْ ابن السبيلِ، ورجلٌ بايعَ رجلاً بِسلعةٍ بعدَ العصرِ فَحلفَ له باللهِ لأَخذَها بكذا وكذا فصدَّقهُ وهو على غيرِ ذلكَ، ورجلٌ بايَع إمامًا لا يُبايعُهُ إلا لِدُنيا فإنْ أَعطاهُ منها وَفَىٰ، وإن لم يُعطِهِ منها لم يَفِ**»[2].

فذكرَ الرسولُ ﷺ في هذا الحديثِ أربعةَ أصنافٍ مِنْ أهلِ النار:

الأولُ: المسبلُ إزارَهُ الذي يُطيلُهُ أسفلَ الكعبينِ وقدْ يَجرُّهُ خُيَلاءَ وكِبْرًا.

الثاني: المنَّانُ: الذي لا يُعْطِي أحدًا شيئًا إلا مَنَّ بهِ عليهِ وذكَّرَهُ معروفَهُ وقد يَمنَعُ المعروفَ أَصلاً فلا يمنحُ أحدًا مهما كانَ محتاجًا مثلُ ذَاكَ الرَّجُلِ الذي يمنعُ الناسَ الماءَ وفيهِ زيادةٌ على حاجتهِ وهمْ في أرضٍ فلاةٍ ومحتاجونَ إلى الماءِ.

الثالثُ: رجلٌ بايعَ إمامًا لا يريُد إلاَّ الدُّنيا يفي ببيعتِهِ إنْ حَصَلتْ لَهُ وينقضُها إن لم تحصلْ.

الرابعُ: وما أكثَرَهُ في مجتمعِنا: الذي يُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بالْحَلِفِ الكَاذِبِ. فيحلِفُ لكَ إنها جيِّدَةٌ وهوَ يعلمُ أنها على خلافِ ذلِكَ، أو يحلِفُ أنهُ اشتراها بكذا وهوَ كاذبٌ، أو يحلفُ أنهُ خَسرانٌ في بَيْعِها عَلَيْكَ بِهَذَا المبلَغِ وهُوَ كاذبٌ، أو يحلِفُ أَنَّ أحدًا سامَها مِنهُ بمبلغِ

---

(١) مسلم: ح (١٠٦).

(٢) مسلم: ح (١٠٨).

كذا وكذا وَهُوَ كاذبٌ، أو يحلِفُ أنَّ فلانًا الخبيرَ بهذهِ البِضَاعَةِ قدْ انتقاها دون غيرِها وهُوَ كاذبٌ، إلى غير ذَلِكَ منْ طُرُقِ ترويجِ البضَاعَةِ بالكَذِبِ والحلِفِ الكَاذِبِ.

فاحرصْ يا أَخِي المسلمَ في حياتِكَ كلِّها وبيعِكَ وشرائِكَ على الرِّزقِ الحلالِ والبعدِ عن كلِّ ما من شأنِه جلبُ سُخْطِ ربِّكَ الكريم. فما أعجزكَ عن تحمُّلِ أهونِ أنواعِ العذابِ، وما أحوجَكَ إلى تَتَبُّعِ مواقعِ رحمةِ اللهِ لعلَكَ أنْ تكونَ من الفائزيَن.

وأَختِمُ حديثِي معكمْ بحديثِ أنس قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«يؤتى بأنعَـم أهـلِ الدُّنيا منْ أهلِ النارِ فيُصبَغُ في النارِ صَبغةً ثمَّ يقالُ لهُ: يا ابنَ آدمَ هلْ رأيتَ خيرًا قطُّ؟ هل مرَّ بكَ نعيمٌ قطُّ؟ فيقولُ لا واللهِ يا ربِ، ويؤْتَى بأشدِّ الناس بؤسًا في الدنيا مِنْ أهلِ الجنةِ فيُصبَغُ صَبغةً في الجنةِ فيُقالُ لهُ: يا ابنَ آدمَ هلْ رأيتَ بؤسًا قطُّ؟ هلْ مرَّ بكَ مِنْ شدةٍ قطُّ؟ فيقولُ لا واللهِ يا ربِّ ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شدةً قطُّ»** رواهُ مسلمٌ[1].

اللهمَّ إنَّا نعوذُ بكَ منْ عذابِ جهنمَ، ونعوذُ بكَ منْ عذابِ القبرِ، ونعوذُ بكَ من فتنةِ المسيخِ الدجالِ، ونعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا والمماتِ.

اللهمَّ أجِرْنا ووالدِينا ووالدِيهم وجميعَ إخوانِنا المسلمينَ منَ النارِ.

---

(١) مسلم: ح:٢٨٠٧).

ربنا آتِنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ.

اللهمَّ قِنا عذابَك يومَ تبعثُ عبادَكَ.

اللهمَّ لا تفضحْنا على رؤوس الخلائِق يومَ البعثِ والنُّشورِ، وآتنا كِتابَنا باليَمينِ، برحمتكَ يا أَرحمَ الرَّاحمينَ. واغفرِ اللهُمَّ لنَا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ، آمين وصلى اللهُ وسلمَ على عبدِه محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين.

فصلٌ في قيامِ الليلِ

الحمدُ للهِ القَوِيِّ القاهرِ الظاهرِ الحقِّ المبينِ، لا يخفَى على سمعهِ خَفِيُّ الأنينِ، ولا يعزُبُ عن بصرِهِ حركاتُ الجَنينِ، ذَلَّ لكبريائِهِ جبابرةُ السلاطينِ، وقَضَى القضاءَ بحِكْمَتِه وهُوَ أحكمُ الحاكمينَ. أحمدُهُ حمدَ الشاكرينَ وأَشْهَدُ أن لَّآ إلٰه إلَّآ اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ إلٰهُ الأَوَّلينَ والآخِرِينَ، وأشهدُ أن محمدًا عبدهُ ورسولُهُ المصطفى عَلَى العالمينَ صلى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وأصْحَابِهِ والتَّابِعينَ لهم بإحسانٍ إلى يوم الدينِ وسلَّمَ تَسْلِيمًا.

إخواني: قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

تتجافى جنوبُهمْ عن المضاجعِ لتَركِهمُ الاضْطِجاعَ للنَّومِ شُغُلاً

---

(١) سورة السجدة، الآيتان: ١٦، ١٧.

بالصلاةِ قالَ بعضُ العُلَماءِ والمقصودُ به قيامُ الليلِ ويدلُّ عليهِ قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ لأنهمْ جُوزُوا على ما أَخْفَوْا بما خَفِيَ.

وعند قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ قال قتادةُ: خوفًا من عذابِ اللهِ وطمعًا في رحمةِ اللهِ ومما رزقناهمْ ينفقونَ في طاعةِ اللهِ وفي سبيلِه.

وَفي مَعْنى هذهِ الآية قال النبيُّ ﷺ: «**قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: أَعَدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ**» ثمَّ قرأ هذه الآية: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

وقالَ الحسنُ: أخفىٰ القَوْمُ أعمالاً فأَخفَى اللهُ تعالى لهم ما لا عيْنٌ رأَتْ ولا أُذنٌ سمِعَتْ وقالَ ابنُ القيِّم - رحمَهُ اللهُ-: «تأمَّلْ كيفَ قابلَ ما أخْفَوْهُ من قيام الليلِ بالجزاءِ الذي أخفاهُ لهمْ مما لا تَعْلَمُهُ نفسٌ، وكيفَ قابلَ قلقَهُمْ وخوفَهُمْ واضطرابَهُمْ على مضاجعِهِمْ، حينَ يقُومون إلى صلاةِ اللَّيلِ بقُرّةِ الأعينُ في الجَنَّة»[1].

وَعَنْ عبدِاللهِ بنِ أَبي قَيس قالَ: قالتْ عائشةُ - رَضِيَ اللهُ عنْها -: **لا تدعْ قيامَ الليلِ، فإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ كانَ لا يَدَعُهُ، وكانَ إذا مرِضَ أو كَسِلَ صلَّى قاعِدًا**» رواهُ أبو داودَ[2].

---

(١) رهبان الليل.

(٢) قال الأرناؤوط إسناده صحيح جامع الأصول ج ٦ ص ٦٦.

وعنْ عبدِاللهِ بنِ عُمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهُما - أن أباهُ عمرَ بنَ الخطَّابِ «كانَ يصلِّي مِن اللَّيلِ ما شاءَ اللهُ، حتَّى إذا كانَ منْ آخرِ الليلِ أيقظَ أهلَهُ للصلاةِ، يقولُ لهمْ: الصلاةَ، الصلاةَ». ثمَّ يَتْلُو هذه الآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] أخرجهُ مالكٌ في الموطأ[2].

وقالَ الصحابيُّ الجليلُ عبدُاللهِ بنُ رَوَاحةَ في رَسُولِ اللهِ ﷺ:

وفينَا رَسُولُ اللهِ يَتْلو كِتابَهُ ... إذا انْشَقَّ معروفٌ مِنَ الفَجْرِ ساطعُ

أرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا ... بـه موقناتٌ أنَّ ما قال واقِعُ

يَبيتُ يجافِي جَنْبَهُ عنْ فِراشِهِ ... إذا اسْتَثْقَلَتْ بالمشركينَ المضاجعُ

وعَنْ عبدِاللهِ بنِ عَبْسةَ - رضيَ اللهُ عنهُ - أنهُ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «أقربُ ما يكونُ الرَّبُّ من العبدِ في جوفِ الليلِ الآخرِ، فإنْ استَطَعْتَ أنْ تكون مِمَّنْ يَذْكُرُ اللهَ في تلكَ الساعةِ فكُنْ» رواهُ الترمذيُّ وقال حديثٌ حسنٌ غريبٌ وصحَّحهُ الألبانيُّ[3].

عبدَاللهِ: اعلمْ أنَّ مما يُعينُكَ على قيامِ اللَّيلِ نومُ القَيْلُولَةِ. مرَّ الحسنُ بقومٍ في السوقِ فرأى منهمْ مارًّا فقال: أما يقِيلُ هؤُلاءِ؟ قالوا: لا، قالَ: إني لأرَى لَيْلَهُم ليلَ سوءٍ.

وعن إسحاقَ بن عبدِاللهِ بنِ أَبي فَرْوَةَ قالَ: القائلةُ مِنْ عملِ أهلِ الخيرِ وهي مَجْمَعَةٌ للفوائدِ مقْوَاةٌ على قِيامِ الليلِ[4].

---

(١) سورة طـه، الآية: ١٣٢.

(٢) جامع الأصول ج ٦ ص ٦٨ قال المحقق إسناده صحيح.

(٣) صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٧.

(٤) مختصر قيام الليل ص ٨٩.

عنْ أبي قتادةَ قالَ: إنَّ النبيَ ﷺ خرجَ ليلةً، فإذا هُوَ بأبي بكْرٍ الصديقِ يُصلي يخفِضُ مِنْ صوتِهِ، قالَ: ومرَّ بعُمَر وهُوَ يُصَلّي رافعًا صوتَه، قالَ: فلما اجْتَمَعَا عندَ النبيِّ ﷺ قالَ النبيُ ﷺ: **«يا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بكَ وأنتَ تصُلِّي تَخفضُ صوتَكَ»** قالَ: «قد أسمعتُ من ناجيتُ يا رسولَ الله» قال: وقالَ لِعُمَرَ: **«مَرَرْتُ بكَ وأنتَ تُصلي رافِعًا صوتَكَ»** قالَ: فقال: «يا رسولَ اللهِ أُوقظُ الوَسْنَانَ وأَطْرِدُ الشيطانَ»، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«يا أبَا بَكْرٍ ارفَعْ من صوتِكَ شيئًا»** وقال لعمر: **«اخْفِضْ من صوتِكَ شيئًا»**[1]. رواه أبو داود وصححه الذهبي وأحمد شاكر والألباني

فرضيَ اللهُ عن أبي بكرٍ وعُمرَ فلقدْ قالَ رسولُ اللهِ ﷺ مادحًا لهما: **«هذانِ السمعُ والبصرُ يعنِي أبا بكرٍ وعمرَ»** رواهُ الترمذيُّ والحاكمُ وصححَهُ الألْبَانيُّ[2].

وقالَ ﷺ: **«هذانِ سيدَا كُهُولِ أهلِ الجنةِ، من الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، إلا النَّبِيِّينَ والمرسلينَ، لا تُخْبِرْهُما يا عَليُّ. يعني أبا بكرٍ وعمرَ»** رواه التِّرمذيُّ وصحَّحهُ الألْبَانيُّ[3].

يا غافِلاً عما خُلِقْتَ لهُ انتبِهْ ... جَدَّ الرحيلُ ولستَ باليقظانِ
سارَ الرِّفاقُ وخلَّفُوكَ معَ الأُلى ... قَنِعوُا بذا الحظِّ الخسيسِ الفاني
ورأيتَ أكثرَ منْ ترىٰ متخلِّفًا ... فتبعتَهم فرضيتَ بالحِرمان

---

(١) رواه أبو داود وصححه الذهبي والألباني والشيخ أحمد شاكر، انظر رهبان الليل ص ٣٠١ ج ١.
(٢) صحيح الجامع ٨٦٨١ والصحيحة رقم ٨١٤ عن رهبان الليل ج ١ ص ٣٠٣.
(٣) صحيح الجامع ٨٦٨٢ والصحيحة رقم ٨٢٢ عن رهبان الليل ج ١ ص ٣٠٣.

مَنَّتْكَ نفسُكَ باللحوقِ مع القُعو ... دِ عـنِ المسيـرِ وراحـةِ الأَبـدانِ
ولسوفَ تعلمُ حينَ ينكشفُ الغِطا ... ماذا صنعْتَ وكنتَ ذا إمكانِ[1]

عنْ عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «عَجِبَ ربُّنَا من رجلينِ: رَجُلٍ ثارَ عن وِطَائِهِ ولِحَافِهِ من بينِ حِبِّهِ وأَهْلِهِ إلى صلاَتِهِ، فيقولُ اللهُ لملائكتِهِ: انظروا إلى عبْدِي ثارَ عنْ فِراشِهِ ووِطائِهِ من بينِ حِبِّهِ وأهلِهِ إلى صلاتِهِ رغبةً فيما عندي، وشفَقًا ممَّا عِنْدِي، ورجلٍ غَزا في سبيلِ اللهِ، فانهزمَ معَ أصحابِهِ، فعَلِمَ ما عليهِ في الانهزَامِ، ومَالهُ في الرجوعِ، فرجعَ حتى هُرِيقَ دمُهُ، فيقولُ اللهُ لملائكتِهِ: انظرو إلى عبدِي رجعَ رغبةً فيما عندي، وشفقًا مما عندي حتى هُرِيقَ دمُهُ» رواهُ أحمدُ وصحَّحهُ ابنُ حبان[2].

وفي الزُّهْدِ لابنِ حنبلَ عنْ أبي ذَرٍّ - رَضِي اللهُ عنهُ - أنه قالَ: «يا أيُّها الناسُ إني لكمْ ناصحٌ، وإني عليكمْ شفيقٌ، صَلُّوا في ظُلمَةِ الليلِ لوحشةِ القبورِ، وصوموا الدنيا لحرِّ يومِ النشورِ، وتصدَّقُوا مخافَةَ يومٍ عسيرٍ، يا أيُّها الناسُ إني لكمْ ناصحٌ، إني عليكمْ شفيقٌ»[3].

عبادَ اللهِ: واجتهدوا ما دامتْ هذه القلوبُ مقبلةً على طاعةِ اللهِ فإنَّ لها إقبالاً وإدبارًا قالَ عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ: «إنَّ لهذهِ القلوبِ شهوةً وإقبالاً، وإنَّ لها فَتْرةً وإدْبَارًا، فخُذُوها عندَ شهْوَتِها وإِقبالِهَا، وذَرُوها عند فَتْرَتِها وإدْبَارِها»[4].

---

(١) نزهة العشاق ص ٢٦.
(٢) شرح السنة ج ٤ ص ٤٢.
(٣) رهبان الليل ص ٣١٥.
(٤) شرح السنة للبغوي ج ٤ ص ٥٩.

وفي الحديثِ الصحيح قالتْ عائشةُ - رضيَ اللهُ عنْها -: «**كانَتْ عِنْدِي امرأةٌ مِنْ بَنِي أسَدٍ فَدخلَ عليَّ رسولُ اللهِ ﷺ فقالَ: مَنْ هذهِ؟ قلتُ: فُلانةُ لا تنامُ الليلَ - تذكرُ مِن صلاتِها - فقالَ: مَهْ عَلَيْكُمْ ما تستطيعوُنَ من الأَعْمالِ فإنَّ اللهَ لا يمَلُّ حتى تملُّوا**» رواهُ البخاريُّ[1].

اِصْبِرْ على مضضِ الإدْلاجِ في السَّحَرِ … وفي الرَّواحِ على الطاعاتِ والبُكَرِ
لا تضجَرَنَّ ولا يُعجِزْكَ مطلبُها … فالهَمُّ يَتلفُ بين اليأسِ والضجَرِ
إنِّي رأيتُ وفي الأيامِ تجربةٌ … للصَّبرِ عاقبةً محمُودَةَ الأَثَرِ
وقلَّ منْ جدَّ في أمرٍ تطلَّبَهُ … واستصْحَبَ الصبرَ إلا فازَ بالظَّفَرِ

وقد رُويَ أنَّ الاشْتَرَ دَخَلَ على عليِّ بنِ أبي طالبٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - بعدَ هَدْأَةٍ مَن الليلِ وهُوَ قائمٌ يُصلِّي فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ صومٌ بالنهارِ وسَهَرٌ بالليلِ وتعبٌ فيما بين ذلكَ، فلما فرغَ من صلاتِه قالَ: سَفَرُ الآخرةِ طويلٌ فيُحْتاجُ إلى قطْعِه بسَيْرِ اللَّيْلِ.

وقالَ أَزْهَرُ بنُ ثابتٍ التَّغْلُبيُّ: «كان أَبي مِنَ القوَّامينَ للهِ في سوادِ الليلِ. قالَ: رأيتُ في منامِي امرأةً لا تُشبِهُ نساءَ الدُّنيا، فقلتُ: من أنْتِ؟ قالتْ: حوراءُ أمةُ الله. قلْتُ: زَوِّجيني نفسَكِ. قالتْ: اخطُبْني إلى سيِّدي؟ وأمْهِرْني. قلتُ: وما مَهْرُكِ؟ قالتْ: طولُ التَّهجُّدِ»[2].

كانتْ امرأةُ مسروقٍ بنِ عبدِالرحمنِ - رحِمَهُما اللهُ تعالى - تقولُ: «**واللهِ ما كان مسروقٌ يُصْبحُ من ليلةٍ منَ اللَّيالي إلا وساقَاهُ منتفِخَتَانِ من طولِ القيامِ، وكنتُ أَجلِسُ خَلفَهُ فأبكي رحمةً لهُ،**

---
(١) فتح الباري ج ٣ ص ٢٦.
(٢) مختصر قيام الليل ص ٩٠.

وكانَ - رحمهُ اللهُ - إذا طالَ عليهِ اللَّيْلُ وتعِبَ صلَّى جالسًا ولا يتركُ الصلاةَ وكانَ إذا فرغَ من صلاتهِ يزحفُ كما يزحفُ البعيرُ منْ الضَّعْفِ»[1].

إخواني: قامَ الصالحُونَ يرجُونَ الجنةَ وما فِيها مِنَ النعيمِ اللهمَّ اجعلْنا وإياكمْ من أهلِها.

عن عُتبةَ بنِ غزوانَ قالَ: «لقدْ ذُكِرَ لنا أنَّ ما بينَ المصراعَيْنِ في الجنةِ مسيرةُ أربعِينَ سنةً، وليأْتينَّ عليهِ يومٌ وإنهُ لَكَظِيظٌ منَ الزِّحامِ» رواهُ مسلمٌ وأحمدُ.

وعنْ عبدِالله بنِ سلام: «إنَّ ما بينَ المِصْراعَينِ في الجنَّةِ مَسيرةُ أربعينَ سنةً، يُزَاحَمُ عَلَيْهِ كازدحامِ الإبل وردَتْ لخمسٍ ظَمَا» رواهُ الطبرانيُّ[2].

يا لها من لحظاتٍ تَتَشَوَّقُ النفوسُ إليها.

إنهُ الزِّحامُ على الفرْدَوْسِ.. على الخُلْدِ.. على النعيم المقيم.. على دار السَّلامِ.. على ما لَا عينٌ رَأَتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ.. إنهُ الزِّحامُ على الرِّضوانِ الأَكْبَرِ، على سدْرةِ الْمُنْتَهَى.. على الفوزِ العظيم.. على السعادةِ الأبديَّةِ[3].

عبادَ اللهِ: إذا دخلَ أهلُ الجنةِ تلقَّتْهُم الملائكةُ ببشْرَى طيبةٍ لمْ يسمعوا بمثلِها قبلُ قطُّ. عن أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ - رضيَ الله

---

(١) رهبان الليل ج ١ ص ٣٤٢.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٢٧٣ برقم ١٦٩٨.

(٣) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ٨.

عنهُما - أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**إذا دخلَ أهلُ الجَنَّةِ الجنَّةَ يُنادِي مُنادٍ: إنَّ لكُمْ أنْ تَحيَوا فلا تمُوتُوا أبدًا، وإن لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً وإنَّ لكم أنْ تَشبُّوا فلاَ تهرموا أبداً وإن لكُمْ أن تنْعمُوا فلا تبأسوا أبدًّا**» رواهُ مسلمٌ.

اللهُ أكبرُ ما اجملَها مِنْ بُشْرَى، حياةٌ بلا موتٍ، صحةٌ بلا سقمٍ، شبابٌ بلا هرمٍ، نعيمٌ بلا بؤس.

إنهُ واللهِ العِزُّ الذي ما بعدَه عِزٌّ، طوبى لمنْ كانتْ تلكَ بُشراهُ وهنيئًا لمنْ كانتْ هذهِ أملُهُ وذاكَ منتهاهُ.

اللهمَّ إنَّا نسألُكَ الجنةَ وما قرَّبَ إليها منْ قولٍ أو عملٍ ونعوذُ بكَ منَ النارِ وما قربَ إليها منْ قولٍ أو عملٍ. اللهمَّ اغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ.

(١) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١٦.

الباب السابع والعشرون

الجنةُ... نعيمُها والطريقُ إليها

الحمدُ للهِ الذي جعلَ الجنةَ لمنْ أطاعَهُ، وإنْ كانَ عبدًا حبشيًّا، والنارَ لمنْ عصاهُ وإن كانَ حُرًّا قُرشيًّا، اختارَ مِنْ خلقهِ للجنةِ سكانًا واصطفاهُمْ، ومِنْ بينِ جميعِ الخلائقِ وهُمْ في أصلابِ آبائِهِمْ هيَّأَهُمْ لها واجتباهُمْ، ولا يظلِمُ رَبُّكَ أحدًا شيئًا، خلقَ جنةَ عدنٍ بيدهِ لَبِنَة ذهبٍ ولَبِنَةَ فضةٍ، مِلاطُها المسكُ الأذفرُ، وحصباؤُها اللؤلؤ والياقوتُ، وتُرابُها الزَّعْفرانُ، فقالَ لها: انطِقي فقالتْ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ۞ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۞ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[2].

أحمدُه سبحانَهُ بجميعِ محامِدِهِ التي لا يبلغُ المُحْصونُ لها تعدادًا، وأشكرُهُ على نِعمِهِ الوافرةِ وخيراتِهِ المتكاثِرةِ شُكرًا يليقُ بعظَمَتِهِ ومجدِهِ، سبحانَهُ هلْ تعلمُ لهُ سَمِيًّا، وأستزيدُهُ منْ فَضْلِهِ الواسعِ العميمِ ومِنْ عَطائهِ الجَزْلِ الكريمِ. وأصلي وأسلِّمُ على خيرِ خلقِهِ أجمعينَ، ومَنْ أرسلَهُ اللهُ رحمةً للعالمينَ صلاةً وسلامًا

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١.

(٢) سورة مريم، الآيات: ٦١-٦٣.

متلازِمَينِ ما تعاقبَ اللَّيْلُ والنَّهارُ، أرجُو بهما شفاعتَهُ، والورودَ على حوضِهِ معَ المتقينَ الأبرارِ، وعلى آلِهِ وأهلِ بيتِهِ الأطهارِ وصحابتِهِ الأخيارِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ: فحديثُنَا - أيها الأحبابُ الكرامُ في ذكرِ الجنَّةِ وأَوْصافِها وأهلِها، وما أعدّهُ اللهُ فيها لعبادِهِ المؤمنينَ من الكرامةِ والنُّزُلِ العظيم، أسألُ اللهَ العظيمَ ربَّ العرشِ الكريم أنْ يجعَلَنِي وإيَّاكُمْ ممنْ يُقَالُ لهمْ يومَ العرضِ الأكبر: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[1]. ولعلَّ الحديثَ عنها والتلَذُّذَ بذكرِها يكونُ حافزًا على الصدقِ في طلبِهَا والرغبةِ فيها، وتحقيقِ مرادِ الله منا ليحصلَ لنا فيها النعيمُ المقيمُ بجوارِ الرَّبِّ الكريمِ ونَنْعَمَ بالنظرِ إلى وجهِ اللهِ الكريم بُكْرةً وعشيًّا.

استمعْ يا أخي المسلمَ إلى قولِ اللهِ - عزَّ وجلَّ -: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾[2]، وقولِهِ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[3].

هلْ تعلمُ يا أخي المسلمَ ماذا في هذهِ الجنةِ مَن النعيم المقيم؟ مهما جالَ في خاطِرِكَ أو تردَّدَ في ذهنِكَ فاعلم أن في الجَنَّةِ ما هُوَ أَعْلى مِنْهُ وأتمَّ، وقدْ صرَّحَ بذلِكَ المصطفى ﷺ تصريحًا: عن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ**:

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٦.
(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

أَعْدَدْتُ لعبادِيَ الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سَمِعَتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، مصداقُ ذلك في كتابِ اللهِ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(١)]» رواه البخاريُّ ومسلم[(٢)].

ثمَّ اعلمْ وفقكَ اللهُ لطاعتِهِ ومرضاتِه أن الجنَّةَ منْ يدخلُها ينعمُ ولا يَبْأَسُ، ويخْلُدُ ولا يمُوتُ، لا تبْلى ثِيابُهُ ولا يفْنَى شبابهُ.

روى أبو هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ينادي مُنادٍ: إنَّ لَكُمْ أَن تَصِحُّوا فلا تسْقَمُوا أبدًا، وإنَّ لَكُمْ أن تحيُوا فلا تموتوا أبدًا، وإنَّ لَكُمْ أن تَشِبُّوا فلا تَهْرمُوا أبدًا، وإنَّ لَكُمْ أن تنعَمُوا فلا تَبئسوا أبدًا، فذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

ولعلَّ في ذهنكَ أيها الأخُ المسلمُ سُؤالاً: ما سَعَةُ الجنَّةِ؟ وهلْ هِيَ جَنَّةٌ واحدةٌ أَمْ جِنَانٌ كَثِيرةٌ؟ ويجيبكُ على سُوالِك الأولُ القرآنُ الكريمُ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾[(٥)]. وقال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[(٦)].

قالَ المُفسرِّونَ: العرضُ أقصرُ الامتدادَيْنِ، وفي ذكرِهِ دونَ ذِكْرِ

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) البخاري في التفسير ٨/ ٥١٥/ح ٤٧٧٩ وفي التوحيد ١٣/ ٤٦٥/ح ٨٤٩٨ ومسلم في كتاب الجنة ٤/ ٢١٧٤/ ح ٢٨٢٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٤) في كتاب الجنة ٤/ ٢١٨٢/ ح ٢٨٣٧.

(٥) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

الطولِ مبالغةٌ.

وروى السُّديُّ عنْ ابنِ عباسٍ أنهُ قالَ: «تُقرَنُ السمٰواتُ السبعُ والأَرضُونَ السَّبْعُ كما تُقرنُ الثِّيابُ بعضُها ببعضٍ فذاكَ عَرْضُ الجنةِ»[1]. فإذا كانَ عَرْضُها كذلِكَ فما بالُك بطولِها لا حرمنا اللهُ وإياكَ منها.

أما الشِّقُّ الثاني من السؤالِ وهوَ: هلْ هيَ جنةٌ واحدةٌ أمْ جنَّاتٌ كثيرةٌ؟ فيُجيبُكَ عليهِ الرسولُ ﷺ فقدْ أخرجَ البخاريُّ وغيرُهُ عنْ أنس أنَّ أمَّ حارِثَة أتتْ رسولَ اللهِ ﷺ وقَدْ هلكَ حارِثةُ يومَ بدرٍ، أَصابهُ سهمٌ غربٌ فقتلهُ، فقالتْ: يا رسولَ اللهِ قد علمتَ موقعَ حارِثةَ من قَلْبي، فإنْ كانَ في الجنةِ لم أَبْكِ عليهِ، وإلا سوفَ ترى ما أصنعُ فقالَ لها: «**هَبِلْتِ! أجنةٌ واحدةٌ هِي؟ إنها جِنانٌ كَثيرةٌ وإنهُ لفي جنَّةِ الفردوسِ**»[2].

أمَّا ريحُ الجنةِ فيوجدُ منْ مسيرةِ مائةِ عامٍ.

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾[3]. للمؤمنِ في الجنةِ خيمةٌ من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوفةٍ طولُها ستونَ ميلاً للمؤمنِ فِيها أَهْلونَ، يَطوفُ عليها المؤمنُ فلا يَرى بعضُهم بعضًا[4]، فيها شجرةٌ

---

(١) الألوسي: (٢/ ١٥٧).

(٢) البخاري: ١١/ ٤١٥ ح (١٥٥٠).

(٣) سورة محمد، الآية: ١٥.

(٤) هذا حديث أخرجه البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة، واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً**». وفي رواية: «**للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا**». أخرجه البخاري ٦/ ٣١٨ ح (٣٢٤٣) ومسلم ح (٢٨٣٨).

يسيرُ الراكبُ الجوادَ المضمَّرَ السريعَ مائةَ عامٍ ما يقطعُها[1] تُرابُها المِسكُ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[2].

وروىٰ أَنسُ بنُ مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: **«إنَّ في الجنَّةِ لَسُوقًا يأتونها كلَّ جُمُعَةٍ فتَهُبُّ ريحُ الشِّمالِ فتَحْثُوا في وجوهِهِمْ وثيابهِمْ فيزدادُونَ حُسْنًا وجمالاً فيرجعونَ إلى أهلهِمْ وقدْ ازدَادوُا حُسْنًا وجمالاً، فيقولُ لهمْ أَهْلوهُمْ: واللهِ لَقَدْ ازددتمْ بعدَنا حسنًا وجمالاً فيقولونَ وأنتمْ واللهِ لَقَدْ ازددتمْ بعدنا حُسْنًا وجمالاً»** رواهُ مسلمٌ[3].

وروىٰ أنسٌ أيضًا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: **«لوْ اطَّلعَتْ امرأةٌ منْ نساءِ أهلِ الجنَّةِ إلى الأرْضِ لأضاءتْ الدُّنيا، ولملأتْ ما بينهما ريحًا، ولَنَصِيفُها على رأسها خيرٌ من الدنيا وما فيها»** أخرجهُ الترمذيُّ وقالَ: هذا حديثٌ صحيحٌ[4].

ولأبي سعيدٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - في هذا المعنى عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: **«لِلرجلِ منْ أهْلِ الجنَّةِ زوجَتَانِ منْ حورِ العينِ على كلِ واحدةٍ سبعونَ حُلةً يُرى مخُّ ساقِها منْ وراءِ الثيابِ»**[5].

أما جنَّةُ عْدنٍ فَروىٰ الطبَرَانيُّ والتِّرمذيُّ وأحمدُ وغيرُهمْ منْ

---

(١) هذا حديث أخرجه البخاري ومسلم عن سهل بن سعد وأبي سعيد، انظرُ البخاري ١١/ ٤١٥ ح (٦٥٥٢)، (٦٥٥٣)، ومسلم ح (٢٨٢٧)، (٢٨٢٨).

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٧١.

(٣) مسلم (٢٨٣٣).

(٤) الترمذي ٤/ ١٨١ ح (١٦٥١). وأصله في الصحيح.

(٥) الترمذي ٤/ ٦٧٧ ح (٢٥٣٥) وقال حسن، وأخرج الشيخان نحوه من حديث أبي هريرة، انظر: البخاري ٦/ ٣٢٠ ح (٣٢٥٤) ومسلم ح (٢٨٣٤).

حديث أَبي هريرَةَ: «أنَّ اللهَ تعالى خلقَها بيدهِ لَبنةً من درَّةٍ بيضاءَ، ولَبنةً منْ ياقُوتَةٍ حَمراءَ، ولَبِنةً منْ زَبَرْجَدَةٍ خضراءَ، وملاطُها المسكُ، وحشيشُها الزَّعْفَرانُ، حَصْباؤُهَا اللُّؤْلؤُ وترابُها العنبرُ»[1].

حدَّث عُبادةُ بنُ الصامتِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «الجنةُ مائةُ دَرجةٍ ما بينَ كلِ درجتينِ مسيرَةُ مائةِ عامٍ والفردوسُ أعلى درجةٍ، ومنها تخرجُ أنهارُ الجنةِ الأربعةُ، والعرشُ منْ فوقِها وإذا سألتمُ اللهَ تباركَ وتعالى فاسأَلُوهُ الفردوسَ» أخرجهُ الترمذيُّ[2].

وأخرجَ الشيخانِ وغيرُهُما عنْ أبي موسى الأشعريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «جَنَّتَانِ مِنْ ذهبٍ آنيتُهُما وَمَا فِيهِمَا، وجَنَّتَان من فضَّةٍ آنيتُهما وما فيهما، وليسَ بينَ القومِ وبينَ أنْ يَنظُروا إلى رَبِّهم عزَّ وجلَّ إلا رداءُ الكِبْرِيَاءِ على وَجْهِهِ في جَنَّةِ عدنٍ» متفقٌ عليه. زادَ الترمذيُّ: «وهذهِ الأنهارُ تشخُبُ مِنْ جَنَّةِ عدْنٍ، ثمَّ تصدّعُ بعدَ ذلكَ أنهارًا»[3].

ولكَ يا أخِي أنْ تتصورَ أنَّ كلَ ما يَجُولُ بخاطرِ العبدِ المؤْمنِ في الجنَّةِ حاصلٌ له.

روىٰ أبو هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ يومًا وهوَ يحدِّثُ وعِنْدَهُ رجلٌ منْ أهلِ الباديةِ: «أنَّ رجلًا من أهلِ الجنةِ استأذنَ ربَّهَ عزَّ وجلَّ في الزَّرْعِ فقالَ لهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ ألستَ فيما شئتَ؟ قالَ:

---

(١) الترمذي ٤/ ٦٧٢ ح (٢٥٢٦).

(٢) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٧٥ ح (٢٥٣١).

(٣) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٢٣ ح (٧٤٤٤) ومسلم (١٨٠)، والترمذي ٤/ ٦٧٣ ح (٢٥٢٨).

بلى ولكني أُحِبُّ أن أَزْرَع. قالَ: فَبَذَرَ فَبادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُه واستِواؤُه واستحصادُه، فكانَ أمثالَ الجبالِ. قال: فيقولُ لهُ ربُّهُ عزَّ وجلَّ: دونكَ يا ابنَ آدمَ فإنهُ لا يُشْبِعُكَ شيءٌ». قالَ: فقالَ الأعرابيُّ: واللهِ لا تجدهُ إلاَّ قُرَشيًّا أو أنصاريًّا فإنهمْ أصحابُ زرعٍ وأما نحنُ فلسنا بأصحابِهِ. قالَ: فضحكَ رسولُ اللهِ ﷺ، رواهُ البُخاريُّ[1].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن نَبِيَّ اللهِ ﷺ قالَ: «إذا اشْتَهى المؤمِنُ الولدَ في الجنَّةِ كانَ حَمْلُه ووضعُهُ وسِنُّهُ في ساعةٍ واحدةٍ كما يشتهي» أخرجهُ أحمد والترمذيُ وحسنه[2].

وإنَّ أهْلَ الجنةِ في حبورِهم ونعيمِهم عندَ الملكِ الخلاقِ ينعمونَ بكلامِهِ وَيُلْهَمونَ التسبِيحَ كما تُلْهَمُوَن النَّفَسَ قدْ حلَّ عليهمْ رضوانُ اللهِ تعالى فلا يسخطُ عليهمْ أبدًا. أخرجَ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنةِ: يا أهلَ الجنةِ، فيقولونَ: لبَّيكَ ربنا وسعدَيكَ، فيقولُ: هلْ رضِيتُمْ؟ فيقولونَ: وما لنا لا نَرْضَى؟ وقد أعطيتَنا ما لمْ تُعْطِ أحدًا منْ خلقِكَ؟ فيقولُ: أنا أُعطِيكُمْ أفضلَ منْ ذلكَ. قالوا: يا ربنا فأيُّ شيءٍ أفضلَ منْ ذلِكَ؟ قال: أُحلُّ عليكُم رِضْوانِي فلا أسخْطُ عليكم بعدَهُ أبدًا»[3].

ويُذْبحُ الموتُ عَلَى الصراطِ فيزدادُ فرحُهُمْ وحبورُهم. عنْ ابنِ

---

(1) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٨٧ ح (٧٥١٩).

(2) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٩٥ ح (٢٥٦٣) وقال حسن غريب وأخرجه أحمد وغيره.

(3) أخرجه البخاري ١٣/ ٤٨٧ ح (٧٥١٨) ومسلم ح (٢٨٢٩).

عمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهما - قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إذا صارَ أهلُ الجنةِ إلى الجنَّةِ وأهلُ النارِ إلى النارِ جيءَ بالْمَوْتِ حتى يُجعلَ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، ثم يُذبحُ ثم يُنادي منادٍ يا أهلَ الجنَّةِ لا موتُ، يا أهلَ النَّارِ لا موتٌ، فيزدادُ أهلُ الجنَّةِ فرحًا إلى فَرَحِهم، ويزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزْنِهم**» متفقٌ عليه[1].

وفَوق ذلكَ كلِّه يتنعمُونَ بالنَّظرِ إلى وَجْهِ رَبِّهم سُبحانَهُ.

روىٰ صهيبٌ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنه قالَ: «**إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ نُودوا يا أهلَ الجنةِ تريدونَ شيْئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألمْ تبيِّضْ وجُوهَنا، وتُزَحْزِحْنا عنِ النَّارِ، وتُدْخِلْنا الجنَّةَ؟ قالَ: فيكشفُ الحجابَ، فما أُعْطُوا شيئًا أحبَّ إليهمْ من النَّظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ، ثمَّ تَلَا رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2]**»[3].

كلُّ هذا النعيمِ يا أخي المسلمَ في الجنَّةِ التي وعدَكَ اللهُ بها إنْ صدقتَ الطلبَ وأتممتَ البيعةَ معَ اللهِ ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[4]. لعمرُ اللهِ إنَّ الذي يُفرِّط في هذا النعيم المقيم لهوَ المغبونُ مهما كان الثمنُ فما بالك والثمنُ ليَس فيهِ عَنَتٌ ولا مشَقةٌ.

روىٰ البخاريُّ عنْ أنس - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عنْ النبيِّ ﷺ قالَ: «**يقولُ اللهُ تعالى لِأهونِ أهلِ النَّارِ عذابًا يومَ القيامة: لوْ أنَّ لكَ ما في**

---

(١) أخرجه البخاري ١١/ ٤١٥ ح (٦٥٤٨) ومسلم ح (٢٨٥٠).

(٢) سورة يونس، الآية: ٢٦.

(٣) أخرجه مسلم ح (١٨١).

(٤) سورة التوبة، الآية: ١١١.

الأَرْضِ منْ شيءٍ أكنتَ تفتدِي بهِ؟ فيقولُ: نعمْ. فيقولُ: أردتُ منكَ أهونَ منْ هَذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ أَن لا تشركَ بي شيئًا فأبيتَ إلاَّ أنْ تشركَ بي»[1].

هذهِ الجَنَّةُ وهذا نعيمُها من الداخلِ، أمَّا من الخارجِ فإنَّ لها ثمانيةَ أَبَوابٍ كما صحَّ ذلكَ عِن الرسولِ ﷺ منها بابٌ اسمهُ الريانُ لا يدخلُهُ إلا الصائمون، وأولُ منْ يستفتحُ بابَ الجنَّةِ هو نبيُّنا ﷺ.

فعنْ أَنَس بنِ مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسول ﷺ الله: **«آتِي بابَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ فأستفتحُ فيقولُ الخازِنُ: منْ أنتَ؟ فأقولُ: محمدٌ، فيقولُ بكَ أُمِرتُ لا أَفْتَحُ لأحدٍ قَبْلَكَ»**[2].

أما الزمْرةُ الأولى الذينَ يَدْخُلونَ الجنَّةَ فقدْ وصفَهم لكَ رسولُ الله ﷺ حتى كأنكَ تراهم فقالَ في حديثِ أبي هريرةَ المتفَقِ عليهِ: **«إنَّ أولَ زُمْرَةٍ يدْخُلوَن الجنَّةَ على صورةِ القَمرِ ليلة البدْرِ، والذينَ يَلونَهم على أشدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ في السماءِ إضاءةً، لا يَبُولونَ، ولا يتغوطُونَ، ولا يتمخَّطُونَ، ولا يَتْفُلونَ، أمشاطُهم الذَّهبُ، ورشحهُمُ المسكُ، ومجامِرُهم الأَلوَّةُ وأزواجُهمْ الحورُ العينُ، أخلاقُهم على خُلُقِ رجلٍ واحدٍ على صورةِ أبيهم آدمَ ستونَ ذراعًا في السماءِ»**[3].

وفي حديثِ أبي هريرةَ عندَ مسلمٍ وغيرِهِ: عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ:

---

(١) أخرجه البخاري ١١/ ٤١٦ ح (٦٥٥٧).

(٢) أخرجه مسلم ح (١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري ٦/٣١٨ ح (٣٢٤٥) ومسلم ح (٢٨٣٤).

«**يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئِدَتُهم مثلُ أفئـدةِ الطـيرِ**»[1] .

ولعلكَ تسألُ إذا كانَ أهلُ الجنةِ يأكلونَ ويشربونَ ، ألاَ حاجةَ لهمْ إلى الاستفراغ؟ فيُجيبُكَ الرسولُ ﷺ كما في حديثِ جابرٍ عندَ مسلم وغيرِه : «**إنَّ أهلَ الجنةِ يأكلونَ فيها ، ويشربونَ ، ولا يتفُلُونَ ، ولا يبولونَ ، ولا يتغوَّطُونَ ، ولا يتمخَّطُونَ**. قالوا : فما بالُ الطَّعام؟ قالَ : **جُشاءٌ ورشحٌ كرشحِ المسكِ يُلهمُونَ التَّسْبيحَ والتحميدَ كما تلهمونَ النَفَسَ**»[2] .

وأَعْلَى أهلِ الجنَّةِ منزلةً همْ أهلُ الغُرَفِ ، فما منزلتُهمْ؟ ومنْ يكونونَ؟

روىٰ أبو سعيدٍ الخدريِّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : «**إنَّ أهلَ الجنَّةِ ليتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كما تتراءونَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغابرَ في الأُفقِ من المَشْرِقِ أو المَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ ما بيْنَهمْ** ، قالوا : يا رسولَ اللهِ تلك منازلُ الأنْبياءِ لا يبلغُها غيرُهُم؟ قالَ : **بلى والذي نفسي بيدِه رجالٌ آمنوا باللهِ وصدَّقوا المرسلينَ**» أخرجهُ مسلمٌ[3] .

أَمَّا أَدْنَى أهلِ الجنةِ منزلةً فذاكَ الرَّجُلُ الذي حَكَى قِصَّتَهُ رسولُ اللهِ ﷺ في حديثِ ابن مسعودٍ عندَ مسلمٍ وغيرِه : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : **آخِرُ من يدخلُ الجنَّةَ رجلٌ ، فهو يمشِي مرةً ويَكْبُو مرةً ، وتَسْفَعُهُ النار مرةً ، فإذا ما جاوزَها التفتَ إِلَيْها ، فقالَ : تباركَ الذي نجَّاني منكِ ،**

---

(١) أخرجه مسلم ح (٢٨٤٠).

(٢) أخرجه مسلم ح (٢٨٣٥).

(٣) أخرجه مسلم ح (٢٨٣١).

لقدْ أَعْطانِي اللهُ شيئًا ما أعطاهُ أحدًا منَ الأولينَ والآخِرينَ، فَتُرفَعُ لهُ شَجَرةٌ فيقولُ: أيْ ربِّ أَدْنِني مِنْ هذهِ الشجرَةِ فلأستظلَّ بظلها، وأشَربَ مِنْ مائها، فيقولُ اللهُ - عزَّ وجلَّ -: يا ابنَ آدمَ لَعَلِّي إنْ اعطيتُكَها سَألْتَنِي غيرَها فيقولُ: لا يا ربِّ! ويُعَاهِدُه أَن لَّا يَسْأَلَهُ غَيْرَها وربُّه يعذُرهُ لِأَنَّه يرَى مَا لَا صَبْرَ لهُ عليهِ، فَيُدْنِيهِ منِها، فيستظلُّ بظلِّها، ويشربُ منْ مائِها، ثمَّ تُرفعُ لهُ شجرةٌ هَي أحسنُ منَ الأُولَى فيقولُ: أيْ ربِّ ادْنِنِي منْ هذهِ لأَشربَ منْ مائِها وأستظلَّ بظلِّهَا، لا أَسْأَلُكَ غيرَها. فيقولُ: يا ابنَ آدمَ أَلمْ تعاهِدْنِي أن لَّا تسأَلَني غيرَها، فيقولُ: لَعَلِّي إنْ أَدْنيتُكَ منها تسأَلُني غيرَها فيعاهدُه أن لَّا يسأَلَهُ غيرَها وربُّهُ يَعذُرُهُ لأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لهُ عليهِ فيدْنِيه منها فيستظلُّ بظلِّها ويشرَب من مائِها، ثمَّ تُرفَعُ لهُ شَجَرةٌ عِندَ بابِ الجنَّةِ هِيَ أحسنُ من الأُولَيَيْنِ فيقولُ: أيْ ربِّ أدْنِنِي منْ هذهِ لأَستظِلَّ بظلِّهَا وأشربَ مِنْ مائِها لا أسألُكَ غيرَها. فيقولُ: يا ابنَ آدمَ ألمْ تُعَاهِدْنِي أن لَّا تسأَلَني غيرَها. قالَ: بلى يا ربِّ هذهِ لا أسأَلُكَ غيرَها وربُّه يعذُرُهُ لِأنَّه يَرَى مَا لَا صَبْرَ لهُ عَلَيْهِ فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فإِذَ أَدْنَاهُ منها فيسَمعُ أصواتَ أهلِ الجنةِ، فيقُولُ: أيْ رب أَدْخِلْنِيها. فيقُولُ: يا ابنَ آدمَ ما يَصْرِيني منك - أيْ: ما يَقْطَعُ مسألتَكَ منيِّ - أيُرضِيكَ أنْ أُعطِيَكَ الدنيا ومثلَها معَها. قالَ: يا ربِّ أتستهزِىءُ مني وأنتَ ربُّ العالَمِينَ. فضحكَ ابنُ مسعودٍ فقالَ ألا تسأَلُوني مِمَّ أضحكُ؟ فقالوا: ممَّ تضحكُ؟ قالَ: هكذا ضَحِكَ رسولُ اللهِ ﷺ، فقالوا: مِمَّ تضحكُ يا رسولَ الله؟

قال: مِنْ ضحِك ربِّ العالمينَ حينَ قالَ أتستهزىءُ منِّي وأنت ربُّ العَالَمِينَ؟ فيقولُ: إني لا أستهزِىءُ منكَ، ولكنيِّ على ما أشاءُ قادِرٌ»[1].

زاد أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ عندَ مُسْلِم: «ويُذكِّرُه اللهُ سَلْ كذَا وكذَا، فإذا انقطَعتْ بِه الأمانِيُّ قالَ اللهُ: هوَ لَكَ وعشرةُ أَمْثَالِهِ، قالَ: ثمَّ يَدْخُلُ بيتَهُ فَتَدْخُلُ عليهِ زَوْجَتَاه مِنَ الحورِ العينِ فتقولانِ: الحمدُ للهِ الذي أحياكَ لنا وأحيانا لكَ قال: فيقولُ: ما أُعْطِيَ أَحدٌ مثلَ ما أُعْطيتُ»[2].

وروىٰ مسلمٌ عنْ المُغِيرةِ بنِ شُعْبَة رَفعَهُ قالَ: «سألَ موسى ربَّه ما أَدْنَى أهل الجنَّةِ مَنْزِلَةً. قالَ: هو رجلٌ يجيءُ بعدَما أُدخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَةَ، فيُقالُ لهَ: أُدْخُلِ الجنَّةَ فيقولُ: أيْ ربِّ كيفَ أَدْخُلُها وقدْ نزلَ الناسُ منازِلَهمْ وأَخَذُوا أَخَذَاتِهم فيُقالُ لهُ: أترضَى أنْ يكونَ لكَ مثلُ مُلْك مَلِكٍ منْ ملوكِ الدُّنْيا؟ فيقولُ: رضيتُ ربِّ. فيَقُولُ: لك ذلكَ ومثلُهُ ومثلُهُ، ومثلُهُ ومثلُهُ فقالَ في الخامسةِ: رضيتُ ربِّ، فيقولُ: هذا لكَ وعشرةُ أمثالِهِ. ولك ما اشتهتْ نَفْسُكَ، ولذَّتْ عينُكَ. فيقولُ: رضيتُ ربِّ. قالَ: رَبِّ فأعلاهمْ منزلةً، فقالَ: أولئكَ الذينَ أردتُ غرستُ كرامتَهُم بيدي وختمتُ عليها فلمْ ترَ عينٌ ولم تسمعْ أذنٌ، ولم يخطُرْ على قلبِ بشرٍ»[3].

إخواني: أرأَيُتمْ حالَ أَدْنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً، إنهُ نعيمٌ عظيمٌ فما

(١) هذا الحديث بطوله في مسلم رقم (١٨٧) في الإيمان.
(٢) أخرجه مسلم ح (١٨٨).
(٣) أخرجه مسلم ح (١٨٩).

بالكمْ بأعلاهُمْ إنَّها واللهِ لفرصةٌ عظيمةٌ للرَّاغِبينَ دخولَها لا سِيَّما في هذا الشهرِ الكريمِ الذي يتفضلُ اللهُ على عبادِه فيعتِقَهُمْ مَن النَّارِ ويُدْخِلَهم الجنَّاتِ، فلْنحرصْ يا إخواني على أداءِ الصلواتِ المكتوُباتِ في أوقاتِها معَ الجماعةِ، ولْنَحفظْ صِيامَنا من اللَّغوِ والرَّفَثِ، ولْنُؤَدِّ زكاةَ أموالِنا طيِّبةً بها نفوسُنا لمستَحِقِّيها مِنَ المسلمينَ، ولْيَحُجَّ المسلمُ فريضةَ اللهِ المكتوبةَ عليهِ مرة في العمرِ، ولْنأمرْ بالمعروفِ ولْننهَ عن المنكرِ قدرَ طاقتِنا ولنَبُرَّ والدِينا، ولْنصِلْ أرحامَنا، ولْنُحِلَّ الحلالَ، ولْنُحَرِّمْ الحرامَ، ولْنحافظْ على بيوتنا ونحفظْها منْ كلِّ ما يغضبُ اللهَ تعالى، وليغضَّ المسلمُ طَرْفَه عنْ محارِم اللهِ، ويعوِّدْ لسانَه كثرةَ ذكرِ اللهِ، ولْتحرصِ المسلمةُ على الإلتزامِ بحجَابِها الذي شرعَهُ اللهُ، وبطاعةِ ربها، وبالاشتغالِ بذكرِه عنْ أعراضِ المسلمينَ والمسلماتِ، ولْتُطِعْ زوجَها، ولْتحرصْ على تربيةِ اولادِها، وحثِّهِمْ على طاعةِ اللهِ والصلاةِ معَ جماعةِ المسلمينَ. عسى أنْ تكوُنُوا من المفلحينَ الفائزينَ في هذه الجنانِ الكثيراتِ، واعقدوا العزمَ على دخولها، ومهما كانَ الثمنُ فادْفَعُوه لعلكمْ تَنعمونَ بجوارِ رَبِّكم الكريمِ، وهذا داعي اللهِ يدعوكمْ إلى جنةٍ عرضُها السمٰواتُ والأرْضُ فأجيبوُه.

وما ذاكَ إلاَّ غيرةٌ أنْ ينالَها ... سوى كُفْوِها والربُّ بالخلقِ أعلمُ
وإنْ حُجِبَتْ عنَّا بكلِّ كريهةٍ ... وحُفَّتْ بما يؤذي النفوسَ ويؤلمُ
فلِلَّهِ ما في حَشْوِها من مسرةٍ ... وأصنافِ لذاتٍ بها يُتَنَعَّمُ

ولله بـردُ العيـشِ بيـنَ خيـامِهـا وروضاتِها والثغرُ في الروضِ يَبْسُمُ

ولله واديها الذي هو موعدُ المـ ـزيدِ لوفدِ الحبِ لو كنتَ منهمُ

بِـذَيَّالِـكَ الـوادي يهيـمُ صبابـةً محـبٌ يـرى أن الصبابـةَ مغنـمُ

ولله أفـراحُ المحبيـنَ عنـدمـا يخاطبهُـمْ مِنْ فـوقِهـمْ ويُسَلِّـمُ

ولله أبصـارٌ تـرى اللهَ جهـرةً فلا الضيمُ يغشاها ولا هيَ تسأمُ

فيا نَظرةً أهدتْ إلى الوجهِ نُضْرَةً أمِنْ بعدِها يسلو المحبُّ المتيمُ؟

ولله كـمْ مـنْ خَيْـرَةٍ إنْ تبسمَـتْ أضاءَ لها نورٌ منْ الفجرِ أعظمُ

فيا لذَّةَ الأبصارِ إنْ هيَ أقبلتْ ويـا لـذَّةَ الأسمـاعِ حيـنَ تكَلَّـمُ

ويا خجلَةَ الغصنِ الرطيبِ إذا انثنتْ ويا خجلَة الفجرينِ حينَ تَبَسَّمُ

فإن كنتَ ذَا قلبٍ عليلٍ بحبها فلم يبقَ إلا وصلُها لكَ مرهمُ

يَراها إذا أبدتْ لهُ حُسنَ وجهِها يلـذُّ بـهِ قبـلَ الـوصـالِ وينعـمُ

تَفَكَّهُ فيها العينُ عندَ اجتلائِها فواكِهَ شَتَّى طلعُها ليسَ يُعدمُ

عنـاقيـدُ مـن كَـرْمٍ وتُفَّـاحِ جنـةٍ ورُمَّانِ أغصانٍ بهِ القلبُ مُغرمُ

وللوردِ ما قدْ أَلبستْهُ خدُودُها ولْلِخَمْرِ ما قد ضمَّهُ الريقُ والفمُ

تقسَّمَ منها الحسنُ في جمعِ واحدٍ فيـا عجبًـا مـنْ واحـدٍ يتقسـمُ

لها فِرَقٌ شتَّى من الحسنِ أجمعتْ بجملتِهَـا أنَّ السُلُـوَّ محـرَّمُ

تُذكِّرُ بالرحمنِ منْ هُوَ ناظرٌ فينطـقُ بـالتَّسبيـحِ لا يتلعْثَـمُ

إذا قابلتْ جيشَ الهمومِ بوجهِهَا تولَّى على أعقابِهِ الجيشُ يهُزَمُ

فيا خاطِبَ الحسناءِ إن كنتَ راغبًا فهـذَا زمـانُ المهـرِ فَهْـوَ المقـدَّمُ

ولما جرى ماءُ الشبابِ بغُصْنِها تيقَّـنَ حقًّـا أنـهُ ليـسَ يَهـرمُ

وكنْ مبغضًا للخائناتِ لِحُبِّهَا | فَتَحْظَى بها مِن دونِهنَّ وتَنعمُ
وكنْ أيِّمًا ممنْ سواها فإنها | لمثلكَ في جناتِ عدنٍ تأيَّمُ
وصمْ يومكَ الأدنى لعلكَ في غدٍ | تفوزُ بعيدِ الفطرِ والناسُ صُوَّمُ
وأقدمْ ولا تقنعْ بعيشٍ مُنْغَصٍ | فما فازَ باللَّذاتِ منْ ليسَ يُقْدِمُ
وإن ضاقتِ الدنيا عليكَ بأسرِها | ولم يكُ فيها منزلٌ لكَ يُعلمُ
فَحَيَّ على جناتِ عدنٍ فإنها | منازلُكَ الأُولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سبيُ العدوِّ فهل تَرى | نعودُ إلى أوطاننا ونُسَلَّمُ
وقدْ زعموا أنَّ الغريبَ إذا نَأى | وشطَّتْ به أوطانُهُ فَهْوَ مُغْرَمُ
فأيُ اغترابٍ فوق غربَتِنا التي | لها أَضحتِ الأعداءُ فينَا تَحَكَّمُ
وحيَّ على السوقِ الذي فيهِ يلتقي الـ | ـمُحِبُّونَ ذاكَ السوقُ لِلْقَومِ يُعلمُ
فما شئتَ خذْ منهُ بلا ثمنٍ لهُ | فقدْ أسلفَ التجارُ فيهِ وأَسلمُوا
وحيَّ على يومِ المزيدِ الذي بهِ | زيارةُ ربِّ العرشِ فاليومُ موسمُ
وحيَّ على وادٍ هنالكَ أفيحٍ | وتُربتُهُ من إذخرِ المسكِ أعظمُ
منابرُ منْ نورٍ هناكَ وفضةٍ | ومنْ خالصِ العقيانِ لا يتقصَّمُ
وكُثبانُ مسكٍ قد جُعلنَ مَقاعدًا | لمنْ دونَ أصحابِ المنابرِ يعلمُ
فبينا هُمو في عَيْشهمْ وسرورهمْ | وأرزاقُهمْ تُجرَىٰ عليهِمْ وتُقْسَمُ
إذا همْ بنورٍ ساطعٍ أشرقتْ لهُ | بأقطارِها الجنَّاتُ لا يُتَوَهَّمُ
تجلَّى لهمْ ربُّ السمٰواتِ جَهْرةً | فيضَحكُ فوقَ العرشِ ثم يُكلِّمُ
«سلامٌ عليكمْ» يسمعونَ جميعُهمْ | بآذانِهمْ تسليمَهُ إذ يُسلِّمُ
يقولُ: سَلُوني ما اشتهيتمْ فكلُّ ما | تريدونَ عندي إنَّني أَنا أرْحمُ

فقالوا جميعًا نحنُ نسألكُ الرضا فأنت الذِي تُؤتي الجميلَ وتَرحمُ
فيَا بائعًـــا هـــذا ببخس معجَّـلٍ كأنكَ لا تدري بَلَى سوفَ تعلمُ
فإنْ كنتَ لا تدري فتلْكَ مصـيبةٌ وإن كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ

اللهمَّ اجعلْ الجَنَّةَ لنا مستقرًّا ومُقامًا، ولا تحرمنا فضلكَ بسوءِ أعمالِنا.

اللهمَّ اجعلْ محمدًا ﷺ شافعًا لنا وإمامًا، واسقِنا من حوضهِ واحشرنا في زمرتِهِ.

اللهمَّ إنا نعوذُ بكَ منَ الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطنَ.

اللهمَّ اجعلنا هداةً مُهتدينَ صالحينَ مُصلحينَ.

اللهمَّ يسرْ لنا أمورَنا واستُرْ عُيوبَنا وأَصلحْ فسادَ قُلوبنا.

ربنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخِرةِ حسنةً وقِنا عذابَ النارِ. واغفرْ اللهمَّ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ برحمتكَ يا أرحمَ الراحمينَ.

وصلى اللهُ وسلم على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجمعينَ.

فصلٌ في قيام الليل

الحمدُ للهِ الذي خلقَ كلَ شيءٍ فقدَّرهُ، وعَلِمَ موردَ كلِّ مخلوقٍ ومصدرَهُ، وأثبتَ في أم الكتابِ ما أرادهُ وسطَّرَهُ، فلا مؤخرَ لما قدَّمَهُ ولا مقدِّمَ لما أخَّرهُ وأشهدُ أن لا إلٰه إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ الذي أوضحَ بهِ سبيلَ الهدايةِ ونوّرَهُ، صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه الكرامِ البررةِ.

عبادَ اللهِ:

قالَ تعالى: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾(١).

وكانَ ابنُ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهما - يُحْيِي الليلَ صلاةً ثمَّ يقولُ: يا نافعُ هلْ أسحرْنَا؟ فيقولُ: لا، فيعاودُ الصلاةَ، فإذا قالَ نعمْ، قعدَ يستغفرُ ويدعوُ حتى يُصبحَ.

قال القرْطبيُّ - رحمهُ اللهُ - واختُلِفَ في معنى قوله: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ فقالَ أنسُ بنُ مالكٍ: همُ السائِلونَ المغفرةَ. وقالَ قتادةُ: المصلُّونَ.

ثـمَّ قـالَ القـرْطبيُّ الاستغفـار منـدوبٌ إليـهِ، وقـدْ أثنى اللهُ على المستغفرينَ في هذهِ الآية وغيرِها فقالَ: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ١٨.

وعنْ شدَّادِ بنِ أوس عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**سيِّدُ الاستغفارِ أنْ تقولَ اللهمَّ أنتَ ربِّي لا إلٰه إلَّا أنتَ، خلَقْتَنِي وأنَا عبدُك، وأنَا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِ ما صنعتُ، أَبوُءُ لكَ بنعمتِك عليَّ، وأبوءُ لكَ بذَنْبِي فاغفرْ لي فإنَّهُ لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنتَ - قالَ - ومنْ قالَها مِنَ النَّهارِ مُوقنًا بِهَا فماتَ من يومِهِ قبل أنْ يُمسِي فهُوَ منْ أهلِ الجنةِ ومَنْ قالَهَا من اللَّيلِ وهُوَ مُوقنٌ بها فمَاتَ منْ لَيْلِه قبلَ أن يُصبحَ فهُوَ من أهلِ الجنةِ**» رواهُ البخاريُّ والنسائيُّ وأحمدُ.

عبادَ اللهِ: أكثروا من الدعاءِ فإنَّ ربكم يحبُّ ذلكَ منكمْ.

قالَ الحافظُ ابنُ حجرِ العسقلانيُّ في شرحِهِ لصحيح البخاريِّ: «إنَّ آخرَ الليلِ أفضلُ للدعاءِ والاستغفارِ ويشهدُ لهُ قَولُهُ تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وإنَّ الدعاءَ في ذلك الوقتِ مجابٌ، ولا يُعترضُ على ذلكَ بتخلُّفِهِ عن بعضِ الداعِينَ لأنَّ سببَ التخلُّفِ وقُوعُ الخللِ في شرطٍ من شروطِ الدعاءِ كعدم الاحترازِ في المَطْعَمِ والمْشَربِ والملْبَس أَو الاستْعجالِ أو بأنْ يكونَ الدعاءُ بإثمٍ أو قطيعةِ رحمٍ، أو تحصلُ الإِجابةُ ويتأخرُ وجودُ المطلوبِ لمصلحةِ العبدِ أو لأمرٍ يريدُهُ اللهُ».

وعن داودَ الطائِيِّ أنهُ قالَ: «إنما الليلُ والنهارُ مراحلُ ينزلُ الناسُ مرحلةً مرحلةً حتى ينتهي بهم ذلكَ إلى آخرِ سفرِهم، فإنِ استطعتَ أنْ تقدِّمَ في كلِّ مرحلةٍ زادًا لما بيَن يديها فافعلْ، فإنَّ انقطاعَ السَّفرِ قريبٌ والأَمرُ أَعجلُ من ذلكَ فتزَّودْ لسفرِكَ، واقضِ ما أنتَ قاضٍ من

أمرِكَ فكأنَّكَ بالأمرِ قدْ بغتكَ»[1].

عبادَ اللهِ: انتبهوا لآخرتِكم ولا تصرِفُوا جُلَّ وقتِكم لدُنياكم فإنَّكمْ خُلقتمْ للعبادةِ.

قالَ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].

وفي الحديثِ عنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ اللهَ يبغضُ كلَّ جَعْظَرِيٍّ جوّاظٍ سخّابٍ في الأسواقِ جيفةٍ بالليلِ، حمَّارٍ بالنَّهارِ، عالمٍ بأمرِ الدُّنيا، جاهلٍ بأمرِ الآخرةِ**»[3] رواهُ البيهقيُّ وصححهُ الألبانيُّ.

بكى الباكُونَ للرحمنِ ليلاً ... وباتوا سُجَّدًا لا يَسْأَمُونا
بقاعُ الأرْضِ مِنْ شوقٍ إليهمْ ... تحنُّ مَتَى عَلَيْهَا يَسْجدونَا

عنْ أنس بنِ مالكٍ قالَ: «**دخلتُ على رسولِ اللهِ ﷺ وهوَ مضطجعٌ على سريرٍ مُرملٍ بشريطٍ[4] وتحتَ رأسِهِ وسادةٌ منْ أَدَمٍ حشوُها لِيفٌ فدخلَ عليهِ نفرٌ مِنْ أصحابِهِ، ودخلَ عُمرُ فانحرفَ رسولُ اللهِ ﷺ انحرافةً فلمْ يرَ عمرُ بينَ جَنْبِهِ وبينَ الشَّريطِ ثَوْبًا، وقدْ أثَّرَ الشريطُ بجنبِ رسولِ اللهِ ﷺ فبكى عمرُ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «ما يُبْكيك يا عمرُ؟» قالَ: واللهِ إلا أنْ أكونَ أعلمُ إنكَ أكرمُ على اللهِ عزَّ وجلَّ مِنْ كِسْرى وقَيْصَرَ وهما يعبثانِ في الدنيا فيما يَعْبثَان، وأنتَ يا رسولَ اللهِ بالمكانِ الذِي أَرى، فقالَ النبيُّ ﷺ: «أمَا تَرْضَى أنْ تكونَ لهمُ الدنيا**

(١) رهبان الليل.
(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.
(٣) رواه البيهقي وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٧٨.
(٤) مرمل: مصنوع، شريط: حبل يُفتل من الخوص.

ولنا الآخرةُ؟» قالَ عمرُ: بلى، قال: فإنهُ كَذلِكَ» رواهُ الإمامُ أحمدُ[1].

وعنْ أبي هُريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «رحمَ اللهُ رجلاً قامَ من اللَّيلِ فَصلَّى، وأيقظَ امرأتَهُ، فإنْ أَبَتْ نضحَ في وجهِهَا الماءَ، رحمَ اللهُ امرأةً قامتْ منَ اللَّيلِ فصلتْ وأيقظتْ زوجَها، فإنْ أبى نضَحتْ في وجهِهِ الماءَ» رواهُ أبو داودَ والنسائيُّ[2].

وعنْ أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ وأبِي هريرةَ - رضيَ اللهُ عَنْهما - قالا: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا أيقظَ الرَّجلُ أهلَهُ من اللَّيلِ فَصَلَّيَا - أو صلى - ركعتينِ جميعًا، كُتِبَا في الذَّاكِرينَ والذَّاكِراتِ» رواهُ أبو داودَ[3].

وعنْ أبي أمامةَ الباهليِّ - رضيَ اللهُ عنهُ - عنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «عليكمْ بقيامِ الليل، فإنهُ دَأْبُ الصالحينَ قبلَكُمْ، وقُرْبَةٌ إلى ربكمْ، ومَكْفَرةٌ للسيئاتِ، ومَنْهاةٌ عن الإثمِ» رواهُ الترمذيُّ وحسنهُ الألبانيُّ.

عبدَ اللهِ: اعلمْ أنَّ الصالحينَ قدْ حَرصوا على وَقْتِهم أَشدَّ منْ حرصِنا على أموالِنا فهم لا يشْغَلونَهُ إلا بطاعةٍ أو ما يُعينُ على الطَّاعةِ وَمِنْ ذَلِكَ النَّومُ المبكِّرُ حتى يستطيعوا قيامَ الليلِ.

---

(١) رهبان الليل ج ١ ص ١٨٢ وقال وهو عند البخاري ومسلم وابن ماجه من حديث عمر.

(٢) جامع الأصول ج ٦ ص ٦٦ قال المحقق الأرناؤوط إسناده حسن وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ج ١ ص ٢٥٦.

(٣) وصححه الألباني في صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٦ جامع الأصول ج ٦ ص ٦٧ قال المحقق إسناده صحيح.

(٤) صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٦.

ولقد كانَ النبيُّ ﷺ يكّرهُ النَّومَ قبلَ صلاةِ العشاءِ والحديثَ بعدَها كما في الصحيحين، وعنْ مُجاهدٍ قالَ بلغَ عمرَ أنَّ عاملاً لهُ لا يقيلُ فكَتبَ إليهِ: أما بعدُ فقِلْ، فإنَّ الشَّيطانَ لا يقيلُ[(١)].

إخواني: في هذه الليلة يتحرى المسلمُ ليلة القدر التي قال الله فيها: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[(٢)].

عن زرِّ بنِ حُبيشٍ قالَ سمعتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ يقُولُ: «وَقِيلَ لَهُ: إنَّ عبدَالله بنَ مسعودٍ يقُولُ: مَنْ قامَ السنةَ أصابَ ليلةَ القدرِ» فَقَالَ أُبَيٌّ: واللهِ الذي لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ إنَّها لفي رَمَضَانَ «يحلفُ مَا يَستثنى» وَوَاللهِ إنِّي لأَعْلَمُ أيَّ لَيْلَةٍ هِيَ. «هي اللَّيْلَةُ الَّتِي أمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ بِقيامهَا هِيَ لَيْلَةُ صَبيحَة سَبْعٍ وَعِشْرينَ وَأَمَارَتُها أَنْ تَطْلُعَ الشمسُ في صبيحَةِ يَوْمِهَا بَيْضَاءَ لا شُعاعَ لها» رواه مسلمٌ[(٣)].

عبادَ اللهِ: جِدُّوا واجتَهِدُوا في هذهِ الليلةِ.

قال أسلمُ مولى عُمَرَ: قَدِمَ المدينَة رُفقةٌ من تُجارٍ، فنزلوا المصلى فقالَ عمرُ لعبدِالرحمنِ بنِ عوفٍ هلْ لكَ أنْ نحرسهم الليلةَ؟ قالَ: نعمْ. فباتَا يحرسانِهم ويُصليانِ[(٤)].

وفي البخاريِّ أنَّهُ لما تُوفِّيَ عمرُ قالَ عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عنهُ: «**ما خَلَّفْتَ أحـدًا أُحِبُّ أَنْ أَلْقَى اللهَ بمثلِ عملهِ منْكَ يا عمرُ**» رواه البخاريُّ[(٥)].

---

(١) قيام الليل ص ٨٩. وسنده منقطع لأن مجاهد لم يدرك عمر.

(٢) سورة القدر، الآية: ٣.

(٣) مسلم: المسافرين ح ٧٦٢.

(٤) رهبان الليل ج ١ ص ٣٠٣.

(٥) البخاري فضائل الصحابة ج ٧ ص ٤١.

إخواني: أمَّا عليُّ بنُ أبِي طالبٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - رابعُ الخلفاءِ الراشدينَ فقدْ وصفَهُ ضِرارُ بنُ ضمرةَ الكنانيُّ حينَ طلبَ منهُ ذلكَ أميرُ المؤمنينَ معاويةُ بنُ أَبي سُفْيانَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - فقالَ في وصفِهِ: «يستوحِشُ من الدُّنيا وزهرَتِهَا ويستأنِسُ بالليلِ وظلمتِهِ، وأشهدُ باللهِ لقدْ رأيتُهُ في بعضِ مواقفِهِ، وقدْ أرخى الليلُ سدولَهُ، وغارتْ نجومُهُ، يميلُ في محرابِهِ قابضًا على لحْيَتِهِ، يَتَمَلْمَلُ تململَ السليم[1] ويبكي بكاءَ الحزينِ، فكأنِّي أَسمعُهُ الآنَ وهوَ يقولُ: يا رَبَّنَا يا رَبَّنَا - يتضرَّعُ إليهِ - ثمَّ يقولُ للدنيا - إليَّ تَغرَّرْتِ، إليَّ تشوَّفْتِ، هيهاتَ هيهاتَ غُرِّي غَيْرِي، قد بتَتُّك ثلاثًا، فعُمْركِ قصيرٌ، ومجلِسُك حقيرٌ، وخطرُكِ يسيرٌ، آهٍ آهٍ منْ قلَّةِ الزَّادِ وَبُعْدِ السَّفَرِ وَوَحْشَةِ الطَّريقِ». «فوَكَفَتْ دموعُ معاويةَ على لحيتِهِ ما يملِكُها وجعلَ يُنشِّفُها بكُمِّهِ، وقدْ اختنقَ القومُ بالبكاءِ. فقالَ: كذا كانَ أبو الحسنِ رحمهُ اللهُ. كيفَ وَجْدُكَ عليهِ يا ضِرارُ؟ قالَ: وَجْدُ من ذُبِحَ واحدُها في حِجْرِها لا تَرْقأُ دمعتُها ولا يَسكنُ حُزْنُها»[2].

هيَ جنةٌ طابتْ وطابَ نعيمُها فنعيمُها باقٍ وليسَ بفانِ
دارُ السَّلامِ وجنةُ المأوى ومَنْـ ـزِلُ عَسْكَرِ الإيمانِ والقُرآنِ
فالدارُ دارُ سلامةٍ وخطابُهمْ فيها سلامٌ واسمُ ذي الغفرانِ

---

(١) السليم: المريض.

(٢) رهبان الليل ج ١ ص ٣٠٥.

طوبى لمنْ كانتْ تلكَ بُشراهُ. وهنيئًا لمنْ كانَ هذا أملهُ وذاكَ منتهاهُ[1].

عبادَ اللهِ: إنَّ الدينَ يُسرٌ وما جعلَ عليكم في الدينِ من حَرجٍ ففي الحديثِ الصحيحِ عنْ أبي هُريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ الدينَ يُسرٌ ولنْ يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غَلَبهُ، فسدِّدوُا، وقاربُوا، وأبشرُوا، واستعينُوا بالغُدْوَةِ والرَوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلجةِ**» رواهُ البخاريُّ[2].

إخواني: أَبشروا وأمِّلوا فإنَّ رَبَّنا كريمٌ وقدْ اختصَ هذهِ الأُمَّةَ بأَنهمْ يَدْخلونَ الجنةَ أولاً قبلَ الأُممِ الأخرى السَّابقةِ لها في الخَلْقِ أَخْرَجَ الشيخانِ والنسائيُّ عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**نحنُ الآخِرونَ الأولُونَ يومَ القيامةِ، نحنُ أَوَّلُ الناسِ دُخولاً الجنةَ**».

هنيئًا لأُمَّةِ أحمدَ ﷺ تلكَ البشرى؛ إي واللهِ لوْ لمْ يكنْ لهذه الأمَّةِ إلاَّ هَذا الشَّرفُ لكفَاها، فهذَا أَوانُ الجدِّ يا أتباعَ محمدٍ ﷺ. أخرجَ أبو داودَ عن أبي هريرَةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**أتاني جبريلُ فأرانِي بابَ الجنَّةِ الذي تدخُلُ منهُ أمَّتِي**» فقالَ أبوُ بكرٍ: يا رسولَ اللهِ، وَدِدتُّ أنِّي كنتُ معكَ حتى انظرَ إليهِ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أما إنَّكَ يا أبَا بكرٍ أولُ من يدخُلُ الجنَّةَ منْ أُمَّتي**»[3].

عبادَ اللهِ: الجنةُ طيبةٌ لا يدخلُها إلاَّ الطيِّبونَ، ومِنْ هنا لَزِمَ تنقيَتُهمْ

---

(١) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١٧.

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٨٧.

(٣) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١٣.

وتهذيبُهُمْ قبلَ دخولِهِمْ دارَ الكرامةِ.

روىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يخلصُ المؤمنونَ من النارِ، فيُحبسونَ على قَنْطَرةٍ بينَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيقتَصُّ بعضهم منْ بعضٍ مظالمَ كانتْ بينهمْ في الدنيا حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهمْ في دخولِ الجنَّةِ فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ لأحدهمْ أهدى بمنزلهِ في الجنةِ منهُ بمنزلهِ كانَ في الدنيا**» رواهُ البخاريُّ[1].

وصدقَ اللهُ العظيمُ ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[2].

نعمْ يعرِفونَ دارَهم - وعِزَّهم وخُلدَهم ونعيمَهم فتلكَ منازلُهم الحقيقيَّةُ وهمْ هنا في الدُّنيا في دارِ الغُرْبَةِ والفِتنَةِ والإبتلاءِ رَيْثَمَا يعودونَ إلى مستقرِّ النعيم[3].

اللهمَّ ثبتنا على الحقِّ وتوفَّنا عليهِ واغفرْ لنَا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ برحمتكَ يا أرحمَ الرحمينَ وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابهِ أجمعينَ.

---

(١) الفتح ١١/ ٣٩٥.

(٢) سورة محمد، الآية: ٦.

(٣) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١٣.

الباب الثامن والعشرون

صدقة الفطر

الحمدُ للهِ واسعِ الفضلِ والإحسانِ، مضاعفِ الحسناتِ لذوي الإيمانِ والإحسانِ، الغنيِّ الذي سعتْ نعمتُهُ إلى كلِّ حيٍّ، ووسعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ولم تَزلْ سحائبُ جودهِ تسحُّ الخيراتِ كلَّ وقتٍ وأوانٍ، الحي القيومِ الذي لا تأخذُهُ سِنةٌ ولا نومٌ، ولا تغيضُ نفقاتُهُ بِمَرِّ الدهورِ والأزمانِ، لا يملُّ سؤالَ السائلينَ، ولا يتبَّرمُ بإلحاحِ المُلِحِّينَ، ولا تختلفُ عليهِ حوائجُ الطالبينَ، معَ تفننِ السؤالاتِ واختلافِ اللسانِ، العليمِ الذي لا يعزبُ عن علمِهِ مثقالُ ذرَّةٍ في أيِّ مكانٍ، أحمدُهُ وأشكرُهُ فقد تأذَّنَ بالمزيدِ لذوِي الشكرانِ. وأُصلِّي وأسلِّمُ على رسولِهِ محمدٍ وعلى آلهِ وأصحابِه ومن تبعهمُ بإحسانٍ.

عبادَ اللهِ: اعلموا أنَّ اللهَ قد شرعَ لكم في ختامِ شهرِكُمْ زكاةَ الفطرِ، وهيَ واجِبَةٌ على الكبيرِ والصغيرِ والذَّكرِ والأُنثىٰ، والحُرِّ والعبدِ من المسلمينَ، قال عبدُاللهِ بنُ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهُما -: «فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفطرِ منْ رمضانَ صاعًا من تمرٍ، أو صاعًا من شعيرٍ، على العبدِ، والحُرِّ، والذَّكرِ، والأُنْثَىٰ، والصغيرِ، والكبيرِ من المسلمينَ». متفقٌ عليه.

ولا تجبُ على الحمْلِ الذي في البْطنِ إلا أن يتَطَوَّعَ به فلا بأسَ

فقد كان أميرُ المؤمنينَ عثمانُ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - يُخرِجُها عن الحمْلِ ويجبُ إخراجهُا عن نفسِهِ، وكذلكَ عمنْ تلزَمُهُ مؤونتُهُ من زوجةٍ أو قريبٍ إذا لم يستَطِيعُوا إخراجَها عن أنفسِهِم، فإن استَطَاعوا فالأَوْلى أن يُخْرِجُوها عن أنفسِهِم؛ لأنهمْ المخاطَبُون بها أصلاً، ولا تجبُ إلا على من وجَدَها زائدةً عما يَحتاجُهُ منْ نفقةِ يوم العيدِ وليلتِه فإن لم يجدْ إلا أقلَّ من صاعٍ أخرجَهُ لقولِهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[1]. وقولِ النبيِّ ﷺ: «**إذا أمرتكُمْ بأمرٍ فأْتوا منه ما استَطَعْتُمْ**» متفقٌ عليه.

ومن حِكمَتِها الإحسانُ إلى الفُقَراءِ وكفُّهُمْ عن السُّؤالِ في أيام العيدِ ليُشارِكُوا الأَغْنِياءَ في فَرَحِهِمْ وسرُورِهِمْ ويكونَ عيدًا للجميع.

وفيها الاتصافُ بخُلقِ الكرمِ وحُبِّ المواساةِ وفيها تَطهيرُ الصائم مما يحصلُ في صيامِهِ، من نقصٍ ولَغْوٍ وإثم وفيها إظهارُ شكرِ نعمةَ اللهِ بإتمامِ صيامِ شهرِ رمضانَ وقيامِهِ وفعلِ ما تيسَّرَ من الأَعْمالِ الصالِحَةِ فيه.

وعن ابنِ عباس - رَضِيَ اللهُ عنهُما - قالَ: «فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفطرِ طُهرةً للصائمِ من اللغوِ والرفثِ وطُعمةً للمساكينِ فمنْ أَدَّاها قبلَ الصلاةِ فهيَ زكاةٌ مقبولَةٌ، ومن أَدَّاها بعدَ الصلاةِ فهي صدقةٌ منَ الصدقاتِ» رواه أبو داودَ وابنُ ماجهَ والدارَقطنيُّ والحاكمُ وصحَّحَه.

وأما جنْسُ الواجبِ في زكاةِ الفِطْرِ فهوَ طعامُ الآدميِّينَ من تَمرٍ أو بُرٍّ أو أَرُزٍّ أو زبيبٍ أو أَقِطٍ أو غيرها من طعامِ بني آدمَ.

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٦.

ففي الصحيحين من حديثِ ابنِ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهما - قالَ: فَرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفطرِ من رمضانَ صاعًا من تمرٍ أو صاعًا من شعيرٍ، وكانَ الشعيرُ يومَذاك من طَعَامِهِم كما قالَ أبو سعيدٍ الخدريُّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - كنا نُخرِجُ يومَ الفطرِ في عَهْدِ النبيِّ ﷺ صاعًا من طعامٍ وكان طعامُنا الشعيرَ والزبيبَ والأَقِطَ والتمرَ. رواه البخاري. فلا يجزئُ إخْرَاجُ طعامِ البهائِمِ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ فرضَهَا طُعمةً للمساكينِ لا لِلْبهَائم.

ولا يجزئُ إخراجُ قيمةِ الطعامِ؛ لأنَّ ذلكَ خلافُ ما أَمَرَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ وقد ثبتَ عنه ﷺ أنهُ قال: «**من عَمِلَ عَملاً ليس عليْه أمرُنا فهو رَدٌّ**» رواه مسلم. ومعنى ردٌّ. مردودٌ؛ ولأنَّ إخراجَ القيمةِ مخالفٌ لعملِ الصحابةِ - رَضِيَ اللهُ عنهم - حيثُ كانوا يُخْرِجُونَها صَاعًا من طَعامٍ.

أما مقدارُ الفِطرة فهو صاعٌ بصاعِ النبيِّ ﷺ ووزنُهُ كِيلُوَيْنِ وأربعينَ غرامًا أي [٢٠٤٠] غرامًا.

ووقتُ وجوبِ الفِطرةِ غُروبُ الشمسِ ليلةَ العيدِ فمنْ كانَ من أهلِ الوجوبِ حينذاكَ وجَبتْ عليهِ وإلا فلاَ. وعلى هذَا فإذَا ماتَ قبلَ الغروبِ ولوْ بدقَائقَ لم تجبْ الفِطْرةُ، وإن ماتَ بعدَ الغروبِ ولوْ بدقَائقَ وجَبَ إخراجُ فِطرتِهِ، ولوْ وُلِدَ شخصٌ بعدَ الغروبِ ولو بدقائقَ لم تجب فِطرتُهُ، ولكن لا بأس بإخراجِها كما سبق، وإن وُلِدَ قبلَ الغروبِ ولو بدقائقَ وجَبَ إخراجُ الفِطرةِ عنه.

وأما زمنُ دَفْعِهَا فلهُ وقتانِ: وقتُ فضيلةٍ ووقتُ جوازٍ.

وأما وقتُ **الفضيلةِ**: فهُوَ صباحُ العيدِ قبلَ الصلاةِ لما في صحيح البخاريِّ من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: كنَّا نُخرجُ في عهدِ النبيِّ ﷺ يومَ الفِطرِ صَاعًا من طعامٍ. وفيهِ أيضًا من حديثِ ابنِ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهُما - أن النبيَّ ﷺ أمَر بزكاةِ الفطرِ أن تؤدَّىٰ قبلَ خروجِ الناسِ إلى الصلاةِ. رواه مسلمٌ وغيرُه. ولذَلِكَ كانَ من الأفضلِ تأخيرُ صلاةِ العيدِ يومَ الفطرِ لِيَتَّسِعَ الوقتُ لإخراجِ زكاةِ الفطرِ.

وأما وقت **الجوازِ**: فهُوَ قبلَ العيدِ بيومٍ أو يومينِ. ففي صحيحِ البخاريِّ عن نافعٍ قالَ: كان ابنُ عُمَر يُعطِي عن الصغيرِ والكبيرِ حتى إن كانَ يعطِي عن بَنِيَّ وكانَ يُعطِيها الذينَ يقْبَلُونَها وكانوا يُعطَوْنَ قبل الفِطْرِ بيومٍ أو يَوْمينِ.

ولا يجوزُ تأخيرُها عن صلاةِ العيدِ فإنْ أخَّرها عن صلاةِ العيدِ بلا عُذرٍ لم تُقبلْ منه؛ لأنهُ خلافُ ما أمَرَ به رسولُ اللهِ ﷺ وقد سبقَ من حديثِ ابنِ عباسٍ - رَضِيَ اللهُ عنهما - أنَّ منْ أدَّاها قبلَ الصلاةِ فهيَ زكاةٌ مقبولةٌ، ومَنْ أدَّاها بعدَ الصلاةِ فهيَ صدقةٌ منَ الصدقاتِ.

أما إنْ أخَّرَها لعذرٍ فلا بأسَ، مثلُ أن يصادِفَهُ العيدُ في البَرِّ ليسَ عندَه ما يَدْفعُ منهُ أو ليسَ عندَه من يدْفَعُ لَه، أو يكونُ معتمدًا على شخصٍ في إخراجِها فينسىٰ أن يُخرِجَها فلا بأسَ أن يُخرِجَها ولو بَعْدَ العيدِ؛ لأنهُ معذورٌ في ذلكَ، والواجبُ أن تصلَ إلى مستَحِقّها أو وكيلِهِ في وقتِها قبلَ الصلاةِ، فلو نَواها لشخصٍ ولم يصادفْهُ ولا وكيلَهُ وقتَ

الإخراجِ فإنَّهُ يدفَعُها إلى مُستَحِقٍ آخرَ ولا يُؤخِّرُها عن وقتِها .

وأما مكانُ دفعِهَا فتدفعُ إلى فقراءِ المكانِ الذي هُوَ فيهِ وقتَ الإخراجِ سواءً كان محلَّ إقامتِهِ أو غيرَه من بلادِ المسلمينَ لا سيما إنْ كانَ مكاناً فاضلاً كمكَّةَ والمدينةِ أو كانَ فقراؤُهُ أشدَّ حاجةً فإن كانَ في بلدٍ ليسَ فيهِ من يدفَعُ إليهِ أو كانَ لا يعرِفُ المستحقِّينَ فيهِ وكَّلَ من يدفَعُها عنهُ في مكانٍ فيهِ مستحِقٌ .

والمستحِقُّونَ لزكاةِ الفطرِ همُ الفقراءُ ومن عليهم دُيونٌ لا يستطيعونَ وفاءَهَا فيُعطوْنَ منها بقدرِ حاجَتِهِمْ ، ويجوزُ توزيعُ الفطرةِ على أكثرَ من فقيرٍ ويجوزُ دفعُ عددٍ من الفِطرِ إلى مسكينٍ واحدٍ ؛ لأن النبيَّ ﷺ قدَّرَ الواجبَ ولم يقدِّرْ من يُدفعُ إليهِ ، وعلى هذا لو جمعَ جماعةٌ فِطَرَهُمْ في وعاءٍ واحدٍ بعد كَيْلِها وصاروُا يدفعونَ منهُ بلا كيلٍ ثانٍ أجزأهمْ ذلك ، لكنْ ينبغي إخبارُ الفقيرِ بأنهم لا يعلمونَ مقدارَ ما يدفعونَ إليهِ لئلا يغترَّ بهِ فيدفعُهُ عنْ نفسِهِ وهو لا يدري عن كيلِهِ . ويجوز للفقيرِ إذا أخَذَ الفِطرةَ من شخصٍ أن يدفَعها عن نفسِهِ أو أحَدٍ من عائلتِهِ إذا كالَها أو أخبَرهُ دافِعُها أنها كاملةٌ ووثِقَ بقولِه[1] .

وإتمامًا للفائدةِ حولَ جوازِ إخراجِ الزكاةِ من غيرِ الأصنافِ المنصوصِ عليها إذا كانَ من قوتِ البلدِ فقد سُئِل سماحةُ الشيخِ عبدُالعزيزِ بنُ عبدِاللهِ بنِ بازٍ عن حُكْمِ إخراجِ الأُرزِ في زكاةِ الفطرِ فأجابَ الجوابَ التالي :

---

(١) انظر : مجالس شهر رمضان للشيخ محمد بن عثيمين .

الحمدُ للهِ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ وعلى آلِه وصحبِه ومن اهتدى بهداهُ، أما بعدُ:

فقدْ كثُرَ السؤالُ عن إخراجِ الأُرزِ في زكاةِ الفطرِ، **والجوابُ**: قد ثَبَتَ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه فرضَ زكاةَ الفطرِ على المسلمينَ صاعًا من تمرٍ أو صاعًا من شعيرٍ، وأمرَ بها أن تُؤدىٰ قبلَ خروجِ الناسِ إلى الصلاةِ - أعني صلاةَ العيدِ - وفي الصحيحينِ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: كنا نعطِيها في زمنِ النبيِّ ﷺ صاعًا من طعامٍ أو صاعًا من تمرٍ أو صاعًا من شعيرٍ أو صاعًا من أَقِطٍ أو صاعًا من زبيبٍ. . . وقد فسَّرَ جمعٌ من أهلِ العلمِ الطعامَ في هذا الحديثِ بأنهُ البُرُّ، وفسَّرهُ آخرُون بأنَّ المقصودَ بالطعامِ ما يقتاتُهُ أهلُ البلادِ أيًّا كانَ سواءً كانَ بُرًّا أو ذُرةً أو دخنًا أو غيرَ ذلِكَ، وهذا هوَ الصوابُ؛ لأن الزكاةَ مواساةٌ من الأغنياءِ إلى الفقراءِ ولا يجبُ على المسلمِ أن يواسيَ من غيرِ قوتِ بلدِهِ. ولاشكَّ أن الأرزَ قوتٌ في المملكةِ وطعامٌ طيِّبٌ ونفيسٌ وهو أفضلُ من الشعيرِ الذي جاءَ النصُّ بإجزائِهِ، وبذلكَ يُعلمُ أنه لا حَرَجَ في إخراجِ الأرزِ في زكاةِ الفطرِ. .

والواجبُ: صاعٌ من جميعِ الأجناسِ، وهو أربعُ حفْنَاتٍ باليدينِ المعتدلتينِ الممتلئتينِ كما في القاموسِ وغيرِه، وهو بالوزنِ يقاربُ ثلاثةَ كيلو غرامٍ، فإذا أخرجَ المسلمُ صاعًا من الأرْزِ أو غيرِه من قوتِ بلدِهِ أجزأَهُ ذلكَ وإن كانَ من غيرِ الأصنافِ المذكورةِ في الحديثِ في أصحِّ قولِي العلماءِ، ولا بأسَ أن يُخرِجَ مقدارَهُ بالوزنِ وهو ثلاثةُ

كيلو تقريبًا. والواجبُ إخراجُ الزكاةِ (زكاةِ الفطرِ) عن الصغيرِ والكبيرِ والذَّكَرِ والأُنثىٰ والحُرِّ والمملوُكِ من المسلمينَ، أما الحمْلُ فلا يجبُ إخراجُها عنه إجماعًا، ولكن يستحبُّ لفعلِ عثمانَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - والواجبُ أيضًا إخراجُها قبلَ صلاةِ العيدِ، ولا يجوزُ تأخيرُها إلى ما بعدَ صلاةِ العيدِ، ولا مانعَ من إخراجِهَا قبل العيدِ بيومٍ أو يومينِ. . وبذلكَ يُعلمُ أن أوَّلَ وقتٍ لإخراجِها (في أصحِّ أقوالِ العلماءِ) هي ليلةُ ثمانٍ وعشرينَ لأن الشهرَ يكونُ تسعًا وعشرينَ ويكونُ ثلاثينَ، وكان أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يُخرجونَها قبلَ العيدِ بيومٍ أو يومينِ. **ومصرفُهَا**: الفقراءُ والمساكينُ، وقد ثبتَ عن ابنِ عباس - رَضِيَ اللهُ عنهما - قالَ: فرضَ رسولُ اللهِ ﷺ زكاةَ الفِطرِ طُهرةً للصَّائمِ من اللَّغوِ والرَّفثِ وطُعمةً للمساكينِ فمن أدَّاها قبلَ الصلاةِ فهيَ زكاةٌ مقبولَةٌ، ومن أدَّاها بعدَ الصلاةِ فهيَ صدَقةٌ من الصدَقاتِ. . ولا يجوزُ إخراجُ القيمةِ عندَ جمهورِ أهلِ العلمِ (وهو الأصحُّ دليلاً) بل الواجبُ إخراجُها من الطعامِ كما فعلَهُ النبيُّ ﷺ وأصحابُهُ - رَضِيَ اللهُ عنهم - وجمهُورُ الأمَّةِ. واللهُ المسئولُ أن يوفِّقَنا والمسلمينَ جميعًا للفقهِ في دينهِ والثباتِ عليهِ وأن يصلحَ قلوبَنا وأعمالَنا، إنه جوادٌ كريمٌ وصلى الله وسلم علي نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِه.

---

(١) عن مجلة البحوث الإسلامية.

السبع الموبقات

الحمدُ للهِ الرؤوفِ المنانِ، الكريمِ ذي الإحسانِ، العليِ الغنيِ القويِ السلطانِ، أوضحَ سبُلَ هدايتِهِ وهَدَى أهلَ عبادتِهِ إلى التوبةِ النصوحِ، يَنْزِلُ إلى السماءِ الدنيا، فأينَ الذي بالمناجاةِ والاستغفارِ يلهجُ، فإنهُ لا يَطْرُدُ من عصاهُ إذا تابَ مما جَناهُ، ومَنْ قَرعَ بابَهُ أجابَ دُعَاهْ، أشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ هُوَ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، أَرسلَه بالهدى والصلاحِ صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وأَخُصُّ منهمْ أبا بكرٍ صاحِبَهُ في الغارِ ذاَ الفضائلِ الجلية، يا عجبًا مَنْ يُغَطِّي عينَ الشمسِ في نصفِ النهارِ، وعلى عمرَ الفاروقِ فاتحِ الأمصارِ، وسيفِ اللهِ المسلولِ على أعناقِ الكفارِ، وعلى عثمانَ ذي النورينِ وشهيدِ الدارِ، وعلى زوجِ البتولِ ومُرعبِ الكفارِ في المعاركِ بشجاعتِهِ رابعِ الخلفاءِ والمشهودِ لهمْ في دارِ القَرَارِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اجتنبوا السبعَ الموبِقَاتِ**. قالوا: يا رسولَ اللهِ ما هُنَّ؟ قالَ: **الشركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النفسِ التي حرمَ اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ الربا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتولي يومَ الزحفِ، وقَذْفُ المُحْصناتِ**

الغافلاتِ المؤمناتِ» متفقٌ عليه.

الموبِقَاتُ: المهلِكاتُ، وكلُّ واحدةٍ من هذهِ السبعِ توقعُ صاحِبَها في الهلَكَةِ، وأعظمُها شرًّا، وأكبرُها خطرًا: هو الشركُ باللهِ الذي لا يُغْفَرُ أبدًا، ولا يُقبلُ معه من الصالحاتِ شيءٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[1]. فإذا ماتَ المشْركُ من غيرِ توبةٍ فإنهُ لا يُغفرُ لَهُ، ومن ذبحَ أو سجَد لغيرِ اللهِ أو سألَ حاجاتِه من الميِّتِ كأَنْ يطلبُ منهُ الولَدَ أو دعاهُ أو ناداهُ، أو استغاثَ أو استعانَ بهِ في أمرٍ فقد أشركَ وجعلَ للهِ ندًّا ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[2]. ومن الشركِ ما يقعُ عند قبورِ الأنبياءِ والصالحينَ من جهلةِ المسلمينَ من الطَّوَافِ بها ودعوةِ أصحابِهَا في المُلِمَّاتِ والعكوفِ عليها.

وفي السِّحْرِ جَمْعٌ بينَ الكُفرِ والإضرارِ بالنَّاسِ لِما يتَوَهَّمُ بسببِهِ العامةُ والدهْماءُ من قُدرةِ الساحرِ على ما يريدُ واستطاعتِهِ أن يتصَّرفَ في ملكِ اللهِ بغيرِ إذنِهِ ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾.

وقد يتأثَّرُ ضعيفُ الإيمانِ فيَمْرضُ أو يموتُ متى قيلَ لهُ إن فلانًا قد سحرَكَ حتى وإنْ كانَ لم يُسْحَرْ، وعلى الحاكمِ المسلمِ أن يُعاقِبَ السحرَةَ والمُشَعْوِذِينَ، فقد أمر عمرُ بنُ الخطابِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - بقتلِ السَّحَرةِ، وقتَلَتْ أمُّ المؤمنينَ حفصةُ - رَضِيَ اللهُ عنها - جاريةً

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٦.

لها ساحرةً، وقتل جندبُ بنُ عبدِاللهِ ساحرًا كان يلعبُ عندَ الوليدِ بنِ عُقْبَةَ، يقطعُ رأسَ الرجُلِ، ثم يدعوهُ فيأتي حيًّا، وأكثرُ مَن يتعَلَّمُ السحرَ ويشتغلُ به اليهودُ وكفارُ الهنودِ، ومن أَتَى كاهِنًا أو ساحِرًا فصدَّقهُ فيما يقولُ، فقد كفرَ بما نُزِّلَ على محمدٍ ﷺ وللسحْرِ تأثيرٌ لا يُنكرُ ولكنهُ في الضعفَاءِ أكثرُ وأظهرُ.

قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ودمُ المسلمِ حرامٌ أن يُراقَ بغيرِ حقٍ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[2] ولزَوالُ الدنيا أهونُ عند اللهِ من قتلِ مسلمٍ بغيرِ حقٍّ، وقال ﷺ: «**إذا الْتَقَىٰ الْمُسْلِمَانِ بسيفيهِمَا فالقاتلُ والمقتولُ في النارِ**. قيل يا رسولَ اللهِ هذا القاتلُ فما بال المقتولِ؟ قالَ: **لأنهُ كان حريصًا على قتلِ صاحبِهِ**» متفق عليه.

وذلكَ إذا كانَ دافعُ كلٍّ منهُما هو قتلَ صاحبِهِ أما إذا كان دفاعًا عن النفسِ أو المالِ أو العِرْضِ فالمقتُولُ دونَها شهيدٌ عندَ اللهِ.

ولِلّيتامىٰ على الناسِ تربيتُهُم، والعنايةُ بشأنِهمْ، حتى جعلَ القرآنُ كفالتَهُم، وإنفاقَ المالِ عليهِمْ من أركانِ البرِّ وأسُسِهِ التي

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ٩٣.

يقومُ عَلَيْهَا، فما بالُكَ بإثْم من يأكلُ أموالَهُمْ، ويستحِلُّ منها ما حَرَّمَ اللهُ عليهِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾[2]. وفعلُ الأصلح وتنميةُ المالِ بالبيع والشراءِ وما يعودُ عليهمْ بالربح أمرٌ مُرَغَّبٌ فيه، قالَ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ﴾[3].

وقد جعلَ الإسلامُ لأموالِ اليتامى نظامًا خاصًا، وأذِنَ للقائمينَ عليهِمْ أَنْ يأكُلُوا بالمعروفِ غير مبذِّرينَ ولا مسرفِينَ، بشرطِ أن يكونَ القائمُ فقيرًا محتاجًا إلى ما يأكلُهُ. قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾[4] والزكاةُ في مالِ اليتيم واجبةٌ، ولا يُسَلَّمُ إليهِ مالُهُ إلا إذا بلغَ النكاحَ، وأُونِسَ منه الرُّشْدُ، وحرامٌ على الوصيِّ والقائمِ والحاكِمِ ما يصنعونَ في مالِ اليتيم من أكْلِه بغيرِ حقِّهِ وتضييعِهِ في غيرِ مصلحةٍ، وتسليمِهِ إلى تاجرٍ خائنٍ، وأجيرٍ مقصرٍ.

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[5].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٢٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ٦.
(٥) سورة النساء، الآية: ٩.

وأكلُ الربا وتعاطِيهِ من أكبرِ الذنوبِ عندَ اللهِ، وقد تَوَعَّدَ صاحبَهُ بالنارِ، وآذنَهُ بالحربِ إن هو أصرَّ عليهِ، ولم يتُبْ منهُ، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[1]. وآكل الربا وموكِلُهُ وكاتِبُهُ وشاهِدُهُ إذا علمُوا ذَلِكَ ملعونُونَ يومَ القيامةِ على لسانِ محمدٍ ﷺ وما ظهرَ الربا والزنا بقريةٍ إلا وظهر بأهلِهَا الفقرُ والأمراضُ المعدِيَةُ، وظلْمُ السلطانِ، وبه تذهبُ الأموالُ، وتُمْحَقُ البركاتُ، وإن كانتْ فائدتُهُ محسوسَةً لأول ما يكونُ ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[2].

ومنه كثيرٌ من معاملاتِ اليومِ الفاسدةِ كالقرضِ بشرطِ أن يأذنَ الآخذُ للمُعْطِي بفائدةِ المرهونِ، واستغلالِ ثمرتِهِ وزرعِهِ، وكالمُصارفَةِ بالذهبِ والفضَّة بغيرِ حلولٍ ولا تقابضٍ ولا تماثلٍ بالمعيارِ الشرعِيِّ. ولكنَّ بعضَ المسلمين لا يبالونَ بأي طريقٍ جاء منها المالُ وتكونتْ منها الثَّروَةُ، ولو بمخالفةِ النصِّ الصريح فالحرامُ عندهُمْ ما تعذَّرَ أخذُهُ، والممقوتُ في نَظرِهِمْ من عجزَ عن الاكتسابِ حتَّى يُثْرَي، وقصَّرَ في جَمْعِ الْمالِ من حرامٍ أو حلالٍ.
وجاءَ في حديثِ الإسراءِ: **أن النبيَّ ﷺ رَأَى رجلاً يسبحُ في نهرِ الدمِ، وكلما جاءَ ليخرُجَ منه استقبلَهُ رجلٌ على شاطىءِ النهرِ، وبين يديهِ**

---
(١) سورة البقرة، الآيتان: ٢٧٨، ٢٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

حجارةٌ يرجُمُهُ بحجرٍ منها في فيهِ حتى يرجِعَ حيث كانَ، وسألَ عنه فأُخْبِرَ أنَّهُ آكِلُ الربا.

وما جُعِلَ الفِرارُ من الزَّحْفِ من موبقاتِ الذنوبِ إلا لِما فيهِ من الجُبنِ والعجزِ. وهذانِ خُلُقانِ سيِّئانِ مذمُومانِ قد استعاذَ منهما رسولُ اللهِ ﷺ فلا يجوزُ للمسلم المؤمنِ بقضاءِ اللهِ وقدرِهِ المصدِّقِ بقولِهِ تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]. أن يفِرَّ من معركةٍ نتيجتُها له على كلِّ حالٍ، فإما الفتْحُ والغنيمةُ، وإمّا الأجرُ والشهادةُ، وللهِ دَرُّ خالدِ بنِ الوليدِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - حيث يقولُ وهو عَلَى فراشِ الموتِ: لقد حضرتُ زهاءَ مائةِ زحفٍ في الجاهليةِ والإِسلامِ، وما في جسمِي موضعُ شبرٍ إلا وفيهِ طعنةٌ برمحٍ، أو رشقَةٌ بسهمٍ، واليومَ أموتُ حتْفَ أَنْفِي، فلا نامتْ أعينُ الجُبَنَاءِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[2].

وما جعلَ اللهُ لعْنَتَهُ وغضَبَهُ على أحدٍّ، كما جعلَها على القاذفِ ومن يرمي المحصناتِ الغافلاتِ بغيرِ ما فيهنَّ، وينسبُ إليهنَّ الزنا، وكبائرَ الإِثم والفواحشَ، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَشْهَدُ

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ١٥، ١٦.

عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۞ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾[1] .[2]

اللهمَّ استرْ عورَاتِنَا وآمنْ روعاتِنَا وقِنا شحَّ أنفسِنَا وأغْنِنا بِحلالِكَ عن حرامِكَ وبفضلِكَ عمَّنْ سواكَ، وأَمِتْنا على التوحيدِ واحفظ عقولَنا وارزقْنا الشهادةَ واغفرْ اللهمَّ لنا ولوالدِينا وللمسلمين أجمعينَ، وصلِّ اللهمَّ على نبيِّنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِهِ وسَلَّم.

---

(١) سورة النور، الآيات: ٢٣، ٢٤، ٢٥.

(٢) انظر: إصلاح المجتمع للشيخ محمد بن سالم البيحاني ص ٣٩.

الباب التاسع والعشرون

المداومةُ على العملِ الصالحِ

إن الحمدَ للهِ نحمدُه ونستعينُهُ ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شرورِ أنفسِنَا ومن سيئاتِ أعمالِنا، من يهدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يضْلِلْ فلا هاديَ لَهُ، وأشهدُ أن لاَّ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ لَهُ، وأشهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُهُ ﷺ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وأتباعِهِ إلى يومِ الدينِ وسلمَ تسليمًا كثيرًا. **وبعدُ:**

فإن اللهَ تعالى ما خلقَ الخليقَةَ وأسكَنَهَا هذهِ البسيطَةَ إلا ليبلُوَهُمْ أيُّهمْ أحسنُ عملاً، ومعْ أنهُ فطرَهُمْ على الحنيفيَّةِ إلا أنهُ لم يكِلْهُمْ إلى فِطَرِهِمُ الكامنةِ في نفوسِهِمْ، بل أَرسلَ إليهمُ الرسُلَ، وأَنزلَ عليهمُ الكتُبَ ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1].

ثم إنهُ - عزَّ وجلَّ ختمَ الرسلَ بأفضلِهِمْ، والأُمَمَ بخيرِها؛ فجعَلَهُ ﷺ أفضلَ رسولٍ إلى خيرِ أمةٍ، وأَرسلَهُ بالهدىٰ ودينِ الحقِّ ليظهرَهُ على الديّنِ كلِّهِ. فدعَا ﷺ أُمَّتَهُ للإيمانِ الذي هوَ التَّصْدِيقُ بالقَلْبِ، والنطقُ باللسانِ، والعملُ بالجوارحِ.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤.

قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[1].

وبهذا يتبينُ أن العملَ الصالحَ من الأشياءِ التي يلزمُ حصولُها كيْ يُعْتَبرَ الإنسانُ مؤمنًا. ولو ادَّعىٰ مُدَّعٍ أنه مؤمنٌ وترَكَ الأعمالَ الصالحةَ من صلاةٍ وزكاةٍ وصيامٍ وحجٍّ فإنهُ لا يُعتبرُ حينئذٍ مؤمنًا لأنه لم يأتِ بالعملِ الصالحِ، وأفضلُ الأعمالِ وأحبُّها إلى اللهِ تعالى ما داومَ عليهِ صاحبُهُ، والمداومةُ على الأعمالِ الصالحةِ من الأهميةِ في الشريعةِ الإسلاميةِ بمكانٍ. وتظهرُ أوجهُ أهَمِّيَّتِها بما يلي:

منها: أن فرائضَ اللهِ - عزَّ وجلَّ - إنما فُرِضَتْ على الدوام، وهي أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى، كما في الحديثِ القدسي: «**وما تَقَرَّبَ إليّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليّ مما افترضتُهُ عليه**» أخرجه البخاريُّ.

ويستثنىٰ من ذلكَ الحجُّ الذي فُرِضَ في العمرِ مرةً درءاً للمشقَّةِ عن أُمَّةِ محمدٍ وتيسيرًا عليها. وإذا كان أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ فرْضٌ على الدوامِ فإنَّ فيهِ دليلاً على أهميَّةِ المداومَةِ.

ومنها: أن من هدي النبيِّ ﷺ المداومةُ على الأعمالِ الصالحةِ، فعنْ عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - قالتْ: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا عملَ عملاً أثبتهُ، وكانَ إذا نامَ من الليلِ أو مَرِضَ صلى من النهارِ اثْنتيْ عَشْرةَ ركعةً» رواهُ مسلمٌ[2].

---

(١) سورة العصر، الآيات: ١، ٢، ٣.

(٢) مسلم (١/ ٥١٥).

وعنها أيضًا - قالتْ: «وكان نبيُّ اللهِ ﷺ إذا صلى صلاةً أحبَّ أن يُدَاوِمَ عَلَيْها، وكان إذا غلبَهُ نومٌ أو وَجَعٌ عَنْ قيامِ الليلِ صلَّى من النَّهارِ اثنتيْ عشْرةَ ركعةٌ» رواه مسلمٌ[1].

ومنها: أن الأعمالَ المداوَمَ عَلَيْها أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ وإلى رسولِهِ.

فعن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - قالتْ: قال رسول الله ﷺ: «**أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْومُهَا وإن قَلّ**» متفقٌ عليه[2].

وعن مسروقٍ قالَ: سألتُ عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - أيُّ العملِ كانَ أحبَّ إلى رسولِ اللهِ ﷺ؟ قالتْ: الدائمُ. . متفق عليه[3].

ومنها: أن من فاتَه شيءٌ من الأعمالِ التي يداوِمُ عليها اسْتُحِبَّ له قضاؤُهُ، ولولا ما لِلمداومَةِ من أهمِّيَّةٍ ما شُرِعَ لهُ ذلك.

فعن عمرَ بنِ الخطابِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - يبلغُ بِهِ إلى النبيِّ ﷺ أنه قالَ: من فاتَهُ شيءٌ من وِرْدِهِ، أو قالَ من جُزئِهِ منَ الليلِ فقرأهُ ما بينَ صلاةِ الفجرِ إلى الظهرِ فكأنما قرأهُ من ليلِهِ. أخرجَهَ مسلمٌ والإمام أحمدُ[4].

وللمداومةِ على الأعمالِ الصالحة آثارٌ:

من آثارِ المداومةِ على الأعمالِ الصالحةِ: دوامُ اتصالِ القلبِ بخالقِهِ

---

(١) مسلم (١/ ٥١٤).
(٢) المشكاة ١/ ٣٩١.
(٣) المشكاة ١/ ٣٧٨.
(٤) المسند ١/ ٣٢ مشكاة المصابيح ١/ ٣٩٢.

مما يعطيه قوةً وثباتًا وتعلقًا بالله - عزَّ وجلَّ - وتوكلاً عليه، ومن ثَمَّ يكفيه الله همَّهُ، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[1]، واعتبَرَ بعضُ أهلِ العلم هذا الأثرَ من الحِكَمِ التي شُرِعَتْ من أجلِها الأذكارُ المطلقةُ، والمقيدةُ بالأحوالِ.

ومن آثارِ المداومةِ على الأعمالِ الصالحةِ: تعهدُ النَّفْس عنْ الغفلَةِ وترويضُها على لزوم الخيراتِ حتى تسهلَ عليهَا، ومَنْ ثَمَّ تُصبحُ ديدَنًا لها لا تكادُ تنفكُّ عنها رغبةً فيها، وكما قيلَ «نفسُكَ إن لم تشغلْها بالطاعةِ شغلتْكَ بالمعصيَةِ».

ومن آثارِ المداومةِ على الأعمالِ الصالحةِ: أنها سببٌ لمحبَّةِ الله تعالى للعبدِ وولايةِ العبدِ لله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2]. [3] قال الشيخُ عبدُالرحمنِ السَّعديِّ - رحمه الله - عند هذه الآية إن الله يحبُّ التوابينَ من ذنوبهم على الدوام ويحب المتطهرين أي المتنزهينَ عن الآثام. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن اللهَ قالَ: من عادَى لي وَلِيًّا فقد آذنْتُهُ بالحربِ، وما تقربَ إليّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليّ مما افترضْتُهُ عليهِ، وما يزالُ عبدي يتقرّبُ إليّ بالنوافلِ حتى أُحبَّهَ، فإذا أحببتُه كنت سمعَهَ الذي يسَمعُ به، وبصرَهُ الذي يُبصرُ به، ويدَهُ التي يبطشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي بها، وإن سألَني لأعطِيَنَّهُ، ولئنْ استعاذَني**

(١) ورة الطلاق، الآية: ٣.

(٢) ورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) تيسير الكريم المنان ج ١ ص ٢٧٧.

لأعيذَنَّهُ، وما تردَّدْتُ عن شيءٍ أنا فاعلهُ تَرَدُّدِي عن نفسِ المؤمنِ يكرَهُ الموتَ وأنا أكرهُ مساءتَهُ» أخرجه البخاريُّ[1].

ومن آثارِ المداومةِ على الأعمالِ الصالحةِ: أن المداومةَ على الأعمالِ الصالحةِ سببٌ للنجاةِ من الشدائدِ، فعنْ ابنِ عباس - رَضِيَ اللهُ عنهما - قالَ: كنتُ رديفَ النبيِّ ﷺ فقالَ: «**يا غلامُ، ألا أُعَلِّمُكَ كلماتٍ ينفعُكَ اللهُ بهنَّ؟**» فقلتُ: بلى، فقال: «**احفظِ اللهَ يحفظْكَ، احفظِ اللهَ تجدْهُ أمامَكَ، تعرَّفْ إليهِ في الرخاءِ يعرفْك في الشدةِ**» أخرجه الإمامُ أحمدُ[2].

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**من سَرَّهُ أن يستجيبَ اللهُ لهُ عندَ الشدائدِ فلْيُكْثِرْ الدعاءَ في الرخاءِ**» أخرجه الترمذي وقال حديثٌ غريبٌ[3].

ومنها: أن المداومةَ على صالحِ الأعمالِ تَنْهىٰ صاحبَهَا عن الفواحشِ، قالَ تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾[4].

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال: «إن فلانا يُصَلِّي باللَّيلِ فإذا أصبحَ سَرَقَ، فقال: **إنهُ سيَنْهاهُ ما تقولُ**» أخرجه الإمامُ أحمدُ، والبيهقيُّ في شعبِ الإيمانِ[5].

---

(١) فتح الباري ١١/ ٣٤٠.
(٢) المسند، ١/ ٣٠٧.
(٣) مشكاة المصابيح ٢/ ٦٩٤.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٥) المشكاة ١/ ٣٨٩.

ومنها: أن المداومةَ على الأعمالِ الصالحةِ سببٌ لمحوِ الخطايا والذنوبِ، والأدِلَّةُ على هذا كثيرةٌ منها ما في الصحيحين عن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ تعالى عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أرأيتُمْ لو أن نهرًا ببابِ أحدِكُمْ يغتسلُ منهُ كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ هل يبقىٰ من درنِهِ شيءٌ؟** قالوا: لا، قال: **فذلكَ مثلُ الصلواتِ الخمسِ يمحو اللهُ بهنَّ الخطايا**».

وعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من قالَ سبحانَ اللهِ وبحمدِهِ في يومٍ مائةَ مرةٍ حُطَّتْ خطاياهُ وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ**» متفقٌ عليه[1].

ومنها: أن المداومةَ على الأعمالِ الصالحةِ سببٌ لحسنِ الختامِ، ووجْهُ ذلكَ أن المؤمنَ يصبرُ على أداءِ الطاعاتِ كما يصبرُ عن المعاصي والسيئاتِ محتسبًا الأجرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ فيقوَىٰ قلبُهُ على هذا وتشتدُّ عزيمتُهُ على فعلِ الخيراتِ فلا يزالُ يجاهدُ نفسَهُ فيها، وفي الانكفافِ عن السيئاتِ، فيوفِّقُهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لحسنِ الخاتمةِ. قالَ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[2]، وقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[3].

---

(١) المشكاة ٢/ ٧١١.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

ومنها: أن المداومةَ على الأعمالِ الصالحةِ سببٌ للتيسيرِ في الحسابِ وتجاوزِ اللهِ تعالى عن العبدِ: فعنْ ربْعي بن حِرَاشٍ قالَ: اجتمعَ حذيفةُ وأبو مسعودٍ فقالَ حذيفةُ: «رجلٌ لقيَ ربَّه فقالَ: ما عملتَ؟ قال: ما عملتُ من الخيرِ، إلَّا أنِّي كنتُ رجلاً ذا مالٍ، فكنتُ أطالبُ به الناسَ، فكنتُ أقبلُ الميسورَ وأتجاوزُ عن المعسورِ، فقال: «**تجاوزُوا عن عبدِي**» قال أبو مسعودٍ هكذا سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول. أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ واللفظ له[1].

فبسبَبِ مداومتِهِ على التجاوُزِ تجاوزَ اللهُ عنه.

ومنها: أن المداومةَ على العملِ الصالح سببٌ في أن يستظلَّ الإنسانُ في ظلِّ عرشِ اللهِ عزَّ وجلَّ يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه.

أخرج البخاريُّ بسنده عن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**سبعةُ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمامُ العادلُ وشابٌّ نشأَ في عبادةِ ربِّهِ ورجُلٌ قلبُهُ معلقٌ في المساجدِ، ورجلانَ تحابّا في اللهِ اجتمعَا عليهِ وتفرقَا عليهِ، ورجلٌ طلَبَتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجمالٍ، فقالَ إني أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدقَ أخفَىٰ حتى لا تعلمَ شِمالهُ ما تنفقُ يمينُه، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضتْ عيناه**» متفقٌ عليه واللفظ للبخاريِّ[2].

ووجْهُ ذلكَ أن عدلَ الإمامِ، ونشوءَ الشابِّ في عبادةِ ربِّه، وتعلقَ القلبِ في المساجدِ، وتحابُبِ الرجلينِ في اللهِ - لابدَّ فيهِ منَ

---

(١) فتح الباري ٤/ ٣٠٧، مسلم ٣/ ١١٩٥.

(٢) فتح الباري ٢/ ١٤٣.

الاستمرارِ عليهِ حتَّى يحصلَ بِهِ هذا الفضلُ العظيمُ.

ومنها: أن المداومَةَ على العملِ الصالحِ سببٌ لطهارةِ القلبِ من النفاقِ، ونجاةِ صاحبِهِ من النارِ.

فعن أنس بن مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من صلَّى للهِ أربعينَ يومًا في جماعةٍ يدركُ التكبيرةَ الأولىٰ كُتبتَ له براءَتَانِ، براءةٌ من النارِ، وبراءةٌ من النفاقِ**» أخرجه الترمذيُّ[1].

ومنها: أن المداومَةَ على الأعمالِ الصالحةِ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ، فعنْ أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**من أنفقَ زوجينِ من شيءٍ من الأشياءِ في سبيلِ اللهِ دُعِيَ من أبوابِ الجنَّةِ، وللجنَّةِ أبوابٌ، فمنْ كانَ من أهلِ الصلاةِ دُعِيَ من بابِ الصلاةِ، ومنْ كانَ من أهلِ الجهادِ دُعِيَ من بابِ الجهادِ، ومن كانَ من أهلِ الصدقةِ دُعِيَ من بابِ الصدقةِ، ومن كانَ من أهلِ الصيامِ دُعِيَ من بابِ الريانِ**» فقالَ أبو بكرٍ: «ما علىٰ مَنْ دُعِيَ من تلكَ الأبوابِ من ضَرُورَةٍ؟ فهَلْ يُدعىٰ أحدٌ من تلكَ الأبوابِ كلِّهَا؟» قالَ: «**نعمْ، وأرجو أن تكونَ منهُمْ**» متفقٌ عليه[2].

ثم اعلموا يا عبادَ اللهِ أن منْ داومَ على عملٍ صالحٍ، ثم انقطعَ عنه بسببِ مرضٍ أو سفرٍ أو نومٍ كُتِبَ له أجر ذلكَ العملِ.

أخرجَ البخاريُّ بسندِهِ عن أبي موسىٰ الأشعريِّ - رَضِيَ اللهُ

(١) الترمذي ٢/ ٧ وقال الألباني بعد أن ساق طرقه «وبالجملة فهذه الطرق وإن كانت مفردتها لا تخلو من علة فمجموعها يدل على أن له أصلاً.. ثم قال وما روي منها موقوفًا فمثله لا يقال من قبل الرأي (يعني فله حكم الرفع)».

(٢) المشكاة ١/ ٥٩٢.

عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إذا مرضَ العبدُ أو سافرَ كُتِبَ له مثلُ ما كانَ يعملُ مقيمًا صحيحًا»** قال ابن حجرٍ: هذا في حقِّ مَنْ كان يعملُ طاعةً فمُنعَ منها، وكانت نِيَّتُهُ - لولا المانعُ - أن يدومَ عليها[1].

وعن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - أن رسول الله ﷺ قالَ: **«ما مِن امرىءٍ تكونُ له صلاةٌ بليلٍ فغلبهُ عليها نومٌ إلا كتبَ اللهُ له أجرَ صلاتِهِ وكانَ نومُهُ صدقةً عليهِ»** أخرجه النسائيُّ[2].

الأسبابُ المعِينةُ على المداومةِ على الأعمالِ الصالحةِ:

المداومَةُ على الأعمالِ الصالحةِ من صفاتِ عبادِ اللهِ المؤمنينَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[3]، ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[4].

وإنما كانتْ من صفاتِ المؤمنينَ لأنَّ أبعدَ الناسِ عن المداومةِ على صالحِ العملِ إنما همُ المنافقونَ، وذلكَ راجعٌ إلى أنَّهمْ لا يرجُونَ بأعمالِهِمْ رحمةَ اللهِ بل يؤدُّونَ شعائرَ الإسلامِ الظاهرةَ أو بعضَهَا ذرًّا للرَّمَادِ في عيونِ الناسِ خشيةَ أنْ يَطَّلِعُوا على أعْمَالِهِمْ، كما أن قلبَ المنافقِ أضعفُ منَ أنْ يحتملَ وطأةَ المداومةِ وشدَّةَ المجاهَدةِ، وأبعدُ من أن يتلذذَ بحلاوَتِها، وأيضًا فإن المؤمنَ إذا سمعَ ثوابَ اللهِ تاقتْ نفسُهُ لتحصيلِهِ، فجاهَدَ نفسَهُ على سلوكِ

---

(١) فتح الباري ٦/ ١٣٦.
(٢) النسائي ٣/ ٢٥٧.
(٣) سورة المعارج، الآية: ٢٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٩.

ما يُقَرِّبُ إليهِ، بخلافِ المنافقينَ فهم كما قال الله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[1].

ثم إن عبادَ اللهِ المؤمنينَ يسلكونَ السبلَ المفضيةَ بهِمْ إلى الأعمالِ الصالحةِ والمداومةِ عليها.

ومن الأسبابِ المعينةِ على الأعمالِ الصالحةِ: العزيمةُ الصادقةُ على لزومِ العملِ والمداومةِ عليهِ أيًّا كانتْ الظروفُ والأحوالُ، وهذا يستلزمُ نبذَ العجزِ والكسلِ اللذيْنِ هما دَاءانِ يُرْدِيانِ بنشاطِهِ إلى الخمولِ وحياتِهِ إلى الخمودِ ما لمْ يتداركْ نفسَهُ - بعدَ الاستعانةِ باللهِ - بإرادةٍ قويةٍ وعزيمةٍ صادقةٍ ينتشلُ فيها نفسَهُ من تلكَ الوهْدَةِ.

وإذا كانَ الإنسانُ يكرهُ الموتَ الذي فيهِ انقطاعُ حياتِهِ، والهرَمَ الذي فيهِ انهيارُ شَبابِهِ وقُوَّتِهِ، وَيَوَدُّ أَن لَّو هربَ منهما ودفعهُما عنهُ بالراحتينِ واليدِ ولكنْ هيهاتَ!!

أفلا يدركُ أن هناكَ سُوسًا ينخَرُ في عظامِهِ - من حيثُ يدْري أو لا يدري - طوالَ فترةِ حياتِهِ معَ أنهُ يستطيعُ دفعَهُ عنْهُ، وهذا السوسُ هو العْجزُ والكسلُ.

ومن الأسبابِ المعينةِ على الأعمالِ الصالحةِ: القصدُ في الأعمالِ، وعدمُ الإثقالِ والتَّشديدِ على النفسِ فإنهُ أدعىٰ للمداومةِ وأضمنُ لها، إذ أَنَّ النفسَ البشريةَ تركنُ إلىَ الراحةِ والدَّعةِ فمتىٰ

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٦.

باغَتَها الإِنسانُ بأعمالٍ تُثْقِلُها مَلَّتْ وانقطعتْ بخلافِ ما إذا سايَرها بما يستطيعُ وعوَّدَها على لزوم الخيرِ رُوَيْدًا رُوَيْدًا، وكلَّما رأىٰ في نفسِهِ خِفةً ورغبةً إلى الخيرِ زادَ ما لا يُثْقِلُها، وكما قيل: «قليلٌ دائمٌ خيرٌ من كثيرٍ منقطعٍ».

ولذا قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**أحبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدومُها وإن قلّ**» متفقٌ عليه عن عائشة[1].

وعنها - رَضِيَ اللهُ عنها - قالتْ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**خُذُوا مِنَ الأعمالِ ما تطيقونَ فإنَّ اللهَ لا يملُّ حتى تَمَلُّوا**» متفقٌ عليه.

ولا تقِفُ مشادَّةُ النفسِ عندَ حدِ أنَّها مظنَّةٌ للانقطاعِ عنِ العملِ فقطْ بل إنه يُخشىٰ على صاحِبِهَا من الانتكاس.

فعن أبي هريرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إن الدينَ يسرٌ ولنْ يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبَهُ، فسدِّدُوا، وقارِبُوا وأبشِرُوا، واستعِينُوا بالغدْوَةِ، والرَّوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلجةِ**» رواهُ البخاريُّ[1].

وبهذا يتبينُ ضرورةُ التدرجِ بالأعمالِ من الأسهلِ إلى ما هو فوقَهُ وهكذا، ولْيسلُكْ طريقَ من يعينُهُ على ذَلِكَ من إِخوةٍ له في اللهِ يُعينُونَهُ إذا تثاقَلَ ويذكِّرونَهُ إذا نسيَ، أو زوجةٍ صالحةٍ تعينهُ على الخيرِ، وليعلمْ أن البركَةَ في المداومَةِ، فمن حافَظَ على قراءةِ جُزءٍ من القرآنِ كلَّ يومٍ ختمهُ في شهرٍ، وهكذا بقيَّةُ الأَعمال.

---

(١) المشكاة ١/ ٣٩١.

(٢) المشكاة ١/ ٣٩٢.

وعليه أن يتذكَّر ما اقترفَ من الإثم، ويتعينُ أنه لابدَّ من وجودِ ما يمْحوهُ من الحسناتِ، فإن الحسناتِ يُذهبْنَ السيئات.

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**اتقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ**» أخرجَهُ الترمذيُّ وقال حديثٌ حسن.

ففي هذا الحديثِ الأمرُ بالتقوىٰ في كلِّ حالٍ وآنٍ، ولكنْ عَلِمَ أنه لابدَّ أنَ يصْدُرَ من ابنِ آدمَ ما يُخلُّ بالتقوىٰ فأرشدَهُ إلى ما يمحو بِهِ السيئاتِ.

وأخيراً: فإنه لا يحسُنُ بمنْ داوَمَ على عملٍ صالحٍ أن يترْكَهْ..

فعن عبدِاللهِ بنِ عمرو بن العاصِ - رَضِيَ اللهُ عنهما - قالَ: قالَ ليَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا عبدَاللهِ لا تكنْ مثلَ فلانٍ كان يقومُ الليلَ فتركَ قيامَ الليلِ**»[1] متفقٌ عليه.

(١) المشكاة ١/ ٣٨٩.

نماذجُ من محافظةِ الصحابةِ على العملِ

فعن عائشةَ أنها كانتْ تُصَلِّي الضُّحىٰ ثمانيَ ركعاتٍ ثم تقولُ: «لَوْ نَشرَني أبَوايَ ما تركتُهَا» أخرجه مالك، وصحح إسنادَه الألبانيُّ[1].

وعن أبي هريرةَ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لبلالٍ عندَ صلاةِ الفجرِ: «**يا بلالُ حَدِّثْني بأرْجىٰ عملٍ عملتَهُ في الإسلام فإني سمعتُ دفَّ نعليْكَ بين يديَّ في الجنةِ**»، قالَ: «ما عملتُ عملاً أَرْجَىٰ عِنْدي أَنِّي لَمْ أتَطَهَّرْ طهورًا في ساعةٍ من ليلٍ ولا نهارٍ إلا صليتُ بذلِك الطُّهورِ ما كُتِبَ لي أن أُصَلِّيَ» متفقٌ عليه[2].

وعن بُريدةَ قالَ: أصبَح رسولُ اللهِ ﷺ فدعا بلالاً فقالَ: «**بِمَ سبَقْتَنِي إلى الجنةِ؟ ما دخلتُ الجنَّةَ قطُّ إلا سمعتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي**» قال: يارسولَ اللهِ، ما أَذَّنتُ قطّ إلا صليتُ ركعتينِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**بهما**» رواهُ الترمذِيُّ[3].

وعنْ عليِّ بنِ أبي طالبٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: «أتانا رسولُ اللهِ ﷺ فوضعَ رجْلَهُ بينِي وبينَ فاطِمَةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - فَعَلَّمَنَا ما نقولُ إذا أخذْنا مضاجعَنَا، فقالَ: «**يا فاطمةُ إذا كنتمَا بمنزلِتكُما فسبِّحَا اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ وَحَمِّدا ثلاثًا وثلاثينَ، وكَبِّرا أربعًا وثلاثين**». قال

(١) المشكاة ١/ ٤٩٣.

(٢) المشكاة ١/ ٤٩٥.

(٣) المشكاة ١/ ٤١٦. وإسناد صحيح على شرط مسلم كما قال الألباني.

عليٌّ: واللهِ ما تركتُها بعدُ. فقال لهُ رجلٌ: كان في نفسِهِ عليهِ شيءٌ، ولا ليلةَ صفينَ؟ قال عليٌّ: «ولا ليلةَ صفينَ» أخرجه الحاكمُ وقال: صحيح على شرط الشيخَيْنِ ولم يخرِجَاهُ، ووافقهُ الذهبيُّ(١).

اللهمَّ اجعلْنا من السابقينَ إلى الخيراتِ، الهاربينَ عن المنكراتِ الآمنينَ في الغُرُفاتِ مع الذينَ أنعمتَ عليهمْ ووقَيْتَهُمُ السيئاتِ، اللهمَّ أعِذْنا من مُضِلاتِ الفِتَنِ، وجَنِّبْنا الفواحشَ ما ظهَرَ منها وما بطَنْ، اللهُمَّ ارزقْنا شكرَ نعمتِكَ وحسنَ عبادَتِكَ، واجعلْنا منْ أهلِ طاعتِكَ وولايَتِكَ، وآتِنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنا عذابَ النارِ واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميع المسلمينَ برحمتِكَ يا أرحَمَ الراحمِينَ، وصلى اللهُ وسلمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

---

(١) المستدرك ٣/ ١٥١.

فصلٌ في قيام الليل

الحمدُ للهِ الحكيمِ الخالقِ الرحيمِ الكريمِ الرازقِ، رفعَ السبعَ الطرائقَ، وثبَّتَ الأرضَ بالجبالِ الشواهقِ أحمدُهُ ما سكتَ ساكتٌ ونطقَ ناطقٌ وأشهدُ أن لآ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ له وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُهُ صلى اللهُ عليه وعلى آلهِ وأصحابِهِ وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

إخواني:

قالَ تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[1].

قالَ الطَّبَرِيُّ - رحمهُ اللهُ -: يقولُ تعالى ذِكْرُهُ لنبيِّهِ محمدٍ ﷺ: ومنَ الليلِ فاسهرْ بِهِ بعدَ نومةٍ يامحمدُ بالقرآنِ نافلةَ لكَ خالِصةً دونَ أُمَّتِكَ.

وعنْ الحسنِ: التَّهجدُ ما كانَ بعدَ العشاءِ الآخرةِ.

قالَ ابنُ جريرٍ: «عسى من اللهِ واجبةٌ ثم قالَ: قالَ أكثرُ أهلِ العلمِ ذلكَ هو المقامُ الذي يقومُهُ ﷺ يومَ القيامةِ للشفاعةِ للناسِ ليُريحَهم ربُّهمْ من عظيمِ ما هُمْ فيهِ من شدَّةِ ذلكَ اليوم».

وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٩.

وكانَ ابنُ عمرَ إذا سُئل عن القنوتِ قالَ: « لا أعلمُ القنوتَ إلا قراءةَ القرآنِ وطولَ القيام».

وقالَ ابنُ عباسٍ: منْ أحبَّ أن يُهوِّنَ اللهُ عليهِ طولَ الوقوفِ يومَ القِيامةِ فليرَهُ اللهُ في ظلمةِ الليلِ ساجدًا وقائمًا يحذرُ الآخرة.

وقال تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1].

قال الحسنُ: إذا رأَيْتَهُم حسبتَهُمْ مرضىٰ وما هم بمرضى.

وقال الضحاكُ: أَما إِنَّهُ ليسَ بالنُّدْبِ في وجوهِهِمْ ولكنَّهُ الصُّفْرةُ.

عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ - رَضِيَ اللهُ عنه -: «**أن رسولَ اللهِ ﷺ طرقَهُ وفاطمةَ بنتَ النبيِّ - عليه السلام - ليلةً، فقالَ: ألا تصلّيانِ؟ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ أنفُسُنا بيد اللهِ، فإذا شاء أن يبعَثَنا بعَثَنَا. فانصرفَ حين قلتُ ذلكَ ولم يُرجِعْ إليَّ شيئًا، ثم سمعتُهُ وهوَ مولٍّ يضربُ فَخِذَهُ وهو يقولُ:** ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[2]»[3].

وعن عبدِاللهِ بنِ سَلامٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: أوَّلُ ما قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ انجَفَلَ الناسُ إليهِ فكنْتُ فيمن جاءَهُ، فلما تأملتُ وجهَهُ واستبنتُهُ، عرفت أن وجهَهُ ليسَ بوجهِ كَذّابٍ، قالَ: فكانَ أولُ ما سمعتُ من كلامِهِ أن قالَ: «أيها الناسُ أَفشُوا السلامَ، وأطعموا الطعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا بالليلِ والناسُ نيامٌ تدخلوا الجنةَ بسلامٍ» رواهُ الترمذيُّ

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٤.
(٣) فتح الباري ٣ ص ١٠.

وقالَ حديثٌ حسن صحيح وصححه الألبانيُّ[1] .

وعن عونِ بنِ عبدِالله قالَ: كانَ قَيِّمٌ لبني إسرائيلَ يقومُ عليهِمْ إذا أَفطروا فيقولُ: لا تأكلُوا كثيرًا فإنكمْ إنْ أكلتُمْ كثيرًا نِمْتُمْ كثيرًا وإنْ نِمْتُمْ كثيرًا صَلَّيْتُم قليلاً .

إذا رُمْتَ أَن تنجوَ من النَّارِ سالمًا ... وتنجُوَ من يوم مَهُولٍ عَصَبْصَبِ

وتحظىٰ بجنَّاتٍ وحورٍ خرائدٍ ... وترفلَ في ثوبٍ من الجدِّ معجبِ

وفي هذِهِ الدُّنيا تعيشُ مُنَعمًا ... عزيزًا حميدًا نائلاً كل مطلبِ

فملَّةُ إبراهيمَ فاسلكْ سبيلَهَا ... هي العروةُ الوثقىٰ لأهلِ التقربِ

وأخلِصْ لمولاكَ العبادةَ راغبًا ... إليهِ منيبًا في العبادةِ مُذْنِبِ[2]

عن عبدِاللهِ بنِ أبي مُلَيْكَةَ قالَ: «صحبتُ ابنَ عباس - رَضِيَ اللهُ عنهما - من مَكَّةَ إلى المدينةِ فكانَ إذا نزلَ قامَ شَطْرًا الليلِ، فسألَهُ أَيُّوبُ: كيفَ كانتْ قراءتُهُ؟ قال: قرأَ ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾[3] فجعل يُرَتِّلُ ويكثرُ في ذلِكُم النشيجَ[4] .

عبادَ اللهِ: إن في الجنَّةِ غُرَفًا يُرىٰ ظاهِرُها من باطِنِها وباطِنُها من ظاهِرِها أعدَّها اللهُ لمن أطعمَ الطعامَ، وأفشىٰ السلامَ، وصلَّى بالليلِ والناسُ نيامٌ.

روى ذلكَ ابنُ حِبانَ عن رسولِ اللهِ ﷺ وصححه الألباني[5] .

---

(١) صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٣ .

(٢) نزهة المشتاق إلى جنة الخلاق ص ١٩ .

(٣) سورة ق، الآية: ١٩ .

(٤) رهبان الليل ص ٣١١ ج .

(٥) صحيح الترغيب ج ١ ص ٢٥٤ .

قال سلمانُ الفارسيُّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -: «حافظُوا على هذِهِ الصلواتِ الخمس، فإنهنَّ كفاراتٌ لهذه الجِراحاتِ ما لم تُصَبِ المقتلَةُ - يعني الكَبائرَ - فإذا صلى الناسُ العشاءَ صدَرُوا على ثلاثةِ منازلٍ:

منهم مَنْ عليهِ ولا لهُ، ومنهمْ مَنْ له ولا عليهِ، ومنهمْ مَنْ لا لهُ ولا عليهِ.

فرجلٌ اغتنَمَ ظلمةَ الليلِ وغفلةَ الناس فركبَ رأسَهُ في المعاصِي فذَلِكَ عليهِ ولا لهُ، ومنهمْ من اغتنمَ ظَلمةَ الليلِ وغفلةَ الناس فقامَ يصلِّي فذلكَ لهُ ولا عليهِ، ومنهمْ من لا لهُ ولا عليهِ. فرجل صلىٰ ثمَّ نامَ فذلِكَ لا لهُ ولا عليهِ، إياكَ والحقحقةُ[1] وعليكَ بالقَصْدِ والدوام»[2].

عبادَ اللهِ: اغتنموا هذا العمرَ في صالح الأعمالِ وتسابقوا إلى الخيراتِ وإلى جنةٍ عرضُها الأرضُ والسمواتُ.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]. يقولُ ابنُ رجبٍ - رحمهُ الله - لما سمعَ القومُ هذه الآيات فَهِمُوا أن المراد من ذلكَ أن يجتهدَ كلُّ واحدٍ منهم وأن يكونَ هو السابقَ لغيرِهِ إلى هذِهِ الكـرامةِ، والمسارعَ إلى بلوغِ هذه الدرجةِ العاليةِ، فكانَ أحدُهُمْ إذا

(١) شدة السير.
(٢) رهبان الليل ج ١ ص ٣١٣.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢١.

رأى من يعملُ عملاً يعجزُ عنه خشيَ أن يكون صاحبُ ذَلِكَ العملِ هو السابقَ له فيحزنَ لفوتِ سبْقِهِ، فكانَ تنافسُهُم في درجاتِ الآخرةِ واستباقهُمُ إليها، ثم جاءَ مِنْ بعدِهم قومٌ فعكسوا الأمرَ فصارَ تنافسهُمُ في الدنيا الدنيئةِ وحظوظِهَا الفانيةِ.

قال الحسنُ: إذا رأيتَ الرجلَ ينافِسُكَ في الدُّنيا فنافِسْهُ في الآخرةِ.

وقالَ - رحمَه اللهُ -: منْ نافسكَ في دينكَ فَنافِسْهُ، ومن نافسكَ في دنياك فألقها في نحرِهِ. وقال وهيب بن الوَرْدِ: «إن استطعت ألاَّ يسبقَكَ إلَى الله أحدٌ فافْعَلْ»، وقالَ بعضُ السَّلَفِ: «لَوْ أن رجلاً سمعَ برجلٍ أطوعَ منهُ، فانصَدعَ قلبُهُ فماتَ لم يكنْ ذلِكَ بعجَبٍ».

وقال رجلٌ لمالكِ بن دينارٍ: «رأيتُ فيما يرى النائِمُ مناديًا ينادِي: الرحيلَ الرحيلَ! فما رأيتُ أحدًا يرتَحِلُ إلاَّ محمدَ بنَ واسعٍ فصاحَ مالكٌ وغُشِيَ عليهِ».

قيل لبعض المجتهدينَ في الطاعاتِ: لِمَ تعُذِّبُ هذا الجسدِ؟

قالَ: كرامَتَهُ أريدُ.

وإذا كانت النفوسُ كبارًا تَعِبَتْ في مرادِهَا الأجسامُ

صاحبُ الهمَّةِ العاليَةِ، والنفس الشريفةِ التوَّاقةِ لا يرضىٰ بالأَشْياءِ الدنيئةِ الفانيةِ، وإنما هِمَّتُهُ المسَابَقةُ إلى الدرجاتِ الباقيةِ.

قال عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: «إنَّ لي نفسًا توَّاقةً، ما نالتْ شيئًا إلا تاقتْ إلى ما هو أفضلُ منهُ، وإنَّها لمَّا نالتْ هذهِ المنزلةَ - يعني

الخلافةَ - وليسَ في الدنيا منزلةٌ أَعْلى مِنْها، تاقتْ إلى ما هو أعلىٰ منها - يعني الآخِرَةَ -».

وجاءت مولاةٌ لعمرَ بنِ عبدِالعزيزِ فقصّتْ أنها رأتْ في المنامِ كَأَنَّ الصراطَ قد نُصِبَ على جهنَّمَ وهي تزفرُ على أهَلِها، وذكرتْ أنها رأتْ رجالاً مرُّوا على الصراطِ فأخذتْهم النارُ، قالتْ: «ورأيتُكَ يا أميرَ المؤمنينَ وقد جيءَ بكَ فوقعَ مغشيًا عليهِ، وبقيَ زمانًا يضطربُ وهي تَصِيحُ في أُذُنِهِ: رأيتُكَ واللهِ قدْ نجوتَ».

أيَا صاحِ هذا الركبُ قد سارَ مسرعًا ... ونحنُ قعودٌ ما الذي أنتَ صانعُ
أترضى بأن تبقى هنالك بعدَهُم ... صريعَ الأماني والغرامُ ينازعُ
على نفسِهِ فَلْيَبكِ من كان باكيًا ... أيذهبُ وقتٌ وهو باللهوِ ضائعُ

يقول ابنُ القيمِ - رحمهُ اللهُ -: «فياعجبًا من سفيهٍ في صورةِ حليمٍ، ومعتوهٍ في مسلاخِ عاقلٍ، آثر الحظَّ الفانيَ الخسيسَ على الحظِّ الباقي النفيسِ. وباعَ جنَّةً عرضُها الأرضُ والسمٰواتُ، بسجنٍ ضَيِّقٍ بينَ أربابِ العاهاتِ والبليّاتِ».

ثم يقولُ عنِ الجنَّةِ: «فياعجبًا لها كيفَ نامَ طالبُها، وكيف لم يسمحْ بمَهْرِها خاطِبُهَا، وكيف طابَ العيشُ في هذِه الدارِ بعدَ سماعِ أخبارِها وكيفَ قرَّ للمشتاقِ القرارُ دونَ معانقةِ أبكارِهَا، وكيفَ قرَّتْ دونَها أعينُ المشتاقينَ، وكيفَ صَبَرتْ عنها أنفسُ الموقنينَ، وكيفَ صدَفَتْ عنها قلوبُ أكثرِ العالمينَ، وبأيِّ شيءٍ تعوّضَتْ عنها نفوسُ المعرِضينَ».

ومن الكلماتِ الجميلةِ لابنِ القيمِ في الفوائدِ: «دَعِ الدنيا فإنها

جيفةٌ والأُسْدُ لا تقعُ على الجيَفِ، هي لا تساوي نقلَ أقدامِكَ إليها فكيفَ تعدُو خلْفَها».

وسألَ سائِلٌ ابنَ الجوزيِّ «أيجوز أن أفسحَ لنَفْسِي في مُباحِ المَلاَهي»؟

فقالَ لهُ: «عندَ نفسِكَ من الغفلةِ ما يكفِيها».

اللهمَّ أيقظْنا من الغفلةِ وطهِّرْ قلوبَنَا من النفاقِ وعيونَنا من الخيانةِ وألسِنَتَنَا من الكذبِ. واغفرْ اللهمَّ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمين برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمدٍ.

الباب الثلاثون

العـــيد

الحمدُ لله الذي تفردَ بالكبرياءِ، وتوحّدَ بالبقاءِ، وتنزهَ بربُوبيتهِ وإلٰهيَّتِهِ عنِ الأشباهِ والنظراءِ والأشكالِ، الملكِ الذي عمَّ كلَّ مخلوقٍ بالفضْلِ والنوَالِ. الجبَّارِ الذي خضعَ كُلُّ متجَبِّرٍ لعظيمِ سُلْطانِهِ، المطَّلِعِ علىَ ظاهرِ العَبْدِ وسريرتهِ، يُسبِّحُ الرعدُ بحمدهِ والملائكةُ من خيفتِهِ، قَبلَ مِنْ عبادهِ اليسيرَ منَ العملِ، وغفرَ لهم الكثيرَ من الزَّلَلِ، فسبحانَهُ مِنْ إلٰهٍ أتمَّ على عبادهِ النعمةَ، وكتبَ على نفسهِ الرّحمةَ، أَحْمدُهُ وأشكُرُهُ علىَ أنْ هدانا للإسلامِ ومَنَّ علينَا بالصيامِ والقيامِ، وأُصلي وأُسلِّمُ على رسولِهِ محمدٍ بنِ عبدِاللهِ وعلى آلهِ وأَصْحابِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

إخواني: إن شهرَ رمضانَ قَرُبَ رحيلُهُ وأَزِفَ تحويلُهُ وإنهُ شاهدٌ لكُم أو عليكُم بما أودعتمُوهُ منَ الأعمالِ، فمَن أودعهُ عملاً صالحًا فيلحمدِ الله على ذلِكَ، وليَبْشِرْ بحُسنِ الثوابِ، فإن الله لا يُضيعُ أجرَ من أحسنَ عملاً، ومن أودَعَهُ عملاً سيئًا فليتُب إلى ربهِ توبةً نصوحًا فإنَّ الله يتوبُ على من تابَ، ولقد شرعَ اللهُ لكم في خِتَامِ شهرِكُمْ عباداتٍ تَزِيدُكُم من اللهِ قُربًا، وتزيدُ في إيمانكم قوةً في سِجلِّ أعمالِكمْ حسناتٍ، فشرعَ اللهُ لكم زكاةَ الفطرِ وتقدمَ الكلامُ عليها مفصَّلاً، وشرع لكمْ التكبيرَ عند إكمالِ العِدَّة مِن غُروبِ الشمسِ ليلةَ

العيدِ إلى صلاةِ العيدِ. قالَ تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]. وَصِفَتُهُ: أن يقولَ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ وللهِ الحمدُ، ويُسَنُّ جَهرُ الرجالِ بهِ في المساجدِ والأسواقِ والبيوتِ إعلانًا بتعظيمِ اللهِ وإظهارًا لعبادتهِ وشكرِهِ وتُسِرُّ بهِ النساءُ لأنهنَّ مأموراتٌ بالتَّسَتُّرِ والإسرارِ بالصوتِ، ما أجملَ حالُ الناسِ وهم يكبِّرونَ اللهَ تعظيمًا وإجلالاً في كلِّ مكانٍ عندَ انتهاءِ شهرِ صومِهم، يملأونَ الآفاقَ تكبيرًا وتحميدًا وتهليلاً، يرجونَ رحمةَ اللهِ ويخافونَ عذابَهُ، وشرعَ اللهُ سبحانهُ لعبادِهِ صلاةَ العيدِ يومَ العيدِ وهيَ من تمامِ ذكرِ اللهِ - عزَّ وجلَّ - أمرَ رسولُ اللهِ ﷺ بها أمَّتَهُ رجالاً ونساءً. وقدْ أمرَ النبيُّ ﷺ النساءَ أن يَخْرُجْنَ إلى صلاةِ العيدِ، معَ أن البيوتَ خيرٌ لهنَّ فيما عدا هذهِ الصلاةِ وهذا دليلٌ على تأكيدِها.

قالت أمُّ عطيةَ - رَضِيَ اللهُ عنها -: أمَرَنَا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نُخْرِجَ في الفطرِ والأضحى، العواتقَ والحيَّضَ وذواتِ الخُدورِ، فأما الحيَّضُ فيعتزِلْنَ المصلَّى ويشهدنَ الخيرَ ودعوةَ المسلمينَ. قلتُ: يارسولَ اللهِ: إحْدَانا لا يكونُ لها جلْبابٌ، قالَ: «**لِتُلْبِسْها أُختُها من جِلبابِها**» متفق عليه[2]. الجلبابُ لباسٌ تلتَحِفُ فيهِ المرأةُ بمنزلةِ العبَاءَةِ.

ومن السُّنةِ أن يأكُلَ قبلَ الخروجِ إلى الصلاةِ في عيدِ الفطرِ تمراتٍ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

(٢) البخاري ٢/ ٤٦٣، مسلم ح ٨٩٠ في صلاة العيدين.

وترًا ثلاثًا أو خمسًا أو أكثرَ من ذلكَ يَقْطَعُها على وِترٍ لِقولِ أنس بنِ مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -: كان النَّبِيُّ ﷺ لا يغدوُ الفِطْرَ حتَّى يأكلَ تمراتٍ ويأكلُهُنَّ وِترًا. رواه أحمدُ والبخاريُّ.

ويُسنُّ للرَّجُلِ أن يتجمَّلَ ويلبَسَ أحسنَ ثِيابهِ لما في صحيح البخاريِّ عن عبدِاللهِ بنِ عمرَ - رَضِيَ اللهُ عنهما - قالَ: أخذَ عمرُ جُبةً من إستبرقٍ - أي حرير - تباعُ في السوقِ فأتىَ بها رسولَ اللهِ ﷺ فقالَ: يارسولَ الله: ابتعْ هذهِ يعني اشترها تجمَّلُ بها للعيدِ والوفودِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنما هذا لِباسُ منْ لاَ خلاقَ له**»، وإنما قالَ ذلكَ لكونِها حريرًا. ولا يجوزُ للرجلِ أن يَلبسَ شيئًا من الحريرِ أو شيئًا من الذهبِ؛ لأنهما حرامٌ على الذكورِ من أُمَّة محمدٍ ﷺ وأما المرأةُ فتخرجُ إلى العيدِ غيرَ متجمِّلةٍ ولا مُتطيِّبةٍ ولا مُتبرِّجَةٍ ولا سافرَةٍ؛ لأنها مأمورةٌ بالتستُّرِ مَنْهِيَّةٌ عن التبرُّجِ بالزينةِ وعن التطيُّبِ حالَ الخروجِ. ويُؤَدِّي الصلاةَ بخُشُوع وحضورِ قلبٍ، ويُكثِرُ من ذكرِ اللهِ ودعائِهِ، ويرجُو رحمتَهُ ويخافُ عذابَهُ، ويتذَكَّرُ باجتماعِ الناسِ في الصلاةِ على صعيدِ المسجدِ اجتماعَ الناسِ في المقامِ الأعظمِ بين يدي اللهِ - عزَّ وجلَّ - في صعيدِ يوم القيامةِ، ويرىٰ إلى تفاضُلِهِمْ في هذا المجتمَع فيتذَّكرُ به التفاضلَ الأكبرَ في الآخرَةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1]. وليكنْ فَرِحًا بنعمةِ اللهِ عليهِ بإدْراكِ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢١.

رمضانَ وعملِ ما تيسَّرَ فيهِ من الصلاةِ والصيامِ والقراءةِ والصدقةِ وغيرِ ذلكَ من الطاعاتِ، فإن ذلكَ خيرٌ من الدنيا وما فيهَا ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1]. فإنَّ صيامَ رمضانَ وقيامَهُ إيمانًا واحتسابًا من أسبابِ مغفرةِ الذنوبِ والتخلُّصِ من الآثامِ، فالمؤمنُ يفرحُ بإكمالِ الصومِ والقيامِ، لتخلُّصِهِ بِهِ منَ الآثامِ، وضعيفُ الإيمانِ، يفرحُ بإكمالِهِ لتخلُّصِهِ من الصيامِ الذي كانَ ثقيلاً عليه، ضائقًا به صدْرُهُ، والفرقُ بينَ الفريقينِ عظيم[2].

عبادَ اللهِ: إن لكلِّ أمَّةٍ عيدًا، فللمسلمينَ أعيادُهُمْ، ولليهودِ أعيادُهم، وللنصارىٰ أعيادُهم مثلُ عيدِ «الكِريسْمِسْ»، وللوثنيين أعيادُهم، فالأمَمُ الجاهليةُ المنحرفةُ عَنْ دينِ الإسلام لَهَا أعيادٌ كما أنَّ للمسلمينَ أعيادًا ولا يجوز للمسلم أن يشاركَ أعداءَ اللهِ في أعيادِهم فعنْ أنسِ بنِ مالكٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن النبيَّ ﷺ قدمَ المدينةَ ولهم يومانِ يلعبونَ فيهما فقالَ: **ما هذانِ اليومانِ؟** قالوا: كُنَّا نلعبُ فيهما في الجاهليَّةِ، فقالَ ﷺ: **إن اللهَ قد أبدلكُمْ بهما خيرًا منهما يوَمَ الأضْحَىٰ ويومَ الفِطْرِ**. رواهُ أبو داودَ.

فليسَ في الإسلامِ إلا هذانِ العيدانِ وما عداهُما من الأعيادِ المحدثَةِ كالأعيادِ الوطنيةِ وأعيادِ المولدِ والثوراتِ والاستقلالِ كلُّ ذلكَ ابتداعٌ محرمٌ. قال ابنُ تيميةَ - رحمه اللهُ -: «الأعيادُ شريعةٌ الشرائعِ فيجبُ الاتباعُ لا الإبتداع».

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

(٢) مجالس شهر رمضان للشيخ محمد العثيمين ص ١٥٤.

ويقول فضيلةُ الشيخ محمدُ بنُ عثيمينَ: «عيدُنا معشرَ المسلمينَ ليس عيدَ مُبْتَدِعَةٍ ولا مشركينَ، فالأعيادُ الشرعيةُ ثلاثةٌ: عيدُ الأسبوع وهو يومُ الجُمُعَةِ، وعيدُ الفِطْرِ، وعيدُ النَّحْرِ، وليسَ في الإسلامِ سواها عيدٌ، ليسَ في الإسلام عيدُ الميلادِ، ولا لانتصارِ جيوشٍ وأجنادٍ، ولا لتسلم زمام الملكِ والرئاسةِ على العبادِ، فهذا رسولُ اللهِ ﷺ لم يُقِمْ أصحابُهُ وهو أحبُّ الناس إليهمْ لميلادِهِ عيدًا، وهذه انتصاراتُ المسلمينَ في بدرٍ واليرموكِ والقادِسِيَّةِ وغيرِها لم يُقِم المسلمونَ لها عيدًا، وهذا قيامُ الخلافةِ لأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وأَكْرِمْ بهم قادةً خلفاءَ وولاةً أُمَّنَاءَ لم يُقِم المسلمونَ لقيامِ الخلافةِ فيهم عيدًا، ولو كانتْ إقامةُ الأعيادِ لمثلِ هذه الأمورِ خيرًا لسَبَقَنَا إليهِ مَنْ سبقُونا في العلمِ والعبادةِ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ وأئمةِ المسلمينَ في العلمِ بعدَهُم»[1].

عبادَ اللهِ: إن بعضَ المسلمينَ يشاركونَ النصارىٰ في أعيادِهِمْ وهذا أمرٌ مُحرَّمٌ وإثمُهُ كبيرٌ، فلا يجوزُ مشاركةُ النصارىٰ أو غيرِهِمْ من الكُفّارِ في أعيادِهِم بأيِّ لوْنٍ من المشاركَةِ من كلامٍ أو هَدِيَّةٍ أو عُطْلَةٍ للعملِ. قال عمرُ بنُ الخطابِ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -: «اجتنبوا أعداءَ اللهِ في أعيادِهم»[2].

ويحرمُ صومُ يومَي العيدَينِ لحديثِ أبي سعيدٍ أن النبيَّ ﷺ نهىٰ

(١) الضياء اللامع - خطبة عيد الفطر ص ١٨٢، للشيخ ابن عثيمين.

(٢) البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ٢٣٤، وانظر: كنز العمال الحديث ١٧٣٢، ذكره الشيخ ناصر العقل في كتابه «من تشبه بقوم فهو منهم».

عن صِيَامِ يومينِ: **يومِ الفطرِ ويومِ النحرِ**. متفقٌ عليه.

ويومُ العيدِ يومُ فرحٍ وسرورٍ لأُمَّةِ الاسلامِ ولكن بحدودِ المأذونِ شرعًا، فالإِسلامُ لا يأذنُ لمعتنقِيهِ أن يتلذَّذُوا بالمعاصِي فهو دينٌ يلازمُ معتنقيهِ من الولادةِ حتى الموت ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾[1] في المسجدِ والشارعِ والبيعِ والشراءِ والعملِ وفي يومِ العيدِ وغيرِهِ من الأيام.

عبادَ اللهِ: هل ننظرُ في لباسِ زوجاتِنا وبناتِنا الذي أُعِدَّ للعيدِ؟ وهلْ هو موافقٌ للشرعِ بطولِهِ وسَعَتِهِ أم لا؟ ومن الملاحَظِ أن بعضَ الأُسَرِ تَتَساهلُ في خروجِ البناتِ في يومِ العيدِ، خارجَ البيتِ وقدْ يتجمَّلْنَ بأبهْىٰ حُلَّةٍ، وهُمْ يعتبرونَهُنَّ صغارًا، وهُنّ كبارٌ يؤثِّرنَ في قلوبِ الرجالِ، قالتْ عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها-: «إذا بلغتِ البنتُ التاسعةَ فَهْيَ امرأةٌ».

عبادَ اللهِ: إن العيدَ شكرٌ وليسَ فِسْقٌ فاحفظوا بناتِكُمْ وألزِمُوهُنَّ اللباسَ الشرعيَّ، وكونوا عونًا لشبابِ الأُمَّةِ على حِفْظِ أبصارِهِم.

يقول فضيلةُ الشيخ صالحُ الفوزان: «إن كثيرًا من الناسِ تضيعُ أوقاتُهم بعدَ العيدِ بالسهراتِ والرقَصَاتِ الشعبيةِ واللهوِ واللعبِ وربما تركوا أداءَ الصلواتِ في أوقاتِها أو مَعَ الجماعَةِ، فكَأَنَّهم يريدونَ بذلكَ أن يمحُو أثرَ رمضانَ من نفوسِهِم، إن كانَ له فيها أثرٌ. ويُجَدِّدُوا عَهْدَهُمْ مع الشيطانِ الذي قَلَّ تعامُلُهمْ معَهُ في شَهْرِ

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

رمضانَ، إنّ أولئكَ حَرِيُّونَ ألاَّ يُقْبَلَ منهم رمضانُ؛ لأَنَّ مِنْ شروطِ صِحّةِ التوبةِ العزمُ على عدمِ العودةِ إلى الذنبِ بعدَها. وهؤلاءِ تركوا الذنوبَ تركًا مُؤقتًا ثم عادوا إِلَيْها، وهذا لا يعتبرُ توبةً؛ لأنهم إنما تركُوها لعارضٍ ثم عادوا إليها بعدَ زوالِه»(١).

عبادَ اللهِ: من كانَ عليهِ أيامٌ منْ رمضانَ قَدْ أفطرَها لِعُذْرٍ أو لغيرِ عْذرٍ فَعليهِ المبادرةُ بالقضاءِ إبراءً للذِّمةِ، ومسارعةً للخرُوجِ مِن العُهْدَةِ، وإنجازًا لأَدَاءِ الواجبِ عليهِ، ولا يجوزُ تأخيرُ القضاءِ إلى ما بعدَ رمضانَ من السنَةِ القادِمةِ لغيرِ عذرٍ، فإن فعلَ فعليهِ مع القضاءِ كفارةٌ وهي إطعامُ مسكينٍ عن كل يومٍ مع الإثم. ومن أفطرَ في رمضَانَ لعذرٍ ثم ماتَ قبل أن يتمكَّنَ من القضاءِ فلا قضاءَ ولا كفارةَ عليه لأنهُ لم يصدْر منه تفريطٌ. وإن تمكَّنَ ولم يقضِ فَيُسَنُّ لوليِّه أن يَصومَ عنه. ويُسَنُّ للمسلمِ أن يَصومَ ستَّةَ أيَّامٍ من شوَّالَ فعنْ أبي أيوبٍ الأنصاريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أن النبيَّ ﷺ قال: «**من صامَ رمضَانَ، ثم أتبَعَهُ ستًّا من شوالَ، كان كصيامِ الدهرِ**» رواهُ مسلمٌ.

أيها المسلمون: لقد قُمْنا شهرًا كاملاً نروِّضُ أنفسَنا ونربيهَا على صيامِ النَّهارِ وقيامِ اللَّيلِ، وقراءةِ القرآنِ فهلْ هذه العباداتُ خاصةٌ لرمضانِ؟

عبادَ اللهِ: جاهدوا أنفسكُم على صيام ثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ وصيامِ يومِ عرفةَ ويومِ عاشوراءَ. وعلى الوَترِ قبلَ النومِ وعلى قراءةِ

---

(١) الخطب المنبرية ج ١ ص ١٠٢.

جزءٍ من القرآن كلَّ يومٍ حتى تختمَ القرآن في كل شهرٍ مرةً، وتكونَ على صلةٍ بكتابِ ربِّكَ مهما كانتِ القراءةُ قليلةً، عَنْ أبي هُرَيْرةَ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: «أوصاني خليلي بثلاثٍ: أن أوترَ قبلَ أن أنامَ، وأن أصَليَ ركعتيِ الضُّحَىٰ، وأن أصومَ ثلاثَةَ أيامٍ من كلِّ شهرٍ» رواهُ مسلمٌ.

اللهمَّ تقبلْ صيامَنا واجعلْ شهرَ رمضانَ شاهدًا لنا لا علينا، واغفرْ لنا ولوالدِينا ولجميعِ المسلمينَ، الأحياءِ منهمْ والميِّتينَ، برحمتِكَ يا أرحمَ الراحمينَ، وَصلِّ اللهمَّ على نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلهِ وأصحابِهِ أجمعينَ.

سؤالٌ وجوابٌ للشيخ ابنِ عثيمين

في حكمِ تهنئةِ النصارىٰ بأعيادِهم ومشاركَتِهم فيها



فضيلةَ الشيخ محمدِ بنِ صالح العثيمين:

السلامُ عليكمُ ورحمةُ اللهُ وبركاتهُ.. وبعدُ:

السؤالُ: ما حكمُ تهنئةِ الكفَّارِ بعيدِ «الكريسْمِسْ»؛ لأنهمْ يعملونَ معنا؟ وكيفَ نردُّ عليهمْ إذا حَيَّوْنَا بها؟ وهل يجوُزُ الذهابُ إلى أماكنِ الحَفَلاتِ التي يُقيمونَها بهذِهِ المناسَبَةِ؟ وهل يأثَمُ الإِنسانُ إذا فعلَ شيئًا مما ذُكِرَ بغيرِ قصدٍ وإنما فعلهُ إما مجاملةً أو حياءً أو إحراجًا أو غيرَ ذلكَ من الأسبابِ وهل يجوزُ التشبُّهُ بهمْ في ذلكَ؟ أفتونَا مأجورينَ:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته...

الجواب: تهنئةُ الكفارِ بعيدِ «الكريسمس» أو غيرِه من أعيادِهمُ الدينيةِ حرامٌ بالاتفاقِ كما نَقَل ذلك ابنُ القيم - رحمه اللهُ - في كتابِهِ «أحكامُ أهلِ الذمةِ». حيث قال: وأما التهنئةُ بشعائرِ الكفرِ المختصة به فحرامٌ بالاتفاقِ مثلُ أن يهنئَهُمْ بأعيادِهمْ وصومِهم فيقولُ: عيدٌ مباركٌ عليكَ أو تَهْنأُ بهذا العيدِ ونحوهِ؛ فهذا إن سَلِمَ قائلُهُ منَ الكفْرِ

فهو منَ المحَرَّماتِ وهو بمنزلةِ أن يُهنِّئَهُ بسجودِهِ للصليبِ؛ بل ذلك أعظمُ إثمًا عند اللهِ وأشدُّ مقتًا من التهنئةِ بشربِ الخمرِ وقتلِ النفس وارتكابِ الفرجِ الحرامِ ونحوِهِ. وكثيرٌ ممَّن لا قَدْرَ للدِّينِ عندَه يقعُ في ذلكَ ولا يدرِي قُبْحَ ما فعلَ، فمنْ هنَّأَ عبْدًا بمعصِيَةٍ أو بِدْعةٍ أو كفْرٍ، فقدْ تعرضَ لمقتِ اللهِ وسخطِهِ. انتهىٰ كلامُهُ رحمَهُ اللهُ.

وإنما كانتْ تهنئةُ الكُفَّارِ بأعيادِهِمُ الدينيةِ حرامًا وبهذهِ المثابةِ التي ذكرَها ابنُ القيمِ؛ لأنَّ فيها إقرارًا لما هُمْ عليهِ من شعائرِ الكفرِ ورضىً بهِ لهمْ وإن كان هوَ لا يرضىٰ بهذا الكفرِ لنفسِهِ، لكن يحْرُمُ على المُسْلِمِ أن يرضىٰ بشعائرِ الكفرِ أو يُهنِّىءَ بها غيرَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يرضىٰ بذلكَ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[2]. وتهنِئَتُهُمْ بذلكَ حرامٌ سواءٌ كانوا مشاركينَ للشخْصِ في العملِ أمْ لا.

وإذا هَنَّئُونا بأعيادِهِم، فإنَّنا لا نجيبهُم على ذلكَ؛ لأنها ليستْ بأعيادٍ لنا، ولأنها أعيادٌ لا يرضاها اللهُ تعالى لأنها إما مُبْتَدعَةٌ في دينِهِم وإمَّا مشروعةٌ، ولكنْ نُسِخَتْ بدينِ الإِسلام الذي بعثَ اللهُ بهِ محمدًا ﷺ إلى جميعِ الخلقِ وقالَ فيه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا

(١) سورة الزمر، الآية: ٧.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1]. وإجابةُ المسلمِ دعوتَهم بهذهِ المناسبةِ حرامٌ؛ لأنَّ هذا أعظمُ من تهنئَتِهِم بهَا لِمَا فِي ذلكَ من مشاركتِهِم فيها وكذلكَ يحرمُ على المسلمينَ التشبهُ بالكفارِ بإقامةِ الحفلاتِ بهذهِ المناسبةِ أو تبادلِ الهدايَا أو توزيعِ الحلْوَىٰ أوْ أطباقِ الطعامِ أو تعطيلِ الأعمالِ ونحوِ ذلكَ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**من تشبَّهَ بقومٍ فهو منهُم**». قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ في كتابهِ «اقتضاءُ الصراطِ المستقيمِ مخالفةُ أصحابِ الجحيمِ»: مشابهتُهُم في بعضِ أعيادِهم توجبُ سرورَ قلوبِهِمْ بما هُمْ عليهِ من الباطلِ وربما أطمعَهُم ذلكَ في انتهازِ الفرصِ واستذلالِ الضعفاءِ. انتهىٰ كلامُه.

ومن فعلَ شيئًا من ذلكَ فهو آثمٌ سواءً فعلَهُ مجاملةً أو تودّدًا أو حياءً أو لغيرِ ذَلكَ من الأسبابِ؛ لأنهُ من المداهنةِ في دينِ اللهِ، ومن أسبابِ تقويةِ نفوسِ الكفارِ وفخرِهِمْ بدينِهِمْ.

واللهُ المسئولُ أن يُعِزَّ المسلمينَ بدينِهِم ويرزقَهُم الثباتَ عليهِ وينصرَهُم على أعدائِهِم إنه قويٌّ عزيزٌ.

والحمدُ للهِ ربِّ العالَمين وصلى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلهِ وصَحْبه أجمعينَ.

كتبــــه

محمد الصالح العثيمين

في ٢٥/ ٥/ ١٤١١هـ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨٥.

فتوى في التعامل مع الكفار

للشيخ ابن جبرين

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

سماحةَ الشيخ/ عبدَاللهِ بنَ عبدِالرحمنِ الجبرين عضوَ هيئةِ كبارِ العلماءِ حَفِظَهُ اللهُ:

السلامُ عليكمْ ورحمةُ اللهُ وبركاتهُ.. أما بعدُ:

السؤالُ: ما حكمُ أخذ الأعلامِ الكُفْريةِ التي تمثِّلُ شِعَاراتِ الكفارِ ورفعِها أمامَ المسلمينَ، وما حكمُ تبادُلِ الهدايا مَعَهُم ولَعِبِ الكَرةِ واللهْوِ مَعَهم والتَّوددِ إليهمْ والجلوس والضحِكِ مَعَهم ولُبْسِ أزيائِهم والتَشبُّهِ بِهِم. واللهُ يحفظكم ويرعَاكم.

وعليكمُ السلامُ ورحمةُ اللهُ وبركاتهُ...

الجواب: فقد بيَّنَ العلماءُ المنعَ من هذه الأمورِ كلِّهَا وتحريمهَا، فقد صَنَّفَ شيخُ الإسلام ابنُ تيميةَ - رَحِمَهُ اللهُ - في ذَلِكَ كتابَهُ الكبيرَ «اقتضاءُ الصراطِ المسْتقيمِ مخالفةُ أصحابِ الجحيمِ» وكتبَ في ذَلِكَ أَئمَّةُ الدعْوَةِ.

مثلَ رسالةِ «أوثقُ عُرَى الإيمانِ الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ» ورسالةِ «حكمُ موالاةِ أهلِ الإشراكِ» كلاهما للشيخِ سليمانِ بنِ عبدِاللهِ بنِ الشيخِ محمدٍ - رحمهمُ اللهُ - ومثلَ رسالةِ «بيانُ النجاةِ

والفكاكِ من موالاةِ أهلِ الإشراكِ» للشيخ حمد بن عتيقٍ. وتكلَّمَ على ذَلِكَ الفقهاءُ في كُتبِ الفقهِ في الجهادِ قال في «الروضِ المُرْبع»: ولا يجوزُ تصديرُهمْ في المجالسِ ولا القيامُ لهم ولا بداؤُهُمْ بالسَّلام أو بكيفَ أصبحتَ أو امسيتَ أو حالُكَ ولا تهنئتُهُم ولا تعزيتُهم وعيادتُهم وشهادةُ أعيادِهم، لحديثِ أبي هريرةَ مرفوعًا: «**لا تبدأُوا اليهودَ والنَّصارى بالسَّلام فإذا لقيتمْ أحدَهمْ في الطريقِ فاضْطرُّوهمْ إلى أضْيَقِها**. . » إلخ، وقد سَردَ الشيخُ سليمانُ ابنُ عبدِالله في حُكْم موالاةِ أهلِ الإشراكِ واحدًا وعشرينَ دليلاً من الكتاب والسُّنَّة، منها قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾[1]. ونُقِلَ عنْ عبدِالله بن عتْبةَ قالَ: لِيتقِ أحدُكم أن يكونَ يهوديًّا أو نصرانيًّا وهو لا يشعرُ، وأوردَ ابنُ عتيقٍ بعضَ الآياتِ كقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ﴾[2]. فتبينَ أنَّ موالاةَ المؤمنِ للكافرِ سببُ الافتِتانِ في الدينِ بتركِ واجباتِهِ وارتكابِ حرماتِهِ والخروجِ عن شرائعهِ وسببٌ للفسادِ في الأديانِ والأبدانِ والأموالِ، فأينَ هذا من قولِ أهلِ الفسادِ والمجونِ: إنَّ موالاةَ المشركينَ صلاحٌ وعافيةٌ وسلامٌ. ثم ذكرَ الأمورَ المحظورةَ في ذلكَ ومنها: تركُ اتباعِ أهوائِهِمُ ومعصيتِهم فيما أمَرُوا بهِ لقولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٧٣.

أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾[1]. ومنها: تركُ الركونِ إليهمَ وتركَ مُوَادَّتِهمْ ولو كانوا أقاربَ وتركُ التشبهِ بهمْ في الأفعالِ الظاهرةِ؛ لأنها تُورِثُ محبَّةً في الباطنِ، واسْـتَدَلّ بحديثِ: «**من تَشَـبَّهَ بقوم فهوَ منهمْ**». وبقولِ عمرَ: لا تَعلَّمُوا رطانةَ الأعاجمِ ولا تدخُلُوا على المشركينَ في كنائِسهم يومَ عيدِهم. ا. هـ.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٩.

فصل في أهمية الحياء
وأثره على سلوك المسلم والمسلمة

الحمدُ للهِ الذي كوَّنَ الأشياءَ وأحكمَهَا خلقًا. وفتقَ السمٰواتِ والأرضَ وكانَتا رتقًا، وقسَّمَ بحكمتِهِ العبادَ فأسعدَ وأشقىَ، وجعلَ للسعادةِ أسبابًا فسلكَها مَنْ كانَ أتقىَ، وأشهدُ أن لَّآ إلٰهَ إلَّآ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، مالكُ الرقابِ كلِّها رِقًّا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ أكملُ البشرِ خُلُقًا وخَلْقًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىَ آلِهِ وأصحابِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

فمِنْ أسبابِ السعادةِ للمرءِ أنْ يتَّصِفَ بالحياءِ الذي نوَّهَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ بقولهِ: «**الحياءُ لا يأتي إلا بخيرٍ**». وفي روايةٍ: «**الحياءُ خيرٌ كُلُّهُ**» متفقٌ عليه.

عبادَ اللهِ: إنَّ وجودَ الحياءِ في الإنسانِ يدفعُهُ إلى المحاسنِ ويُبْعِدُهُ عنِ القبائحِ، وإذا زالَ الحياءُ مِنَ الإنسانِ ارتكبَ المعاصيَ والآثامَ في الخلوةِ، وأمامَ الأقاربِ والجيرانِ، قالَ ﷺ: «**إنَّ مِمَّا أدركَ الناسُ من كلامِ النبوةِ الأولى: إذَا لمْ تَسْتَحِ فَافْعَلْ ما شِئْتَ**» رواه البخاريُّ.

والحياءُ شعبةٌ مِنَ الإيمانِ، ولقَدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ شديدَ الحياءِ، يقولُ عنهُ الصحابيُّ الجليلُ أبو سعيدٍ الخدريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ أشدَّ حياءً من العذرَاءِ في خِدْرِها، فإذَا

رأىَ شيئًا يكرهُهُ عَرَفْنَاهُ في وجْهِهِ» متفقٌ عليه.

والعذراءُ البنتُ التي لم يَسبقْ لها نكاحٌ وخِدرُها موضعُها الذي تُصانُ فيهِ عنْ الأعْينِ، يرحمُ اللهُ الصحابيَّ الجليلَ أبا سعيد الخدريِّ يضربُ لنا مثلاً بالبِنْتِ البكرِ كَيفَ لو رآها وقد أُهْمِلَتْ، تَذهَبُ معَ السائقِ وحْدَهَا، وتذهبُ إلى الأسواقِ وتَتَحدَّثُ مع الباعةِ والخيَّاطِينَ ولا فرقَ بينها وبينَ المرأةِ الكبيرةِ في السّنِ، بل إنَّ بعضَ المسلمينَ في العالم الإسلامِيّ تَركُوا بناتِهم يَختَلِطْنَ معَ الرجَّالِ في التَّعْلِيم والعَمَلِ، لأَنهُ قد نُزِعَ منهمْ الحياءُ وَقَلّتْ فيهم الغيرة، وإذا فُقِدَ الحياءُ تدرَّجَ الإنسانُ من سيِّىءٍ إلَى أَسْوإٍ وهَبط مَن رَذِيلةٍ إلى أكبرَ منها، والحياءُ الحقِيقِيُّ هوَ الابتعادُ عمَّا حرَّمَ اللهُ وحِفْظُ الجوارحِ أنْ تُستَعْمَلَ في معصيةِ اللهِ فَهلْ منَ الحياءِ أن تستعملَ البصرَ في النظرِ إلى ما حَرَّمَ اللهُ؟ وهل من الحياءِ أن تستعملَ اللسانَ في الغِيبةِ والنَّمِيمَةِ والكذِبِ وقولِ الزورِ والسبِّ والشتمِ والنيلِ من الآمرينَ بالمعروفِ والناهينَ عنِ المنكرِ؟ وهل منَ الحياءِ أن تستعملَ نِعمةَ السمْعِ في استماعِ المحرماتِ مثل الغناءِ والموسيقَى والغِيبةِ والنميمةِ؟ وهل من الحياءِ أن تستعملَ ما وهبكَ اللهُ من مواهبَ في الشعرِ والقصةِ والرسمِ في نشرِ الرذيلةِ في المجتمع؟

قال ابنُ القيم - رحمهُ الله تَعالى -:

هبِ البعثَ لَم تأتِنَا رُسْلُه   وجَاحِمَةُ النار لم تُضْرَمِ
أَليسَ منَ الواجِبِ المُسْتَحِقِّ   حياءُ العِبادِ من المُنْعِمِ

عبادَ الله : إنه واجبٌ علينَا أنْ نراقبَ اللهَ ونستحِي منهُ في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ.

قالَ الشاعر :

وإذَا خَلَوْتَ بِرَيْبَةٍ في ظلمَةٍ ... والنَّفْسُ دَاعِيةٌ إلى الطُّغْيانِ
فَاسْتَحْي من نظر الإلـهِ ... وَقَل لها إنَّ الذي خَلقَ الظلاَمَ يَرَاني

وقال الآخر :

إذا ما خلوتَ الدهر يومًا ... فلا تقل خلوتُ ولكن قل عليَّ رقيبُ

عن عبدِاللهِ بنِ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «استحيُو من اللهَ حقَّ الحياءِ. قُلْنَا : إنَّا لنَسْتَحْيِي مِنَ اللهِ يَارسولَ اللهِ، والحمدُ للهِ، قالَ: ليسَ ذلكَ، ولكنْ الاستِحْياءَ منَ اللهِ حقَّ الحياءِ أن تَحفظَ الرأْسَ وما وَعَى، والبطنَ وما حوىَ، وتذكرُ الموتَ والبلَى، ومَنْ أَرادَ الآخِرةَ تركَ زِينةَ الدُّنْيَا، وآثر الآخِرَةَ على الأُولى، فَمَنْ فَعل ذلكَ فقَدِ استَحْىَ مِنَ اللهِ حقَّ الحَيَاءِ» رواهُ الترمذيُّ والطبرانيُّ وصححهُ الحاكمُ ووافقهُ الذَّهَبِي.

إنَّ المسلمَ الصادقَ يسْتَحْيِي منَ اللهِ أنْ يَنْتَهِكَ الأَعْراضَ، أو يْنَتهِبَ الأموالَ التي لا تحِلُّ لَهُ، أمَّا من مزَّق حِجَابَ الحيَاءِ عن وجهِهِ فهو جرِيءٌ عَلَى اللهِ وعَلَى محارمهِ مِنْ أَمْوالٍ وأعراضٍ.

قال رسولُ اللهِ ﷺ : «ما كانَ الفُحْشُ فِي شَيْءٍ إلاَّ شانَهُ، وما كَانَ الحياءُ في شَيْءٍ إلاَّ زَانَهُ» رواه أحمدُ والبُخَارِيُّ في الأَدَبِ المُفْرَدِ والترمذيُّ، وقال حديثٌ حسنٌ.

عبادَ اللهِ : جدُّوا لِزرَاعةِ الحياءِ في قلوبِ الأهلِ والأولادِ ، فإنَّهُ إذَا وُجِدَ الحيـاءُ عَظُـمَ عَلَيْهِـمُ المنكـرُ ، واستقْبَحُـوهُ وأَلِفُـوا الخيـرَ وعظَّموهُ ، فلقد مرَّ رسولُ الله ﷺ على رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخاهُ في الحَيَاءِ يقول : إنكَ لتَسْتَحْيِي ، حتَّى كأنَّهُ يقولُ : قَدْ أضرَّ بكَ ، فقالَ رسـولُ اللهِ ﷺ : «**دَعْـهُ فـإِنَّ الحيـاءَ مـن الإيمـانِ**» رواهُ الجمـاعـةُ ، والأصْلُ في المُسْلِمِ مِنْ رَجُلٍ أَو امرأةٍ أنَّهُ يَتَميَّزُ بالحيَاءِ ، والمرأةُ في ذلِكَ أَشَدُّ ، قالَ تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1] .

عبادَ اللهِ : علَيْنا أَلاَّ نُفرِّطَ في هذا الخلقِ العظيم ، فإنَّهُ سَبَبٌ لكلِّ خَيْرٍ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، ولْنكُنْ صادقينَ معَ أنفسِنَا ؛ مَنْ وضَعَ عِندَ اولادهِ وسائلَ الفسادِ والإفسادِ من صورةٍ مُثيرةٍ في مجلةٍ خليعةٍ أو قصةٍ غراميةٍ أو أغنيةٍ تدعو إلى الحبِّ والغَرامِ هل هو يسعىَ لزرعِ الحياءِ في أهلهِ وأولادِهِ بَلْ وفي نفسهِ؟

ثم اعلموا أنَّ اللهَ لا يستحْيِي من الحقِّ فليسَ من الحياءِ قعودُكَ عن مواجهةِ البَاطِلِ ونصرِ المظْلومِ وإنكارِ المْنكَرِ ، وليسَ من الحياءِ تركُ السؤالِ عمَّا خَفِيَ عليكَ منْ أمورِ دينِكَ فإنَّ اللهَ يقولُ : ﴿ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2] . والصحَابِيَّةُ الجليلةُ أُمُّ سُلَيم - رَضِيَ اللهُ عنها - جاءَتْ إلى رسولِ الله ﷺ فقالتْ : يارسولَ اللهِ إنَّ

---

(١) سورة القصص ، الآية : ٥ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٤٣ .

اللهَ لا يستحْيِ من الحقِّ، هلْ عَلَى المرأَةِ من غسلٍ إذا هي احتَلَمَتْ؟ فقالَ رسول الله ﷺ: «نَعم إذا رأتِ الماءَ» رواهُ البخاريُّ[1]. فهل تكونُ أُمُّ سُلَيم قُدوةً لِنسائِنَا في السؤالِ عمَّا جَهِلْنَ منَ الدِّينِ، وربما تنْقَلِبُ المفاهيمُ فَتَسْتَحْيِ المرأةُ أنْ تسألَ عن دِينِها ولكنَّها لا تستحي من الخَلْوَةِ بالسَائِقِ ومخاطَبَةِ الخيَّاطِينَ والبَاعةِ، وربما شاهدُوا شيئًا من جِسْمِها كالذِّراعينِ والنَّحْرِ ولاشكَّ أنَّ هذَا انتكاسٌ في المفاهيم أَعاذَنا اللهُ وذريَّاتِنا وإخوانِنَا المسلمينَ من ذَلِكَ، واعلَمْ أيها المسْلِمُ أنَّ الأمرَ الذي يُعينُ على الخيرِ فإنَّ الأصلَ أنَّهُ لا يُستَحى منهُ قال أنسٌ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -: جاءَتْ امرأةٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تعرضُ عليه نفسَها فقالت: هل لَكَ حاجةٌ فِيَّ؟ فقالت ابنتُهُ: - أي بنتُ أَنَس - ما أقلَّ حياءَها - أي هذهِ المرأةُ التي عرضتْ نفسَها علَى رسولِ اللهِ ﷺ - فقالَ أنسٌ: هي خيرٌ مِنكِ عرَضت نفسَها على رسولِ اللهِ ﷺ. رواهُ البخاريُّ بمعناه.

وأنسٌ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - امتدحَها لأَنها طَلبَتِ الزَّواجَ من خيرِ البشرِيَّةِ، والمرسلِ رحمةً للعالمينَ رسولِ اللهِ ﷺ.

اللهمَّ ارزُقْنَا الخُلدَ في جنَّاتِكَ وأَحِلَّ علينَا فيها رضْوانَكَ وارزُقْنَا لذَّةَ النَّظَرِ إلى وجْهِكَ والشَّوقِ إلى لقائِكَ من غيرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ، اللهمَّ صَلِّ وسلِّمْ وباركْ علىَ عبدِكَ ونبيِّك محمدٍ وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين.

---

(١) فتح الباري ج ١ ص ٣٨٨.

فصل في حكم الغناء وأثره على سلوك المسلم

الحمَدُ للهِ المنفردِ بالجلالِ والبقاءِ والعظمةِ والكبرياءِ، الواحدِ الأحدِ الفردِ الصمدِ، الذي لم يلِدْ ولم يولدْ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولهُ.

أمَّا بعدُ:

عبادَ اللهِ إنَّ الأُسَرَ والعائلاتِ الإسلاميةَ التي كانَ إذا جُهِرَ بينَ أفرادِهَا بِلفظةِ سوءٍ أو بعبارةٍ بذيئةٍ تمعّرَتْ وجوهُ الجالسينَ منهم حياءً وخجلاً، وتفرَّقُوا يبكونَ من الحياءِ، أصبحَتْ بعضُ هذهِ الأُسَرِ تجتَمعُ حَوْل ما يصدرُ منهُ السوءُ ويُقلِّلُ الحياءَ من آلاتِ اللَّهْوِ، بِذكُورِهَا وإنَاثِهَا وهم يطربُونَ لذلكَ فالرَّجُلُ ينظرُ إلى النساءِ الأجنبياتِ ويسمَعُ أصواتَهُنَّ والمرأةُ كذلكَ تنظرُ إلى الرجالِ في هذهِ المسلسلاتِ وتسمعُ الغناءَ منهمْ، ألا يخافُ هؤلاءِ من ربِّ العالمينَ القائل: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1].

قالَ اللهُ تعالى في خِطابهِ لإبليسَ: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾[2]. قالَ ابنُ عباس - رَضِيَ اللهُ عنهُما - صوتُ الشيطانِ: الغناءُ والمزاميرُ واللهوُ. كفَى بالغناءِ والمِزمارِ والموسيقَى قُبحًا أن يكونَ عُدَّةً للشيْطانِ وعتادًا لهُ يُغرِي بهما عبادَ اللهِ على الفِسقِ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

والعِصْيانِ ويَفْتِنُهمْ بهما عنْ عبادةِ اللهِ ويصدهُم عن سبيله . وعندَ قولِ اللهِ تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(١) . يحلِفُ عبدُالله بنُ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - باللهِ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هو ثلاثَ مراتٍ إنّهُ الغناءُ : يعْنِي لهوَ الحديثِ في الآيةِ . ويقولُ مجاهِدٌ : لهوُ الحديثِ الاستماعُ إلى الغناءِ وإلى مثلِه من الباطلِ .

عبادَ اللهِ : هل عَرَفَ الناسُ طِوالَ دهرِهِمْ ثمرةً للغناءِ والموسيقى وسماعِهِ سوىَ ما يُصِيبُ بِهِ قلوبَ أهلِهِ من القسوةِ وأخلاقَهُم من التدَهْوُرِ والفَسادِ لِما تحمِلهُ من دعوةٍ إلى الرذِيلَةِ؟ ومن صفاتِ المؤمنينَ أنهم بعِيدُونَ عن هذَا اللَّغْوِ، قالَ تعالىَ : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾(٢) .

والغناءُ بآلةٍ حرامٌ ولو كانت الألفاظُ التي يُتغَنَىَّ بِهَا من كلِماتِ اللهِ أو أسمائِهِ أو صفاتِهِ، واستماعُ صوتِ الأجنبيَّةِ للتلذُّذِ بهِ حَرامٌ ولو كانَ بالتهْلِيلِ والتكبِيرِ، قالَ ﷺ : «**إنما التصفيقُ للنِّساءِ والتَّسبيحُ للرجالِ**» رواه البخاريُّ، فلم يأذن عليه الصلاةُ والسلامُ للمرأةِ أن ترفعَ صوتَها لغيرِ ضرورةٍ أكيدةٍ، فهي تُصَفِّقُ في الصَّلاةِ إذا حَدَثَ سَهْوٌ في الصَّلاةِ وهي تلَبيِّ في الحجِّ بصوتٍ منخضٍ لا يسمعهُ الرِّجالُ كلُّ ذلكَ مخافةَ الفِتْنَةِ .

ومن المعلوم يقينًا أن الرجلَ الغيورَ الذي يتحلَّى بالمُروءَةِ والشهامةِ والعزةِ والكرامةِ لا يرضىَ بحالٍ لامرأَتِهِ أَنْ تسمعَ غناءَ

(١) سورة لقمان، الآية : ٦ .

(٢) سورة المؤمنون، الآية : ٣ .

أجْنَبيٍّ يُطربُ بصوتِهِ ويصِفُ في غِنائِهِ العِشقَ والحبَّ.

عبادَ اللهِ: إن ما يُسمَعُ اليومَ قد اجتمعَ فيه كلُّ محذورٍ مما لا يجعلُ مؤمنًا واحدًا يتردَّدُ في مَنْعِهِ وتحريمِهِ وذلكَ لأنَّهُ بآلةِ لَهْوٍ وبألفاظٍ خليعةٍ من رجالٍ ونساءٍ. عن أبي مالكٍ الأشعريِّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - أنهُ سَمِعَ النبِيَّ ﷺ يقولُ: «**لَيكُونَنَّ من أُمتي قومٌ يَستَحِلُّونَ الحِرَ والحريرَ والخَمْرَ والمعازِفَ**» رواهُ البخاريُّ معلقاً. والمعازفُ: آلاتُ اللهو من طبل وغيرِهِ. وعن عبدِاللهِ بنِ عُمرَ- رَضِيَ اللهُ عنهُما - أن النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى حرَّم على أُمَّتي الخمرَ والْميسرَ والكَوْبَةَ والغُبيراءَ وكلُّ مُسكرٍ حرامٌ**» رواه الإمامُ أحمد وصححه الألبانيُّ[1] والكوبةُ آلةٌ منْ آلاتِ الطربِ.

عبادَ اللهِ: لقد ارْتَكَبَتْ أمَّةُ الإسلامِ بالأَنْدَلُس ما حَذَّرَ منهُ المصطفى ﷺ فاتَّخَذَتِ القيْناتِ والمعازفَ وأسرفَتْ في ذلكَ، وأصبحتْ تَصرِفُ الأموالَ الطائِلَةَ في هَذَا السبيلِ فالدورُ والبساتينُ تُوقَفُ على الموسيقىَ، وأصبحَ المرْضَى يعالَجُونَ في المستشفياتِ بالموسيقى، فحلّ بهم بلاءٌ استأصَلَ شأْفَتَهُم ولم يُبْقِ منهُم أحدًا ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[2]. سألَ ابنُ القاسم شيخَهُ الامامَ مالكَ عنِ الغناءِ فأجابهُ قائلاً: قال الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾[3] أفحقٌ هوَ؟

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٧٠٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣٢.

سُئِلَ مرَّةً فقالَ : إنما يفعَلُهُ عندنَا الفُسَّاق .

ومن أحكام مالكٍ الفقهيَّةِ أن الرجلُ إذا اشتَرَى جاريةً فَوَجَدَهَا مُغَنِّيَةً كان لهُ ردُّها بهذا العَيْبِ، وسُئِل الشافعيُّ - رحمهُ اللهُ - عن الرَّجلِ تكونُ لَهُ القَيْنَةُ فيجمَعُ أصحابَهُ لتُسمِعَهُم الغناءَ فقال : هذه ديَّاثَةٌ وصاحبُ هذهِ الجارية ديُّوثٌ، والرسولُ ﷺ يقولُ : «**لا يدخُلُ الجنةَ ديُّوثٌ**» رواه أحمدُ والبيهقيُّ والحاكمُ وقال صحيحُ الإسنادِ ووافقهُ الذَّهبيُّ، وأبو حنيفةَ - رحمهُ اللهُ - يرى الغِناءَ من الذنوبِ التي يجبُ تركها والابتعادُ عنها وتجبُ التوبةُ منها فورًا، قال أصحابُ أبي حنيفة في المارّ يسمعُ الغناءَ يجبُ عليهِ أن يجتهدَ في أن لاَّ يَسمَعَهُ .

والإمامُ أحمدُ - رحمه اللهُ - كغيره من الأئِمَّةِ يَرى حُرمَةَ الغِنَاءِ، وقَدْ سَأَلَهُ مرَّةً ولدُهُ عبدُالله عن الغِنَاءِ فقال : الغناءُ يَنْبُتُ النفاق في القلبِ فلا يُعجِبُنِي .

ويقولُ الإمامُ ابنُ القيم - عليهِ رحمةُ اللهِ تعالَى - فِيمَنْ يُسمَعُ مِنْ بيتهِ الغناءُ قالَ : ويتقدمُ إليه الإمامُ إذا سَمعَ ذَلِكَ من دارهِ فإن أصرَّ حبسَهُ أو ضرَبهُ سياطًا، وإن شاءَ ازعجَهُ عن دارِه .

ويقولُ الفُضيلُ بن عياضٍ : الغناء رُقيةُ الزنَا . أي الموصِّلُ إليه .

عبادَ اللهِ : هذا حكمُ حُماةِ الإسلام وأنصارِ الشريعةِ وأمناءِ الأُمةِ، مالكٍ، والشافعيِّ، وأبي حنيفةَ، وأحمدَ، وابنِ القيم - رحمةُ اللهِ عليهِمْ أجمعين - وهو حُكمٌ واضحٌ صريحٌ في منعِ الغناءِ وتفسيقِ

فاعِلِه، والمستمع إليهِ. يقولُ ابنُ القيمِ رحمه الله تعالى: «ولا ينبغي لمِن شمَّ رائحةَ العلمِ أن يتوقفَ في تحريمِ ذلك فأقلُّ ما فِيهِ: أنهُ شعارُ الفُسّاقِ وشاربِي الخُمورِ».

وقال أيضاً عن الغناءِ: «فإنهُ رُقيةُ الزنَا، ومنبتُ النفاقِ، وَشَرَكُ الشيْطانِ، وخَمرةُ العقلِ، وصدُّهُ عنِ القرآنِ أعظمُ من صدِّ غيرِهِ من الكلامِ الباطلِ، لشدةِ ميلِ النفوسِ إليه ورغبَتِهَا فيه».

نعم إنه خمرُ العقولِ ولذَلِكَ يقولُ الشاعر:

إن لم يكن خمرَ الجسومِ فإنَّهُ ... خمرُ العقولِ مماثِلٌ ومُضاهِي
فانظر إلى النشوانِ عندَ شرابهِ ... وانظُر إلى النسوانِ عند ملاهِي

عبادَ اللهِ: جنِّبُوا الغناءَ والموسيقىَ والملاهيَ أولادكُم ونساءكُمْ فإنَّهُ مَجْلبةٌ لكل شرٍّ، وأنتَ أيها المدرِّسُ إنه واجبٌ عليكَ أن تحذِّرَ تلاميذَكَ من ذلِكَ فإنَّهُ مرضٌ لقلوبِهِمْ، كتبَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ إلَى مُؤدِّبِ ولدِهِ: «ليكنْ أولَ ما يعتقدونَ من أدبكَ بغضُ الملاهِي التي بَدْؤُهَا مِن الشَّيْطَانِ، وعاقبتُها سَخَطُ الرحمنِ. فإنهُ بلَغَني عن الثِّقَاتِ مِنْ أهْلِ العلمِ أن صوتَ المعازفِ واستماعَ الأغانِي واللَّهجَ بها يُنبتُ النفاقَ في القلبِ كما يَنْبُتُ العُشْبُ في الماءِ».

وقال يزيدُ بن الوليدِ: «يا بني أُمَيَّةَ، إيَّاكُمْ والغِناءَ، فإنه يُنقِصُ الحياء، ويزيدُ في الشهْوَةِ ويهدِمُ المروءَةَ، وإنه لينوبُ عن الخمرِ، ويفعلُ ما يفعلُ السُّكْرُ، فإن كنتمُ لابدَّ فاعلينَ فجنِّبُوهُ النساءَ. فإنَّ الغِناءَ داعيةُ الزنَا».

ونَزَلَ الحُطَيئَةُ برجلٍ من العربِ، ومعهُ ابنتُهُ مُلَيْكَةُ، فلما جنّ الليلُ سمعَ غناءً، فقالَ لصاحبِ المنزلِ: كُفَّ هذَا عنّي، فقالَ: وما تكرهُ مِنْ ذَلِكَ؟ فقالَ: إن الغِناءَ رائدٌ من رَادَةِ الفُجورِ، ولا أحبُّ أن تسمعَهُ هذِه، يعني ابنتَهُ، فإن كففتَهُ وإلا خَرجتُ عنكَ. فإذا كان الحُطَيئةُ لا يرضىَ أن تسمعَ ابنتُهُ الغِناءَ فكيفَ نرضىَ لبناتِنَا أن يسمعْنَ.

وهذا سليمانُ بنُ عبدِالملكِ سَمعَ غناءً في مُعسكَرِهِ من الليلِ فأرسلَ إليهم بُكرةً، فجيء بِهِمْ فقالَ، إن الفرسَ ليصهَلُ فتستَودِقُ لهُ الرّمكةُ، وإن الفَحْلَ لَيهدُرُ فتضبَعُ لَهُ الناقَةُ، وإن التَّيْسَ لينَبَ فتستحرمُ له العنزُ، وإن الرجلَ ليغَنِّي فتشتاقُ إليه المرأةُ، ثم قالَ أَخْصُوهُم، فقالَ عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ: هذه مُثْلَةٌ، ولا تحِلُّ، فخلّ سبيلهم فَخَلَّى سبيلهم.

قالَ ابنُ القيم - رحمهُ الله -: «ولا ريبَ أن كلَّ غيورٍ يُجَنِّبُ أَهْلَهُ سماعَ الغناءِ، كما يُجَنِّبُهُنَّ أسبابَ الرِّيَبِ، ومَنْ طَرقَ أَهْلَهُ إلى سماعِ رقيةِ الزنَا فهو أعلمُ بالإِثمِ الذي يستحِقُّهُ. فلعمرُ اللهِ كم من حُرَّةٍ صارتْ بالغناءِ من البغايَا، وكم من حُرٍّ أصبحَ بهِ عبدًا للصِّبْيَانِ والصبايَا، وكم من غَيورٍ تبدَّلَ بهِ اسمًا قبيحًا بين الْبرَايَا، وكم من ذِي غِنىً وثروةٍ أصبحَ بِسَبَبِهِ على الأرضِ بعدَ المطارفِ والحشَايَا، وكم أهدىَ للمشغُوفِ بهِ أشجانًا وأحزانًا، فلم يجدْ بُدًّا من قَبولِ تلكَ الهدايَا. وكم جرَّ مِن غَصَّةٍ وأزالَ من نِعمةٍ، وَجَلبَ مِن نِقمةٍ، وذلكَ

منهُ من إحدىَ العطايَا. وكم خبَّأ لأهلهِ من آلامٍ منتظرةٍ، وغُمومٍ متوقعَةٍ وهمومٍ مستقبلةٍ».

عبادَ اللهِ: إنهُ لو لم يكنْ هناكَ نصٌ من كتابٍ أو سنَّةٍ يُحرِّمُ الغناءَ لاعتبرنَا الغناءَ في هذا الزمانِ حَرامًا بموجبِ أُصولِ الإسلامِ التي بُنيتْ على جلبِ المصالحِ ودرءِ المفاسدِ.

أيُّها المسلمونَ: هل يَجوزُ بعدَ هذا لمؤمنٍ باللهِ ورسولهِ أن يقولَ عن الغناءِ الذي يعرفُهُ الناسُ اليومَ أنه مباحٌ حلالٌ؟!

وهل يجوزُ لِمُؤمنٍ يحترمُ نفسَهُ ويَسْتَبْرِىءُ لِدينهِ وعِرضِهِ أن يَعدِلَ عَنْ هذا النَّهجِ القويمِ وهذا الطريقِ الواضحِ إلى مَسْلَكٍ أعوجَ يكونُ سببًا لدخولِ النارِ؟!

فاتقوا اللهَ في أَنفُسِكُم واتَّقُوا الله في أُسَرِكُم، وتُوبُوا إلى ربِّكُم فإنْكُم في شهرِ التّوبَةِ والغُفْرَانِ والعِتْقِ مِنَ النِّيرانِ، فإنكم مسئُولونَ عن أنفُسِكُم وعن بيوتكِمُ. قالَ ﷺ: «**والرَّجُلُ راعٍ في بيتهِ ومسئولٌ عنَ رعِيَّتِهِ**». واعلمْ أنكَ سوف تُسألُ عن نفسكَ وعن ذُرِّيَّتِكَ في يومٍ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاَّ من أتىَ اللهَ بقلبٍ سليمٍ، في يومٍ رهيبٍ وَصَفَهُ اللهُ بقولِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. فاتقوا اللهَ عبادَ اللهِ وتوبوا إلى ربِّكم فإنَّهُ يُحِبُّ التوابينَ ويحبُّ المتَطَهِّرينَ ويفرحُ بتوبةِ التائبينَ.

عبادَ اللهِ: إنَّ المعَاصِيَ والمنكراتِ تؤذِنُ بخرابِ البلادِ وهلاكِ

سورة عبس، الآيات: ٣٤-٣٧.

العبادِ فهي عذابٌ في الدُّنيا والآخرَةِ.

فلماذا أُغرقَ قومُ نوحٍ وخُسِفَ بقارونَ؟ ولماذا أُمْطِرتْ حجارةٌ من السماءِ على قومِ لوطٍ؟ ولماذا أُغْرِقَ فِرعونُ وجُنودُهُ في اليمِّ؟ ولماذَا عُذِّبَ قومٌ بالجرادِ والقُمَّلِ والضفادعِ والدَّمِ؟ ولماذا عُذِّبَ المشركونَ يومَ الأحزابِ بالريحِ وعُذِّبَ بها قومُ عادٍ فكانوا كأعجازِ نخلٍ خاويةٍ؟

اللهمَّ آمنْ روعاتِنَا، واستُرْ عوراتِنَا، واحفظنَا من بين أيدينَا ومن خلفِنَا ونعوذُ بعظمتكَ أن نُغتالَ من تحتِنا، اللهمَّ ارزُقْنَا شُكركَ ووفْقنَا لاستعمالِ جوارِحنَا بما يرُضِيكَ عنَّا، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وأصحابِه أجمعينَ.

حكم الغناء[1]

سماحةَ الشيخ عبدَالعزيزِ بنَ بازٍ - سلَّمهُ الله - السلامُ عليكُم ورحمةُ اللهِ وبركاتهُ:

السؤال: ما حُكمُ الأغانِي هل هي حرامٌ أم لا، رغمَ أنِني أسمَعُها بقصْدِ التَّسْلِيَةِ فقط؟ وما حكمُ العزفِ على الربابةِ والأغاني القديمةِ؟ وهل القرعُ على الطبلِ في الزواجِ حرامٌ على الرغمِ من أنني سَمِعتُ أنها حلالٌ ولا أدري؟ وأثابكمُ اللهُ وسدَّدَ خطاكُم.

الجواب: إنَّ الاستماعَ إلى الأغانِي حرامٌ ومنكرٌ، ومِنْ أسبابِ مرضِ القلوبِ وقسْوَتِهَا وصدِّهَا عنْ ذكرِ اللهِ وعن الصَّلاةِ. وقد فسرَّ أكثرُ أهلِ العلمِ قولَهُ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾[2] بالغناءِ. وكان عبدُاللهِ بنُ مسعودٍ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - يُقسِمُ على أنَّ لهوَ الحديثِ هو الغنَاءُ. وإذا كانَ مع الغِناءِ آلةُ لهوٍ كالربابةِ والعودِ والكمانِ والطبلِ صارَ التَّحريمُ أشدُّ. وذكرَ بعضُ العلماءِ أن الغِناءَ بآلةِ لهوٍ محرَّمٌ إجماعًا. فالواجبُ الحذرُ من ذلكَ وقد صحَّ عنْ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهُ قالَ: **«ليَكونَنَّ مِنْ أمَّتِي أقوامٌ يَستَحلُّونَ الحِرَ والحرِيرَ والخمْرَ والمعازِفَ»**. والحِرُ هو الفرجُ الحرامُ - يعني الزنَا - والمعازفُ هي الأغانِي وآلاتُ الطربِ. وأوصيكَ وغيرَكَ

---

(١) مجلة الدعوة العدد (٩٠٢) شوال ١٤٠٣هـ.

(٢) سورة لقمان، الآية: ٦.

بسماع إذاعةِ القرآنِ الكريمِ وبرنامج «نورٌ على الدربِ» فَفيهما فوائدٌ عظيمةٌ، وشغلٌ شاغلٌ عن سماع الأَغَانِي وآلاتِ الطَّربِ.

أما الزَّواجُ فُيشرعُ فيهِ ضرْبُ الدُّفِّ مع الغناءِ المعتادِ الذي ليْسَ فيهِ دعوةٌ إلى مُحرَّمٍ ولا مدحٍ لمُحَرَّمٍ في وقتٍ من اللَّيلِ للنِّسَاءِ خاصةً لإعلانِ النكاحِ والفرقُ بينهُ وبينَ السِّفَاحِ كمَا صحَّتِ السنَّةُ بِذلِكَ عن النَّبيِّ ﷺ.

أما الطَّبْلُ فلا يجوزُ ضرْبُهُ في العُرسِ، بل يُكتَفَي بالدُّفِّ خاصَّةً.

ولا يجوزُ استِعْمالُ مُكَبِّرَاتِ الصوتِ في إعلانِ النِّكاحِ وما يقالُ فيهِ من الأغانِي المعتادَةِ لمَا فِي ذلِكَ من الفِتْنَةِ العظِيمَةِ والعواقِبِ الوخِيمَةِ وإيذَاءِ المُسْلِمينَ ولا يجوزُ أيضًا إطالةُ الوقْتِ في ذَلكَ بل يُكتفَى بالوقتِ القليلِ. الذي يحصلُ بهِ إعلانُ النِّكاحِ لأَنَّ إطالةَ الوقْتِ تُفضِي إلى إضاعةِ صلاةِ الفجْرِ والنَّوم عَنْ أَدائِهَا في وقْتِها وذِلكَ من أَكْبَرِ المحرَّماتِ ومنْ أعمالِ المنافِقِينَ.

حكمُ تعليقِ الصور

سؤالٌ: ما حكمُ تعليقِ الصورِ في المنازلِ وفي غيرِهَا؟

عبدالله . ع - الرياض

الجوابُ: حكمُ ذلكَ التَّحْرِيمُ إِذَا كانَتِ الصّورُ من ذواتِ الأرواحِ من بني آدمَ أو غيرِهِمْ لقولِ النَّبيِّ ﷺ لعَليٍّ - رَضِيَ اللهُ عنهُ - : «**لَا تَدَعْ صورةً إلا طَمَسْتَهَا ولا قبْرًا مُشْرَفًا إلا سوَّيْتَهُ**» رواهُ مسلمٌ في صحيحِهِ. ولِما ثَبَتَ عن عائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - أنها عَلَّقَتْ على سهْوَةٍ لها سِترًا فيهِ تَصَاوِيرُ فلما رآهُ النَّبيُّ ﷺ هتكَهُ وتَغَيَّرَ وَجْهُهُ ﷺ وقالَ: «**يا عائشةُ إنَّ أَصْحابَ هذهِ الصّوَرِ يعذَّبُونَ يومَ القِيَامَةِ ويُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا ما خَلَقتُمْ**» أخرجَهُ مسلِمٌ وغيرُه. لكنْ إذا كانتِ الصُّورَةُ في بساطٍ يُمتَهَنُ أو وسادَةٍ يُرتفَقُ بِهَا فلا حَرجَ في ذلِكَ لما ثبَتَ عن النَّبِيِّ ﷺ أنهُ كان على مَوْعِدٍ مِنْ جَبرائِيلَ فلما جَاءَ جَبْرائيلُ امتنعَ عنْ دخولِ البَيْتِ فسألَهُ النَّبيُّ ﷺ فقالَ: إن في البيتِ تِمْثالاً وسِتْرًا فِيهِ تَصَاوِيرُ وكَلْبًا فَمُرْ بِرَأْسِ التِّمْثَالِ أَن يُقْطَعَ وَبِالسِّتْرِ أن يُتَّخَذَ منهُ وِسَادَتَانِ مُنْتَبَذَتانِ تُوطَآنِ وَمُرْ بالكَلْبِ أَنْ يُخَرجَ. فَفَعَلَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَخَلَ جبرَائيلُ عليهِ السلامُ. أخرجَهُ النَّسائِيُّ وغيرُه بإسنادٍ جيِّدٍ. وفي الحدِيثِ المذكورِ أَنَّ الكَلْبَ كانَ جُرْوًا لِلْحَسنِ أو الحسينِ تحتَ نَضَدٍ في البيتِ وقد صحَّ عنِ النَّبِيِّ ﷺ أنهُ قالَ: «**لَا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه صورةٌ ولا كلبٌ**» متفقٌ عليه. وقصةُ جَبْرائيلَ

هَذِهِ تَدُلُّ على أَنَّ الصُورَةَ في البِساطِ ونحْوِهِ لا تمنعُ مِنْ دُخُولِ الملائكَةِ، ومِثْلُ ذلِكَ ما ثَبَتَ في الصحيح عن عائشةَ - رَضِيَ اللهُ عنها - أنها اتخذتْ من السِّتْرِ المذكُورِ وسادةً يَرتَفِقُ بهَا النَّبِيُّ ﷺ.

عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

حكم تارك الصلاة

سؤال: ماذا يفعلُ الرجلُ إذا أمرَ أَهْلَهُ بالصلاةِ ولكنَّهم لم يستمِعُوا إليهِ، هَلْ يسكُنُ معَهَمْ ويخالِطُهُم أمْ يخرجُ من البيتِ؟

جواب: إذا كان هؤلاءِ الأهلُ لا يُصَلُّون أبدًا فإنهمْ كفارٌ. مرتدونَ، خارجونَ عن الإسلام ولا يجوز أن يَسكنَ معهم ولكنْ يجبُ عليهِ أنْ يدْعُوَهم ويُلحَّ ويكرِّرَ لَعَلَّ اللهَ يهْدِيهُمْ؛ لأَنَّ تَارِكَ الصلاةِ كافرٌ - والعياذُ بالله - بدليلِ الكتابِ والسنَّةِ، وأقوالِ الصحابةِ، والنظرِ الصحيح..

أمّا مِن القرآنِ الكريم فقولُه تعالى عن المشركينَ: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[1]. مفهوم الآيَةِ أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَفْعلُوا ذلِكَ فَلَيْسُوا بإخْوَانِكُمْ، ولاَ تَنْتَفِي الأُخُوَّةُ بالمعَاصِي وإن عَظُمَتْ ولكنْ تَنْتَفِي عندَ الخُروجِ عَنِ الإسْلام.

إما السُّنةُ فقولُ النَّبيِّ ﷺ: «**بينَ الرَّجُلِ وبينَ الكُفْرِ والشِّرْكِ تَرْكُ الصَّلاَةِ**»[2]، وقولُه ﷺ في حديثِ بُرَيْدةَ في السُّنَنِ: «**العهدُ الَّذِي بَيْنَنا وبينَهُمُ الصَّلاةُ فمَنْ ترَكَها فَقْد كَفَر**»[3].

أمّا أقوالُ الصحابة: قالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ - رَضِيَ اللهُ عنهُ -:

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣) قال النووي رواه الترمذي في كتاب الإيمان بإسناد صحيح.

«لا حظَّ في الإِسْلَام لِمَنْ تركَ الصلاةَ»، والحظُّ: النّصِيبُ، وَهُوَ هُنَا نَكِرَةٌ في سِياقِ النفْي فيَكُونُ عَامّاً لا نصيبَ قليلاً ولا كثيراً، وقال عبدُالله بنُ شقيقٍ: «كان أصحابُ النَّبيِّ ﷺ لا يرَوْنَ شيئًا من الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كفرٌ غيرَ الصلاة».

أمَّا مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ الصحيح فيقالُ: هل يُعقَلُ أَنَّ رجُلاً في قَلْبِهِ حبّةٌ من خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ يَعْرِفُ عَظمةَ الصلاَةِ وَعِنَايَةَ الله بِهَا ثمَّ يحافِظُ على تَرْكِها؟.. هذَا شيْءٌ لا يُمْكِنُ وقد تأمَّلْتُ الأَدِلَّةَ الَّتِي استَدَلّ بِهَا مَنْ يقُولُ إنه لا يَكْفُرُ، فوجدتها لا تَخْرجُ عَنْ أَحْوَالٍ خَمْسَةٍ:

١ - إمَّا أَنَّها لاَ دَلِيلَ فِيهَا أَصْلاً.

٢ - أَوْ أَنَّهَا قُيِّدتْ بَوصْفٍ يمتنعُ معه تركُ الصَّلاةِ.

٣ - أَوْ أَنَّهَا قُيدتْ بحالٍ يُعذَرُ فِيهَا مَنْ تركَ هذه الصلاةَ.

٤ - أَوْ أَنَّهَا عامةٌ فَتُخَصَّصُ بأحاديثِ كُفرِ تاركِ الصلاة.

٥ - أَوْ أَنَّهَا ضعيفةٌ لا تقومُ بِهَا حُجَّةٌ.

وإذا تبيَّنَ أنَّ تاركَ الصلاةِ كافرٌ فإنَّه يترتَّبُ عَلَيْهِ أحكامٌ:

أولاً: أنه لا يَصِحُّ أن يُزوّجَ فإنْ عُقِدَ له وهو لا يُصَلِّي فالنِّكاحُ بَاطِلٌ ولا تحلُّ لَهُ الزَّوْجَةُ لقوله تعالى عن المُهَاجِرَات: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[1]. وأنه إذا تَرِكَ الصلاة بعد أن عُقِدَ لَهُ فإنّ نِكاحَه يَنْفَسِخُ ولا تحلُّ لَهُ الزوْجَةُ للآية التي ذكرناها سابقًا.

(١) سورة الممتحنة، الآية: ١٠.

ثانيًا: أن هذا لرَّجَلَ الذي لا يُصَلِّي إذا ذَبَح لا تُؤكَلُ ذَبِيحَتُهُ لماذا؟ لأنها حَرامٌ، ولو ذَبَحَ يهوديٌّ أو نصرانيٌّ فذبيحتُهُ يحلُّ لنا أنْ نَأْكلَهَا، فتكونُ «والعياذُ باللهِ» ذبيحَتُهُ أخبثَ من ذبحِ اليهودِ والنصارىٰ.

ثالثًا: أنه لَا يحلُّ أَنْ يَدْخُلَ مَكَّةَ المُكَرَّمَةَ أو حدودَ حَرَمِها لقولِهِ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾[1].

رابعًا: أنَّهُ لَوْ مَاتَ أحدٌ من أقاربِهِ فلا حقَّ لهُ في الميراثِ فلَوْ ماتَ رجلٌ عن ابنٍ لَهُ لا يصُلِّي «الرجلُ المسلمُ يُصَلِّي والابنُ لا يُصَلِّي» وَعَنِ ابنِ عَمٍّ لَهُ بعَيدٍ، فَمَنِ الذي يَرِثُهُ؟ يَرِثُهُ ابنُ عَمِّهِ البَعيدُ دونَ ابنهِ لقولِ النَّبيِّ ﷺ في حديث أسامة: «**لا يرثُ المسلمُ الكافِرَ ولا الكافرُ المسلِمَ**»[2].

خامسًا: أنَّهُ إذَا ماتَ لا يُغسَّل ولا يُكَفَّنُّ ولا يصُلَّىٰ عَلَيْهِ ولا يُدفَنُ مَعَ المُسْلمينَ، فَماذَا نصنَعُ بِهِ؟ نَخْرُجُ بِهِ إلَى الصَّحْرَاءِ ونَحْفِرُ لَهُ وندفنُهُ بثِيَابِهِ؛ لأنهُ لا حُرمةَ لَهُ، وَعلَى هَذَا فلا يَحِلُّ لأحدٍ مَاتَ عِنْدَه ميتٌ، وَهُوَ يَعْلَمُ أنَّهُ لاَ يُصَلِّي أَنْ يُقَدِّمهُ لِلْمُسْلِمينَ يُصَلُّونَ عَليه.

سادسًا: أنَّهُ يُحشرُ يومَ القِيَامةِ مع فِرعْونَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ وأُبَي ابن خلفٍ، أئمةِ الكفرِ «والعياذ بالله» ولا يدْخُلُ الجنَّةَ ولا يَحِلُّ لأحدٍ من أهْلِهِ أنْ يدْعُوَ لَهُ بالرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ، لأَنَّهُ كافِرٌ لا يَستَحِقُّها.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

فالمسألَةُ يا إِخْوَانُ خَطِيرَةٌ جِدًّا. . ومَعَ الأَسَفِ فإنَّ بعضَ النَّاس يَتَهَاوَنُونَ فِي هَذَا الأَمْرِ، ويُقِرُّونَ في البيتِ مَنْ لَا يُصَلِّي. . وهَذَا لا يجوُزُ. والله اعلْمُ وصلى الله على نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبهِ أجمعينَ.

محمد بن صالح العثيمين

فهرس الكتــاب

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة
*** البـاب الثامن عشر:**	
○ بِــرُّ الوالــدين	٢٢٨
*** البـاب الناسع عشر:**	
○ الجهاد في سبيل الله ، فضله وحقيقته	٢٤١
*** البـاب العشرون:**	
○ في فضل ليالي العشر الأواخر من رمضان وليلة القدر والاعتكاف	٢٥٢
*** البـاب الحادي والعشرون:**	
○ سبعة يظلهم الله في ظله يوم القيامة	٢٦٢
– فصل في قيام الليل	٢٧١
*** البـاب الثاني والعشرون:**	
○ القلـوب وأمـراضـهـا	٢٧٨
*** البـاب الثالث والعشرون:**	
○ في ذكر شيء من الفتن	٢٩٦
– فصل في قيام الليل	٣٠٩
*** البـاب الرابع والعشرون:**	
○ كلمة الإخلاص (لا إلٰه إلا الله) ونواقضها	٣١٧
– العمــل بالقــرآن	٣٢٧
*** البـاب الخامس والعشرون:**	
○ فضــل الصحــابة	٣٣٧
– فصل في قيام الليل	٣٤٨
*** البـاب السادس والعشرون:**	
○ وصــف النــار وأهــلها	٣٥٦
– فصل في قيام الليل	٣٧٢
*** البـاب السابع والعشرون:**	
○ الجنــة . . . نعيمـها والطـريق إليها	٣٨٠
– فصل في قيام الليل	٣٩٦

الموضـــــــوع	الصفحة

*****

***

*

كتب مختارة من الناشر للقراءة

١ - العقيدة :

- التوحيد .... محمد بن عبدالوهاب
- الخطوط العريضة .... محب الدين الخطيب
- معارج القبول .... حافظ الحكمي
- العقيدة الواسطية .... ابن تيمية
- مذاهب فكرية معاصرة .... محمد قطب
- سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة .... عمر سليمان الأشقر
- هذه هي الصوفية .... محمد الوكيل
- كيف نفهم التوحيد .... محمد باشميل

٢ - الحديث :

- رياض الصالحين .... للإمام النووي
- صحيح الترغيب والترهيب .... بتحقيق ناصر الدين الألباني
- مختصر صحيح مسلم .... للإمام المنذري
- عمدة الأحكام .... المقدسي
- قبسات من الرسول ﷺ .... محمد قطب

٣ - الفقه :

- فقه السنه .... للشيخ سيد سابق
- منار السبيل .... ابن ضويان
- العدة شرح العمدة .... للمقدسي
- نيل الأوطار .... للشوكاني
- زاد المعاد .... لابن القيم

٤ - التفسير :

- تفسير ابن كثير .... ابن كثير

○ تفسير كلام المنان .... السعدي
○ أضواء البيان .... الشنقيطي
○ فتح القدير .... الشوكاني
○ ظلال القرآن .... سيد قطب

٥ - السيرة والتاريخ :

○ تهذيب سيرة ابن هشام .... عبدالسلام هارون
○ السيرة النبوية دروس وعبر .... مصطفى السباعي
○ الإصابة في تمييز أسماء الصحابة .... ابن حجر

٦ - كتب للمرأة المسلمة :

○ رسالة الحجاب .... الشيخ العثيمين
○ دستور الأسرة في ظلال القرآن .... جمع أحمد فائز
○ الحجاب .... الشيخ المودودي
○ المرأة بين دعاة الإسلام وأدعياء التقدم .... عمر الأشقر
○ حركة تحرير المرأة .... أنور الجندي
○ الأخوات المؤمنات .... منير الغضبان
○ عودة الحجاب .... محمد إسماعيل

٧ - كتب عامة :

○ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .... أبو الحسن الندوي
○ إلى الإسلام من جديد .... أبو الحسن الندوي
○ حصوننا مهددة من داخلها .... د . محمد محمد حسين

*****
****
**

الاقتراحات والملاحظات ترسل باسم

عبدالله بن صالح الفهد القرعاوي

مكتب الدعوة والإرشاد ببريدة

صندوق بريد : ٢٤٩٤

تلفون : ٣٨١٢١٨٨

يطلب من :

مؤسسة المؤتمن

ص . ب : ٦٩٧٨٦ الرياض ١١٥٥٧

الرياض : تلفون : ٤٦٤٦٦٨٨ * فاكس : ٤٦٤٢٩١٩

الدمـــام : تلفون : ٨٢٦٤٢٨٢ * فاكس : ٨٢٦٤٢٨٢

القصـيم : تلفون : ٣٦٤٤٨١٥ * فاكس : ٣٦٤٤٨١٥

جـــدة : تلفون : ٦٨٧٣٥٤٧ * فاكس : ٦٨٧٣٥٤٧